التفسير المحرر

للقرآن الكريم

سورة يونس

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر / طنطا

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد التاسع

الدرر السنية
www.dorar.net

ⓗ مؤسسة الدرر السنية للنشر ، ١٤٣٨هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

مؤسسة الدرر السنية - القسم العلمي

التفسير المحرر - سورة يونس - المجلد التاسع/ مؤسسة الدرر السنية - القسم العلمي - الظهران، ١٤٣٨هـ

٤٣٢ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٨١٥٤-٤٣-٤

١- القرآن - تفسير ٢- القرآن سورة يونس - تفسير أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٣٨/١٥٦٤

رقم الإيداع: ٩٧٨-٦٠٣-٨١٥٤-٤٣-٤

ردمك: ١٤٣٨/١٥٦٤

الطبعة الأولى

١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

مؤسسة الدرر السنية - المملكة العربية السعودية
ص. ب ٣٩٣٦٤ الظهران ٣١٩٤٢ - جوال: ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠
ت: ٠١٣٨٦٨٠١٢٣ /فاكس: ٠١٣٨٦٨٢٨٤٨ - بريد إلكتروني nashr@dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسِيرُ
سُورَةِ يُونُس

سُورةُ يُونُس

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ يُونُس(١).

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ يُونُسَ مَكِّيَّةٌ(٢)، ونقَلَ غَيرُ واحدِ الإجماعَ على ذلك(٣).

---

(١) سُمِّيَت بذلك لذِكْرِها قِصَّةَ يُونُسَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مع قَومِه في قَولِه تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ [يونس: ٩٨] يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٢٣٨)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣).

قال ابنُ عاشورٍ: (والأظهرُ عندي أنَّها أُضيفَتْ إلى يونسَ تمييزًا لها عن أخواتِها الأربعِ المفتتحةِ بـ «الر»، ولذلك أُضيفَتْ كلُّ واحدةٍ مِنها إلى نَبيٍّ أوْ قومِ نَبيٍّ عوضًا عن أنْ يُقالَ: «الر» الأُولَى و«الر» الثَّانيةُ). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٧٧).

وقد وردتْ آثارٌ فيها تسميتُها بذلك: منها ما أخرَجه النحاسُ في ((الناسخ والمنسوخ)) (ص: ٥٢٩)، وأبو الشيخ وابنُ مردويه- كما في ((الدر المنثور)) للسيوطي (٤/ ٣٣٩)- عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: (نزَلَت سورةُ يُونُسَ بمكَّةَ).

ومنها ما أخرجه ابنُ أبي شيبةَ في ((المصنف)) (٣٥٦٦) عَنِ الأحنفِ قالَ: (صليتُ خلفَ عمرَ الغداةَ، فقرأ بيونسَ، وهودٍ، ونحوِهما).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ١٠٢)، ((الهداية)) لمكي القيسي (٥/ ٣٢٠٥)، ((جمال القراء)) للسخاوي (١/ ١٢١)، وممَّا يدُلُّ على كَونِها مكيَّةً ما اشتمَلَت عليه من موضوعات تَميَّزَت بها السُّوَرُ المكيَّةُ؛ مِن تقريرٍ للعَقيدةِ والرِّسالةِ، والنبواتِ، وأخبارِ الأُمَمِ الماضيةِ.

وقيل: إنَّها مكيَّةٌ إلَّا ثلاثَ آياتٍ، مِن قَولِه تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٩٤] إلى آخر الآياتِ الثلاث، فمَدَنيَّةٌ، وقيل: مكيَّةٌ إلَّا قَولَه تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ ...﴾ [يونس: ٤٠] مع الثلاثِ السَّابقة، فمدنيَّةٌ، وقيل: نزل مِن أوَّلها نحوٌ مِن أربعينَ آيةً بمكَّةَ، وباقيها بالمدينةِ.

ينظر ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٣٦٤)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١١٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٢٦))، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٢).

(٣) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك الفيروزابادي، والبقاعي، ومحمد رشيد رضا. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٢٣٨)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٢/ ١٦٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ١١٦).

مقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ سُورةِ يُونُس:

١- تقريرُ أصولِ العقيدةِ، وإثباتُ التوحيدِ والرسالةِ والبعثِ[1].

٢- دفعُ شُبَهِ المشركينَ[2].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ الموضوعات التي اشتَمَلت عليها السُّورةُ:

١- إثباتُ رسالةِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم.

٢- إثباتُ انفرادِ الله تعالَى بالإلهيةِ.

٣- إثباتُ الحشرِ والجزاءِ، والتَّذكيرُ بِمَصيرِ الخَلائِقِ إليه، وانقسامِ البَشَرِ إلى مُؤمِنينَ وكُفَّارٍ، وجزاء كُلٍّ منهم.

٤- توضيحُ عقائِدِ المُشرِكينَ، وموقفِهم من القُرآنِ، مع ذكرِ شُبهِهم والردِّ عليها، وإثباتُ أنَّ القُرآنَ كَلامُ اللهِ.

٥- التذكيرُ بما حلَّ بأهلِ القرونِ الماضيةِ لمَّا أشركوا وكذَّبوا الرسلَ.

٦- الاعتبارُ بما خلَق الله للناسِ مِن القدرةِ على السيرِ في البرِّ والبحرِ، وما في أحوالِ السيرِ في البحرِ من الألطافِ.

٧- ضربُ المَثَل للدُّنيا وبَهجَتِها، وسرعة زوالِها.

٨- ذِكرُ اختلافِ أحوالِ المُؤمِنين والكافرينَ في الآخرةِ، وتبَرُّؤ الآلهةِ الباطلةِ مِن عَبَدتِها، وإبطال إلهيَّةِ غَيرِ الله تعالى.

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ١١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ١١٦)، ((الوسيط)) لطنطاوي (٧/ ١١).

٩- إثباتُ أنَّ القرآنَ منزَّلٌ من عندِ الله، وأنَّ الدلائلَ على بطلانِ أن يكونَ مفترًى واضحةٌ، وتحدِّي المشركين بأن يأتوا بسورةٍ مثلِه.

١٠- إثباتُ عُمومِ العِلمِ لله تعالى، وذِكرُ آثارِ القُدرةِ الإلهيَّةِ الباهِرةِ.

١١- تَبشيرُ أولياءِ الله في الحياةِ الدُّنيا وفي الآخرةِ، وتمييزُهم عن غيرِهم، وتَسليةُ الرَّسولِ عَمَّا يقولُه الكافِرونَ.

١٢- الأمرُ بإظهارِ السُّرورِ والفَرَحِ بالإسلامِ والقُرآنِ.

١٣- تَسليةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بذِكرِ شَيءٍ مِن قِصَّةِ نوح عليه السلام، وقِصَّةِ موسى عليه السلام، وبني إسرائيلَ مع قومِ فِرعونَ، ونجاةِ قَومِ يُونُسَ بإخلاصِ الإيمانِ في وقت اليَأسِ.

١٤- تأكيدُ نبوَّةِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وأَمرُه بالصبرِ على جفاءِ المشركين وأذاهم.

* * *

الآيتان (١-٢)

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ٢﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿قَدَمَ صِدۡقٍ﴾: أي: تَقدِمةَ خَيرٍ مِن الأعمالِ الصَّالحةِ. وكلُّ سَابقٍ في خيرٍ أَو شَرٍّ، فهو عند العَربِ قَدَمٌ. وأصلُ (قدم): يدلُّ على سَبْقٍ، والصِّدقُ يُعبَّرُ به عن كلِّ فعلٍ فاضلٍ ظاهرًا وباطنًا، وكلُّ شيءٍ أُضيفَ إليه فهو ممدوحٌ، وأصلُ (صدق): يدلُّ على قُوَّةٍ في الشَّيءِ قولًا وغيرَه(١).

المَعنى الإجماليُّ:

افتَتَحَ اللهُ هذهِ السورةَ العظيمةَ بالحروفِ المقطَّعة؛ لبيانِ إعجازِ القُرآنِ، فمع أنَّه مُركَّبٌ مِن هذه الحُروفِ العربيَّةِ التي يتكلَّمون بها، إلَّا أنَّهم عاجزونَ عن مُعارَضتِه بالإتيانِ بشَيءٍ مِن مِثلِه، ثمَّ بَيَّنَ تعالى أنَّ تلك الآياتِ الرَّفيعةَ الشَّأنِ، هي آياتُ القُرآنِ الحكيمِ.

ثمَّ قال تعالى: كيف يتعَجَّبُ الكفَّارُ مِن قُريشٍ والعَرَبِ مِن إيحاءِ اللهِ إلى رجُلٍ مِن البشَرِ، أنْ يُنذِرَ جَميعَ النَّاسِ عِقابَ اللهِ على الكُفرِ والمَعصيةِ، ويُبَشِّرَ المُؤمِنينَ بأنَّ لهم أجرًا حَسَنًا؛ بما قَدَّموا من أعمالٍ صالحةٍ، فتعَجَّبَ الكُفَّارُ مِن هذا الرَّسولِ، فقالوا: إنَّه لَساحِرٌ ظاهِرُ السِّحرِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٩)، ((الكنيات)) للكفوي (ص: ٧٠٢).

تَفسيرُ الآيتَين:

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١﴾.

﴿الٓر﴾.

هذه الحروفُ المقطَّعةُ التي افتُتِحَت بها هذه السُّورةُ وغَيرُها، تأتي لبيانِ إعجازِ القرآنِ؛ حيث تُظهِرُ عجْزَ الخَلْقِ عن مُعارَضتِه بمِثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ من هذه الحُروفِ العربيَّةِ التي يتحدَّثونَ بها[1].

﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾.

أي: تلك الآيات الرَّفيعة الشَّأن[2] هي آياتُ القرآنِ المحكَم، المشتملِ على الحكمةِ والأحكامِ[3]، قد أحكَم الله ألفاظَه ومعانيَه، وجعَله حاكمًا بينَ عبادِه؛ يبيِّنُ لهم الحقَّ مِن الباطل، والصَّواب من الخطأ، والحلالَ مِن الحرامِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (١/ ٢٥، ٢٦)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٠٣، ٢٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٧٨، ٨١).

(٢) قال الرازي: (قوله: ﴿تِلْكَ﴾ يحتملُ أن يكونَ إشارةً إلى ما في هذه السورةِ مِن الآياتِ، ويحتملُ أن يكونَ إشارةً إلى ما تقدَّم هذه السورةَ مِن آياتِ القرآنِ). ((تفسير الرازي)) (١٧/ ١٨٣).

وقال ابنُ عاشور: (المختارُ في الحروفِ المقطَّعة في فواتحِ السورِ أن المقصودَ مِن تعدادِها التحدِّي بالإعجازِ، فهي بمنزلةِ التهجِّي للمتعلِّم. فيصحُّ أن يجعلَ (الر) في محلِّ ابتداءٍ، ويكون اسمُ الإشارةِ خبرًا عنه. والمعنى: تلك الحروفُ آياتُ الكتابِ الحكيمِ، أي: مِن جنسِها حروفُ الكتابِ الحكيم، أي: جميعُ تراكيبِه مِن جنسِ تلك الحروفِ. والمقصودُ تسجيلُ عجزِهم عن معارضتِه بأنَّ آياتِ الكتابِ الحكيم كلَّها مِن جنسِ حروفِ كلامِهم، فما لكم لا تستطيعونَ معارضتَها بمثلِها إن كنتُم تكذبونَ بأنَّ الكتابَ منزَّلٌ مِن عندِ الله؟! فلولا أنَّه مِن عندِ الله لكان اختصاصُه بهذا النظمِ المعجزِ دونَ كلامِهم محالًا؛ إذ هو مركبٌ مِن حروفِ كلامِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٨١-٨٢).

(٣) قال الواحدي: (﴿الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ القرآنُ في قولِ أكثرِ المفسِّرينَ). ((البسيط)) (١١/ ١١٦).

(٤) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١١٦)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ١٨٣ - ١٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٠٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ١١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٧)، =

كما قال تعالى: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

وقال سبحانه: ﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ (٢) ﴾.

﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ ﴾.

أي: كيف يتعَجَّبُ كفَّارُ قُريشٍ وكُفَّارُ العَرَبِ(١) من إيحائِنا القرآنَ إلى رجلٍ من البَشَرِ(٢)، يُنذِرُ جَميعَ النَّاسِ عِقابَ اللهِ، على الكُفرِ به ومَعصِيَتِه(٣)؟!

= ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٨٢).

(١) قال محمد رشيد رضا: (المرادُ بالنَّاسِ كُفَّارُ مَكَّةَ ومَن تَبِعَهم في إنكارِ نبُوَّةِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلم). ((تفسير المنار)) (١١/ ١١٨).

وقال ابنُ عاشورٍ: (أُطلِقَ النَّاسُ على طائفةٍ مِن البشَرِ، والمرادُ المُشرِكونَ مِن أهلِ مكَّةَ؛ لأنَّهم المقصودُ مِن هذا الكلامِ. وهذا الإطلاقُ مِثلُ ما في قوله: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾... والنَّاسُ الثاني يعُمُّ جَميعَ البشَرِ الذين يُمكِنُ إنذارُهم، فهو عمومٌ عُرفيٌّ؛ ولِكَونِ المرادِ بالنَّاسِ ثانيًا غيرَ المُرادِ به أوَّلُ، ذُكِرَ بلَفظِه الظَّاهِرِ دون أن يقالَ: أن أنذِرْهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٨٤).

(٢) قال الرازي: (هذا التَّعجُّبُ يحتمِلُ وَجهين: أحدُهما: أن يتعَجَّبوا من أن يَجعَلَ اللهُ بشَرًا رسولاً، كما حكى عن الكُفَّارِ أنَّهم قالوا: ﴿أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤]. والثاني: ألَّا يتعَجَّبوا من ذلك، بل يتعَجَّبوا من تخصيصِ محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بالوحيِ والنبوَّةِ، مع كونِه فَقيرًا يَتيمًا، فهذا بيانُ أنَّ الكفَّارَ تعَجَّبوا من ذلك، وأمَّا بيانُ أنَّ الله تعالى أنكَر عليهم هذا التعجُّبَ، فهو قَولُه في هذه الآيةِ: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ﴾؛ فإنَّ قَولَه: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ لفظُه لفظُ الاستفهامِ، ومعناه الإنكارُ). ((تفسير الرازي)) (١٧/ ١٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٠٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٥)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٥٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا =

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

أي: وكيف عَجِبَ الكُفَّارُ مِن إيحائِنا إلى بَشَرٍ منهم، أن يبشِّرَ المُؤمِنينَ بأنَّه سبَقَت لهم مِن الله السَّعادةُ في اللَّوحِ المحفوظِ بما قَدَّموا من أعمالٍ صالحةٍ، وإيمانٍ بمحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، الذي أرشَدَهم إلى ذلك الخَيرِ الذي ينالون به الجنَّةَ[1]؟!

﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾.

القراءاتُ التي لها أثَرٌ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ ﴿لَسَاحِرٌ﴾ يقصِدُ الكافرونَ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[2].

٢- قراءةُ ﴿لَسِحْرٌ﴾ يَعْنون القُرآنَ الكريمَ[3].

= (١١/ ١١٨، ١١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٨٤).

قال ابن تيمية: (قال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ أولَم يعلَموا أنَّ إرسالَ رسولٍ مِن البشَرِ يُبَلِّغُهم رسالاتِ رَبِّهم، ويهديهم إلى صراطٍ مُستقيمٍ، أبلَغُ في قدرةِ الرَّبِّ، ورَحمتِه بعبادِه، وإحسانِه إليهم، وأعظَمُ إثباتًا للكمالِ مِن كَونِ ذلك [غيرَ] ممكِنٍ له، ومِن امتناعِه عن فِعْلِه). ((درء تعارض العقل والنقل)) (١٠/ ٢٤).

[1] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١١١، ١١٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٣)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٠١)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٦)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٨٤).

قال ابنُ القيِّم: (وفسَّر قومٌ ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ بالجنةِ، وفسَّر بالأعمالِ التي تُنالُ بها الجنةُ، وفُسِّر بالسابقةِ التي سبَقَت لهم مِن الله، وفسِّر بالرسولِ الذي على يدِه وهدايتِه نالوا ذلك، والتحقيقُ أنَّ الجميعَ حقٌّ؛ فإنَّهم سبقَت لهم مِن الله الحسنَى بتلك السابقةِ، أي: بالأسبابِ التي قدَّرها لهم على يدِ رسولِه، وادَّخر لهم جزاءَها يومَ لقائِه). ((حادي الأرواح)) (ص: ١٠١).

[2] قرأ بها عاصمٌ، وحمزةُ، والكسائيُّ، وابنُ كثيرٍ، وخلفٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٥٦).
ويُنظر لمعنَى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٧٩)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٤/ ٢٥١، ٢٥٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٨٦).

[3] قرَأ بها الباقونَ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٥٦). =

﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾.

أي: مع أنَّا بعَثْنا إليهم رسولًا منهم، رجلًا مِن جنسِهم، بشيرًا ونذيرًا(١)، قال الكافرون: إنَّ هذا الرَّجُلَ لَساحِرٌ ظاهِرُ السِّحرِ، يسحَرُ النَّاسَ بالقُرآنِ الذي جاء به(٢).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قال الله تعالى: ﴿أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قدَّمَ الإنذارَ على التَّبشيرِ؛ لأنَّ التَّخليةَ مُقَدَّمةٌ على التَّحليةِ، وإزالةَ ما لا ينبغي مُقَدَّمٌ في الرُّتبةِ على فِعلِ ما ينبغي(٣).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لَمَّا كان الإنذارُ عامًّا، كان متعَلَّقُه- وهو الناس- عامًّا، والبِشارةُ خاصَّةً، فكان متعَلَّقُها خاصًّا، وهو (الذينَ آمنوا)(٤).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ عبَّرَ عن كُفَّارِ مَكَّةَ ومَن تَبِعَهم بالنَّاسِ؛ لأنَّ هذه الشُّبهةَ على الرِّسالةِ، قد

= ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٧٩)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٤/ ٢٥١، ٢٥٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٨٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٦).

قال ابن جرير: (وفي الكلامِ مَحذوفٌ، استُغنِيَ بدَلالةِ ما ذُكِرَ عما تُرِكَ ذِكرُه، وهو: فلمَّا بشَّرَهم وأنذَرَهم وتلا عليهم الوحيَ، قال الكافرونَ: إنَّ هذا الذي جاءَنا به لَسِحرٌ مُبينٌ). ((تفسير ابن جرير)) ١٢/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ١٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٩).

سبَقَتْهم إليها أقوامُ الأنبياءِ قَبلَ نَبيِّنا محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم(١).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ بيانُ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُنذِرٌ لجنسِ النَّاسِ، وأنَّه مِن جِنسِ النَّاسِ، وأنَّه لا يختصُّ به العرَبُ دونَ غَيرِهم، وإنْ كانوا هم أوَّلَ مَن أُرسِلَ إليهم وبلسانِهم(٢).

٤- ذكَرَ اللهُ تعالى في كتابِه خمسةَ أشياءَ مُضافةً إلى الصِّدقِ، وهي: قدَمُ الصِّدقِ، كما هنا في سورة يونسَ، ومُدخَلُ الصِّدقِ، ومُخرَجُ الصِّدقِ، كما في سورةِ الإسراءِ (الآية: ٨٠)، ولسانُ الصِّدقِ، كما في سورة الشُّعَراء (الآية: ٨٤)، ومَقعَدُ الصِّدقِ، كما في سورة القمر (الآية: ٥٥)، وحقيقةُ الصِّدقِ في هذه الأشياءِ: هو الحقُّ الثَّابتُ، المتَّصِلُ باللهِ، المُوصِلُ إلى اللهِ- وهو ما كان به وله، من الأقوالِ والأعمالِ- وجزاءُ ذلك في الدُّنيا والآخرةِ(٣).

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾ يُشيرُ إلى إثباتِ رِسالتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فإنَّ قَولَهم: إنَّ القرآنَ سِحرٌ جاء به ساحِرٌ، يتضَمَّنُ اعترافَهم بأنَّهما فوقَ المعهودِ والمعلومِ للبَشَرِ في عالَمِ الأسبابِ المَقدورةِ لهم(٤).

بلاغةُ الآيتين:

١- قولُه تعالى: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾

- قولُه: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ في اختيارِ وصْفِ ﴿الْحَكِيمِ﴾ هنا مِن بينِ أوصافِ الكَمالِ الثَّابتةِ للقُرآنِ؛ لأنَّ لهذا الوَصفِ مَزيدَ اختِصاصٍ بمَقامِ إظهارِ الإعجازِ مِن جهةِ المعنى بعدَ إظهارِ الإعجازِ مِن جهةِ اللَّفظِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ١١٨).

(٢) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٦٧٩).

(٣) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٢٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ١١٩).

بقوله: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾، ولِمَا اشتَمَلَت عليه السُّورةُ مِن براهينِ التَّوحيدِ وإبطالِ الشِّركِ[1].

- وفيه مناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال هنا: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾، وكذلك في سورةِ لُقمانَ قال: ﴿الم تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [لقمان: ٢]، بَينما قال في مَطلعِ سُورةِ يوسُفَ: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [يوسف: ١]؛ فوصَفه في السُّورتَين بالحكيم، وفي سورةِ يوسُفَ بالمبين؛ وذلك لأنَّ سُورتَيْ يونُسَ ولُقمانَ ترَدَّد فيهما مِن الآياتِ المعتبَرِ بها، الـمُطْلِعَةِ على عظيمِ حِكْمتِه تعالى، وإتقانِه للأشياءِ ما لم يَرِدْ في سورةِ يوسُفَ، كقولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [يونس: ٣]، وقد تَبِع الآيةَ المذكورةَ مِن سورةِ يونُسَ ما يُجاريها في التَّنبيهِ بما به الاعتبارُ، كقولِه تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥]، ثمَّ قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ * إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ [يونس: ٦، ٧]، لم يتَخلَّلْها ما يَخرُجُ عن بابِ الاعتبارِ، مِن الأحكامِ أو القَصصِ أو غيرِها، إلَّا ما تضَمَّن اعتبارًا كالوارِدِ مِن قصَّةِ نوحٍ في خِطابِه لقومِه: ﴿يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي...﴾ الآيةَ إلى قولِه: ﴿ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١]، وفي هذا أعظمُ عِبرةٍ، ولم يَرِدْ هذا الضَّربُ المقتضَبُ مِن قصَّةِ نوحٍ عليه السَّلامُ على هذه الصِّفةِ في غيرِ هذه السُّورةِ لِما قدَّمْنا ذِكرَه، ولم يَكُنْ لِيُناسِبَ ما بُنِيَت عليه السُّورةُ غيرُ هذا الوارِدِ، وكذلك ما ورَد فيها مِن قصَّةِ موسى عليه السَّلامُ ودُعائِه في

---

[1] يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٨٢).

قوله: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ﴾ [يونس: ٨٨]، فكان ذلك حسْبُ ما دَعاه إلى ذِكْرِ إغراقِ فِرْعونَ وملَئِه، وطمَعِه في الإيمانِ حينَ أدرَكه الغرَقُ، فقال: ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ [يونس: ٩٠]، فلم ينفَعْه ذلك لِفَواتِ وقتِه، فاقتصَر أيضًا على هذا القَدْرِ مِن قصَّةِ موسى عليه السَّلامُ؛ لِما تقَدَّم مِن مُناسَبةِ هذه السُّورةِ.

وسورةُ لُقمانَ ورَد فيها قولُه تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾، إلى قولِه: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ﴾ [لقمان: ١٠، ١١]، وبعد ذلك قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠]، وقولُه: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ...﴾ الآيَةَ [لقمان: ٣٤]، وفي هذه السُّورةِ أيضًا ما مُنِح لقمانُ مِن الحِكْمةِ، وما انطوَت عليه قِصَّتُه مِن حِكمةٍ، وما صدَر عنه في وصيَّتِه، ولم تَخرُجْ آيُ هذه السُّورةِ عن هذا، فهذا وجهُ وصفِ الكتابِ في هاتَين السُّورتَين بالحكيمِ.

وأمَّا سورةُ يوسُفَ عليه السَّلامُ فلم تَنطَوِ على غيرِ قصَّتِه، وبسْطِ التَّعريفِ بقَضيَّتِه، وبيانِ ما جرَى له مع أبيه؛ مِن فِراقِه، وامتِحانِه بإلقائِه في الجُبِّ، والبيعِ والتَّعرُّضِ له بالفِتْنةِ، وتَخلُّصِه بسابقِ اصطِفائِه ممَّا كِيدَ له به، وابتلائِه بالسِّجنِ، ثمَّ لِقائِه بأخيه، واجتماعِ شَملِه بأبيه عليهما السَّلامُ وإخوتِه، ولم تَخرُجْ آيةٌ مِن آيِ هذه السُّورةِ عن هذا مِن بَسْطِ هذه القصَّةِ، فلِهذا أتبعَ الكتابَ بالوصفِ بالمبينِ[1].

٢- **قولُه تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾**

- قولُه: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ الهَمزةُ في ﴿أَكَانَ﴾ لإنكارِ التَّعجُّبِ والتَّعجيبِ

---

[1] (١/ ٢٣٧-٢٣٨).

مِنه(١)، وفائدةُ إدخالِ الاستفهام المستعمَلِ في الإنكارِ على (كَ يُقالَ: (أَعَجِبَ النَّاسُ): الدَّلالةُ على التَّعجُّبِ مِن تعَجُّبِهم المرادِ به الوحيِ إلى بشَرٍ(٢).

- وقولُه: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ فيه مناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قالَ: ﴿لِلنَّاسِ﴾ باللَّامِ ولَم يَقُلْ: (أكان عِندَ النَّاسِ عجَبًا)؛ لأنَّ معنى ﴿لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ أنَّهم جعَلوه لهم أُعْجوبةً يتعجَّبون مِنها، ونصَبوه علَمًا لهم يُوجِّهون نَحوَه استِهْزاءَهم وإنكارَهم، وليس في (عِندَ النَّاسِ) هذا المعنى(٣).

- وقولُه أيضًا: ﴿لِلنَّاسِ﴾ مُتعلِّقٌ بـ(كَانَ)؛ لِزيادةِ الدَّلالةِ على استِقرارِ هذا التَّعجُّبِ فيهم؛ لأنَّ أصلَ اللَّامِ أن تُفيدَ المِلْكَ، وتستعملُ أيضًا في التَّمكُّنِ، أي: لِتَمكُّنِ الكونِ عجَبًا مِن نُفوسِهم(٤).

- وفيه كذلك تقديمُ خبَرِ (كان) وهو قولُه: ﴿عَجَبًا﴾ على اسمِها وهو قولُه: ﴿أَنْ أَوْحَيْنَا﴾؛ للاهتِمامِ به؛ لكَونِه مَدارَ الإنكارِ والتَّعجُّبِ، وتشويقًا إلى المؤخَّرِ(٥).

- وَجِيءَ في ﴿أَنْ أَوْحَيْنَا﴾ بـ(أَنْ) والفِعلِ، دون المصدَرِ الصَّريحِ وهو (وَحْيُنا)؛ لِيُتوسَّلَ إلى ما يُفيدُه الفعلُ مِن التَّجدُّدِ، وصيغةُ المُضِيِّ مِن الاستقرارِ؛ تحقيقًا لوُقوعِ الوحيِ المتعجَّبِ منه وتجَدُّدِه، وذلك ما يَزيدُهم كمَدًا(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٨٣

- وفي قولِه: ﴿أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾: حُذِفَ المنذَرُ به؛ للتَّهويلِ، ولأنَّه يُعلَمُ حاصِلُه مِن مُقابَلتِه بقولِه: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ﴾(١).

- قولُه: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ﴾، أي: سابقةٌ ومنزِلةٌ رفيعةٌ؛ سُمِّيَت قَدَمًا لأنَّ السَّبقَ بِها، كما سُمِّيَت النِّعمةُ يَدًا؛ لأنَّها تُعطَى باليَدِ، وإضافةُ (قَدَمَ) إلى (صِدْقٍ)؛ لِتَحقُّقِها، والتَّنبيهِ على أنَّهم إنَّما يَنالونها بصِدْقِ القولِ والنِّيَّةِ، ودَلالةً على زيادةِ فضلٍ، وأنَّه مِن السَّوابقِ العظيمةِ(٢).

- قولُه: ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ﴾ ترَكَ العاطِفَ فلَم يَقُلْ: (وقال)؛ لِجَرَيانِه مَجرى البَيانِ لِجُملةِ: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا ...﴾، أو لكونِه استِئنافًا مَبنيًّا على السُّؤالِ؛ كأنَّه قيل: ماذا صنَعوا بعدَ التَّعجُّبِ؛ هل بَقُوا على التَّردُّدِ والاستِبْعادِ أو قطَعوا فيه بشيءٍ؟ فقيل: قال الكافِرون؛ على طريقةِ التَّأكيدِ(٣).

* * *

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٢٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١١٧)، ويُنظر أيضًا: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٢١١).

الآيتان (٢-٤)

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ شَفِيعٍ ﴾: أي: ناصرٍ ومُعينٍ؛ يقال: شفَع لفلانٍ: إذا جاء مُلتَمِسًا مطلبَه، ومعينًا له، والشَّفْعُ: ضمُّ الشيءِ إلى مثلِه، وأصلُ (شفع): يدلُّ على مُقارنةِ الشَّيئَينِ(١).

﴿ حَمِيمٍ ﴾: الحميمُ: الماءُ الشَّديدُ الحرارةِ، وأصل (حمم): يدلُّ على الحرارةِ، وعلى معانٍ أخرى متفاوتةٍ(٢).

المَعنى الإجماليُّ:

إنَّ ربَّكم - أيُّها النَّاسُ - هو الله الذي خلقَ السَّمواتِ والأرضَ في سِتَّةِ أيَّامٍ، ثمَّ علا وارتفَعَ على عَرْشِه، يُدَبِّرُ أمورَ جميعِ الخَلائقِ، ولا أحَدَ يَشفَعُ عِندَه يومَ القيامةِ إلَّا مِن بعدِ أن يأذَنَ له سُبحانَه بذلك، ذلكم هو اللهُ ربُّكم فاعبُدوه وَحْدَه، أفلا تذَكَّرونَ.

إليه وَحْدَه مَرجِعُكم جميعًا يومَ تَخرُجونَ مِن قُبورِكم أحياءً يومَ القيامةِ، وَعَدَكم اللهُ وَعدًا حَقًّا لا يُخلَفُ، إنَّه يبدأُ إنشاءَ الخَلْقِ ثمَّ يُعيدُه بعد مَوتِه، يومَ القيامةِ؛

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٤، ٤٤٨).

لِيُثِيبَ المُؤمِنينَ الذين عَمِلوا الصَّالِحاتِ بالعَدلِ، والذين كَفَروا لهم شَرابٌ من ماءٍ حارٍّ، قد بلَغَت حرارتُه الغايةَ، ولهم عذابٌ مُوجِعٌ؛ بسبَبِ كُفرِهم في الدُّنيا.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾.

أي: إنَّ مالِكَكم- أيُّها النَّاسُ- وخالقَكم، ومدبِّرَ شُؤونِكم، هو المُستحِقُّ للعبادةِ وَحْدَه؛ الذي خلَقَ السَّمواتِ السَّبعَ، والأَرَضينَ السَّبعَ في ستَّة أيَّام⁽¹⁾.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقال سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [السجدة: ٤].

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾.

أي: ثمَّ علا اللهُ وارتفَعَ على عَرشِه المُحيطِ بِجَميعِ خَلْقِه⁽²⁾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٧).

قال ابن عطيَّةَ: (قَولُه ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ قيل: هي من أيَّامِ الآخرةِ، وقال الجمهور- وهو الصواب- بل من أيَّامِ الدنيا. قال القاضي أبو محمد: وذلك في التقديرِ؛ لأنَّ الشَّمسَ وجَرْيَها لم يتقَدَّمْ حِينئذٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١١٣)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٧).

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾.

أي: يُدبِّر أمورَ جَميعِ خَلْقِه وشُؤونَهم⁽¹⁾.

كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: ٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ * يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ [السجدة: ٤، ٥].

﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾.

أي: لا يَشفَعُ عندَ الله أيُّ شافعٍ يومَ القِيامةِ إلَّا مِن بَعدِ أن يأذَنَ اللهُ بذلك⁽²⁾.

كما قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١١٣، ١١٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٢١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١١٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٧).

قال الزَّجَّاج: (قولُه: ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ ولم يجْرِ للشَّفيعِ ذِكرٌ قبلَ هذا، ولكِنَّ الذين خُوطِبوا كانوا يقولونَ: إنَّ الأصنامَ شُفَعاؤُنا عند الله، فالذِّكرُ جرى بعدُ في الشُّفعاءِ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٣/ ٦).

وقال ابنُ عطيةَ: (قولُه: ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ ردٌّ على العَرَبِ في اعتقادِها أنَّ الأصنامَ تَشفَعُ لها). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٤).

بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴾ [النجم: ٢٦].

﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ﴾.

أي: ذلكم الذي هذا شأنُه، وهذه صفتُه، وفعَلَ تلك الأشياءَ العظيمةَ، هو المستَحِقُّ لإفرادِ العبادةِ له دونَ مَن سِواه، وهو مالِكُكم وخالِقُكم ومُدَبِّرُ أمورِكم- أيُّها النَّاسُ- فاعبُدوه وَحْدَه، ولا تَعبُدوا غَيرَه(١).

﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾.

أي: أفلا تتَّعِظونَ- أيُّها النَّاسُ- بتلك الآياتِ والبَراهينِ، وتتذكَّرون أنَّ اللهَ هو المتفرِّدُ بالخَلقِ، فتَعبُدونَه وَحْدَه، وتَترُكونَ عبادةَ غَيرِه مِن مَخلوقاتِه(٢)؟!

كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣١-٣٢].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤ - ٨٩].

﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١١٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١١٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٧).

أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴿٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

أنَّ اللَّهَ تعالى لَمَّا ذَكَرَ الدَّلائِلَ الدَّالَّةَ على إثباتِ المبدأِ، أردَفَه بما يدُلُّ على صِحَّةِ القَولِ بالمَعادِ(١).

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ تعالى حُكْمَه القَدَريَّ، وهو التَّدبيرُ العامُّ، وحُكمَه الدينيَّ وهو شَرعُه، الذي مضمونُه ومقصودُه عبادَتُه وَحْدَه لا شريكَ له- ذكَرَ الحُكمَ الجَزائيَّ، وهو مُجازاتُه على الأعمالِ بعد الموتِ(٢)، فقال تعالى:

﴿ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ ﴾.

أي: إلى اللهِ وَحْدَه مَرجِعُكم جميعًا- أيُّها النَّاسُ- يوم تَخرُجونَ مِن قُبورِكم أحياءً يومَ القِيامةِ(٣).

﴿ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ ﴾.

أي: يَعِدُكم اللهُ- أيُّها النَّاسُ- وعدًا صِدقًا لا يُخلَفُ: أنَّه سيبعَثُكم مِن قُبورِكم أحياءً(٤).

﴿ إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١١٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٤)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١١٥)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٨).

قال ابن عاشور: (وانتَصَب ﴿وَعْدَ اللهِ﴾ على المفعوليةِ المطلقةِ... ويقدَّر له عاملٌ محذوفٌ... والتقديرُ: وعَدكم اللهُ وعدًا حقًّا). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٩٠).

أي: إنَّ اللهَ يبدأُ إنشاءَ الخَلْقِ، وإيجادَه مِن العَدَم، ثمَّ يعيدُه بعدَ مَوتِه، ويُحييه يومَ القيامةِ كما بدأه أوَّلَ مرَّةٍ(١).

كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [يونس: ٣٤].

وقال سبحانَه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [العنكبوت: ١٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الروم: ١١].

﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ﴾.

مناسبتُها لما قبلَها:

لَمَّا كان الكلامُ في سِياقِ البَعثِ، قَدَّمَ أهلَ الجَزاءِ، وبدأ بأشرافِهم، فقال(٢):

﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ﴾.

أي: يُحيي اللهُ الخَلقَ بعدَ مَوتِه، يومَ القِيامةِ؛ لِيُثيبَ المُؤمِنينَ الذين عَمِلوا ما أمَرَهم اللهُ به، وترَكَوا ما نهاهم عنه، بالعَدلِ، وهو مجازاتُهم على الحَسَنِ مِن أعمالِهم، الحَسَنَ من الثوابِ في الآخرةِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١١٥)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٢٢)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤١٠)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٢٨)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١١٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٨).

قال ابنُ جرير: (يقول: لِيَجزِيَهم على الحَسَنِ مِن أعمالِهم التي عَمِلوها في الدُّنيا، الحسَنَ مِن الثَّوابِ، والصَّالِحَ مِن الجَزاءِ في الآخرةِ، وذلك هو القِسطُ، والقِسطُ: العَدلُ والإنصافُ). ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١١٧).

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾.

أي: وللكفَّارِ في الآخرةِ ماءٌ قد أُغلِيَ، وبلَغَت حرارتُه الغايةَ، ولهم أيضًا عذابٌ مُوجِعٌ؛ وذلك كلُّه بسبَبِ كُفرِهم في الدُّنيا[1].

كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩].

وقال سبحانه: ﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ * هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ * وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ [ص: ٥٥ - ٥٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا * إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا * جَزَاءً وِفَاقًا * إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا * وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا﴾ [النبأ: ٢٤ - ٢٨].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ لَمَّا بيَّنَ نعالى هذه الدَّلائِلَ، وشَرَحَ هذه الأحوالَ؛ ختَمَها بِقَولِه: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ مُبَيِّنًا بذلك أنَّ العبادةَ لا تصلُحُ إلَّا له، ومنبِّهًا على أنَّه سُبحانَه هو المستَحِقُّ لِجَميعِ العباداتِ؛ لأجلِ أنَّه هو المُنعِمُ بِجَميعِ النِّعَمِ التي ذكَرَها ووصَفَها[2].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فيه حَضٌّ على التدبُّرِ والتفكُّرِ في الدَّلائِلِ الدَّالَّةِ

---

[1] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١١٧، ١١٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٨).

[2] يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ١٩٣).

على رُبُوبيَّتِه تعالى، وإمحاضِ العِبادةِ له(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ لو شاء تعالى لخَلَقَهما في لَمحةٍ، ولكِنْ لحِكمةٍ بالغةٍ عَدَلَ عن ذلك، وخَلَقَهما في ستَّةِ أيَّامٍ، وتخصيصُ ذلك بالعدَدِ المعَيَّنِ، أمْرٌ قد استأثَرَ بعِلمِ ما يَستَدعيه علَّامُ الغُيوبِ- جَلَّت قُدرَتُه ودقَّت حِكمَتُه(٢)، وقيل في حكمةِ خلقِهما في ستةِ أيَّامٍ: لتعليمِ خَلقِه التأنِّي(٣). وقيل: لِتُشاهِدَ الملائكةُ الخَلقَ شَيئًا بعد شيءٍ، فيعتَبِروه ويُدرِكُوه. وقيل: لأنَّ تصريفَ الخَلقِ حالًا بعد حالٍ أحكَمُ، وأبعَدُ مِن شُبهةِ الاتِّفاقِ(٤).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ناسبَ ذِكرُ الشَّفاعةِ- التي تكونُ في القيامةِ- بعد ذِكرِ المَبدأِ؛ ليجمَعَ بين الطَّرَفينِ: الابتداءِ والانتهاءِ(٥).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أُفرِدت الأرضُ، ولم تُجمَعْ- بخلافِ السمواتِ- لِثِقَلِ جَمْعِها وهو (أَرَضُونَ)، وأمَّا السَّمَوات فذُكِرَتْ بصيغَةِ الجمعِ؛ لأنَّه أُرِيدَ العددُ، فأُتِيَ بِصِيغَةِ الجمعِ الدَّالَّةِ عَلَى سَعَةِ العظمةِ والكثرةِ، وإذا أُرِيدَ الجهةُ أُتِيَ فيها بصيغةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٣).

(٤) يُنظر: ((باهر البرهان)) لبيان الحق الغزنوي (١/ ٦٢٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٢).

الإفرادِ⁽¹⁾، وقيل: إيثارُ صِيغةِ الجَمعِ في السَّمواتِ؛ لِما هو المشهورُ مِن الإيذانِ بأنَّها أجرامٌ مُختَلِفةُ الطِّباعِ، مُتَبايِنةُ الآثارِ والأحكامِ⁽²⁾.

٤- التدبيرُ يُضاف إلى اللهِ تارةً؛ وإلى الملائكةِ تارةً؛ فيُضافُ إلى الله تعالى أمرًا وإذنًا ومشيئةً، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُم اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَواتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾، ويُضافُ إلى الملائكةِ تارةً أخرى؛ لِكَونِهم هم المُباشِرينَ والمُمتَثِلينَ للتَّدبيرِ؛ قال تعالى: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥]، وهذا كما أضاف التوفِّيَ إليهم تارةً، كقَوله تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: ٦١] وإليه تارةً، كقَوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ﴾⁽³⁾ [الزمر: ٤٢].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ فيه إثباتُ الشَّفاعةِ لِمَن أَذِنَ له⁽⁴⁾.

٦- إنَّ شَفاعةَ المَخلوقِ عند المَخلوقِ تكونُ بإعانةِ الشَّافِعِ للمَشفوعِ له، بغيرِ إذْنِ المَشفوعِ عِندَه، بل يشفَعُ إمَّا لحاجةِ المَشفوعِ عنده إليه، وإما لِخَوفِه منه، فيحتاجُ أنْ يقبلَ شفاعتَه، واللهُ تعالى غنيٌّ عن العالَمينَ، وهو وَحْدَه سبحانَه يُدَبِّرُ العالَمينَ كلَّهم؛ فإنَّه ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾، فهو الذي يأذَنُ للشَّفيعِ في الشَّفاعة، وهو يقبلُ شفاعتَه، كما يُلْهِمُ الداعيَ الدُّعاءَ، ثمَّ يُجيبُ دعاءَه، فالأمرُ كلُّه له⁽⁵⁾.

٧- قال الله تعالى: ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾، والشَّفاعةُ بإذنِه ليست

---

(١) يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٢/ ٣٥٥)، ويُنظر أيضًا: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١١٨).

(٣) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٤).

(٥) يُنظر: ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (٢/ ٣٦٢).

شفاعةَ مِن دُونه، ولا الشَّافعُ شَفيعٌ مِن دونه، بل شفيعٌ بإذْنِه، والفرقُ بين الشَّفيعَين هو كالفَرقِ بين الشَّريكِ والعبدِ المأمورِ، فالشَّفاعةُ التي أبطَلَها اللهُ: شفاعةُ الشَّريكِ؛ فإنَّه لا شريكَ له، والتي أثبَتَها: شفاعةُ العبدِ المأمورِ، الذي لا يشفَعُ ولا يتقَدَّمُ بين يدَي مالكِه، حتى يأذَنَ له، ويقولَ: اشفَعْ في فُلانٍ؛ ولهذا كان أسعَدَ النَّاسِ بشَفاعَةِ سَيِّدِ الشُّفَعاءِ يومَ القيامةِ أهلُ التَّوحيدِ، الذين جرَّدُوا التَّوحيدَ، وخَلَّصوه مِن تعَلُّقاتِ الشِّركِ وشَوائِبِه، وهم الذين ارتَضى اللهُ سبحانه⁽¹⁾.

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ يدُلُّ على أنَّه تعالى يعيدُ جَميعَ المَخلوقاتِ، وإعادتُها لا يُمكِنُ إلَّا بعد إعدامِها، وإلَّا لَزِمَ إيجادُ الموجودِ، وهو مُحالٌ، ونظيرُه قَولُه تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] فحكَمَ بأنَّ الإعادةَ تكونُ مِثلَ الابتداءِ⁽²⁾.

٩- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّه يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ ردٌّ على المُشركينَ الذين أنكَروا البَعثَ، فاحتَجَّ الله عليهم بالنَّشأةِ الأولَى، فالقادِرُ على ابتداءِ الخَلقِ قادِرٌ على إعادتِه، والذي يرى ابتداءَه بالخَلقِ، ثمَّ يُنكِرُ إعادتَه للخَلقِ، فهو فاقِدُ العَقلِ مُنكِرٌ لأحَدِ المِثلَينِ، مع إثباتِ ما هو أَولى منه، فهذا دليلٌ عَقليٌّ واضحٌ على المَعادِ⁽³⁾.

١٠- في قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ لم يُعيِّنِ الله تعالى ثوابَ المؤمنينَ وجزاءَهم؛ لأنَّه تعالَى يتولَّى إثابةَ المؤمنينَ بما يليقُ بلطفِه وكرمِه⁽⁴⁾.

---

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٠/ ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٠٥).

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ إنَّما خَصَّ بالقِسطِ جزاءَ المُؤمِنينَ، مع أنَّ الجَزاءَ كُلَّه عَدلٌ، بل ربَّما كانت الزيادةُ في ثَوابِ المُؤمِنينَ فَضلًا زائدًا على العَدلِ؛ وذلك لتأنيسِ المُؤمِنينَ وإكرامِهم بأنَّ جَزاءَهم قد استحَقُّوه بما عَمِلوا⁽¹⁾، وأيضًا لأنَّه لو جمع اللهُ الصِّنفَينِ بالقِسطِ، لم يتبيَّنْ ما يقَعُ بالكافرينَ مِن العذابِ الأليمِ، ففَصَلَهم من المُؤمِنينَ؛ ليُبيِّنَ ما يجزيهم به ممَّا هو عدلٌ غيرُ جَورٍ، فلهذا خصَّ المُؤمِنينَ بالقِسطِ، وأفرد الكافرينَ بخَبرٍ يرجِعُ إلى تأويلِه بزيادةٍ في الإبانةِ والفائدةِ⁽²⁾.

١٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مِن عَطفِ العامِّ على الخاصِّ ﴿شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ﴾، ونكتةُ هذا الخاصِّ أنَّ العرَبَ الذين خُوطِبوا به أوَّلًا ونزَلَ بلُغَتِهم، يَشعُرونَ بما لا يَشعُرُ غَيرُهم من الوَعيدِ بِشُربِ الماءِ الحَميمِ، والحِرمانِ مِن الماءِ البارِدِ⁽³⁾.

بلاغةُ الآيتين:

١- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾

- في قولِه: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ إيثارُ صيغةِ المضارعِ؛ للدَّلالةِ على تَجدُّدِ التَّدبيرِ واستمرارِه⁽⁴⁾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٩٢).

(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١١٨).

- قولُه: ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ نفيٌ للشَّفاعةِ الَّتي هي مِن غيرِ إذنِه على أبلَغِ الوُجوهِ؛ فإنَّ نفيَ جميعِ أفرادِ الشَّفيعِ بـ(مِن) الاستِغراقيَّةِ يَستَلزِمُ نفْيَ الشَّفاعةِ على أتمِّ الوجوهِ⁽¹⁾.

- وفي زيادةِ قولِه: ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ احتِراسٌ؛ لإثباتِ شَفاعةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم وغيرِه بإذنِ اللهِ⁽²⁾.

- والإتيانُ باسْمِ الإشارةِ في صَدْرِ قولِه: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾؛ لِتَمييزِه أكمَلَ تمييزٍ؛ لأنَّهم امترَوْا في صِفةِ الإلهيَّةِ، وضَلُّوا فيها ضلالًا مُبينًا، فكانوا أحْرِيَاءَ بالإيقاظِ بطَريقِ اسْمِ الإشارةِ⁽³⁾.

- قولُه: ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ هذا الأمرُ مُفرَّعٌ على كونِه ربَّهم، والمفرَّعُ هو المقصودُ مِن الجملةِ، وما قَبلَه مُؤكِّدٌ لجملةِ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ﴾ تأكيدًا بِفَذْلَكةٍ⁽⁴⁾ وتحصيلٍ، والتَّقديرُ: (إنَّ ربَّكم اللهُ...) إلى قولِه: ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾، كقولِه: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: ٥٨]؛ إذ وقَع قولُه: ﴿فَبِذَلِكَ﴾ تأكيدًا لجُملةِ ﴿بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ﴾، وأوقَع بعدَه الفرْعَ وهو ﴿فَلْيَفْرَحُوا﴾، والتَّقديرُ: قُل بفضلِ اللهِ وبرَحمتِه فليَفرَحوا بذَلك⁽⁵⁾.

- قولُه: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾: جملةٌ ابتدائيَّةٌ للتَّفريعِ، وهو غرَضٌ جديدٌ؛ فلذَلكِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٨٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) الفَذْلكة: كلمةٌ منحوتةٌ، كالبَسملةِ والحوقلةِ مِن قولِهم: (فذلك كذا)، أي: ذَكَر مُجمَل ما فُصِّل أولًا وخلاصته. وقد يُراد بالفذلكة النتيجة لِمَا سبَق من الكلام، والتفريع عليه، ومنها فذلكة الحساب، أي: مُجمَل تفاصيله، وإنهاؤه، والفراغ منه، كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ بعد قوله: ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((كناشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨ - ٦٣٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٨٩).

لم تُعطَفْ؛ فالاستِفهامُ إنكارٌ لانتِفاءِ تذَكُّرِهم؛ إذ أشرَكوا معَه غيرَه، ولم يتَذكَّروا في أنَّه المنفرِدُ بخَلْقِ العوالِمِ، وبمِلْكِها وبتَدبيرِ أحوالِها(١).

٢- قولُه تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾

- وقولُه: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ فيه ذِكْرُ ما يَقتَضي التَّذكيرَ، وهو كونُ مَرجِعِ الجميعِ إليه، وأكَّد هذا الإخبارَ بأنَّه وعدُ اللهِ الَّذي لا شكَّ في صِدقِه، ثمَّ استأنَف الإخبارَ بقَولِه: ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾، وهو استئنافٌ مَعناه التَّعليلُ بابتِداءِ الخَلْقِ وإعادَتِه، وأنَّ الغرَضَ ومُقتَضى الحِكمةِ بذَلك هو جَزاءُ المكلَّفينَ على أعمالِهم(٢).

- وقولُه: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ فيه تقديمُ المجرورِ ﴿إِلَيْهِ﴾؛ لإفادَةِ القَصْرِ، أي: إلَيْه لا إلى غَيرِه(٣).

- وفيه مناسَبةٌ حسنةٌ، حيث قال هنا: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾، وقال أيضًا في سورةِ المائدة: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٤٨، ١٠٥]. بينما في سُورةِ هود قال: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ [هود: ٤]، ولم يَقُلْ: (جَميعًا)؛ وذلك لأنَّ ما في سورةِ يونُسَ والمائدةِ خِطابٌ للمؤمنينَ والكافرين جميعًا؛ يدُلُّ عليه قولُه بعدَه في سورةِ هودٍ: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ الآيةَ [يونس: ٤]، وقولُه بعدَه في سورةِ المائدةِ: ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨]، وأمَّا ما في هودٍ فهو

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٢٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٩٠).

خِطابٌ للكفَّارِ فقط؛ يدُلُّ عليه: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾(١) [هود: ٣].

- قولُه: ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾: وموقعُ (إنَّ) تأكيدُ الخبرِ؛ نظرًا لإنكارِهمُ البَعثَ، فحصَل التَّأكيدُ مِن قولِه: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أمَّا كَوْنُه بدَأ الخلْقَ فلا يُنكِرونه(٢).

- وجملةُ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ استِئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّه لَمَّا ورَد ذِكْرُ جَزاءِ المؤمِنين على أنَّه العِلَّةُ لِرُجوعِ الجَميعِ إلَيه، ولَم يَذكُرْ في العِلَّةِ ما هو جَزاءُ الجميعِ؛ لا جَرَمَ يتَشوَّفُ السَّامعُ إلى معرفةِ جزاءِ الكافرين؛ فجاء الاستِئنافُ للإعلام بذلك، ونُكتةُ تَغييرِ الأسلوبِ- حيث لم يَعطِفْ جَزاءَ الكافرين على جَزاءِ المؤمِنين فيُقالَ: (ويَجْزِيَ الَّذين كفَروا بعَذاب...)- الإشارةُ إلى الاهتمامِ بجَزاءِ المؤمِنين الصَّالِحين، وأنَّه الذي يُبادَرُ بالإعلامِ به، وأنَّ جزاءَ الكافِرين جديرٌ بالإعراضِ عَن ذِكْرِه لولا سؤالُ السَّامِعين(٣).

* * *

---

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٣٨-١٣٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٩١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٩٣).

الآيتان (٥-٦)

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ۝٦ ﴾.

المَعنى الإجماليُّ:

اللهُ الذي جعل الشَّمسَ مُضيئةً في النَّهارِ، وصيَّرَ القَمَرَ مُنيرًا في اللَّيلِ، وقَدَّرَ سَيرَه في منازِلَ؛ لِتَعلَموا- أيُّها النَّاسُ- عدَدَ السِّنينَ، وتَعلَموا حِسابَ اللَّيالي والشُّهورِ، لم يخلُقِ اللهُ ذلك إلَّا بالحَقِّ، يُبيِّنُ اللهُ الحُجَجَ والأدلَّةَ والبَراهينَ لِقَومٍ يَعلَمونَ.

إنَّ في تعاقُبِ اللَّيلِ والنَّهارِ، وفي كلِّ ما خلَقَ اللهُ في السَّمواتِ والأرضِ، لَأدِلَّةً واضِحةً على الخالِقِ جلَّ وعلا، وعلى ثُبوتِ المَرجِعِ إليه يومَ القيامةِ، لِقَومٍ يتَّقونَ غضبَ الله وعقابَه.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا قَرَّرَ اللهُ تعالى ربوبيَّتَه وإلهيَّتَه؛ ذكَرَ الأدلَّةَ العقليَّةَ الأفقيَّةَ الدَّالَّةَ على ذلك، وعلى كمالِه في أسمائِه وصِفاتِه؛ مِن الشَّمسِ والقَمَرِ، والسَّمَواتِ والأرضِ، وجَميعِ ما خلَقَ فيهما مِن سائِرِ أصنافِ المَخلوقاتِ(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٥٨)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٠٧)، ((تفسير =

فهذا استدلالٌ آخَرُ على انفرادِه تعالى بالتصَرُّفِ في المَخلوقاتِ، وهذا لونٌ آخَرُ مِن الاستدلالِ على الإلهيَّةِ، مَمزوجٌ بالامتنانِ على المَحجوجينَ به(١).

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءً وَٱلۡقَمَرَ نُورًا ﴾.

أي: اللهُ هو الَّذي صيَّرَ الشَّمسَ مُضيئةً إضاءةً ساطِعةً قَويَّةً في النَّهارِ، وصيَّرَ القمَرَ مُنيرًا في اللَّيلِ(٢).

كما قال سُبحانه: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٦].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا * وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا * وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ [النبأ: ١١ - ١٣].

﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ ﴾.

أي: وقدَّر اللهُ وقضى مَسيرَ القَمَرِ في منازِلَ، يَنزِلُ في كلِّ يومٍ وليلةٍ مَنزِلًا منها، وهيَّأ ذلك في كلِّ شَهرٍ(٣).

= أبي حيان)) (٦/ ١٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١١٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١١٨)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٢٥، ١٢٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٨٣، ٤٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٩٥).

قال البغوي: (مَنازِلُ القَمَرِ ثمانيةٌ وعِشرونَ مَنزِلًا... وهذه المنازِلُ مَقسومةٌ على البُروجِ، وهي اثنا عشر بُرجًا... فلكُلِّ بُرجٍ مَنزِلانِ وثُلُثُ مَنزِلٍ، فينزلُ القَمَرُ كُلَّ ليلةٍ مَنزِلًا منها، ويستَتِرُ ليلتينِ إن كان الشَّهرُ ثلاثينَ، وإنْ كان الشَّهرُ تِسعًا وعشرينَ، فليلة واحدة، فيكونُ انقضاءُ الشَّهرِ =

كما قال تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩].

﴿لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾.

أي: قدَّرَ اللهُ القَمَرَ مَنازِلَ؛ لِتَعرِفوا- أيُّها النَّاسُ- عدَدَ السَّنواتِ، وتَعرِفوا حسابَ اللَّيالي والشُّهورِ، فتَنتَفِعوا بذلك في أمورِ دينِكم ودُنياكم(١).

﴿ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾.

أي: لم يخلُقِ اللهُ الشَّمسَ والقَمَرَ ومَنازِلَه، إلَّا لحكمةٍ عظيمةٍ تدلُّ على وحدانيَّتِه وعظمةِ صِفاتِه، ولم يخلُقْ ذلك عَبَثًا وباطِلًا(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ [الأنبياء: ١٦].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

﴿ يُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾.

أي: يُبيِّنُ اللهُ الحُجَجَ والأدلَّةَ الباهرةَ(٣) لقومٍ يَعلَمونَ- إذا تدبَّروها- وَحدانيَّةَ اللهِ تعالى وقُدرَتَه، وآثارَ إحسانِه، ويستدِلُّونَ بها على شُؤونِ وصِفاتِ مُبدِعِها سُبحانه(٤).

= بنُزولِ تلك المنازِلِ، ويكونُ مقامُ الشَّمسِ في كلِّ مَنزلةٍ ثلاثةَ عَشَرَ يَومًا وثُلُثَ يومٍ، فيكون انقضاءُ السَّنةِ مِن انقضائِها). ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤١٠-٤١١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١١٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٥٨-٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١١٩)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٢٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٨).

(٣) قال الشوكاني: (المرادُ بالآياتِ: التكوينيَّةُ أو التَّنزيليةُ، أو مجموعُهما، وتدخُلُ هذه الآياتُ التَّكوينيَّةُ المذكورةُ هنا دُخولًا أوَّليًّا في ذلك). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١١٩)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٢٧)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٦، ٩٧].

وقال سبحانه: ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨].

﴿ إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ۝٦ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا استدَلَّ اللهُ تعالى على إثباتِ الإلهيَّةِ والتَّوحيدِ بقَولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ وثانيًا بأحوالِ الشَّمسِ والقَمَرِ؛ استدَلَّ ثالثًا بقَولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي: بالمجيءِ والذَّهابِ، والزِّيادةِ والنُّقصانِ، ورابعًا بقَولِه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ من ملائكةٍ وشَمسٍ وقَمَرٍ ونجومٍ وغيرِ ذلك⁽¹⁾.

فهذا استدلالٌ آخَرُ على انفرادِ الله تعالى بالخَلقِ والتَّقديرِ، وهو استدلالٌ بأحوالِ الضَّوءِ والظُّلمةِ، وتعاقُبِ اللَّيلِ والنَّهارِ، وفي ذلك عِبرةٌ عَظيمةٌ، وهو بما فيه مِن عَطفِ قَولِه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أعَمُّ مِن الدَّليلِ الأوَّلِ؛ لِشُمولِه ما هو أكثَرُ مِن خَلْقِ الشَّمسِ والقَمَرِ، ومِن خَلْقِ اللَّيلِ والنَّهارِ، ومِن كُلِّ ما في الأرضِ والسَّماءِ، مِمَّا تبلُغُ إليه مَعرِفةُ النَّاسِ في مُختَلِفِ العُصورِ، وعلى تفاوُتِ مَقاديرِ الاستدلالِ مِن عُقولِهم⁽²⁾.

= عطية)) (٣/ ١٠٦)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٢١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٨٤)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٩٧).

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٩٧).

﴿ إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾.

أي: إنَّ في تعاقُبِ اللَّيلِ والنَّهارِ، وخَلْفِ أحدِهما الآخَرَ، وفي كلِّ ما خلَقَ اللهُ في السَّمواتِ والأرضِ، لَأدلَّةً واضحةً على خالِقِها، وعلى ثُبوتِ المَعادِ إليه يومَ القيامةِ، لقومٍ يتَّقونَ غَضَبَ اللهِ وعِقابَه، فيَصرِفونَ العبادةَ له وَحْدَه لا شريكَ له، ويَمتَثِلونَ أوامِرَه، ويَجتَنِبونَ نواهِيَه، لا يحمِلُهم هواهم على خِلافِ ما وَضَحَ لهم من الحَقِّ⁽¹⁾.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

وقال سُبحانه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

وقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٣ - ٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٢٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٦)، ((منهاج السنة)) لابن تيمية (٥/ ٥٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٨٤)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٩٧).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ في هذه الآياتِ الحَثُّ والتَّرغيبُ على التفَكُّرِ في مخلوقاتِ الله، والنَّظَرِ فيها بعَينِ الاعتبارِ؛ فإنَّ بذلك تنفتِحُ البَصيرةُ، ويزدادُ الإيمانُ والعَقلُ، وتَقوَى القريحةُ، وفي إهمالِ ذلك تهاونٌ بما أمَرَ اللهُ به، وإغلاقٌ لزيادةِ الإيمانِ، وجمودٌ للذِّهنِ والقريحةِ(١).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فيه تنويهٌ بفَضلِ العِلمِ، وكونِ الإسلام دِينًا عِلميًّا لا تقليديًّا؛ ولذلك قَفَّى على هذه الآياتِ السَّماويَّةِ في الشَّمسِ والقَمَرِ بآيةٍ مذكِّرةٍ بسائِرِ الآياتِ السَّماويَّةِ والأرضيَّةِ، فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ هذه الآيةُ أصلٌ في علمِ المواقيتِ والحسابِ ومنازِلِ القمرِ والتاريخِ(٣).

٢- سَمَّى سُبحانه الشَّمسَ سِراجًا وضياءً؛ لأنَّ فيها مع الإنارةِ والإشراقِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٧).

تَسخينًا وإحراقًا، فهي بالنَّارِ أشبَهُ، بخلافِ القَمَرِ؛ فإنَّه ليس فيه مع الإنارةِ تَسخينٌ، فلِهذا قال: ﴿جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾(١).

٣- قال تعالى: ﴿وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ﴾ وقال أيضًا: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩] فخَصَّ القَمَرَ بذِكرِ تَقديرِ المَنازِلِ دونَ الشَّمسِ، وإن كانَت مُقَدَّرةَ المَنازِلِ؛ لظُهورِ ذلك للحِسِّ في القَمرِ، وظهورِ تَفاوُتِ نُورِه بالزِّيادةِ والنُّقصانِ في كلِّ مَنزِلٍ؛ ولذلك كان الحِسابُ القَمَريُّ أشهَرَ وأعرَفَ عند الأُمَمِ، وأبعَدَ مِن الغَلَطِ، وأصَحَّ للضَّبطِ مِن الحِسابِ الشَّمسيِّ، ويشتَرِكُ فيه النَّاسُ دونَ الحِسابِ الشَّمسيِّ؛ ولهذا قال تعالى في القَمَرِ: ﴿وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ ولم يقُلْ ذلك في الشَّمسِ؛ ولهذا كانت أشهُرُ الحَجِّ والصَّومِ، والأعيادُ ومواسِمُ الإسلامِ، إنَّما هي على حِسابِ القَمَرِ وسَيرِه ونُزولِه في مَنازِلِه، لا على حسابِ الشَّمسِ وسَيرِها؛ حِكمةً مِن اللهِ ورَحمةً وحِفظًا لدِينِه، لاشتراكِ النَّاسِ في هذا الحِسابِ، وتعَذُّرِ الغلَطِ والخطأِ فيه، فلا يدخُلُ في الدِّينِ مِن الاختلافِ والتَّخليطِ ما دخَلَ في دينِ أهلِ الكتابِ(٢).

٤- قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ...﴾ في هذه الآيةِ إشارةٌ إلى أنَّ مَعرفةَ ضَبطِ التَّاريخِ نِعمةٌ أنعَمَ الله بها على البَشَرِ(٣).

بلاغةُ الآيتَين:

١- قولُه تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٤/ ٣٦٨).

(٢) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ١٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٩٦).

- قولُه: ﴿جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً﴾، أي: ذاتَ ضياءٍ، أو مُضيئةً، أو نَفْسَ الضِّياءِ، وفيه مُبالَغةٌ، ﴿وَالْقَمَرَ نُورًا﴾، أي: ذا نورٍ، أو مُنوَّرًا، أو نفسَ النُّورِ، وفيه مُبالغةٌ⁽¹⁾.

- ولَمَّا كانَت الشَّمسُ أعظمَ جِرْمًا خُصَّتْ بالضِّياءِ؛ لأنَّه هو الَّذي له سُطوعٌ ولَمَعانٌ، وهو أعظَمُ مِن النُّورِ⁽²⁾؛ لِقُوَّتِه وكَمالِه، وخُصَّ القمَرُ بالنُّورِ؛ لأنَّه أضعَفُ مِن ذلك الضِّياءِ⁽³⁾.

- قولُه: ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ جملةٌ مُستأنَفةٌ ابتدائيَّةٌ، مَسوقةٌ للامتِنانِ بالنِّعمةِ، ولِتَسجيلِ المؤاخَذةِ على الَّذينَ لم يَهتَدوا بهذه الدَّلائلِ إلى ما تَحتَوي عليه مِن البيانِ، والإتيانُ بالفِعلِ المضارِعِ ﴿يُفَصِّلُ﴾؛ لإفادةِ التَّكْرارِ⁽⁴⁾.

- في قولِه: ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ خُصَّ مَن يَعلَمُ بتَفصيلِ الآياتِ لهم، مع أنَّه تعالى فَصَّل الآياتِ للجُهَلاءِ أيضًا؛ لأنَّ انتِفاعَهم بالتَّفصيلِ أكثرُ؛ فهُم الَّذين يَنتَفِعون بتَفصيلِ الآياتِ، ويَتدبَّرون بها في الاستِدْلالِ، والنَّظرِ الصَّحيحِ⁽⁵⁾.

٢- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ...﴾ فيه تأكيدُ هذا الاستدلالِ بحَرفِ ﴿إِنَّ﴾؛ لأجلِ تَنزيلِ المخاطَبين به الَّذين لم يَهتَدوا بتِلْك الدَّلائلِ

---

(1) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٤).

(2) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(3) يُنظر: ((بيان المعاني)) للعاني (٣/ ٧).

(4) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٩٦- ٩٧).

(5) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٢٤٣).

إلى التَّوحيدِ مَنزِلةَ مَن يُنكِرُ أنَّ في ذلك آياتٍ على الوَحدانيَّةِ، بعَدمِ جَزْيِهم على مُوجِبِ العلمِ(١).

- قولُه: ﴿لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ خَصَّ المتَّقينَ؛ لأنَّهم الَّذين يحذرون من الوُقوعِ في شَيءٍ مِمَّا يخالِفُ مُرادَ الله سُبحانه، ويَخافون العَواقِبَ، فيَحمِلُهم الخوفُ على التدَبُّرِ والنَّظَرِ(٢)، وفيه مُناسَبَة حسَنةٌ، حيث جُعِلَت الآياتُ هنا لقوم يتَّقون؛ لأنَّ السِّياقَ تعريضٌ بالمشركين الَّذين لم يهتَدوا بالآياتِ؛ لِيَعلَموا أنَّ بُعْدَهم عن التَّقوى هو سببُ حِرمانِهم مِن الانتِفاعِ بالآياتِ، وأنَّ نَفْعَها حاصِلٌ للَّذين يتَّقون، أي: يَحذَرون الضَّلالَ؛ فالمتَّقون هم المتَّصِفون باتِّقاءِ ما يوقِعُ في الخُسْرانِ، فيَبعَثُهم على تَطلُّبِ أسبابِ النَّجاحِ، فيتَوجَّهُ الفِكْرُ إلى النَّظرِ والاستِدْلالِ بالدَّلائلِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٢٩)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٩٨).

الآيات (٧-١٠)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ (٧) أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ (٨) إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (٩) دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (١٠)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾: أي: سَكَنوا إليها، والطُّمأنينةُ والاطمِئنانُ: السُّكونُ بعد الانزِعاجِ[١].

﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا﴾: أي: دُعاؤُهم وقولُهم وكلامُهم؛ فالدَّعوى تُطلَقُ على: الادِّعاءِ والدُّعاءِ والقَولِ كذلك، وأصلُ (دعو): أنْ يُمِيلَ الشَّخصُ الشَّيءَ إليه بصَوتٍ وكَلامٍ يكونُ منه[٢].

المَعنى الإجماليُّ:

يبيِّنُ تعالى أنَّ الذينَ لا يتوقَّعونَ لِقاءَه يومَ القيامةِ، ورَضُوا بالحياةِ الدُّنيا بدلًا مِن الآخرةِ وسَكَنوا إليها، والذين هم عن آياتِه مُعرِضونَ؛ أولئك مَقرُّهم ومَسكَنُهم النَّارُ في الآخرةِ؛ بسبَبِ ما كانوا يكسِبونَه من الكُفرِ والمعاصي.

والذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ يَهديهم اللهُ ويُرشِدُهم في الآخرةِ إلى

---

[١] يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٢٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣١٢).

[٢] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٢٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٧٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٤٧، ٤٥٣).

جنَّاتِه؛ بسبَبِ إيمانِهم، تجري مِن تحتِهم الأنهارُ في جنَّاتِ النَّعيم، دُعاؤهم في الجنَّة أن يقولوا: سُبحانَك يا اللهُ، وتَحيَّةُ بعضِهم لبعضٍ فيها: سلامٌ، وخاتِمةُ دُعائِهم أن يقولوا: الحمدُ للهِ رَبِّ العالَمينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أقام اللهُ تعالى الدَّلائِلَ القاهِرةَ على صِحَّةِ القَولِ بإثباتِ الإلهِ الرَّحيمِ الحكيمِ، وعلى صِحَّةِ القَولِ بالمَعادِ والحَشرِ والنَّشرِ؛ شَرَعَ بعْدَه في شرحِ أحوالِ مَن يَكفُرُ بها، وفي شَرحِ أحوالِ مَن يُؤمِنُ بها، فأمَّا شَرحُ أحوالِ الكافرينَ، فهو المذكورُ في هذه الآيةِ(١).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾.

أي: إنَّ الَّذين لا يتوقَّعونَ لِقاءَنا يومَ القيامةِ، فلا يَخافونَ مِن لِقاءِ اللهِ، ولا يَطمَعونَ فيه، ولا يَخافونَ مِن عِقابِه، ولا يَطمَعونَ في ثوابِه(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٢١)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٢٧، ١٢٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٦، ١٠٧)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢١١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٩)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ١٨٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٨٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٥١). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٩٩).

قال الشوكاني: (ومعنى الرجاءِ هنا: الخوفُ... وقيل: يَرجُون: يَطمَعون... فالمعنى على الأوَّلِ: لا يخافونَ عقابًا، وعلى الثاني: لا يطمعونَ في ثوابٍ، إذا لم يكن المرادُ باللِّقاءِ حَقيقتَه، فإن كان المرادُ به حقيقَتَه كان المعنى: لا يخافونَ رُؤيَتَنا، أو لا يَطمعونَ في رُؤيَتِنا. وقيل: المرادُ بالرَّجاءِ هنا: التوقُّعُ، فيدخُلُ تحته الخوفُ والطَّمَعُ، فيكون المعنى: لا يرجونَ لِقاءَنا: لا =

﴿وَرَضُوا بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾.

أي: ورضُوا بالحياةِ الدُّنيا بدلًا من الآخرةِ، وفرحوا بها وركَنوا وسَكَنوا إليها(١).

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾.

أي: والذين هم(٢) عن آياتِنا الكونيَّةِ والتَّنزيليَّةِ مُعرِضونَ، لا يتفكَّرونَ فيها، ولا يَعتَبِرونَ بها(٣).

﴿أُولَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ⑧﴾.

= يتوقَّعونَ لِقاءَنا، فهم لا يخافونَه، ولا يطمعونَ فيه). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٨٥).

وقال محمد رشيد رضا: (فسَّرَ بعضُ المحَقِّقينَ الرجاءَ هنا بمجَرَّدِ التوقُّعِ الذي يشملُ ما يسُرُّ وما يسوءُ. واللِّقاء: الاستِقبال والمُواجَهة. والمعنى: إنَّ الذين لا يتوقَّعونَ لِقاءَنا في الآخرةِ للحِسابِ، وما يتلوه مِن الجزاءِ على الأعمالِ؛ لإنكارِهم البعثَ. ويلزَمُه أنَّهم لا يؤمِّلونَ لِقاءَه الخاصَّ بالمتَّقينَ في دارِ الكرامةِ، وخصَّه بَعضُهم بلقاءِ الرُّؤيةِ). ((تفسير المنار)) (١١/ ٢٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٢١)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٢٨، ١٢٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٧)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢١٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣١٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٨٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٩٩).

(٢) قال ابن عطية: (قَولُه: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ يحتَمِلُ أن يكونَ ابتداءَ إشارةٍ إلى فرقةٍ أخرى مِن الكُفَّارِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٨٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٠٠).

قال ابن عاشور: (المراد بالغفلة: إهمالُ النَّظرِ في الآيات أصلًا، بقرينة المقامِ والسِّياقِ، وبما تومئُ إليه الصِّلةُ بالجملة الاسمية ﴿هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ الدالَّة على الدوامِ، وبتقديم المجرورِ في قولِه: ﴿عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ مِن كَونِ غَفلَتِهم غفلةً عن آياتِ الله خاصَّةً دون غيرها من الأشياءِ، فليسوا من أهل الغفلةِ عنها؛ ممَّا يدُلُّ مجموعُه على أنَّ غَفلتَهم عن آياتِ اللهِ دأبٌ لهم وسجيَّةٌ، وأنهم يتعمَّدونَها، فتؤُولُ إلى معنى الإعراضِ عن آياتِ اللهِ، وإباءِ النَّظرِ فيها عنادًا ومكابرةً، وليس المرادُ مَن تَعرِضُ له الغفلةُ عن بعض الآياتِ في بعض الأوقاتِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٠٠).

أي: أولئك الذين تلك صِفاتُهم، مَقَرُّهم ومَسكَنُهم في الآخرةِ: النَّارُ؛ بسبَبِ ما كانوا يكسِبونَه في الدُّنيا مِنَ الكُفرِ والشِّركِ والمعاصي(١).

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٩ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لمَّا شَرَح الله تعالَى أحوالَ المنكرينَ والجاحدينَ في الآيةِ المتقدِّمة؛ ذكَر في هذه الآيةِ أحوالَ المؤمنينَ، فذكَر صفاتِهم أولًا، ثمَّ ذكَر ما لهم مِن الأحوالِ السَّنِيَّةِ والدَّرجاتِ الرَّفيعةِ ثانيًا(٢).

فمناسبةُ ذكرِ هذه الآيةِ مقابلةُ أحوالِ الذينَ يكَذِّبونَ بلقاءِ اللهِ بأضدادِها؛ تنويهًا بأهلِها وإغاظةً للكافرينَ(٣).

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ ﴾.

أي: إنَّ الذين آمَنوا بكُلِّ ما وجَبَ عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحاتِ؛ يَزيدُهم ربُّهم في الدُّنيا هدًى إلى هداهم، ويُرشِدُهم في الآخرةِ إلى جنَّاتِه، وذلك بِسَببِ إيمانِهم(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٢١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٢٣)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٢٩، ١٣٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣١٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٨/ ١٧٤، ١٧٥)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٤٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٨).

كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم: ٧٦].

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾.

أي: تَجري مِن تحتِ هؤلاءِ- الذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ- الأنهارُ، فتَجْري مِن تحتِ غُرَفِهم ومقاعِدِهم وسُرُرِهم في بساتينِ النَّعيم(١).

﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَـٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَـٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾.

أي: دُعاءُ المُؤمِنينَ في الجنَّةِ أن يقولوا: سُبحانَك اللَّهُم، أي: ننزِّهُك يا أللهُ تنزيهًا مِن كلِّ عيبٍ ونَقصٍ(٢).

عن جابرِ بنِ عَبدِ اللهِ رَضِيَ الله عنهما، قال: سمعتُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٢٥)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٣٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣١٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٨٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٢٦، ١٢٧)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣١٣)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٤١٧، ٤١٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٩).

قال الرازي: (المرادُ اشتِغالُ أهلِ الجنَّةِ بتَقديسِ اللهِ سُبحانَه وتَمجيدِه والثَّناءِ عليه؛ لأجلِ أنَّ سَعادَتَهم في هذا الذِّكرِ، وابتهاجَهم به وسُرورَهم به، وكمالَ حالِهم لا يَحصُلُ إلَّا منه). ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢١٦).

وسلَّم يقولُ: ((إنَّ أهلَ الجنَّةِ يأكلونُ فيها ويَشرَبونَ، ولا يَتفِلونَ ولا يَبولونَ، ولا يتغوَّطونَ ولا يَمتَخِطونَ. قالوا: فما بالُ الطَّعامِ؟! قال: جُشاءٌ ورَشحٌ كرَشحِ المِسكِ، يُلهَمونَ التَّسبيحَ والتَّحميدَ، كما تُلهَمونَ النَّفَسَ))[1].

﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾.

أي: وتحيَّةُ المؤمنينَ في الجنَّةِ: دعاءُ بَعضِهم لِبَعضٍ بالسَّلامةِ مِن كُلِّ سُوءٍ[2].

﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

أي: وخاتِمةُ دُعائِهم أن يقولوا: الحمدُ للَّهِ رَبِّ العالَمينَ، أي: جميعُ المحامِدِ مُستحَقَّةٌ لله تعالى ربِّ العالمينَ؛ فهو وَحدَه الموصوفُ بالكَمالِ، مع محبَّتِه وتعظيمِه عزَّ وجلَّ[3].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا

---

[1] رواه مسلم (٢٨٣٥).

[2] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٢٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٤٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٧، ١٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٩).

وقال الواحدي: (قوله: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ﴾ يحيي بعضُهم بعضًا بالسلامِ، وتحيةُ الملائكةِ إيَّاهم، وتحيةُ الله سلامٌ). ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٥٤٠).

[3] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٢٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٠، ٢٥١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٥٣).

قال ابنُ كثيرٍ: (جاءَ في الحديثِ: «إنَّ أهلَ الجنةِ يُلْهَمونَ التَّسبيحَ والتَّحميدَ كما يُلْهَمونَ النَّفَسَ» وإنَّما يكونُ ذلك كذلك؛ لِمَا يَرونَ مِن تضاعُفِ نِعَمِ اللهِ عليهم، فتُكَرَّرُ وتُعادُ وتُزادُ، فليس لها انقضاءٌ ولا أمَدٌ، فلا إلهَ إلَّا هو، ولا ربَّ سواه). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥١).

وقال ابن عاشور: (معنى آخِرِ دَعواهم: أنَّهم يَختِمونَ به دُعاءَهم، فهم يكرِّرونَ: سُبحانَك اللهُمَّ، فإذا أرادوا الانتقالَ إلى حالةٍ أخرى مِن أحوالِ النَّعيمِ، نَهَّوْا دعاءَهم بجملةِ: الحمدُ لِلَّهِ رَبِّ العالَمينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٠٤).

يَكْسِبُونَ﴾ في الآيةِ إشارةٌ إلى أنَّ البَهجةَ بالحياةِ الدُّنيا والرِّضا بها، يكونُ مِقدارُ التوغُّلِ فيهما بمِقدارِ ما يَصرِفُ عن الاستعدادِ إلى الحياةِ الآخرةِ، وليس ذلك بمُقتضٍ الإعراضَ عن الحياةِ الدُّنيا؛ فإنَّ اللهَ أنعَمَ على عبادِه بنِعَمٍ كثيرةٍ فيها، وجَبَ الاعترافُ بفَضْلِه بها، وشُكْرُه عليها، والتعَرُّفُ بها إلى مراتِبَ أعلى، هي مراتبُ حياةٍ أخرى، والتزوُّد لها(١).

٢- قال تعالى: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ جُعِلَ الإيمانُ وَحْدَه سبَبَ الهدايةِ؛ لأنَّه هو الباعِثُ النَّفسيُّ لها(٢).

الفَوائِدُ العِلْمِيَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ في هذه اللَّفظةِ رَدٌّ على الجَبريَّةِ(٣)، فقد أثبَتَ الله تعالى للعبادِ كَسْبًا، والكَسْبُ: هو الفعلُ الَّذي يعودُ على فاعِلِه منه نفعٌ أو ضَرَرٌ، فالعبادَ فاعِلونَ لأفعالِهم حقيقةً، ويَسْتَوْجِبونَ عليها المدحَ والذَّمَّ(٤).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ الباءُ في قَولِه: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ مُشعِرٌ بأنَّ الأعمالَ السَّابقةَ هي المؤثِّرةُ في حُصولِ هذا العذابِ، ونظيرُه قَولُه تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾(٥) [الحج: ١٠].

٣- قال الله تعالى: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ أضافها اللهُ إلى النَّعيمِ؛ لاشتمالِها على النَّعيمِ التَّامِّ؛ نعيمِ القَلْبِ: بالفَرَحِ والسُّرورِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٧).

(٤) يُنظر: ((شرح العقيدة الطحاوية)) لابن أبي العز (٢/ ٦٤١، ٦٥٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢١٢).

والبهجةِ والحُبورِ، ورؤيةِ الرَّحمنِ وسَماعِ كَلامِه، والاغتباطِ برِضاه وقُربِه، ولقاءِ الأحبَّةِ والإخوانِ، والتمتُّعِ بالاجتماعِ بهم، وسَماعِ الأصواتِ المُطرِباتِ، والنَّغَماتِ المُشجِياتِ، والمَناظِرِ المُفرِحاتِ، ونعيمِ البَدَنِ: بأنواعِ المآكِلِ والمَشارِبِ والمناكِحِ، ونحوِ ذلك ممَّا لا تَعلَمُه النُّفوسُ، ولا خطَرَ ببالِ أحدٍ، أو قدَرَ أن يَصِفَه الواصِفونَ(١).

٤- قولُه تعالى: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ و﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فيه أنَّ التَّسبيحَ والحَمدَ قد يُسمَّى دُعاءً، وكذلك التهليلُ. فعن ابنِ عبَّاسٍ: ((أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يقولُ عند الكَربِ: لا إلهَ إلَّا اللهُ العظيمُ الحَليمُ، لا إلهَ إلَّا اللهُ رَبُّ العَرشِ العَظيمِ، لا إلهَ إلَّا اللهُ ربُّ السَّمَواتِ، ورَبُّ الأرضِ، ورَبُّ العَرشِ الكَريمِ))(٢)، وكان السَّلَفُ يُسَمُّونَه دعاءَ الكَربِ، وعن سعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((دعوةُ ذي النُّونِ إذ دعا بها في بطنِ الحُوتِ: لا إلهَ إلَّا أنت سُبحانَك إنِّي كنتُ مِن الظَّالِمينَ؛ فإنَّه لن يدعُوَ بها مُسلِمٌ في شَيءٍ إلَّا استُجيبَ له))(٣).

٥- وَجهُ ذِكرِ: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ في عدَدِ أحوالِهم أنَّها تدُلُّ على أنَّ ما هُم فيه مِن النَّعيمِ هو غاياتُ الرَّاغِبينَ بحيثُ إن أرادوا أن يَنعَموا بمقامِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٨).

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٤٦)، ومسلم (٢٧٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣١٤).

والحديث أخرجه الترمذي (٣٥٠٥)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١٠٤٩٢) واللفظ له، وأحمد (١٤٦٢).

قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (١٠/ ١٦١): رجال أحمد رجال الصحيح غير إبراهيم بن محمد بن سعد بن أبي وقاص وهو ثقة، وحسنه ابن حجر كما في ((الفتوحات الربانية)) لابن علان (٤/ ١١)، وصحح إسناده أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٣/ ٣٦)، وصححه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٥٠٥).

دُعاءِ ربِّهم، الَّذي هو مَقامُ القُربِ لم يَجِدوا أنفُسَهم مُشتاقِين لشيءٍ يَسألونه، فاعتاضوا عَن السُّؤالِ بالثَّناءِ على ربِّهم، فأُلهِموا إلى الْتِزامِ التَّسبيحِ؛ لأنَّه أدَلُّ لفظٍ على التَّمْجيدِ والتَّنزيهِ، فهو جامِعٌ للعِبارةِ عَن الكمالاتِ(١).

٦- يُستحَبُّ للدَّاعي أن يقولَ في آخِرِ دُعائِه (الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ)، كما قال الله تعالى عن أهلِ الجنَّةِ: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(٢).

٧- قولُه: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هذا فيه دلالةٌ على أنَّ اللَّهَ تعالَى هو المحمودُ أبدًا، المعبودُ على طولِ المَدَى؛ ولهذا حَمِد نفسَه عندَ ابتداءِ خَلْقِه واستمرارِه، وفي ابتداءِ كتابِه، وعندَ ابتداءِ تنزيلِه، حيثُ يقولُ تعالَى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكَهف: ١]، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١] إلى غيرِ ذلك مِن الأحوالِ الَّتي يطولُ بسطُها(٣)، ويختمُ الأمورَ بالحَمدِ، كقَولِه تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزُّمَر: ٧٥]، ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥]، وهو سبحانه ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(٤) [القَصص: ٧٠].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣١٤)، ((الأذكار)) للنووي (ص: ١١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٠).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٣٤).

استِئنافُ وعيدٍ للَّذين لم يُؤمِنوا بالبَعثِ، ولا فكَّروا في الحياةِ الآخِرَةِ، ولم يَنظُروا في الآياتِ، نشَأ عَن الاستدلالِ على ما كفَروا به مِن ذلك؛ جَمعًا بينَ الاستِدلالِ المناسبِ لأهلِ العقولِ، وبينَ الوعيدِ المناسِبِ للمُعرِضين عن الحقِّ. ولِوُقوعِ هذه الجملةِ مَوقِعَ الوعيدِ الصَّالحِ لأَنْ يَعلَمَه النَّاسُ كلُّهم مُؤمِنُهم وكافِرُهم؛ عدَل فيها عن طريقةِ الخطابِ بالضَّميرِ إلى طريقةِ الإظهارِ، وجيءَ بالموصولةِ ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ...﴾؛ للإيماءِ إلى أنَّ الصِّلَةَ عِلَّةٌ في حُصولِ الخبَرِ⁽١⁾.

- وفي الكلامِ مَحذوفٌ، والتَّقديرُ: ورَضُوا بالحياةِ الدُّنيا مِن الآخرةِ، كقولِه: ﴿أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾⁽٢⁾ [التوبة: ٣٨].

- وفيه اختيارُ صيغةِ الماضي (رَضُوا- اطْمَأَنُّوا)؛ للدَّلالةِ على التَّحقُّقِ والتَّقرُّرِ، كما أنَّ اختيارَ صِيغةِ المستقبَلِ ﴿لَا يَرْجُونَ﴾؛ للإيذانِ باستِمْرارِ عدَمِ الرَّجاءِ⁽٣⁾.

- قولُه: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ فيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث أُعيد الموصولُ؛ للاهتِمامِ بالصِّلةِ، والإيماءِ إلى أنَّها وحْدَها كافيةٌ في استِحقاقِ ما سَيُذكَر بعدَها مِن الخبَرِ، وإنَّما لم يُعِدِ الموصولَ في قولِه: ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾؛ لأنَّ الرِّضا بالحياةِ الدُّنيا مِن تَكْملةِ مَعنى الصِّلةِ الَّتي في قولِه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾⁽٤⁾.

٢- قولُه تعالى: ﴿أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ فيه الإتيانُ باسْمِ الإشارةِ ﴿أُولَئِكَ﴾؛ لِزيادَةِ إحصاءِ صِفاتِهم في أذهانِ السَّامِعين، ولِمَا يُؤْذِنُ به

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٩٨- ٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٠٠).

مَجيءُ اسْمِ الإشارةِ مُبتَدَأً عَقِبَ أوصافِهم مِن التَّنبيهِ على أنَّ المشارَ إليه جديرٌ بالخبَرِ مِن أجلِ تلك الأوصافِ(١).

- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ في تَسميةِ دارِ العذابِ (مأوًى) معنًى دقيقٌ في البلاغةِ، يُشعرُ بأنَّ أولئك المُطمئِنِّينَ بالشَّهواتِ، والغافلينَ عن الآياتِ؛ ليس لهم مصيرٌ يَلجَؤونَ إليه بعد هَولِ الحِسابِ، إلَّا جَهنَّمُ دارُ العذابِ، فوَيلٌ لِمَن كانت هذه الدَّارُ له كالمَلجأِ والمَوئِلِ؛ إذ لا مأوَى له يلجأُ إليه بَعدَها(٢).

- قولُه: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ فيه الإتيانُ بـ(ما)؛ للإيماءِ إلى عِلَّةِ الحُكمِ، أي: إنَّ مَكسوبَهم سببٌ في مَصيرِهم إلى النَّارِ، فأفاد تأكيدَ السَّببيَّةِ المفادَةِ بالباءِ، والإتيانُ بـ(كان)؛ للدَّلالةِ على أنَّ هذا المكسوبَ دَيدَنُهم(٣).

- ومَجيءُ قولِه: ﴿يَكْسِبُونَ﴾ بصِيغةِ المضارِعِ؛ للدَّلالةِ على أنَّهم لم يَزالوا مُستمِرِّين على ذلك ماضِيَ زَمانِهم ومُستَقبَلَه؛ ففيه دَلالةٌ على التَّكريرِ، فيَكونُ دَيدَنُهم تَكريرَ ذلك الَّذي كسَبوه(٤).

٣- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ ...﴾ جملةٌ مستأنَفةٌ استِئنافًا بَيانيًّا؛ لِتَكونَ أحوالُ المؤمنين مُستقِلَّةً بالذِّكرِ غيرَ تابعةٍ في اللَّفظِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٠٠).

لأحوالِ الكافِرين، وهذا مِن طُرقِ الاهتِمامِ بالخبَرِ(١).

- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ وصَفَهم أوَّلًا بالإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ بصيغةِ الماضي؛ لبيانِ صِنفِهم وفريقِهم المُقابِلِ للفَريقِ الذي ذُكِرَ قبلَهم، وأخبَرَ عن هدايتِه لهم بصيغةِ المضارعِ ﴿يَهْدِيهِمْ﴾ الدالَّةِ على الاستمرارِ والتجَدُّدِ(٢).

- وفي قولِه: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ﴾ أُوثِرَ الالتِفاتُ؛ تَشْريفًا لهم بإضافةِ الرَّبِّ، وإشعارًا بعِلَّةِ الهدايةِ(٣)، وفي العُدولِ عَنِ اسمِ الجلالةِ العَلَمِ- حيثُ لم يَقُلْ: (يَهْديهم اللهُ)- إلى وصفِ الرُّبوبيَّةِ مُضافًا إلى ضَميرِ الَّذين آمَنوا ﴿رَبُّهُمْ﴾: تنويهٌ بشأنِ المؤمنينَ وشأنِ هِدايتِهم، بأنها ناتجةٌ عن كونِه سبحانَه مولى لأوليائِه؛ فشَأنُها أن تَكونَ عطيَّةً كاملةً مَشُوبةً برحمةٍ وكرامةٍ(٤).

٤- **قولُه تعالى:** ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الاقتِصارُ على كَونِ دَعْواهُم فيها كَلِمةَ ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ يُشعِرُ بأنَّهم لا دَعْوى لهم في الجنَّةِ غيرَ ذلك القولِ؛ لأنَّ الاقتِصارَ في مَقامِ البيانِ يُشعِرُ بالقَصْرِ- وإن لم يَكُنْ هو مِن طُرقِ القَصْرِ. لكنَّه يُستَفادُ مِن المقامِ- ولكنَّ قولَه: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يُفيدُ أنَّ هذا التَّحميدَ مِن دَعْواهم؛ فتَحَصَّل مِن ذلك أنَّ لهم دَعْوى وخاتِمةَ دَعْوى(٥).

* * *

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٠٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ١٠٣).

الآيتان (١١-١٢)

﴿ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿طُغْيَانِهِمْ﴾: أي: عُتُوِّهِمْ وتكبُّرهم. وأصلُ الطُّغيانِ: مُجاوزةُ الحدِّ(١).

﴿يَعْمَهُونَ﴾: أي: يتردَّدونَ ويتحيَّرونَ. وأصلُ (عمه): يدلُّ على حَيرةٍ، وقِلَّةِ اهتداءٍ(٢).

المَعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ اللهُ تعالى أنَّه لو يعَجِّلُ للنَّاسِ الشَّرَّ كاستِعجالِهم بالخَيرِ، لَهلكوا، ويَترُكُ اللهُ الذينَ لا يَرجُونَ لِقاءَه في الآخرةِ في ضَلالِهم متحَيِّرينَ مُتَردِّدينَ.

وإذا مَسَّ الإنسانَ الضُّرُّ دعا ربَّه عزَّ وجَلَّ، في جميعِ أحوالِه: مُضطجِعًا على جَنْبِه أو قاعِدًا أو قائِمًا، فلمَّا كشَفَ اللهُ عنه ضُرَّه، استمَرَّ على ما كان عليه مِنَ الكُفرِ أو المعاصي، ونَسِيَ أو تناسى ما كان عليه مِن الشِّدَّةِ، ولم يشكُرِ اللهَ الذي فرَّجَ عنه، وكأنَّه لم يَدْعُه إلى رَفعِ ما أصابَه، كذلك زُيِّنَ للكافرين المُجاوِزينَ الحَدَّ في الكُفرِ والعِصيانِ ما كانوا يَعملونَ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١)، ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣٢١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٢١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١)، ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣٢١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤ / ١٣٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٢).

تفسيرُ الآيتَين:

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا وصَفَ الكُفَّارَ بأنَّهم لا يرَجُونَ لِقاءَ اللهِ، ورَضُوا بالحياةِ الدُّنيا واطمَأنُّوا بها، وكانوا عن آياتِ الله غافلينَ - بَيَّنَ أنَّ مِن غَفلَتِهم أنَّ الرَّسولَ متى أنذَرهم استعجَلوا العذابَ؛ جهلًا منهم وسَفَهًا⁽¹⁾.

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ الله عَجَبَ النَّاسِ مِن إيحائِه تعالى إلى رَجُلٍ منهم. وكان فيما أُوحِيَ إليه الإنذارُ والتَّبشيرُ، وكانوا يستهزئونَ بذلك، ولا يعتَقِدونَ حُلولَ ما أنذَروه بهم، ثمَّ استطرَدَ مِن ذلك إلى وحدانيَّتِه تعالى، وذِكْرِ إيجادِه العالَمَ، ثم إلى تقسيمِ النَّاسِ إلى مؤمِنٍ وكافرٍ، وذِكْرِ منازِلِ الفريقينِ - رجع إلى أنَّ ذلك المُنذَرَ به الذي طلَبوا وقوعَه عَجَلًا، لو وقَعَ لَهَلكوا، فلم يكُن في إهلاكِهم رجاءُ إيمانِ بَعضِهم، وإخراجُ مُؤمنٍ مِن صُلبِهم، بل اقتضَتْ حِكمتُه ألَّا يُعجِّلَ لهم ما طَلَبوه؛ لِمَا ترتَّبَ على ذلك⁽²⁾.

وأيضًا هذه الجُملةَ مَعطوفةٌ على جملةِ ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ الآية، فحيث ذَكَرَ عذابَهم الذي هم آيلونَ إليه، ناسَبَ أن يبيِّنَ لهم سبَبَ تأخيرِ العذابِ عنهم في الدُّنيا؛ لتُكشَفَ شُبهةُ غُرورِهم، وليَعلَمَ الذين آمنوا حكمةً مِن حِكَمِ تصَرُّفِ اللهِ في هذا الكَونِ⁽³⁾.

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٠٦).

أي: ولو يُعجِّلُ الله للنَّاسِ الشرَّ إذا دَعَوْا به، كاستعجالِهم بالخير(١)، لهلَكوا(٢).

عن جابرِ بنِ عَبدِ اللهِ، رَضِيَ الله عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لا تَدْعُوا على أنفُسِكم، ولا تَدْعُوا على أولادِكم، ولا تَدعُوا على أموالِكم؛ لا تُوافِقوا مِن اللهِ ساعةً يُسألُ فيها عطاءً، فيستجيبَ لكم))(٣).

﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾.

أي: فنَترُكُ الذين لا يُؤمِنونَ بلِقائِنا، فلا يخافونَ عِقابَنا، ولا يَطمَعونَ في

---

(١) ذهب بعض المفسِّرين إلى أنَّ قَولَه تعالى: ﴿اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ﴾ يعني تعجيلَ اللهِ الخيرَ لهم. أي: ولو يعجِّلُ الله للنَّاسِ إجابةَ دُعائِهم فيما فيه عليهم مضَرَّةٌ، كتعجيلِه لهم الإجابةَ في الخيرِ إذا دَعَوه به. وممن اختار ذلك: ابنُ جريرٍ، وابنُ كثيرٍ، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٩).
وجعل بعضُ المفَسِّرينَ الاستعجالَ مِن فِعلِ العبادِ، كما قال تعال: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١]. ومنهم: ابنُ قتيبةَ، والواحديُّ، والبغويُّ، وابنُ عطيةَ. يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢٦)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٣٤)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤١٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢٥،٢٢٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٢٩)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٣٣-١٣٦)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤١٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٩).
قال الواحدي: (قولُه تعالى: ﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾، قال عامة المفَسِّرين: أي: لَماتوا وهلكوا جميعًا وفُرِغَ مِن هلاكهم، وقال أبو عبيدةَ: لفُرِغَ عن أجَلِهم، والتقدير: لفُرِغَ مِن أجلهم ومدَّتِهم المضروبةِ للحياة، فإذا انتهت مدَّتُهم المضروبةُ للحياة هلكوا، ومعنى الفراغِ مِن المدة: انقضاؤها، والشَّيءُ إذا انقضى فُرِغَ منه). ((البسيط)) (١١/ ١٣٦).
وقال ابنُ جُزي: (نزلت الآيةُ- عندَ قومٍ- في دعاءِ الإنسانِ على نفسِه ومالِه وولده، وقيل: نزلَتْ في الذينَ قالوا: ﴿إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٥٣).
وقال ابنُ عطيةَ: (حُذف بعدَ ذلك مِن القولِ جملةٌ يتضمَّنُها الظاهرُ، تقديرُها: «ولا يفعلُ ذلك، ولكن يذرُ الذين لا يَرْجون...» فاقتضَب القولَ، وتوصَّل إلى هذا المعنَى بقولِه: ﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا﴾ فتأملْ هذا التقديرَ تجِدْه صحيحًا). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٨).

(٣) أخرجه مسلم (٣٠٠٩).

ثَوابنا، نَترُكُهم في تَمَرُّدِهم مُتَرَدِّدينَ مُتحَيِّرينَ، لا يَهتَدونَ إلى الحَقِّ[١].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ [النمل: ٤]

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى حكى عن الكافرينَ أنَّهم يَستعجِلونَ في نزولِ العَذابِ، ثمَّ بيَّنَ في هذه الآيةِ أنَّهم كاذِبونَ في ذلك الطَّلَبِ والاستعجالِ؛ لأنَّه لو نزَلَ بالإنسانِ أدنى شَيءٍ يَكرَهُه ويُؤذيه، فإنَّه يتضَرَّعُ إلى اللهِ تعالى في إزالَتِه عنه، وفي دَفْعِه عنه، وذلك يدُلُّ على أنَّه ليس صادِقًا في هذا الطَّلَبِ[٢].

وأيضًا لَمَّا استدعَى الكافِرونَ حُلولَ الشَّرِّ بهم، وأنَّه تعالى لا يفعَلُ ذلك بطَلَبِهم، بل يترُكُ مَن لا يرجو لقاءَه يَعمَهُ في طُغيانِه؛ بَيَّنَ شِدَّةَ افتقارِ النَّاسِ إليه، واضطرارَهم إلى استمطارِ إحسانِه؛ مُسيئِهم ومُحسِنِهم، وأنَّ مَن لا يرجو لِقاءَه مُضطَرٌّ إليه حالةَ مَسِّ الضُّرِّ له، فكُلٌّ يلجأُ إليه حينَئذٍ، ويُفرِدُه بأنَّه القادِرُ على كَشفِ الضُّرِّ[٣].

وأيضًا فإنَّ هذه الآيةَ عَطفٌ على جُملةِ ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ﴾؛

---

[١] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٣٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣١٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٠٨).

[٢] يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٢٠).

[٣] يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٠).

لأنَّ الغَرَضَ الأهَمَّ مِن كِلتَيهما، هو الاعتبارُ بذَميمِ أحوالِ المُشرِكينَ؛ تَفظيعًا لحالِهم، وتحذيرًا مِن الوقوعِ في أمثالِها، بقرينةِ تَنهيةِ هذه الآيةِ بجُملةِ: ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فلمَّا بَيَّنَ في الآيةِ السَّابقةِ وَجْهَ تأخيرِ عَذابِ الاستئصالِ عنهم، وإرجاءِ جَزائِهم إلى الآخرةِ، بَيَّنَ في هذه الآيةِ حالَهم عِندَما يَمَسُّهم شيءٌ من الضُّرِّ، وعِندَما يُكشَفُ الضُّرُّ عنهم(١).

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا ﴾.

أي: وإذا أصابَ الإنسانَ الشِّدَّةُ والكَربُ اجتهَدَ في دعائِنا في جميعِ أحوالِه؛ مُضطَجِعًا على جَنبِه، أو قاعدًا، أو قائمًا(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان: ٣٢].

وقال سُبحانه: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١].

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ﴾.

أي: فلمَّا فَرَّجْنا عن الإنسانِ المُضطَرِّ، واستجَبْنا دُعاءَه، استمَرَّ على ما كان عليه مِن الكُفرِ أو المعاصي، ونَسِيَ أو تناسى ما كان فيه مِن الشِّدَّةِ، ولم يتَّعِظْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٣٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١١٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٥٢).
قال السعدي: (هذا إخبارٌ عن طبيعةِ الإنسانِ مِن حيث هو). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٩).
قال ابن عطية: (الضُّرُّ لَفظٌ لِجَميعِ الأمراضِ والرَّزايا في النَّفسِ والمالِ والأحبَّةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٩). ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ١٠٥).

بذلك، ولم يَشكُر، كأنَّه لم يَدْعُنا إلى رَفعِ ما أصابَه(١)!

كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥-٦٦].

وقال سُبحانه: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: ٨].

﴿ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

أي: كما زُيِّنَ للإنسانِ الدُّعاءُ عند البَلاءِ، والإعراضُ عند الرَّخاءِ، واستمرارُه على ما كان عليه مِن كُفرانٍ بعد كَشْفِ ضُرِّه، كذلك زُيِّنَ للكافرين المُجاوِزينَ الحَدَّ في الكُفرِ والعِصيانِ ما كانوا يَعملونَه من ذلك(٢).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٣٢، ١٣٣)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٣٣)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٣٩، ١٤٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣١٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١١٢).

قال الشوكاني: (والتزيينُ هو إمَّا مِن جهةِ الله تعالى على طريقةِ [التخليةِ] وعدمِ اللطفِ بهم، أو مِن طريقِ الشيطانِ بالوسوسةِ، أو مِن طريقِ النفسِ الأمَّارة بالسوءِ). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٨٨).

وقال ابنُ عطيةَ: (ولفظةُ التَّزيينِ قد جاءت في القرآنِ بهذينِ المَعنَيينِ: مِن فِعلِ الله تعالى، ومرَّةً مِن فِعلِ الشَّياطينِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٩).

كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾. المَقصودُ مِن هذه الآيةِ بيانُ أنَّ الإنسانَ قَليلُ الصَّبرِ عندَ نُزولِ البَلاءِ، قليلُ الشُّكرِ عندَ وِجدانِ النَّعماءِ والآلاءِ؛ فإذا مَسَّه الضُّرُّ أقبَلَ على التضَرُّعِ والدُّعاءِ، مُضطَجِعًا أو قائمًا أو قاعِدًا، مجتَهِدًا في ذلك الدُّعاءِ، طالبًا مِن اللهِ تعالى إزالةَ تلك المِحنةِ، وتبديلَها بالنِّعمةِ والمِنحةِ، فإذا كشَفَ تعالى عنه ذلك بالعافيةِ، أعرَضَ عن الشُّكرِ، ولم يتذكَّرْ ذلك الضُّرَّ، ولم يَعرِفْ قَدْرَ الإنعامِ، وصار بمنزلةِ مَن لم يَدْعُ اللهَ تعالى لِكَشفِ ضُرِّه، وذلك يدُلُّ على ضَعفِ طبيعةِ الإنسانِ، وشِدَّةِ استيلاءِ الغَفلةِ والشَّهوةِ عليه، وإنَّما ذكَرَ الله تعالى ذلك؛ تنبيهًا على أنَّ هذه الطريقةَ مَذمومةٌ، بل الواجِبُ على الإنسانِ العاقِلِ أن يكونَ صابِرًا عند نزولِ البَلاءِ، شاكِرًا عند الفَوزِ بالنَّعماءِ، ومِن شَأنِه أن يكونَ كَثيرَ الدُّعاءِ والتضَرُّعِ في أوقاتِ الرَّاحةِ والرَّفاهيةِ؛ حتى يكونَ مُجابَ الدَّعوةِ في وقتِ المِحنةِ(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾ هو إجمالٌ يُنبِئُ بأنَّ الله جعَلَ نِظامَ هذا العالَمِ على الرِّفقِ بالمخلوقاتِ، واستبقاءِ الأنواعِ إلى آجالٍ أرادَها، وجعَلَ لهذا البَقاءِ وَسائِلَ الإمدادِ بالنِّعَمِ التي بها دوامُ الحياةِ، فالخيراتُ المُفاضةُ على المخلوقاتِ في هذا العالَمِ كثيرةٌ، والشُّرورُ العارِضةُ نادرةٌ، ومُعظَمُها مُسبَّبٌ عن أسبابٍ مَجعولةٍ في نظامِ الكَونِ وتصَرُّفاتِ أهلِه، ومنها ما يأتي على خِلافِ العادةِ عند محَلِّ آجالِه التي قَدَّرَها

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٢٠).

وقال ابنُ عطيةَ: (قولُه تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ... ﴾ الآية، هذه الآيةُ أيضًا عِتابٌ على سوءِ الخُلُقِ من بعضِ النَّاسِ، ومُضَمَّنُه النَّهيُ عن مِثلِ هذا، والأمرُ بالتَّسليمِ إلى الله تعالى والضَّراعةِ إليه في كلِّ حالٍ، والعِلمُ بأنَّ الخَيرَ والشَّرَّ منه، لا رَبَّ غَيرُه). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٩).

الله تعالى بقَولِه تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ [يونس: ٤٩]، وقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾⁽¹⁾ [الرعد: ٣٨].

٢- في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ﴾ جاء (الضرُّ) بالألف واللام؛ لأنَّه إشارةٌ إلى ما تقدَّمَ من الشَّرِّ في قولِه تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ﴾؛ فإنَّ الضُّرَّ والشَّرَّ واحِدٌ⁽²⁾.

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾ فائدةُ ذِكرِ هذه الأحوالِ أنَّ المضرورَ لا يزالُ داعيًا، لا يفتُرُ عن الدُّعاءِ، إلى أن يزولَ عنه الضُّرُّ، سواءٌ كان مُضطَجِعًا أو قاعدًا أو قائمًا⁽³⁾.

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ قد أسنِدَ التَّزيينُ هنا إلى المَفعولِ؛ لأنَّه المقصودُ بالعِبرةِ دونَ فاعِلِه⁽⁴⁾.

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ﴾ فيه وَضْعُ ﴿اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ﴾ موضِعَ (تَعْجيلِه لهم الخَيرَ)- لأنَّ أصلَه: (ولو يُعجِّلُ اللهُ للنَّاسِ الشَّرَّ تَعْجيلَه لهم الخيرَ)-؛ إشعارًا بسُرعةِ إجابَتِه لهم، وإسعافِه بطَلِبَتِهم، حتَّى كأنَّ استِعْجالَهم بالخَيرِ تعجيلٌ لهم⁽⁵⁾ وذلك على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٥٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٣١- ٣٣٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٩). =

أحدِ أوجهِ التأويلِ.

٢- قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ﴾ وصفٌ للمُستقبَلِ، وقوله: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا﴾ للماضي؛ للدَّلالةِ على أنَّه هكذا كان فيما مَضَى، وهكذا يَكونُ في المستقبَلِ؛ فدَلَّ ما في الآيةِ مِن الفعلِ المستقبَلِ على ما فيه مِن المعنى المستقبَلِ، وما فيها مِن الفِعْلِ الماضي على ما فيه مِن المعنى الماضي⁽¹⁾.

- وزيادةُ قولِه: ﴿أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾؛ لِقَصْدِ تعميمِ الأحوالِ وتَكْميلِها؛ لأنَّ المقامَ مَقامُ الإطنابِ لِزيادةِ تمثيلِ الأحوالِ، أي: دَعانا في سائرِ الأحوالِ لا يُلْهيه عَن دُعائِنا شيءٌ⁽²⁾.

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ؛ حيث ابتَدَأ بالحالةِ الشَّاقَّةِ ﴿دَعَانَا لِجَنبِهِ﴾، وهي اضطِجاعُه وعَجْزُه عن النُّهوضِ، وهي أعظَمُ في الدُّعاءِ وآكَدُ، ثُمَّ بما يَليها، وهي حالةُ القُعودِ: ﴿أَوْ قَاعِدًا﴾، وهي حالَةُ العَجزِ عن القيامِ، ثمَّ بما يَليها وهي حالةُ القيامِ: ﴿أَوْ قَائِمًا﴾، وهي حالةُ العَجزِ عَن المشيِ، فتَراه يَضْطَرِبُ

= وقيل: حقيقةُ قَولِك: عَجَّلتُ فُلانًا: طلبتُ عَجَلتَه، وكذلك عجلْتُ الأمرَ: إذا أتيتَ به عاجلًا، كأنَّك طلبتَ فيه العَجَلةَ، والاستعجالُ أشهَرُ وأظهَرُ في هذا المعنى، وعلى هذا الوجهِ يَصيرُ معنى الآية: لو أراد اللهُ عَجَلةَ الشَّرِّ للنَّاسِ- كما أرادوا عجَلَةَ الخَيرِ لهم- لَقُضِيَ إليهم أجَلُهم، وعلى هذا التقدير: فلا حاجةَ إلى العدولِ عن ظاهِرِ الآية. وقيل: إنَّ كُلَّ مَن عَجَّل شيئًا فقد طلب تعجيلَه، وإذا كان كذلك، فكلُّ من كان مُعَجِّلًا كان مُستعجِلًا، فيصير التقديرُ: ولو استعجل اللهُ للنَّاسِ الشَّرَّ استعجالَهم بالخيرِ. إلَّا أنَّه تعالى وصف نفسَه بتكوينِ العَجَلةِ ووصَفَهم بطَلَبِها؛ لأنَّ اللائِقَ به تعالى هو التكوينُ، واللائقَ بهم هو الطَّلَبُ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢١٨-٢١٩).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٠٩).

ولا يَنهَضُ للمَشيِ كحالَةِ الشَّيخِ الهَرِمِ(١)، وذلك على أحدِ أوجهِ التأويلِ.

- قولُه: ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ تذييلٌ يَعُمُّ ما تقَدَّم وغيرَه، والإشارةُ إلى التَّزيينِ المستَفادِ هنا، وهو تزيينُ إعراضِهم عن دُعاءِ اللهِ في حالةِ الرَّخاءِ(٢).

* * *

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١١٢).

الآيتان (١٣-١٤)

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلماتِ:

﴿ٱلْقُرُونَ﴾: جمعُ قَرْنٍ، والقرنُ: القومُ أو الأُمَّةُ مِنَ النَّاسِ المقترنونَ في زمنٍ واحدٍ، غَيْر مُقَدَّرٍ بمدةٍ مُعَيَّنةٍ، وقيل: مدَّة القرنِ مئةُ سنةٍ، وقيل: ثمانونَ، وقيل: ثلاثون، وقيل غيرُ ذلك، وهو مأخوذٌ مِن الاقترانِ، وهو اجتماعُ شيئينِ، أو أشياءَ في معنًى مِن المعاني، وأصلُ (قرن): يدلُّ على جمعِ شيءٍ إلى شيءٍ(١).

﴿خَلَٰٓئِفَ﴾: أي: سُكَّانًا يخلُفُ بَعضُكم بعضًا، وأصلُ (خلف): أن يَجيءَ شَيءٌ بعدَ شَيءٍ يقومُ مَقامَه(٢).

المَعنى الإجماليُّ:

يُخاطِبُ اللهُ تعالى المُشرِكينَ أنَّه قد أهلَكَ الأمم مِن قَبْلِهم لَمَّا ظَلَموا بإشراكِهم باللهِ، وتكذيبِهم رُسُلَه، وأتتْ تلك الأممَ الماضيةَ رُسُلُ اللهِ إليهم بالمُعجزاتِ والبَراهينِ الواضِحاتِ، فما كانوا ليُؤمِنوا؛ لأنَّ اللهَ طَبَع على قُلوبِهم؛ لِشِدَّةِ كُفرِهم، ومُعانَدتِهم للحَقِّ، كذلك يَجزي الله القَومِ المُجرمينَ.

ثم جَعَلَهم خلائِفَ في الأرضِ من بعدِ أولئك الأمَمِ التي أهلَكَها اللهُ، ليَنظُرَ كيف يَعملونَ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٠)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٢/ ٤٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٦، ٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٢٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٤٧٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٠).

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّه عاد الخِطابُ إلى المُشرِكينَ عَودًا على بَدْئِه، في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ...﴾ إلى قَولِه ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [يونس: ٣- ٥] بمناسبةِ التَّماثُلِ بينهم وبين الأُمَم قَبلَهم في الغُرورِ بتَأخيرِ العَذابِ عنهم، حتى حَلَّ بهم الهلاكُ فجأةً، وهذه الآيةُ تَهديدٌ ومَوعظةٌ بما حلَّ بأمثالِهم(١).

وأيضًا لَمَّا كان مَحَطُّ نظَرِ الكافرينَ الدُّنيا، وكان ما سبَقَ صَريحًا في الإمهالِ للظَّالِمينَ، والإحسانِ إلى المُجرِمينَ؛ أتبَعَه بِقَولِه تعالى مُهَدِّدًا لهم، رادعًا عمَّا هم فيه(٢):

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ﴾.

أي: ولقد أهلَكْنا بالاستئصالِ الأمم الماضيةِ التي كانت قَبلَكم- أيُّها المُشرِكونَ(٣)- لَمَّا أشرَكَ أهلُها باللهِ، وكَذَّبوا رُسُلَه، وخالفوا أمْرَه ونَهْيَه(٤)

كما قال سُبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١١٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٨٥).

(٣) ممَّن نَصَّ على أنَّ المُرادَ بالمُخاطَبينَ هنا: أهلُ مكَّةَ: مقاتِلُ بنُ سليمانَ، والقرطبيُّ. وذكَر ابنُ جريرٍ أنَّهم المُشرِكونَ برَبِّهم. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١١٣).

مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾ [السجدة: ٢٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ ﴾ [ق: ٣٦].

﴿ وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾.

أي: وأتت الأممَ الماضيةَ رُسُلُ اللهِ بالمُعجزاتِ والبَراهينِ الواضِحةِ التي تدُلُّ على صِدقِهم⁽¹⁾.

كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [التوبة: ٧٠].

﴿ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ﴾.

أي: فلم يكُن أهلُ القُرونِ الماضيةِ لِيُؤمِنوا برُسُلِ اللهِ الذين جاؤوهم بالمُعجِزاتِ؛ لأنَّ اللهَ طبَعَ على قُلوبِهم لشِدَّةِ كُفرِهم، ومُعاندَتِهم للحَقِّ⁽²⁾.

كما قال تعالى: ﴿ تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٠١].

وقال سُبحانه: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [يونس: ٧٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٣٣، ١٣٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٣٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ١٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٤٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٠٧).

﴿ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾.

أي: كما أهلَكْنا أهلَ القُرونِ الماضيةِ مِن قَبلِكم- أيُّها المُشركونَ- بسبَبِ شِرْكِهم، كذلك نُهلِكُكم إذا لم تَتوبوا وتُؤمِنوا باللهِ ورُسُلِه، ونُهلِكُ كُلَّ مُشرِكٍ وكافِرٍ كذلك(١).

كما قال سبحانه: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ * ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ * كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ [المرسلات: ١٦-١٨].

﴿ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

أنَّ هذا الخِطابَ مَعطوفٌ على الذي قَبلَه، أي: ثمَّ جَعلْناكم خلائفَ في الأرضِ مِن بَعدِ أولئك الأقوامِ كُلِّهم بما آتيناكم في هذا الدِّينِ مِن أسبابِ المُلكِ والحُكمِ، وقَدَّرناه لكم باتِّباعِه، إذ كان الرَّسولُ الذي به جاءَكم هو خاتَمَ النَّبيِّينَ، فلا يُوجَدُ بعد أمَّتِه أمَّةٌ أخرى لنبيٍّ آخَرَ، فاللهُ يُبشِّرُ قَومَ مُحمَّدٍ وأمَّةَ مُحمَّد بأنَّها ستَخلُفُهم في الأرضِ، إذا آمَنَت به، واتَّبَعَت النُّورَ الذي أُنزِلَ معه(٢).

وأيضًا لَمَّا صَرَّحَ تعالى بأنَّ الجزاءَ المذكورَ عامٌّ لكُلِّ مُجرمٍ، أتبَعَه قَولَه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ﴾ أي: أيُّها المُرسَلُ إليهم أشرَفُ رُسُلِنا ﴿خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ فيتعَلَّقُ نظَرُنا بأعمالِكم موجودةً؛ تخويفًا للمُخاطَبينَ مِن أن يُجرِموا فيُصيبَهم ما أصابَ مَن قَبلَهم(٣).

﴿ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٣٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٤١)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٠٧)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٥٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٨٦).

أي: ثمَّ جَعَلْناكم(١) سكَّانًا في الأرضِ، تكونون فيها مِن بَعدِ الأمَمِ الماضيةِ التي أهلَكْناها(٢).

﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.

أي: استَخلَفْناكم بَعْدَهم؛ لِنَنْظُرَ أيَّ عَمَلٍ تَعملونَ من أعمالِ الخَيرِ أو الشَّرِّ، فنُجازيكم عليه(٣).

عن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ الله عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ الدُّنيا حُلوةٌ خَضِرةٌ(٤)، وإنَّ اللهَ مُستَخلِفُكم فيها، فينظُرُ كيف تَعمَلونَ))(٥).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- سبَبُ هلاكِ الأُمَمِ السَّابقةِ وُقوعُ الظُّلمِ مِنهم؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾(٦).

---

(١) قال الخازن: (الخطابُ لأهلِ مَكَّةَ الذين أُرسِلَ فيهم رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والمعنى: ثمَّ جَعَلْناكم- أيُّها النَّاسُ- خُلَفاءَ في الأرضِ مِن بَعدِ القُرونِ الماضيةِ الذين أهلَكْناهم). ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٣٢).

وقال ابنُ عاشور: (المرادُ بـ(الأرض) بلادُ العَرَب، فالتعريفُ فيه للعَهدِ؛ لأنَّ المُخاطَبينَ خَلَفوا عادًا وثَمودَ وطَسمًا وجَدِيسًا وجُرْهُمًا في منازِلِهم على الجملةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣١٨)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٢٧)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٣٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٠٧)، ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٨/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٨٩)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٧٨)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١١).

(٤) حُلْوَة خَضِرة: أي: غضَّةٌ ناعِمةٌ طيِّبةٌ، مُزَيَّنةٌ في عيونِكم وقلوبِكم، وإنَّما وصَفها بالخَضِرَة؛ لأنَّ العربَ تُسمِّي الشَّيءَ النَّاعمَ خَضِرًا، أو لتشَبُّهِها بالخُضْرواتِ في سرعةِ زَوالِها. يُنظر: ((المعلم بفوائد مسلم)) للمازري (٢/ ٣٣) ((مرقاة المفاتيح)) للمُلا الهروي (٥/ ٢٠٤٤).

(٥) رواه مسلم (٢٧٤٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٥٨).

٢- قولُه تعالى: ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ مِن أدلَّةِ إثباتِ الصِّفاتِ الاختياريَّةِ لِلَّهِ تعالى؛ ففيه إثباتُ صِفةِ النَّظَرِ، فإنَّ اللامَ هنا هي لامُ (كي)، وهي تقتضي أنَّ ما بَعدَها متأخِّرٌ عن المعلولِ، فنَظَرُه لـ﴿كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ هو بعدَ جعْلِهم خلائفَ(١).

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ فيه توكيدُ التَّهديدِ والوَعيدِ؛ حيثُ أُكِّدَت الجُملةُ بلامِ القسَمِ و(قد) الَّتي للتَّحقيقِ(٢).

- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ الخطابُ لأمَّةِ الدَّعوةِ المُحمَّديةِ، وُجِّهَ أوَّلًا وبالذَّاتِ إلى قَومِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأهلِ وَطَنِه مكَّةَ؛ إذ أُنزِلَت السُّورةُ فيها، فهو التفاتٌ يُفيدُ مَزيدَ التَّنبيهِ، وتوجيهَ أذهانِ المُخاطَبينَ لِمَوضوعِه(٣).

- قولُه: ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ اللَّامُ لِتَأكيدِ النَّفيِ، أي: وما صَحَّ وما استَقام لهم أن يُؤمِنوا؛ لِفَسادِ استِعْدادِهم، وخِذْلانِ اللهِ تعالى إيَّاهم. أو: ما كانوا يُؤمِنون حقًّا، تأكيدًا لِنَفيِ إيمانِهم(٤).

- قولُه: ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ على القولِ بأنَّ الضَّميرَ عائدٌ على أهلِ مكَّةَ، فيَكونُ الْتِفاتًا؛ لأنَّه خرَجَ مِن ضميرِ الخطابِ إلى ضَميرِ الغيبةِ، ويَكونُ مُتَّسِقًا معَ قولِه: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾(٥).

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٣٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٢).

– وفيه مناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال هنا: ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾، بالواوِ تَبعًا لها في قولِه: ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾، وقال في موضعٍ آخَرَ مِن سورةِ يونُسَ: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ﴾ [يونس: ٧٤]، وكذلك في سورةِ الأعرافِ: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ [الأعراف: ١٠١] بالفاءِ للتَّعقيبِ، على أصلِها(١).

* * *

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٤٣).

الآيات (١٥-١٧)

﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ (١٥) قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ (١٦) فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ (١٧)﴾.

المَعنى الإجماليُّ:

يبيِّنُ تعالى أنَّه إذا قُرِئَ على المُشركينَ آياتُ القُرآنِ واضحاتٍ، دالَّاتٍ على الحَقِّ، قال المُشركونَ- الذين يكذِّبونَ بالبَعثِ- لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أحضِرْ قُرآنًا آخَرَ ليس فيه ما نَكرَه، أو غيِّرْه بنَفسِك على الوَجه الذي نحِبُّ، فأمَرَ اللهُ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُجيبَهم قائلًا: لا يحِقُّ لي أن أغيِّرَه مِن قِبَلِ نَفسي، ما أتَّبِعُ إلَّا ما يوحيهُ اللَّهُ إليَّ؛ إني أخافُ إن عصيتُ ربِّي عذابَ يومٍ عَظيمٍ، وهو يومُ القيامةِ.

وأمَرَه أيضًا أن يقولَ لهم: لو شاءَ اللهُ ما تَلَوتُ عليكم القُرآنَ، ولا أعلَمَكم اللهُ به؛ فقد أقمْتُ فيكم- يا أهلَ مكَّةَ- حِينًا طويلًا قبلَ أن يُوحَى إليَّ هذا القُرآنُ، أفلا تَعقِلونَ؟!

فلا أحَدَ أظلَمُ ممَّن تقوَّلَ على اللهِ الكَذِبَ، أو كذَّبَ بآياتِه؛ إنَّه لا يُفلِحُ المُجرِمونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ

أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بُدِئَت السُّورةُ بالكتابِ الحكيمِ (القُرآن)، وإنكارِ المُشرِكينَ للوَحيِ بشُبهتِهم المعروفةِ، وسِيقَت بَعدَها الآياتُ في إقامةِ الحُجَجِ عليهم؛ مِن خَلقِ العالَمِ عُلْويِّه وسُفلِيِّه، ومِن طبيعةِ الإنسانِ وتاريخِه، متضمِّنةً لإثباتِ أهَمِّ أركانِ الدِّينِ، وهو الوحيُ والتَّوحيدُ والبَعثُ- جاءت هذه الآياتُ الثَّلاثُ بعد ذلك في شأنِ الكتابِ نَفسِه، وتفنيدِ ما اقتَرَحه المُشرِكونَ على الرَّسولِ فيه، وحُجَّتِه البالغةِ عليهم، في كونِه وَحيًا مِن اللهِ تعالى(١).

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾.

أي: وإذا قُرِئَ على مُشرِكي قُرَيشٍ آياتُ القُرآنِ واضحاتٍ دالَّاتٍ على الحَقِّ، قال الذين يكَذِّبونَ بالبَعثِ، ولا يخافونَ عِقابَنا، ولا يَطمعونَ في ثَوابِنا: أحضِرْ- يا محمَّدُ- قُرآنًا آخَرَ ليس فيه ما نَكرَهُ مِن التَّوحيدِ، والنَّهيِ عن الشِّركِ، وعَيبِ آلهَتِنا، وذِكرِ البَعثِ والنُّشورِ، أو غيِّرْ هذا القُرآنَ بنَفسِك على الوَجهِ الذي نُحِبُّ(٢).

﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ﴾.

أي: قُلْ- يا مُحمَّدُ- لهؤلاءِ الكُفَّارِ: لا يحِقُّ لي أن أُغيِّرَ القُرآنَ بمَحضِ رأيي، ومُقتضَى اجتهادِي، بِغَيرِ وَحْيٍ مِن اللَّهِ؛ فليس لي مِن الأمرِ شَيءٌ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٦٠-٢٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٣٦)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ١١)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٤٣، ١٤٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٠)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٣٦)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٤٤)، ((تفسير =

﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾.

أي: قُلْ- يا مُحَمَّدُ- لهؤلاءِ الكُفَّارِ: إنَّما أنا عبدٌ مأمورٌ، ليس لي إلَّا أن أتَّبعَ ما يُوحيه اللَّهُ إليَّ ويأمُرُني به، مِن غَيرِ زيادةٍ ولا نُقصانٍ، ولا تبديلٍ ولا تَحريفٍ⁽¹⁾.

﴿إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾.

أي: إنِّي أخشى- إن خالَفْتُ أمْرَ اللهِ، وبدَّلْتُ شَيئًا مِن كِتابِه- عذابَ يومِ القيامةِ العظيمِ الأهوالِ⁽²⁾.

كما قال تعالى عن يوم القِيامةِ: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١-٢].

﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

أنَّ الكافرينَ التَمَسوا مِنَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ذلك الالتِماسَ المذكورَ في الآيةِ السَّابقةِ؛ لأجلِ أنَّهم اتَّهَموه بأنَّه هو الذي يأتي بهذا الكِتابِ مِن عندِ نَفسِه، على سبيلِ الاختلاقِ والافتِعالِ، لا على سَبيلِ كَونه وَحيًا من عندِ الله تعالى؛ فلهذا المعنى احتَجَّ النبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ على فَسادِ هذا الوَهم بما

= البيضاوي)) (٣/ ١٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٣)، ((تفسير المنار)) (١١/ ٢٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣١٩)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٣٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣١٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٩٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٠٢).

ذكَرَه اللهُ تعالى في هذه الآية(١).

﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ ﴾.

أي: قُلْ- يا محمَّدُ- لهؤلاءِ الكُفَّارِ: لو أراد اللَّهُ ما تَلَوتُ عليكم القُرآنَ؛ فاللهُ وَحْدَه هو الذي أنزَلَه عليَّ، وأمَرَني بتِلاوَتِه عليكم، فهو ليس من قِبَلي، ولا أقدِرُ على ذلك، ولا أقدِرُ على الإتيانِ بقرآنٍ غَيرِه(٢).

﴿ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ﴾.

أي: ولو أراد اللهُ لَمَا أعلَمَكم بالقرآنِ، ولا أخبَرَكم به، لكنَّه أدراكم به بعد أنْ لم تكونوا كذلك، فلو كان كَذِبًا وافتراءً كما تقولونَ، لأمكَنَ لِغَيري أن يَتلوَه عليكم، وتَدرونَ به مِن جِهَتِه؛ لأنَّ الكَذِبَ لا يَعجِزُ عنه البَشَرُ، وأنتم لم تَدْروا بهذا مِن قَبْلُ، ولم تَسمَعوه مِن بشَرٍ غَيري(٣).

﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾.

أي: فقد أقمْتُ فيكم- يا أهلَ مَكَّةَ- حينًا طويلًا مِن عُمُري- أربعينَ سنةً- قبلَ أن يُوحَى إليَّ هذا القرآنُ، ما جرَّبتُم عليَّ كذبًا قطُّ، تَعرِفونَ صدقي وأمانتي، وأنِّي لستُ ممَّن يقرأُ أو يكتبُ، ثمَّ جِئتُكم بالقُرآنِ، أفلا تَعقِلونَ بذلك أنَّه وحيٌ مِن عندِ الله تعالى(٤)؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٢٥-٢٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٣٧)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٠)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٨٧، ١٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٩٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٣٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٠)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٠)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٨٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٩٠).

(٤) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٤٧، ١٤٨)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٢٥، ٢٢٦)، =

كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ * أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٩-٧٠].

وعن ابن عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما: ((أنَّ أبا سُفيانَ أخبَرَه أنَّ قَيصَرَ سألَه عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: هل كُنتُم تتَّهِمونَه بالكَذِبِ قبلَ أن يقولَ ما قال؟ قلتُ: لا...)) وذكر الحَديثَ بطولِه، وفيه: ((قال: سألتُك هل كُنتُم تتَّهِمونَه بالكَذِبِ قبلَ أن يقولَ ما قال؟ فذَكَرْتَ أنْ لا، فقد أعرِفُ أنَّه لم يكُنْ لِيَذَرَ الكَذِبَ على النَّاسِ ويكذِبَ على اللهِ!))⁽¹⁾.

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

هذه الآيةُ تَتِمَّةُ الرَّدِّ على اقتراحِ المُشرِكينَ؛ فإنَّه رَدَّ عليهم أوَّلًا ببيانِ حَقيقةِ الأمرِ الواقِعِ، وهو أنَّ تبديلَ القُرآنِ ليس مِن شَأنِ الرَّسولِ في نَفسِه، ولا ممَّا أَذِنَ اللهُ له به، بل يُعاقِبُه عليه أشَدَّ العِقابِ في الآخرةِ إنْ فُرِضَ وُقوعُه منه؛ لأنَّه كلامُه الخاصُّ به. وثانيًا: بإقامةِ الحُجَّةِ العَقليَّةِ على أنَّه كلامُ الله، وأنَّه ليس في استطاعتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الإتيانُ بمِثلِه، ثمَّ عَزَّز هاتينِ الحُجَّتَين بثالثةٍ أدبيَّةٍ، وهي: أنَّ شَرَّ أنواعِ الظُّلمِ والإجرامِ في البَشَرِ شيئان؛ أحدُهما: افتراءُ الكَذِبِ على اللهِ، وهو ما اقتَرَحوه عليه بجُحودِهم، وثانيهما: التَّكذيبُ بآياتِ

= ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢١)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٨٨)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٢/ ٤٧١، ٤٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٣)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٥٣).

(١) رواه البخاري (٧) ومسلم (١٧٧٣).

الله، وهو ما اجتَرَحوه بإجرامِهم(١).

وأيضًا فإنَّ الكافرينَ التَمَسوا مِن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قُرآنًا يَذكُرُه مِن عندِ نَفْسِه، ونَسَبوه إلى أنَّه إنَّما يأتي بهذا القُرآنِ مِن عِندِ نَفسِه، ثمَّ إنَّه أقام البُرهانَ القاهِرَ الظَّاهِرَ على أنَّ ذلك باطِلٌ، وأنَّ هذا القُرآنَ ليس إلَّا بِوَحيِ اللهِ تعالى وتَنزيلِه، فعندَ ذلك قال(٢):

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ﴾.

أي: فلا أحَدَ أشَدُّ كَذِبًا، وأوضَعُ لِقَولِه في غيرِ مَوضِعِه ممَّن تقوَّلَ الكَذِبَ على اللهِ سُبحانه- كمَن زعَمَ أنَّ اللهَ أوحَى إليه- أو كذَّبَ بآياتِ كِتابِه فلم يُصَدِّقْها(٣).

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾.

أي: إنَّه لا يفوزُ الكافرونَ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤١)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٤٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٩١).

قال ابن عاشور: (الظُّلم هنا: بمعنى الاعتداءِ، وإنَّما كان أحدُ الأمرَينِ أشَدَّ الظُّلمِ؛ لأنَّه اعتداءٌ على الخالِقِ بالكَذِبِ عليه وبتكذيبِ آياتِه). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٢٤).

وهذه الآيةُ قيل: إنَّها مِن جُملةِ رَدِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على المُشرِكينَ، لَمَّا طلَبوا منه أن يأتيَ بقُرآنٍ غَيرِ هذا القرآنِ، أو يُبَدِّلَه. وممَّن اختار ذلك: ابنُ جرير، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤١)، ((الوجيز)) (ص: ٤٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٩٢).

قال الشَّوكاني: (﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ تعليلٌ لِكَونِه لا أظلَمَ ممَّن افتَرَى على اللهِ كَذِبًا أو كذَّبَ بآياتِه، أي: لا يظفَرونَ بمَطلوبٍ، ولا يَفوزونَ بِخَيرٍ، والضميرُ في ﴿إِنَّهُ﴾ للشَّأنِ: أي: إنَّ الشَّأنَ هذا). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٩٢).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ هذا جوابٌ حَسَنٌ؛ فإنَّه لَمَّا كان أحدُ المَطلوبَينِ التَّبديلَ، بدأ به في الجوابِ، ثُمَّ أُتبِعَ بأمرٍ عامٍّ يشمَلُ انتفاءَ التَّبديلِ وغَيرِه، ثمَّ أتى بالسَّبَبِ الحامِلِ على ذلك، وهو الخوفُ، وعَلَّقَه بمُطلَقِ العِصيانِ، فبِأدنَى عصيانٍ ترتَّبَ الخَوفُ⁽¹⁾.

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ هم طَلَبوا مِن رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أحدَ أمرَينِ على البَدَلِ: فالأوَّلُ: أن يأتيَهم بقرآنٍ غيرِ هذا القُرآنِ. والثاني: أن يُبدِّلَ هذا القُرآنَ، وفيه إشكالٌ؛ لأنَّه إذا بدَّلَ هذا القرآنَ بغَيرِه، فقد أتى بقرآنٍ غيرِ هذا القُرآنِ، وإذا كان كذلك، كان كلُّ واحدٍ منهما شيئًا واحدًا، وإذا ثبت أنَّ كُلَّ واحدٍ مِن هذينِ الأمرينِ هو نفسُ الآخَرِ، كان إلقاءُ اللَّفظِ على التَّرديدِ والتَّخييرِ فيه باطلًا.

والجواب: أنَّ أحَدَ الأمرينِ غيرُ الآخَرِ؛ فالإتيانُ بكتابٍ آخَرَ لا على ترتيبِ هذا القرآنِ، ولا على نَظمِه، يكونُ إتيانًا بقُرآنٍ آخَرَ، وأمَّا إذا أتى بهذا القُرآنِ، إلَّا أنَّه وضع مكانَ ذَمِّ بعضَ الأشياءِ مَدحَها، ومكانَ آيةِ رحمةٍ آيةَ عَذابٍ، كان هذا تبديلًا، أو يقالُ: الإتيانُ بقُرآنٍ غَيرِ هذا، هو أن يأتيَهم بكتابٍ آخَرَ سِوى هذا الكِتابِ، مع كَونِ هذا الكتابِ باقيًا بحالِه، والتَّبديلُ هو أن يغيِّرَ هذا الكتابَ⁽²⁾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٢٤).

٣- إذا قيلَ: هم طَلَبوا مِن رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أحدَ أمرَين: إمَّا أن يأتيَهم بقُرآنٍ غيرِ هذا القُرآنِ، أو أن يبَدِّلَ هذا القرآنَ، ومع ذلك اكتفَى في الجوابِ على نَفيِ أحدِ القِسمَينِ وهو قولُه: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ...﴾⁽¹⁾. فيُقال: الجوابُ المذكورُ عن أحَدِ القِسمَينِ هو عَينُ الجوابِ عن القِسمِ الثَّاني، وإذا كان كذلك وقَعَ الاكتفاءُ بذِكرِ أحَدِهما عن ذِكرِ الثَّاني⁽²⁾. وقيل: نفَى عن نَفسِه أحَدَ القِسمَينِ، وهو التَّبديلُ؛ لأنَّه الذي يُمكِنُه- لو كان ذلك جائزًا- بخِلافِ القِسمِ الآخَرِ، وهو الإتيانُ بقرآنٍ آخَرَ؛ فإنَّ ذلك ليس في وُسعِه، ولا يقدِرُ عليه. وقيل: إنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم نفَى عن نَفسِه أسهَلَ القِسمَينِ؛ ليكونَ دليلًا على نَفيِ أصعَبِهما بالطَّريقِ الأَولى، وهذا منه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن بابِ مُجاراةِ السُّفهاءِ؛ إذ لا يَصدُرُ مِثلُ هذا الاقتراحِ عن العُقَلاءِ بعد أنْ أمَرَه اللهُ سُبحانَه بذلك⁽³⁾.

٤- قال الله تعالَى عن المشركينَ: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ وقولُهم هذا يحتَمِلُ أن يكونَ جِدًّا، ويحتَمِلُ أن يُريدوا به الاستهزاءَ، وعلى الاحتمالين فقد أمرَ اللهُ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأن يُجيبَهم بما يَقلَعُ شُبهَتَهم مِن نُفوسِهم إن كانوا جادِّينَ، أو مِن نُفوسِ مَن يَسمَعونَهم مِن دَهْمائِهم فيَحسَبون كلامَهم جِدًّا، فيتَرَقَّبون تبديلَ القُرآنِ، فقال تعالى له: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا

---

(١) لكن قال محمد رشيد رضا: (لَقَّنَه الجوابَ عنِ الشَّقِّ الأوَّلِ مفصولاً لأهمـيَّتِه بقولِه: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: ولو شاء ألَّا يُدرِيَكم ويُعْلِمَكم به بإرسالي إليكم، لَمَا أرسَلَني، ولَمَا أدراكم به، ولكِنَّه شاء أن يَمُنَّ عليكم بهذا العِلمِ الأعلى؛ لِتَدرُوه فتهتَدوا به، وتكونوا بِهدايتِه خلائِفَ الأرضِ، وقد عُلِمَ أنَّ هذا إنَّما يكونُ به لا بقُرآنٍ آخَرَ... ومِن الغَريبِ أن ترى أساطينَ المُفَسِّرينَ لم يَفهَموا من الآيةِ أنَّ فيها جوابًا عن الشِّقِّ الأوَّلِ مِن اقتراحِ المُشرِكينَ، وهو الإتيانُ بقُرآنٍ آخَرَ، وقد هدانا اللهُ تعالى إليه مع بُرهانِه بفَضلِه، وكم تَرَكَ الأوَّلُ للآخِرِ!). ((تفسير المنار)) (١١/ ٢٦٢، ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٨٩).

يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾⁽¹⁾.

٥- قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾ يُفهَمُ مِن قَولِه تعالى: ﴿مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾ أنَّ اللهَ تعالى يُبدِّلُ منه ما شاء بما شاء، وصَرَّحَ بهذا المفهوم في مواضِعَ أُخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ [النحل: ١٠١]، وقولِه تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]، وقولِه تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى * إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾⁽²⁾ [الأعلى: ٦- ٧].

٦- في قوله: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ دلَّ سياقُ الكلام على أنَّ الإتيانَ بقرآنٍ آخَرَ غيرِ هذا، بمعنَى إبطالِ هذا القرآنِ، وتعويضِه بغيرِه، وأنَّ تبديلَه بمعنَى تغييرِ معاني وحقائقِ ما اشْتَملَ عليه ممتنِعٌ، ولذلك لم يُلَقَّنِ الرسولُ صلَّى الله عليه وسَلَّم أنْ يقولَ هنا: إلَّا ما شاءَ اللَّه، أوْ نحو ذلك⁽³⁾.

٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ لَمَّا كان هذا الكتابُ العَظيمُ قد جاء على يَدِ مَن لم يتعَلَّمْ، ولم يُتلمذْ، ولم يطالِعْ كِتابًا، ولم يمارِسْ مُجادلةً، عُلِمَ بالضرورةِ أنَّه لا يكونُ إلَّا على سبيلِ الوَحيِ والتَّنزيلِ، وإنكارُ العُلومِ الضَّروريةِ يَقدحُ في صِحَّةِ العَقلِ، فلِهذا السَّبَبِ قال: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾⁽⁴⁾.

٨- قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١١٧).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٢٦).

قولُه تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ المقصودُ منه نفيُ الكَذِبِ عن نَفسِه، وقَولُه تعالى: ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ المقصودُ منه إلحاقُ الوَعيدِ الشَّديدِ بهم؛ حيث أنكَروا دَلائِلَ اللهِ، وكَذَّبوا بآياتِ الله تعالى(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾

- قولُه: ﴿وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ﴾ فيه الْتِفاتٌ مِن خِطابِهم إلى الغيبةِ؛ إعراضًا عنهُم، وتَوجيهًا الخطابَ إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم بتَعْديدِ جِناياتِهم المضادَّةِ لما أُريدَ مِنهم بالاستِخْلافِ مِن تكذيبِ الرَّسولِ والكفرِ بالآياتِ البيِّناتِ(٢)، ويظهَرُ في هذه الآيةِ أنَّ نُكتةَ حكايةِ هذا الاقتراحِ السَّخيفِ بأسلوبِ الإخبارِ عن قَومٍ غائبينَ إفادةُ أمرَينِ؛ أحدُهما: إظهارُ الإعراضِ عنهم كأنَّهم غيرُ حاضرينَ؛ لأنَّهم لا يستحِقُّونَ الخِطابَ به مِنَ اللهِ تعالى. ثانيهما: تلقينُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الجوابَ عنه بما ترى مِن العبارةِ البليغةِ التَّأثيرِ(٣).

- قولُه: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ فيه تقديمُ الظَّرفِ ﴿وَإِذَا تُتْلَى...﴾ على عامِلِه، وهو قولُه: ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾؛ للاهتِمام بذِكْرِ ذلك الوقتِ الَّذي تُتلى فيه الآياتُ عليهم، فيَقولون فيه هذا القولَ؛ تعجُّبًا مِن كَلامِهم، ووَهنِ أحلامِهم(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١١٧).

- والتَّعبيرُ بالفِعلِ المضارِعِ ﴿تُتْلَى﴾؛ للدَّلالةِ على التَّكرُّرِ والتَّجدُّدِ، أي: ذلك قولُهم كُلَّما تُتلى علَيهم الآياتُ(١)، وبُني للمَفعولِ؛ إيذانًا بتَكذيبِهم عند تلاوةِ أيِّ تالٍ كان(٢).

- قولُه: ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ فيه وضعُ الموصولِ موضِعَ الضَّميرِ - حيث لم يَقُلْ: (قَالُوا)- إشعارًا بعِلِّيَّةِ ما في حَيِّزِ الصِّلةِ؛ للعَظيمةِ المَحكيَّةِ عَنهم، وأنَّهم إنَّما اجتَرَؤوا عليها لِعدَمِ خوفِهم مِن عِقابِه تَعالى يومَ اللِّقاءِ؛ لإنكارِهم له، ولِما هو مِن مَباديه مِن البَعثِ(٣).

- قولُه: ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ لَمَّا كان لاقتِراحِهم مَعنًى صريحٌ، وهو الإتيانُ بقُرآنٍ آخَرَ، أو تبديلُ آياتِ القرآنِ الموجودِ، ومعنًى التزاميٌّ كِنائيٌّ، وهو أنَّه غيرُ مُنزَّلٍ مِن عِندِ اللهِ، وأنَّ الَّذي جاء به غيرُ مُرسَلٍ مِن اللهِ؛ كان الجوابُ عن قولِهم جَوابَين، أحَدُهما: ما لَقَّنه اللهُ بقولِه: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾، وهو جوابٌ عن صريحِ اقتراحِهم، وثانيهما: ما لقَّنه بقولِه: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ﴾ وهو جوابٌ عن لازِمِ كلامِهم، وقد جاء الجوابُ عن اقتراحِهم كَلامًا جامِعًا؛ قضاءً لِحَقِّ الإيجازِ البديعِ، وجاءَ بأبلَغِ صِيَغِ النَّفيِ، وهو: ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ﴾، أي: ما يَكونُ التَّبديلُ مِلكًا بيَدي(٤).

- وجملةُ ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ في موضعِ التَّعليلِ لِجُملةِ ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾؛ ولذلك فُصِلَت عنها- أي: لم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١١٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١١٧-١١٨).

تُعطَفْ- واقترَنَت بحَرفِ (إنَّ)؛ للاهتمام، و(إنَّ) تُؤذِنُ بالتَّعليلِ⁽١⁾.

- قولُه: ﴿إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ فيه التَّعرُّضُ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ، معَ الإضافةِ إلى ضَميرِه صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم؛ لِتَهويلِ أمرِ العِصْيانِ، وإظهارِ كَمالِ نَزاهتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عنه⁽٢⁾.

- قولُه: ﴿يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ فيه إيرادُ اليوم بالتَّنوينِ التَّفخيميِّ، ووصفُه بالعِظَمِ؛ لِتَهويلِ ما فيه مِن العذابِ وتَفظيعِه⁽٣⁾.

٢- قولُه تعالى: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فيه مُبالَغةٌ في التَّبرئةِ ممَّا طلَبوا منه، أي: إنَّ تِلاوتَه عليهم هذا القرآنَ إنَّما هو بمَشيئةِ اللهِ تَعالى، وإحداثِه أمرًا عجيبًا خارجًا عن العاداتِ⁽٤⁾.

- ومفعولُ ﴿شَاءَ﴾ محذوفٌ، أي: (قُل لو شاء اللهُ أنْ لا أَتلُوَه...)، وجاء جوابُ (لو) على الفصيحِ مِن عدمِ إتيانِ اللَّامِ؛ لِكَونه مَنفيًّا بما⁽٥⁾.

٣- قولُه تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾

- قوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ، وتقريرٌ، أي: لا أحَدَ أظلَمَ مِمَّن افْتَرى على اللهِ كَذِبًا، أو ممَّن كَذَّب بآياته بعدَ بَيانِها⁽٦⁾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٢٤).

- قولُه: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ تذييلٌ، وموقِعُه يَقتَضي شُمولَ عُمومِه للمَذكورين في الكَلامِ المذيَّلِ، فيَقْتَضي أنَّ أولئِك مُجرِمون، وأنَّهم لا يُفلِحون⁽¹⁾.

- وقولُه أيضًا: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ فيه تأكيدُ الجملةِ بحَرفِ التَّأكيدِ (إنَّ)؛ وذلك نَظرًا إلى شُمولِ عُمومِ المُجرِمين للمُخاطَبين؛ لأنَّهم يُنكِرون أن يَكونوا مِن المجرِمين. وفيه افتِتاحُ الجملةِ بضَميرِ الشَّأنِ ﴿إِنَّهُ﴾؛ لِقَصدِ الاهتِمامِ بمَضمونِها⁽²⁾.

* * *

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١٨-٢٠)

﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَٱخۡتَلَفُواْۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ فَقُلۡ إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ المُشركينَ يعبدونَ مِن دونِ اللَّهِ ما لا يَضُرُّهم ولا ينفَعُهم، ويقولونَ إنَّ هؤلاءِ الذين نَعبُدُهم يَشفَعونَ لنا عندَ الله، وأمَرَ اللهُ نَبيَّه مُحمَّدًا أن يقولَ لهم: أتُخبِرونَ الله بما ليس موجودًا في السَّمواتِ ولا في الأرضِ، تَنَزَّه الله وتقَدَّسَ عمَّا يُشركونَ.

ويبَيِّنُ تعالى أنَّ النَّاسَ كانوا مُجتَمِعينَ على دينِ التَّوحيدِ، فاختلفوا في دينِهم، وأشرَكوا بالله، ولولا أنَّه سبَقَ مِن اللهِ أنَّه يُمهِلُ المُشركينَ والعُصاةَ، ويؤخِّرُ جزاءَهم إلى يوم القيامةِ؛ لحَكَم سبحانه بينَ مَن اختلَفوا في الدُّنيا، فيُنَجِّي أهلَ التَّوحيدِ، ويعجِّلُ بعقوبةِ المُشركينَ.

ويخبِرُ تعالى أنَّ المُشركينَ يقولون: هلَّا أُنزِلَ على محمَّدٍ مُعجزةٌ مِن رَبِّه ممَّا نقتَرِحُ عليه؛ حتى نعلَمَ أنَّه رسولٌ مِن عندِ الله حقًّا، وأمَرَ نَبيَّه أن يقولَ لهم: إنَّما إنزالُ الآياتِ مِن الغَيبِ الذي لا يعلَمُه إلَّا اللهُ، ولا يقدِرُ على إنزالِه إلَّا هو، فإن شاء أنزَلَها، وإن شاء لم يُنزِلْها، فانتظِروا حُكمَ اللهِ فينا بعقوبةِ المُبطِلِ مِنَّا، ونصْرِ المُحِقِّ، إنَّا معكم مُنتَظِرونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٨ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

أنَّ الكافرينَ إنَّما التَمَسوا من الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قرآنًا غيرَ هذا القرآنِ، أو تبديلَ هذا القُرآنِ؛ لأنَّ هذا القُرآنَ مُشتَمِلٌ على شَتمِ الأصنامِ التي جَعَلوها آلهةً لأنفُسِهم؛ فلهذا السَّبَبِ ذكَرَ اللهُ تعالى في هذا الموضِعِ ما يدُلُّ على قُبحِ عبادةِ الأصنامِ؛ لِيُبيِّنَ أنَّ تَحقيرَها والاستخفافَ بها أمرٌ حَقٌّ، وطريقٌ مُتيَقَّنٌ(١).

وأيضًا فهذه الآيةَ عَطفٌ على قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ [يونس: ١٥] عطْفَ القِصَّةِ على القِصَّةِ، فهذه قِصَّةٌ أخرى مِن قَصَصِ أحوالِ كُفرِهم، أن قالوا: ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا﴾ [يونس: ١٥] حين تُتلى عليهم آياتُ القرآنِ، ومِن كُفرِهم أنَّهم يعبدونَ الأصنامَ، ويقولون: ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ والمناسبةُ بين القِصَّتَينِ أنَّ في كِلتَيهما كُفرًا أظهَرُوه في صورةِ السُّخريةِ والاستهزاءِ، وإيهامِ أنَّ العُذرَ لهم في الاسترسالِ على الكُفرِ(٢).

﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ ﴾.

أي: ويَعبُدُ المُشركونَ مِن دُونِ الله آلهةً مِن الأصنامِ وغَيرِها، لا تَضُرُّهم إن تركوا عِبادتَها، ولا تنفَعُهم في الدُّنيا ولا في الآخرةِ إنْ عَبَدوها(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤٢)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ١١)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٣٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١١)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٢٧)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [النحل: ٧٣].

وقال سُبحانه: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٦].

﴿وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾.

أي: ويقولُ المُشركونَ: هؤلاء الذين نعبُدُهم يَشفَعونَ لنا عند الله(١).

﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

أي: قُل- يا مُحمَّدُ- لهؤلاءِ المُشركينَ: أتُخبِرونَ اللهَ بما لا يقعُ، ولا يَكونُ أبدًا في السَّمواتِ ولا في الأرضِ، وهو أنَّ له شركاءَ يشفعون لكم عندَ الله، وقد أخبركم بأنَّه ليس له شريكٌ، أفتخبرونَه بأمرٍ خفِيٍ عليه، وعلِمْتموه(٢)؟

ثمَّ نزَّه نفسه عمَّا افتروه، فقال(٣):

﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

= كثير)) (٤/ ٣٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤٢)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٠).

قال الواحدي: (﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾، قال أهلُ المعاني: توهَّموا أنَّ عِبادَتَها أشَدُّ في تعظيمِ اللهِ مِن قَصْدِه بالعبادةِ، فعَبَدوها وأحَلُّوها محَلَّ الشَّافِعِ عندَ اللهِ). ((البسيط)) (١١/ ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤٢، ١٤٣)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٣/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٢)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٣٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٩٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٠).

(٣) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٩٢).

أي: تقدَّس اللهُ وتنزَّهَ عن أن يكونَ له شريكٌ(١).

﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

أنَّ اللَّهَ تعالى لَمَّا أقام الدَّلالةَ القاهرةَ على فسادِ القَولِ بعبادةِ الأصنام؛ بَيَّنَ السَّببَ في كيفيَّةِ حُدوثِ هذا المذهَبِ الفاسِدِ، والمقالةِ الباطلةِ(٢).

وأيضا لَمَّا بَيَّنَ تعالى شَرَّهم بعبادةِ غَيرِه، وختَمَ بتَنزيهِه وكَماله؛ بَيَّنَ أن هذا الدِّينَ الباطِلَ حادِثٌ، وبيَّنَ نزاهَتَه وكمالَه ببيانِ أنَّ النَّاسَ كانوا أوَّلًا مُجتَمِعينَ على طاعَتِه، ثمَّ خالَفوا أمْرَه فلم يَقطَعْ إحسانَه إليهم، بل استمَرَّ في إمهالِهم مع تمادِيهم في سوءِ أعمالِهم، على ما سبَقَ في عِلمِه، ومضى به قَضاؤُه(٣).

﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ﴾.

أي: وما كان النَّاسُ إلَّا مُجتَمِعينَ على توحيدِ اللهِ، فاختَلَفوا في دينِهم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤٣)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٩٢).

قال محمد رشيد رضا: (تقدَّمَ في هذا السِّياقِ من أوَّلِ السُّورةِ إلى هنا أنَّ أهلَ مكَّةَ لم يكن دأْبهم في تكذيبِهم للوحيِ المُحمَّديِّ إلَّا كدأبِ مَن قَبلَهم من الأقوامِ الذين كذَّبوا رُسُلَهم، ولم يكونوا في استعجالِ نَبيِّهم العذابَ إلَّا كالذين استعجَلوا رسُلَهم العذابَ أيضًا، وتقَدَّمَ فيه بيانُ بعضِ طِباعِ البَشَرِ- ولا سيَّما الكفَّارُ- في الرُّعونةِ والعَجلةِ، وفي الضَّراعةِ إلى الله، والإخلاصِ له عند الشِّدَّةِ، ونسيانِه عند الرخاءِ، وفي الإشراكِ باللهِ بدعوى أنَّ لهم شُفَعاءَ عند الله يَدفَعونَ عنهم الضُّرَّ، ويَجلِبونَ لهم النَّفعَ بوجاهتِهم عنده، ثم جاءت هذه الآيةُ في بيانِ ما كان عليه النَّاسُ مِن الوَحدةِ، وما صاروا عليه مِن الاختلافِ والفُرقةِ، فالتَّناسُبُ بينها وبين ما قبلها في غايةِ القُوَّةِ). ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٦٨).

وأشرَكوا بالله(١).

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

أي: ولولا أنَّه سبَقَ مِن اللهِ أنَّه يُمهِلُ المُشرِكينَ والعُصاةَ، ويؤخِّرُ جزاءَهم إلى يومِ القيامةِ؛ لحَكَم في الدُّنيا بين المُختَلِفينَ، فيُنَجِّي أهلَ التَّوحيدِ، ويعجِّلُ عُقوبَتَه على المُشرِكينَ، وينزلُ بهم عذابَه(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٨- ١١٩].

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى * فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ [طه: ١٢٩- ١٣٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ١٤].

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

أنَّ هذه الآيةَ عَطفٌ على جُملةِ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤٣)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٣/ ٢٨٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٥٠)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٥/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤٣)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٥٢، ١٥٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٢، ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٢٩).

يَنفَعُهُمْ ﴾ [يونس: ١٨]، فبعد أنْ ذكَرَ افتراءَهم في جانِبِ الإلهيَّةِ، نفى بُهتانَهم في جانِبِ النبوَّةِ[١].

﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾.

أي: ويقولُ مُشرِكو قُرَيشٍ: هلَّا أنزلَ اللهُ على محمَّدٍ مُعجزةً مِمَّا نقترِحُ عليه؛ حتَّى نعلَمَ أنَّه رسولٌ مِن عندِ الله حقًّا[٢]؟

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا * وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٨٩ - ٩٣].

وقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا * أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴾ [الفرقان: ٧-٨].

﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ ﴾.

أي: فقُل- يا مُحمَّدُ- لهؤلاءِ المُشرِكينَ: إنزالُ الآياتِ مِن الغَيبِ الذي لا يَعلَمُه إلَّا اللهُ، ولا يَقدِرُ أن يُنزِلَ آيةً إلَّا اللهُ، فإن شاء أنزلَها، وإن شاء لم يُنزِلْها[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٢٩، ١٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٥٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٣١). =

كما قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩].

وقال سُبحانه: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٠- ٥١].

﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾.

أي: قُلْ لهم- يا مُحَمَّدُ: فانتَظِروا حُكمَ اللهِ فينا، بعقوبةِ المُبطِلِ مِنَّا، ونَصرِ المُحِقِّ، إنِّي معكم ممَّن ينتَظِرُ ذلك⁽¹⁾.

كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ * ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٢-١٠٣].

= قال الواحدي: (قوله تعالى: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ قال المفسرون: يعني: قُل لهم: إنَّ قَولَكم: هلَّا أُنزِلَ عليه آيةٌ؛ غَيبٌ، وإنَّما الغَيبُ لله، لا يعلَمُ أحَدٌ لمَ لمْ يفعَلْ ذلك، وهل يفعَلُه أم لا، وإنْ فعَلَه متى يفعَلُ؟ وهذا على التسليمِ أنَّه مما لا يَعلَمُه العبادُ، فيجبُ أن يوكَلَ إلى علَّامِ الغُيوبِ). ((البسيط)) (١١/ ١٥٤).

(1) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦١).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: انتَظِروا قضاءَ الله بيننا: ابنُ جريرٍ، وابنُ عطيةَ، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦١).

وقيل المراد: انتَظِروا نزولَ آيةٍ ممَّا اقترَحتُموه. وممَّن اختار ذلك: الواحديُّ، والزمخشريُّ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٥٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٣٧).

قال ابنُ عاشورٍ: (وجملة: ﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ تفريعٌ على جملة: ﴿إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ أي: ليس دأبي ودأبكم إلَّا انتظارَ ما يأتي به اللهُ إن شاء، كقولِ نوحٍ لِقَومِه: ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [هود: ٣٣]، وهذا تعريضٌ بالتَّهديدِ لهم أنَّ ما يأتي به اللهُ لا يترَقَّبونَ منه إلَّا شرًّا لهم، كقولِه تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾[الأنعام: ٨]). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٣١).

وقال سبحانه: ﴿قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى﴾ [طه: ١٣٥].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ * فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾ [السجدة: ٢٨-٣٠].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- أساسُ عَقيدةِ الشِّركِ أنَّ جَميعَ ما يَطلُبونَه مِن اللهِ لا بُدَّ أن يكونَ بوِساطةِ المقرَّبينَ عنده؛ لأنَّهم لا يُمكِنُهم القُربُ مِن اللهِ والحُظوةُ عنده بأنفُسِهم؛ لأنَّها مُدَنَّسةٌ بالمعاصي، بخلافِ دِينِ التَّوحيدِ، فإنَّه يُوجِبُ على العاصي أن يتوَجَّهَ إلى اللهِ وَحْدَه، تائبًا إليه، طالبًا مَغفِرَتَه ورَحمتَه؛ يُبيِّنُ ذلك قَولُ الله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾(١).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ يتضَمَّنُ الوعيدَ على اختلافِ النَّاسِ المُفضي إلى الشِّقاقِ والعُدوانِ، ولا سيَّما الاختلافُ في كتابِ اللهِ الذي أنزَلَه لإزالةِ الشِّقاقِ بحُكمِه، وإدالةِ الوَحدةِ والوِفاقِ منه(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ هذه غايةُ الجَهالةِ منهم؛ حيث يَنتَظِرونَ الشَّفاعةَ في المآلِ، ممَّن لا يُوجَدُ منه نَفعٌ ولا ضَرٌّ في الحالِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٢).

٢- كان المُشركونَ مُعترِفينَ بأنَّ آلهتَهم لم تُشارِك اللهَ في خلْقِ السَّمواتِ والأرضِ، ولا خلْقِ شيءٍ؛ وإنَّما كانوا يتَّخِذونَهم شُفَعاءَ ووسائِطَ، كما قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾[1].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ لَمَّا كان السِّياقُ للتَّهديدِ والتَّخويفِ، قدَّمَ (الضَّرَّ) فقال: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ﴾، وتنبيهًا لهم على أنَّهم مَغمورونَ في نِعَمِه التي لا قُدرةَ لِغَيرِه على مَنعِ شَيءٍ منها، فعليهم أن يُقَيِّدوها بالشُّكرِ[2].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فيه أنَّ مِن الشِّركِ اتِّخاذَ الوُسَطاءِ عند الله، وأنَّه عَينُ الشِّركِ[3].

٥- المُشرِكُ يقصِدُ فيما يُشرِكُ به أنْ يشفعَ له، أو يتقَرَّبَ بعبادَتِه له إلى اللهِ، أو هو يُحبُّه كما يحبُّ اللهَ، والمُشركونَ بأصحابِ القُبورِ تُوجَدُ فيهم الأنواعُ الثَّلاثةُ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾[4] [البقرة: ١٦٥].

---

[1] يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٧٧).

[2] يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٩١).

[3] يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٦٧).

[4] يُنظر: ((الإخنائية)) لابن تيمية (ص: ١٦٦).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ دلالةٌ على أنَّ كلَّ مَن يملكُ الضَّرَّ والنَّفعَ؛ فإنَّه هو المعبودُ حقًّا؛ فالمعبودُ لا بدَّ أنْ يكونَ مالِكًا للنَّفعِ والضَّرَرِ؛ ولهذا أنكَرَ اللهُ تعالى على مَن عَبَدَ مِن دُونِه ما لا يَملِكُ ضَرًّا ولا نفعًا، وذلك كثيرٌ في القُرآنِ⁽¹⁾.

٧- في قَولِ اللهِ تعالى هنا أيضًا: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ نفى عن الأصنامِ الضُّرَّ والنَّفعَ، وأثبَتَهما لها في قَولِه تعالى في سورةِ الحَجِّ: ﴿يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾ [الحج: ١٣]؛ فنَفيُهما عنها باعتبارِ الذَّاتِ، وإثباتُهما لها باعتبارِ السَّبَبِ⁽²⁾.

٨- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أنَّ اللهَ يَعلمُ الأشياءَ على ما هي عليه؛ وما لم يكُنْ مَوجودًا لا يَعلَمُه مَوجودًا، ولا يكون نفيُ هذا العِلمِ نقصًا، بل هو مِن تمامِ كَمالِه تعالى؛ لأنَّه يقتضي أنْ يعلمَ الأشياءَ على ما هي عليه⁽³⁾.

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾ يَستَدِلُّ به من قال: إنَّ الأصلَ في النَّاسِ الإيمانُ حتى كفَروا⁽⁴⁾.

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ إخبارٌ بأنَّ الحَقَّ واحِدٌ، وأنَّ ذلك الاختلافَ مَذمومٌ⁽⁵⁾.

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ فيه أنَّ مِن أصولِ الدِّينِ أنَّ

---

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٢).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٤٤-٢٤٥).

(٣) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٧/ ١١).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٤٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٢٩).

شُؤونَ الرَّبِّ، وسائِرَ ما في عالَمِ الغَيبِ، تَوقيفيٌّ لا يُعلَمُ إلَّا بخَبَرِ الوَحيِ(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ هذا إخبارٌ على سَبيلِ التَّجهيلِ والتَّحقيرِ للكُفَّارِ ولِمَعبوداتِهم، وللتَّنبيهِ على أنَّهم عبَدوا مَن لا يَستحِقُّ العبادةَ(٢).

- واختيارُ صيغةِ المضارِعِ في قولِه: ﴿وَيَعْبُدُونَ﴾ و﴿وَيَقُولُونَ﴾؛ لاستِحضارِ الحالةِ العَجيبةِ مِن استمرارِهم على عِبادتِها- أي: عبَدوا الأصنامَ ويَعبُدونها-، فجاء بالمضارِعِ الدَّالِّ على أنَّهم على الشِّركِ في المستقبَلِ، كما كانوا عليه في الماضي؛ تَعجُّبًا مِن تَصميمِهم على ضَلالِهم(٣).

- وفيه مناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال هنا: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾، بينما قال في سورة الفرقان: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ [الفرقان: ٥٥] فقدَّم: ﴿يَضُرُّهُمْ﴾ على ﴿يَنْفَعُهُمْ﴾ في آيةِ يونُسَ، وقدَّم ﴿يَنْفَعُهُمْ﴾ على ﴿يَضُرُّهُمْ﴾ في آيةِ الفرقانِ؛ قيل: ووجهُ ذلك أنَّه إنَّما قدَّم: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ﴾ على ﴿لَا يَنْفَعُهُمْ﴾ في الآيةِ الأولى في سورةِ يونُسَ؛ لأنَّ العبادةَ تُقامُ للمَعبودِ خوفًا مِن العقابِ أوَّلًا، ثمَّ رجاءً للثَّوابِ ثانيًا، وقد تقدَّم في هذا المكانِ ما أوجَبَ تقديمَ ﴿مَا لَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٦- ٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٢٥).

يَضُرُّهُمْ ﴾ على ﴿ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾ في الآيةِ الأولى، وهو قولُه: ﴿ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [يونس: ١٥]، فكأنَّه قال: ويَعبُدون مِن دونِ اللهِ ما لا يَخافون ضَررًا في مَعصيتِه، ولا يَرجون نفعًا في طاعتِه، فتقدَّم ﴿ مَا لَا يَضُرُّهُمْ ﴾ على ﴿ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾ في هذا المكانِ لهذا المعنى، ولهذا اللَّفظِ المتقدِّم.

وأمَّا سورةُ الفرقانِ فقد تقدَّمَت فيها آياتٌ قُدِّم فيها الأفضلُ على الأدْوَنِ، كقولِه عزَّ وجلَّ: ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ [الفرقان: ٥٣]، وكقولِه بعدَه: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٤]، وصِلةُ النَّسَبِ أفضَلُ مِن صِلَةِ المصاهَرةِ، كما أنَّ العذبَ مِن الماءِ أفضلُ مِن المِلحِ، ثمَّ قال بعدَه: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ﴾ [الفرقان: ٥٥]؛ فقدَّم الأفضلَ على الأدْوَنِ لهذا المعنى، وللبناءِ على ما تقدَّم مِن الآياتِ، فجاء في كلِّ موضعٍ ما يُناسِبُ السِّياقَ، وصحَّ المعنى الذي اعتَمَد عليه(١). وقيل: وجهُ ذلك أنَّ الموجِبَ لتأخيرِ ﴿ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾ في سورةِ يونُسَ ما وصَل به مِن قولِهم: ﴿ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ﴾ [يونس: ١٨]، فكأنَّه قيل: ويَعبُدون مِن دونِ اللهِ ما لا يَضُرُّهم ولا ينفَعُهم، ويَزعُمون أنَّ ذلك يَنفعُهم؛ فلم يَكُنْ لِيُناسِبَ لو قيل: (ويَعبُدون مِن دونِ اللهِ ما لا يَنفَعُهم ولا يضُرُّهم، ويقولون: هؤلاء شُفعاؤُنا عندَ اللهِ)- تَناسُبَ الواردِ مِن متَّصِلِ قولِه: ﴿ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾ بقولِه: ﴿ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ﴾؛ فلمَّا كان الاتِّصالُ فيما ذُكِر أنسَبَ، ورَدَت الآيةُ بحسَبِ ذلك. أمَّا آيةُ الفرقانِ فإنَّ قبلَها ذِكْرَ دَلائِلَ وشَواهِدَ مِن مَصنوعاتِه تعالى، يَهْتدي المعتبِرُ بالنَّظرِ فيها، تُخلِّصُه مِن ورَطاتِ الشُّكوكِ، ويَستقيمُ له دينُه، وذلك أعظمُ النَّفعِ وأجَلُّه، وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٧٣٣-٧٣٥).

تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ [الفرقان: ٤٥]، إلى قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٤]، فلمَّا تقدَّم التَّنبيهُ بهذه الآياتِ الواضحاتِ الموقظاتِ مِن سِناتِ الغَفلاتِ، والمحصِّلاتِ أعظَمَ النَّفعِ في امتِثالِ الواجباتِ، والنَّجاةِ مِن الضَّلالاتِ؛ ناسبَها تقديمُ ما قُدِّم في الآيةِ مِن قولِه: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ [الفرقان: ٥٥]، وصار الكلامُ بقوَّته مجاوبًا لقولِه: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧]؛ فورَد كلٌّ على ما يُناسِبُه(١).

- قولُه: ﴿أَتُنَبِّئُونَ﴾ استفهامٌ على سبيلِ التَّهكُّمِ والتَّوبيخِ بما ادَّعَوه مِن المُحالِ، الَّذي هو شَفاعةُ الأصنامِ، وإعلامٌ بأنَّ الَّذي أنبَؤوا به باطلٌ، غيرُ مُنطَوٍ تحتَ الصِّحَّةِ(٢).

- وأيضًا في قولِه: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أتَى بالمضارعِ، ولم يَقُلْ: (عمَّا أشرَكوا)؛ للدَّلالةِ على استِمرارِ حالِهم(٣).

٢- قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ جاء بصيغةِ القَصرِ: (ما... إلَّا)؛ للمُبالَغةِ في تأكيدِ الخبَرِ؛ لأنَّه خبرٌ مهمٌّ عجيبٌ؛ إذِ القصرُ تأكيدٌ على تأكيدٍ؛ باعتِبارِ اشتِمالِه على صيغَتَيْ إثباتٍ للمُثبَتِ، ونفيٍ عمَّا عَداه، فهو أقوى مِن تأكيدِ ردِّ الإنكارِ؛ ولذلك يُؤذِنُ برَدِّ إنكارٍ شديدٍ(٤).

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٢٧).

– وحسَّنَ القَصْرَ هنا وُقوعُه عَقِبَ الجدالِ معَ الَّذين غيَّروا الدِّينَ الحقَّ، وروَّجوا نِحْلتَهم بالمَعاذيرِ الباطلةِ؛ كقولِهم: ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، بخِلافِ آيةِ سورةِ البقَرةِ: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [البقرة: ٢١٣]؛ فإنَّها وقَعَت في سياقِ المجادلةِ مع أهلِ الكتابِ؛ لقولِه: ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾ [البقرة: ٢١١]، وأهلُ الكتابِ لا يُنكِرون أنَّ النَّاسَ كانوا أمَّةً واحدةً؛ فآيةُ سورةِ يونُسَ تُشيرُ إلى الوَحْدةِ الاعتِقاديَّةِ؛ ولذلك عبَّر عَنِ التَّفرُّقِ الطَّارئِ عليها باعتِبارِ الاختِلافِ المُشعِرِ بالمَذمَّةِ، والمعقَّبِ بالتَّخويفِ في قولِه: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ...﴾، وآيةُ سورةِ البقَرةِ تُشيرُ إلى الوَحْدةِ الشَّرعيَّةِ الَّتي تَجمَعُها الحنيفيَّةُ الفِطريَّةُ؛ ولذلك عبَّر عن التَّفرُّقِ الَّذي طرَأ عليها بقولِه: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾، ثمَّ جاء ذِكْرُ الاختِلافِ عرَضًا عَقِبَ ذلك بقولِه: ﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وأُريدَ به الاختِلافُ بينَ أتباعِ الشَّرائعِ؛ لقولِه: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ﴾(١) [البقرة: ٢١٣].

– قولُه: ﴿فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيه تقديمُ المجرورِ؛ للرِّعايةِ على الفاصِلةِ(٢).

٣- قولُه تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾

– قولُه: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ فيه التَّعبيرُ بصيغةِ المُضارِعِ (يَقُولُونَ)؛ لاستِحضارِ صورةِ مَقالَتِهم الشَّنعاءِ، والدَّلالةِ على الاستِمرارِ(٣).

– قولُه: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ فيه الإتيانُ بصيغةِ القَصْرِ؛ للرَّدِّ عليهم في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٢٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٣٣).

اعتِقادِهم أنَّ في إمكانِ الرَّسولِ الحقِّ أن يَأتِيَ بما يَسألُه قومُه مِن الخوارقِ، فجَعَلوا عدَمَ وُقوعِ مُقتَرَحِهم عَلامةً على أنَّه ليس برَسولٍ مِن اللهِ؛ فلذلك رَدَّ عليهم بصِيغَةِ القَصرِ الدَّالَّةِ على أنَّ الرَّسولَ ليس له تَصرُّفٌ في إيقاعِ ما سألوه؛ لِيَعلَموا أنَّهم يَرمُون بسُؤالِهم إلى الجَراءةِ على اللهِ تعالى بالإفحامِ(١).

– وجملةُ: ﴿فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ تفريعٌ على جملةِ: ﴿إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾، أي: ليس دَأْبي ودَأْبَكم إلَّا انتظارُ ما يَأتي به اللهُ إن شاءَ، وهذا تعريضٌ بالتَّهديدِ لهم أنَّ ما يأتي به اللهُ لا يتَرقَّبون منه إلَّا شرًّا لهم(٢)، فقولُه: ﴿فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ وعيدٌ، وقد صدَّقه اللهُ تعالى بنُصرتِه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم(٣).

* * *

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٣١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢٩).

الآيات (٢١-٢٣)

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ضَرَّآءَ﴾: أي: مرَضًا وضُرًّا، والضَّرَّاءُ كذلك: سوءُ الحالِ، والفقرُ والقحطُ، والضرُّ: خلافُ النَّفعِ⁽¹⁾.

﴿مَكْرٌ﴾: أي: استِهزاءٌ وتكذيبٌ، والمكرُ: صَرفُ الغَيرِ عمَّا يَقصِدُه بحيلةٍ، فسمَّى استهزاءَهم وتكذيبَهم مكرًا؛ لاحتيالِهم لدفعِ آياتِ الله بكلِّ سبيلٍ، وأصلُ (مكر): يدلُّ على احتيالٍ وخِداعٍ⁽²⁾.

﴿الفُلْكِ﴾: أي: السُّفنِ، وواحده وجمْعه بلفظٍ واحد، وأصلُ (الفلك): الاستدارةُ في الشَّيءِ، ولعلَّ السُّفن سُمِّيت فُلكًا؛ لأنَّها تُدارُ في الماءِ⁽³⁾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣ / ٣٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٠٣- ٥٠٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٤٥)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٣)، =

﴿عَاصِفٌ﴾: أي: شَديدةُ الهُبوبِ. وأصلُ (عصف): يدلُّ على خِفَّةٍ وسُرعةٍ(١).

﴿أُحِيطَ بِهِمْ﴾: أي: هلَكوا، وأصلُ هذا أنَّ العدوَّ إذا أحاطَ ببلدٍ، فقد دنَا أهلُه مِن الهلَكَةِ، وأصلُ (حوط): الشيءُ يطيفُ بالشيءِ(٢).

﴿مَتَاعَ﴾: المتاع: المَنفعةُ، وكلُّ ما حَصَل التمتُّع والانتفاعُ به على وجهٍ ما، أو ما يُنتفعُ به انتفاعًا قليلًا غيرَ باقٍ، بل يَنقضي عن قَريبٍ، وأصل (متع): يدلُّ على مَنفعةٍ، وامتدادِ مُدَّةٍ في خيرٍ(٣).

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾

﴿مَتَاعَ﴾: منصوبٌ على المَصدرِ، أي: تتمتَّعونَ متاعَ الحياةِ الدُّنيا، أو منصوبٌ على الحالِ، أي: متمتِّعينَ. أو على أنَّه مَفعولٌ لأجلِه، أي: لأجلِ مَتاعٍ. وعلى ذلك فـ﴿عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ متعَلِّقٌ بمحذوفٍ خَبَرُ ﴿بَغْيُكُمْ﴾، وقيل: الخبَرُ مَحذوفٌ تَقديرُه: مذمومٌ، ونحوُ هذا.

وقُرِئ ﴿مَتَاعُ﴾ بالرَّفعِ، وفي رفْعِه أوجُهٌ؛ أحدُها: أنَّه خبرُ ﴿بَغْيُكُمْ﴾ وعلى هذا فقَولُه: ﴿عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ متعلِّقٌ بـ﴿بَغْيُكُمْ﴾؛ لأنَّه مصدرٌ. الثاني: أن يكونَ ﴿عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ خبَرًا لـ﴿بَغْيُكُمْ﴾، و﴿مَتَاعُ﴾ خبَرًا ثانيًا. الثالث: أن يكونَ

= ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٢٨)، ((غريب القرآن)) لقاسم الحنفي (ص: ٩٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٥٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣١٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٠٤).

خبرَ مبتدأٍ محذوفٍ، أي: هو متاعُ الحياةِ الدُّنيا⁽¹⁾.

المعنَى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه إذا أذاقَ المُشرِكينَ رَحمةً بعد أن أصابَهم البَلاءُ، سَعَوا بكلِّ حيلةٍ بالباطِلِ؛ لإبطالِ الحَقِّ وتكذيبِه، ومقابِلَ هذا المَكرِ أمَرَ نَبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يقولَ لهم: إنَّ اللهَ أعجَلُ منكم مكرًا؛ إنَّ رُسُلَه يكتبونَ ما تَمكرونَ.

هو سُبحانه وتعالى الذي يُسَيِّرُكم في البَرِّ والبَحرِ، حتَّى إذا كُنتُم في السُّفُنِ، وجَرَت بكم بريحٍ طَيِّبةٍ، وفَرِحَ ركَّابُ السَّفينةِ بها، جاءَتْها ريحٌ شَديدةُ الهُبوبِ، وجاء ركابَ السَّفينةِ الموجُ مِن كُلِّ جَوانبِ السَّفينةِ، وأيقَنوا أنَّ الهلاكَ قد أحاط بهم، وأنَّهم سيَغرَقونَ- دَعَوُا اللهَ مُخلِصينَ له الدِّينَ لَئِن أنجاهم من هذه الشِّدَّةِ ليَكونُنَّ مِن الشَّاكرينَ.

فلمَّا أنجاهم أخلَفوا اللهَ ما وعدوه، فبَغَوا في الأرضِ بإشراكِهم باللهِ، وإفسادِهم في الأرضِ بالكُفرِ والظُّلمِ والمعاصي، يا أيُّها النَّاسُ إنَّما وبالُ بَغيِكم عائدٌ على أنفُسِكم، تتمتعون به مدة حياتكم القصيرة، ثمَّ إلى الله مَرجِعُكم يومَ القيامةِ، فيُخبِرُكم بما كُنتُم تعملونَ في الدُّنيا مِن خَيرٍ أو شَرٍّ، ويُجازيكم به

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ الكافرينَ لَمَّا طَلَبوا من رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم آيةً أخرى سوى القُرآنِ، وأجابَهم بما في قَولِه: ﴿إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ [يونس: ٢٠] ذكَرَ جوابًا آخرَ،

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٣٤١-٣٤٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٦٧٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ١٧٤-١٧٥).

وهو المذكورُ في هذه الآيةِ، وهو أنَّه تعالى بيَّنَ في هذه الآيةِ أنَّ عادةَ هؤلاءِ الأقوامِ المَكرُ واللَّجاجُ، والعِنادُ وعدمُ الإنصافِ، وإذا كانوا كذلك فبتَقديرِ أن يُعطَوا ما سألوه من إنزالِ مُعجِزاتٍ أخرى، فإنَّهم لا يؤمنونَ، بل يَبقَونَ على كُفرِهم وجَهلِهم(١).

وأيضًا لَمَّا حكى اللهُ تعالى تمَرُّدَ المُشرِكينَ، وذكر قَولَه: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ وذلك على سبيلِ التعنُّتِ؛ أخبَرَ أنَّ هؤلاء إنَّما يصيرونَ لهذه المقالاتِ عندما يكونونَ في رخاءٍ مِن العَيشِ، وخُلُوِّ بالٍ، وأنَّهم في ذلك لاهون ببَطَرِهم، وازدهائِهم بالنِّعمةِ والدَّعَة، وأنَّ إحسانَ اللهِ تعالى قابَلوه بما لا يجوزُ من ابتغاءِ المَكرِ لآياتِه، وتفَنَّنوا في التكذيبِ بوعيدِ اللهِ أفانينَ الاستهزاءِ، وكان خليقًا بهم أن يكونوا أوَّلَ مَن صدَّقَ بآياتِه(٢).

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا﴾.

أي: وإذا فرَّجنا عن المُشرِكينَ ورَحِمناهم، من بعدِ بَلاءٍ أصابَهم، سَعَوا بكلِّ حيلةٍ بالباطِلِ؛ لإبطالِ آياتِنا(٣) وردِّها وتكذيبِها(٤)!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٣٢).

(٣) ذهب بعضُ المُفَسِّرينَ إلى أنَّ المُرادَ بالآيات هنا: الآياتُ الكونيَّةُ، وممَّن اختار ذلك: محمد رشيد رضا. يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٧٣-٢٧٤).
قال الرازي: (فقوله: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً﴾ المرادُ منه تلك الأمطارُ النَّافعةُ. وقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ﴾ المرادُ منه ذلك القَحطُ الشَّديدُ. وقوله: ﴿إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ المرادُ منه إضافَتُهم تلك المنافِعَ الجليلةَ إلى الأنواءِ والكواكِبِ، أو إلى الأصنامِ). ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٣١).
وذهب آخرونَ إلى أنَّها آياتُ القُرآنِ الكريمِ. وممن اختار ذلك: الواحدي، وابن عاشور. يُنظر: ((الوسيط)) (٢/ ٥٤٢) للواحدي، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤٤، ١٤٥)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٥٥)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ﴾ [يونس: ١٢].

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٣-٣٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: ٨].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ * وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥٠-٥١].

وعن زيدِ بنِ خالدٍ الجُهَني رَضِيَ الله عنه، قال: ((صلَّى بنا رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم صلاةَ الصُّبحِ بالحُدَيبية في إثْرِ السَّماءِ[1] كانت من اللَّيلِ، فلما انصرَفَ أقبَلَ على النَّاسِ فقال: هل تَدرونَ ماذا قال ربُّكم؟ قالوا: اللهُ ورَسولُه أعلَمُ، قال: قال: أصبحَ مِن عبادي مؤمِنٌ بي وكافِرٌ، فأمَّا من قال: مُطِرْنا بفَضلِ اللهِ ورَحمتِه، فذلك مُؤمِنٌ بي، كافِرٌ بالكوكَبِ، وأمَّا من قال: مُطِرْنا بنَوْءِ كذا

= البيضاوي)) (٣/ ١٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٣٣).

[1] أي: بعد نُزولِ المَطَرِ، وأصلُ السماءِ: كلُّ ما ارتفَع فأظلَّ وعلا، فالسحابُ يُسمَّى سماءً. وسُمِّي المطرُ بذلك؛ لمجيءِ السحابِ به. يُنظر: ((إكمال المعلم)) للقاضي عياض (١/ ٣٣٠)، ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (٥/ ٩٩).

وكذا(١)، فذلك كافِرٌ بي، مُؤمِنٌ بالكوكبِ))(٢).

﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًا﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا كانت جملةُ ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةً مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَا﴾ دالَّةً على إسراعِ الكافرينَ بالمَكرِ مِن ثلاثةِ أوجُهٍ: التعبيرُ بالذَّوقِ الذي هو أوَّلُ المُخالطةِ، ولفظُ (مِن) التي هي للابتداءِ، و(إذا) الفجائيَّة، كان كأنَّه قيل: أسرَعوا جُهدَهم في المَكرِ، فقيل(٣):

﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًا﴾.

أي: قُل- يا مُحمَّدُ- لهؤلاء المُشرِكينَ: اللهُ أعجَلُ مَكرًا بكم- باستدراجِكم وتعجيلِ عُقوبتِكم- مِن مَكرِكم في آياتِه(٤).

قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣].

﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ﴾.

أي: إنَّ المَلائكةَ الحَفَظَةَ يَكتُبونَ مَكرَكم في آياتي- أيُّها المُشرِكونَ- ويُحصُون أعمالَكم؛ للحِسابِ عليها في الآخرةِ(٥).

---

(١) النَّوءُ: الكَوكَبُ؛ ولذلك سَمَّوا مَنازِلَ القَمَرِ الأنواءَ. يُنظر: ((أعلام الحديث)) للخطابي (١/ ٥٥٣).

(٢) رواه البخاري (٨٤٦)، ومسلم (٧١) واللفظ له.

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٣٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤٥)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٧٤، ٢٧٥).
قال أبو حيان: (والرُّسلُ هنا الحفظةُ بلا خلافٍ). ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣١).

كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ - ١٢].

وقال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠].

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا قال: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ كان هذا الكلامُ كلامًا كُلِّيًّا لا ينكَشِفُ معناه تمامَ الانكشاف إلَّا بذِكرِ مِثالٍ كامِلٍ، فذكرَ اللهُ تعالى لِنَقلِ الإنسانِ مِن الضُّرِّ الشَّديدِ إلى الرَّحمةِ مِثالًا، ولِمَكرِ الإنسانِ مِثالًا؛ حتى تكونَ هذه الآيةُ كالمُفَسِّرةِ للآيةِ التي قَبلَها⁽١⁾.

وأيضًا لَمَّا قال الله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ أخذ سبحانَه يبيِّنُ ما يَتَضِحُ به أسرعيَّةُ مَكرِه، في مثالٍ دالٍّ على نَقْلِه سبحانَه لِعبادِه مِن الضُّرِّ إلى النِّعمةِ، ومِن سُرعةِ تَقَلُّبِهم⁽٢⁾.

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ تعالى القاعدةَ العامَّةَ في أحوالِ النَّاسِ عند إصابةِ الرَّحمةِ لهم بعد الضَّرَّاءِ، واليُسرِ بعد العُسرِ؛ ذكَرَ حالةً تؤيِّدُ ذلك، وهي حالُهم في البَحرِ عند اشتدادِه، والخوفِ مِن عَواقِبِه، فقال تعالى⁽٣⁾:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦١).

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ ﴿يَنشُرُكُمْ﴾ مِن النَّشرِ، أي: يبثُّكم(١).

٢- قراءةُ ﴿يُسَيِّرُكُمْ﴾ مِنَ التَّسييرِ، أي: يَحمِلُكم في البَرِّ والبَحرِ(٢).

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾.

أي: اللهُ هو الذي يُسَيِّرُكم في البَرِّ؛ بإقدارِه لكم على المَشيِ على أقدامِكم، وبما سَخَّرَه لكم من الدوابِّ وغَيرِها، ويُسَيِّرُكم في البَحرِ في السُّفُنِ التي يَسَّرَ لكم صُنعَها(٣).

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾.

أي: حتى إذا(٤) كُنتم في السُّفُنِ، وجَرَت بكم؛ بسَبَبِ ريحٍ لَيِّنةِ الهُبوبِ، مُوافِقةٍ

---

(١) قرأ بها ابن عامر، وأبو جعفر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٨٢).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٤١)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٤/ ٢٦٥)، ((حجة القراءات)) (ص: ٣٢٩) لابن زنجلة.

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٨٢).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٤١)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٤/ ٢٦٥)، ((حجة القراءات)) (ص: ٣٢٩) لابن زنجلة.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤٦)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٩٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦١).

(٤) قال الزمخشري: (إن قلتَ: كيف جعَلَ الكَونَ في الفُلكِ غايةً للتَّسييرِ في البحرِ، والتَّسييرُ في البحر إنَّما هو بالكَونِ في الفُلكِ؟ قلتُ: لم يُجعَلِ الكونُ في الفلك غايةً للتَّسييرِ في البحر، ولكِنْ مَضمون الجملة الشَّرطية الواقعة بعد ﴿حَتَّىٰ﴾ بما في حَيِّزها، كأنَّه قيل: يسَيِّرُكم حتى إذا وقعَتْ هذه الحادثةُ، وكان كيت وكيت؛ مِن مجيءِ الرِّيحِ العاصِفِ، وتَراكُمِ الأمواجِ، =

لرَغبتِكم، وفَرِحَ رُكَّابُ السَّفينةِ بتلك الرِّيحِ، واطمأنُّوا بها، فبينما هم كذلك إذ جاءت السَّفينةَ ريحٌ شديدةُ الهُبوبِ(١).

﴿وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ﴾.

أي: وجاء ركابَ السَّفينةِ مَوجُ البَحرِ مِن كُلِّ جانبٍ مِن جوانبِ السَّفينةِ(٢).

﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ﴾.

أي: وأيقَنُوا أنَّ الهَلاكَ قد أحاط بهم، وأنهم سيَغرَقونَ في البَحرِ الهائجِ(٣).

﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾.

أي: دَعُوا اللهَ وَحْدَه أن يُنجيَهم مِن الكَربِ، وأخلصوا له الدُّعاءَ دون آلهتِهم(٤).

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧].

= والظنِّ للهَلاكِ، والدُّعاءِ بالإنجاءِ. فإن قلتَ: ما جوابُ ﴿إِذَا﴾؟ قلتُ: ﴿جَاءَتْهَا﴾. فإن قلتَ: فـ «دَعَوا»؟ قلتُ: بدَلٌ مِن «ظَنُّوا»، لأنَّ دعاءَهم من لوازمِ ظَنِّهم الهلاكَ، فهو مُلتَبِسٌ به).
((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٩)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٧)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٩٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٥/ ١٢٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٤٣)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٣٧٥)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤١٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤٦، ١٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٩)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٣٨).

﴿لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

أي: وقالوا: واللهِ لَئِنْ أنجيتَنا- يا ربَّنا- من هذه الشِّدَّةِ، لنكونَنَّ مِن الشَّاكرينَ لنِعَمِك، المُطيعينَ أمْرَك، ولا نُشرِكُ بك شيئًا في عبادَتِك(١).

عن سعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ رضي الله عنه، قال: ((لَمَّا كان يومُ فَتحِ مَكَّةَ أمَّنَ رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ النَّاسَ، إلَّا أربعةَ نَفَرٍ وامرأتينِ، وقال: اقتُلوهم، وإن وَجَدتُموهم متعَلِّقينَ بأستارِ الكَعبةِ: عِكرمةُ بنُ أبي جَهلٍ، وعبدُ الله بنُ خطَلٍ، ومقيسُ بنُ صُبابةَ، وعبدُ اللهِ بنُ سعدِ بن أبي السَّرحِ... وأمَّا عِكرمةُ فرَكِبَ البَحرَ، فأصابتهم عاصِفٌ، فقال أصحابُ السَّفينةِ: أخلِصوا؛ فإنَّ آلهَتَكم لا تُغني عنكم شيئًا هاهنا. فقال عكرمةُ: واللهِ لَئِنْ لم ينجِّني من البَحرِ إلَّا الإخلاصُ، لا يَنَجِّيني في البَرِّ غَيرُه، اللهمَّ إنَّ لك عليَّ عَهدًا، إن أنت عافيتَني ممَّا أنا فيه، أنْ آتيَ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، حتى أضَعَ يَدي في يَدِه، فلأَجِدَنَّه عَفُوًّا كريمًا، فجاء فأسلَمَ))(٢).

﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا حكى اللهُ تعالى عن الكافرينَ هذا التضَرُّعَ الكامِلَ عند البَلِيَّةِ؛ بيَّنَ أنَّهم

---

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦١).

(٢) أخرجه النسائي (٤٠٦٧) واللفظ له، والبزار (١١٥١)، وأبو يعلى (٧٥٧).
صحَّح إسنادَه ابنُ القيِّم في ((زاد المعاد)) (٣/ ١١٠)، وصحَّحه ابنُ الملقنِ في ((البدر المنير)) (٩/ ١٥٣)، ووثَّق رجالَه الهيثميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٦/ ١٧١)، والبوصيري في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٥/ ٢٤٥)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن النسائي)) (٤٠٦٧).

بعدَ الخلاصِ مِن تلك البَليَّةِ والمِحنةِ أقدَموا في الحالِ على البَغيِ في الأرضِ بِغَيرِ الحَقِّ(١).

﴿ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾.

أي: فلمَّا أنقَذَ اللهُ رُكَّابَ السَّفينةِ أخلَفوا اللهَ ما وَعَدوه، فأشرَكوا به، وأفسَدوا في الأرضِ بالكُفرِ والظُّلمِ والمعاصي(٢)!

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ﴾.

أي: يا أيُّها النَّاسُ إنَّما وَبالُ بَغيِكم هذا عائدٌ على أنفُسِكم في الدُّنيا والآخِرةِ، ولن تَضُرُّوا اللهَ شيئًا(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣].

وعن أبي بَكرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ما مِن ذَنبٍ أجدَرُ أن يُعَجِّلَ اللهُ لِصاحِبِه العُقوبةَ في الدُّنيا مع ما يَدَّخِرُ له في الآخرةِ، مِن البَغيِ وقَطيعةِ الرَّحِمِ))(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤٨)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٩)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ١١٥).

(٤) أخرجه أبو داود (٤٩٠٢)، والترمذي (٢٥١١)، وابن ماجه (٤٢١١) واللفظ له، وأحمد (٢٠٤١٤). قال الترمذيُّ: حسنٌ صحيحٌ، وصحَّحه ابنُ بازٍ في ((مجموع الفتاوى)) (٢٣/ ٢٣١)، والألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٤٢١١).

﴿ مَتَـٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾.

أي: تتمَتَّعونَ به مُدَّةَ حَياتِكم القصيرةِ الفانيةِ⁽¹⁾.

﴿ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾.

أي: ثمَّ إلينا يكونُ مَصيرُكم بعد مَوتِكم، فنُخبِرُكم يومَ القيامةِ بما كُنتُم تعملونَ في الدُّنيا، ونجازيكم عليه⁽²⁾.

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ تضمَّنَتِ الآيةُ البَيانَ عَمَّا توجِبُه بديهةُ العَقلِ مِن الفَزعِ عند الشِّدَّةِ إلى واهِبِ السَّلامةِ، ومُسبِغِ النِّعمةِ، في كَشفِ تلك البَليَّةِ⁽³⁾.

٢- البَغيُ يُجازَى أصحابُه عليه في الدُّنيا والآخرةِ؛ نَستفيدُ ذلك مِن قَولِ الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾⁽⁴⁾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٤٩)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦١).

قال الرازي: (والإنباءُ هو الإخبارُ، وهو في هذا الموضعِ وعيدٌ بالعذابِ، كقولِ الرجلِ لغيرِه: سأخبِرُك بما فعلتَ). ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٩٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٨٠).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ سمَّى تكذيبَهم بآياتِ اللهِ (مكرًا)؛ لأنَّ المكرَ عِبارةٌ عن صَرفِ الشَّيءِ عن وَجهِه الظَّاهِرِ بطريقِ الحِيلةِ، وهؤلاء يحتالونَ لِدَفعِ آياتِ اللهِ بكُلِّ ما يَقدِرونَ عليه؛ مِن إلقاءِ شُبهةٍ، أو تخليطٍ في مناظرةٍ، أو غيرِ ذلك من الأمورِ الفاسدةِ(١).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ تضمَّنَت الآيةُ البَيانَ عَمَّا يُوجِبُه حالُ الجاهِلِ مِن تَضييعِ حَقِّ النِّعمةِ والمَكرِ فيها، وإن جَلَّتْ مَنزلتُها، وأتتْ على فاقةٍ إليها، وشِدَّةِ حاجةٍ إلى نُزولِها، مع الوعيدِ بعائدِ الوَبالِ على الماكرِ فيها(٢).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ فيه جوازُ رُكوبِ البَحرِ مُطلقًا في الغَزوِ، وفي غيرِ الغَزوِ(٣).

٤- قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ في هذا دَليلٌ على أنَّ المُضطرَّ يُجابُ دُعاؤه وإن كان كافرًا؛ لانقطاعِ الأسبابِ، ورُجوعِه إلى الواحِدِ رَبِّ الأربابِ(٤).

٥- قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٩٧).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٥).

الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ الاعترافُ باللهِ مَركوزٌ في طبائعِ العالَم، وهم مَجبولونَ على أنَّه المتصَرِّفُ في الأشياءِ، فإذا حقَّت الحقائقُ رَجَعوا إليه كُلُّهم؛ مُؤمِنُهم وكافِرُهم⁽¹⁾؛ فقد جُبِلوا على الرُّجوعِ إليه في الشَّدائِدِ⁽²⁾.

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ لَمَّا كان الخَوفُ في البَحرِ أغلَبَ على الإنسانِ منه في البَرِّ؛ وقع المِثالُ به لذلك المَعنى الكُلِّيِّ؛ مِن التجاءِ العَبدِ لِرَبِّه تعالى حالةَ الشِّدَّةِ، والإهمالِ لجانِبِه حالةَ الرَّخاءِ⁽³⁾.

٧- ذُكِرتِ الرياحُ في القُرآنِ جَمعًا ومُفردةً، فحيث كانت في سياقِ الرَّحمةِ أتت مجموعةً، وحيثُ وقعتْ في سياقِ العَذابِ أتت مُفردةً، وسِرُّ ذلك أنَّ رياحَ الرَّحمةِ مُختلفةُ الصِّفاتِ والمهابِّ والمَنافِعِ، وأمَّا في العذابِ فإنَّها تأتي مِن وجهٍ واحدٍ وصِمَامٍ واحدٍ لا يقومُ لها شيءٌ، ولا يعارِضُها غيرُها حتى تنتهيَ إلى حيث أُمِرَتْ، ولهذا وصفَ سُبحانه الريحَ التي أرسلَها على عادٍ بأنَّها عقيمٌ، فقال سُبحانه: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١] وهي التي لا تُلقِحُ⁽⁴⁾، ولا خيرَ فيها، إلَّا أنَّ هذا لم يَطَّرِدْ هنا في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ حيث جاءت بالإفرادِ، ووُصِفَت بأنها

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٣).

(٤) أي: لا تُلقِحُ شَجرًا، ولا تُنشِئُ سَحابًا، ولا تَحمِلُ مطرًا، إنَّما هي ريحُ الإهلاكِ. يُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١/ ١٨٩)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٢/ ٤١٣).

طَيِّبةٌ! ووجهُ ذلك: أنَّ تمامَ الرَّحمةِ هنا إنَّما تحصُلُ بوَحدةِ الرِّيحِ لا باختلافِها، بخلافِ المقصودِ منها في البَرِّ؛ فإنَّ السفينةَ لا تسيرُ إلَّا بريحٍ واحدةٍ مِن وجهٍ واحدٍ تُسَيِّرُها، فإذا اختَلَفَت عليها الرِّياحُ وتصادَمَتْ وتقابَلَتْ، فهو سببُ الهلاكِ، فالمطلوبُ هنا ريحٌ واحدةٌ لا رياحٌ، وأكَّدَ هذا المعنى بوصفِها بالطَّيِّبةِ؛ دفعًا لتوهُّمِ أنْ تكونَ ريحًا عاصفةً؛ بل هي ممَّا يُفرحُ بها لِطِيبِها[1].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ فيه بَيانُ أنَّ هؤلاءِ المُشرِكينَ كانوا لا يَلتَفِتونَ إلى أصنامِهم في هذه الحالةِ وما يُشابِهُها، والعجب مِن طوائِفَ يَعتَقِدونَ في الأمواتِ!! فإذا عَرَضَت لهم في البَحرِ مثلُ هذه الحالةِ دَعُوا الأمواتَ، ولم يُخلِصُوا الدُّعاءَ لله كما فعَلَه المُشرِكونَ، فلينظُرِ المرء إلى ما فعَلَت تلك الاعتقاداتُ الشَّيطانيَّةُ، وأين وصل بها أهلَها، وإلى أينَ رمى بهم الشَّيطانُ، وكيف اقتادَهم وتسَلَّطَ عليهم؟! حتى انقادوا له انقيادًا ما كان يَطمَعُ في مِثلِه ولا في بَعضِه عُبَّاد الأوثانِ[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١ - قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾

- ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ...﴾ فيه إسنادُ المِساسِ إلى الضَّرَّاءِ بعدَ إسنادِ الإذاقةِ إلى ضَميرِ الجَلالةِ، وهذا مِن الآدابِ القُرآنيَّةِ؛ كما في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠] ونَظائرِه[3].

---

[1] يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١١٨)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢٠١).

[2] يُنظر: ((فتح القدير)) للشوكاني (٢/ ٤٩٥).

[3] يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٣٣).

- وجاء الكلامُ على طَريقةِ الحِكايةِ عن حالِهم، والمُلْقَى إليه الكلامُ هو النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمؤمنون، وفيه تعريضٌ بتَذْكيرِ الكُفَّارِ بحالِ حُلولِ المصائبِ بِهم؛ لعلَّهم يتَذكَّرون، فيُعِدُّوا عُدَّةَ الخوفِ مِن حُلولِ النِّقْمةِ الَّتي أنذَرَهم بها في قوله: ﴿فَانْتَظِرُوا﴾(١).

- قولُه: ﴿إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ فيه تنكيرُ ﴿مَكْرٌ﴾؛ للتَّفخيمِ(٢).

- قولُه: ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ فيه مناسَبةٌ حسَنةٌ؛ فإنَّه قال: ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾، فجاءَت أفعَلُ التَّفضيلِ؛ لأنَّ جُملةَ ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ قبلَها تتَضمَّنُ سُرعةَ المَكرِ مِنهم؛ لأنَّ هذه الجملةَ دليلٌ على سُرعةِ تَقلُّبِ ابنِ آدَمَ مِن حالةِ الخيرِ إلى حالةِ الشَّرِّ، وذلك بلَفظِ ﴿أَذَقْنَا﴾، كأنَّه قيلَ: أوَّلَ ذَوْقِه الرَّحمةَ قبلَ أن يُداوِمَ استِطْعامَها مَكروهٌ، وبلفظِ ﴿مِنْ﴾ المُشْعِرِ بابتِداءِ الغايةِ، أي: يُنشِئُ المَكْرَ إثْرَ كَشْفِ الضَّرَّاءِ لا يُمهِلُ ذلك، وبلَفظِ (إذا) الفُجائيَّةِ الواقعةِ جَوابًا لـ(إذا) الشَّرطيَّةِ، أي: في وقتِ إذاقةِ الرَّحمةِ، كأنَّه قال: وإذا رَحِمْناهم مِن بعدِ ضرَّاءَ فاجَؤوا وُقوعَ المكرِ مِنهم، وسارَعوا إليه قبل أن يَغسِلوا رُؤوسَهم مِن مَسِّ الضَّرَّاءِ، ولم يتَلبَّثوا ريثَما يُسيغُون غُصَّتَهم(٣).

- وجملةُ: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ استِئنافُ خِطابٍ للمُشركينَ مُباشَرةً؛ تَهديدًا مِن اللهِ؛ فلِذَلِك فُصِلَت ولم تُعطَفْ على الَّتي قبلَها؛ لاختِلافِ المُخاطَبِ، وتأكيدُ الجملةِ بـ﴿إِنَّ﴾؛ لِكَونِ المخُاطَبين يَعتقِدون خِلافَ ذلك؛ إذْ كانوا يَحسَبون أنَّهم يَمكُرون بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٣٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٠- ٣١).

وأنَّ مَكْرَهم يتَمشَّى عليه ولا يَشعُرُ به، فأعلَمَهم اللهُ بأنَّ الملائكةَ الموكَّلين بإحصاءِ الأعمالِ يَكتُبون ذلك(١). وهذه الجملةُ أيضًا تَعليلٌ مِن جِهتِه تعالى لأسرَعيَّةِ مَكرِه سبحانه، وفيه مِن المبالَغةِ ما لا يوصَفُ، وصيغةُ الاستقبالِ في (يَكْتُبون- تَمكُرون)؛ للدَّلالةِ على الاستِمرارِ التَّجدُّديِّ(٢)، والتَّكرُّرِ، أي: تتَكرَّرُ كِتابتُهم كلَّما يتَكرَّرُ مَكرُهم(٣).

- وفي قولِه: ﴿تَمْكُرُونَ﴾- بالتَّاءِ على الخِطابِ- مُبالَغةٌ لهم في الإعلامِ بحالِ مَكرِهم(٤).

- وفي قولِه: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾ الْتِفاتٌ- حيث لم يَقُلْ: (إنَّ رُسلَه)- فهو تلوينٌ للخِطابِ بصَرفِه عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إليهم؛ للتَّشديدِ في التَّوبيخِ(٥).

٢- قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾

- في قولِه: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِمْ﴾ التفاتٌ، حيث عدَل عن الخِطابِ إلى الغَيبةِ؛ للمُبالغةِ، كأنَّه تذكِرةٌ لغَيرِهم؛ ليتعجَّبَ مِن حالِهم ويُنكِرَ عليهم(٦). ومِن بديعِ الأسلوبِ في الآيةِ: أنَّها لَمَّا كانت بصَددِ ذِكْرِ النِّعمةِ جاءَت بضَمائرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣١)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٣٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٣٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٠٩).

الخِطابِ الصَّالحةِ لِجَميعِ السَّامِعين، فلمَّا تَهيَّأَت للانتِقالِ إلى ذِكرِ الضَّرَّاءِ وقَع الانتِقالُ مِن ضَمائرِ الخِطابِ إلى ضَميرِ الغَيبةِ؛ لِتَلوينِ الأسلوبِ بما يُخلِّصُه إلى الإفضاءِ إلى ما يَخُصُّ المشركين، فقال: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِمْ﴾ على طريقةِ الالتِفاتِ، أي: وجرَيْن بكُم، وهكذا أُجريَت الضَّمائرُ جامِعةً للفريقَين، إلى أن قال: ﴿فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾؛ فإنَّ هذا ليس مِن شِيَمِ المؤمنين، فتَمحَّضَ ضميرُ الغيبةِ هذا للمُشركين، فقد أخرَجَ مِن الخبَرِ مَن عَدا الَّذين يَبغُون في الأرضِ بغيرِ الحقِّ؛ تعويلًا على القَرينةِ؛ لأنَّ الَّذين يَبغون في الأرضِ بغيرِ الحقِّ لا يَشمَلُ المسلمين(١).

- وأيضًا ابتُدِئ الإتيانُ بضَميرِ الغيبةِ مِن آخِرِ ذكرِ النِّعمةِ عندَ قولِه: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾؛ للتَّصريحِ بأنَّ النِّعمةَ شَمِلَتهم، وللإشارةِ إلى أنَّ مَجيءَ العاصفةِ فجأةً في حالِ الفرَحِ مُرادٌ منه ابتلاؤُهم وتخويفُهم؛ فهو تمهيدٌ لقولِه: ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾(٢).

- قولُه: ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ فيه تأكيدُ وَعْدِهم بالشُّكرِ بثَلاثِ مُؤكِّداتٍ: لامِ تَوطِئةِ القَسَمِ، ونونِ التَّوكيدِ، والتَّعبيرِ بصيغةِ ﴿مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ وهو أبلَغُ مِن (لنَكونَنَّ شاكِرين)؛ لِما يُفيدُه مِن كَونِهم مِن هذه الزُّمرةِ الَّتي دَيدَنُها الشُّكرُ(٣).

٣- قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ١٣٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ١٣٨).

- قولُه: ﴿فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أتى بـ (إذا) الفُجائيَّةِ في جوابِ (لَمَّا)؛ للدَّلالةِ على تَعجيلِهم بالبَغيِ في الأرضِ عَقِبَ النَّجاةِ(١).

- وزيادةُ ﴿فِي الْأَرْضِ﴾؛ للدَّلالةِ على شُمولِ بَغيِهم لأقطارِها، وصيغةُ المضارِعِ ﴿يَبْغُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّجدُّدِ والاستمرارِ(٢).

- وقولُه: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ قيدٌ كاشفٌ لِمَعنى البغيِ؛ إذ البغيُ لا يَكونُ بحقٍّ، فهو كالتَّقييدِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾(٣) [القصص: ٥٠].

- قولُه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ توجيهٌ للخِطابِ إلى أولئك الباغينَ؛ للتَّشديدِ في التَّهديدِ، والمبالَغةِ في الوَعيدِ(٤). وافتُتِح الخِطابُ بـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾؛ لاستِصْغاءِ أسماعِهم، والمقصودُ مِن هذا تَحذيرُ المشركين ثمَّ تَهديدُهم(٥).

قولُه: ﴿إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى أَنْفُسِكُمْ﴾ في قَصْرِ البَغيِ على كونِه مُضِرًّا بهم- كما هو مُفادُ حرفِ الاستِعْلاءِ (على)- تنبيهٌ على حَقيقةٍ واقعيَّةٍ وموعظةٍ لهم؛ لِيَعلَموا أنَّ التَّحذيرَ مِن الشِّركِ والتَّهديدَ عليه لِرَعْيِ صَلاحِهم، لا لأنَّهم يَضُرُّونه سُبحانَه(٦).

- قولُه: ﴿ثُمَّ إِلَيْنا مَرْجِعُكُمْ...﴾ فيه تقديم الجارِّ والمجرورِ؛ للدَّلالةِ على الثَّباتِ والقَصْرِ(٧)، وإفادةِ الاختِصاصِ، أي: تُرجَعون إلينا لا إلى غيرِنا؛ تَنزيلًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٣٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٣٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٣٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٣٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٣٩).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٧) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٣٦).

للمُخاطَبين منزلةَ مَن يظُنُّ أنَّه يُرجَعُ إلى غيرِ اللهِ؛ لأنَّ حالَهم في التَّكذيبِ بآياتِه، والإعراضِ عن عِبادتِه إلى عبادةِ الأصنامِ كحالِ مَن يظُنُّ أنَّه يُحشَرُ إلى الأصنامِ، وإن كان المشركون يُنكِرون البَعثَ مِن أصلِه⁽¹⁾.

- وعُطِفَت هذه الجملةُ بـ (ثُمَّ)؛ لإفادةِ التَّراخي الرُّتبيِّ؛ لأنَّ مضمونَ هذه الجملةِ أصرَحُ تَهديدًا مِن مَضمونِ جُملةِ: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾⁽²⁾.

- قولُه: ﴿فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيه تفريعُ ﴿فَنُنَبِّئُكُمْ﴾ على جملةِ: ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ تفريعَ وعيدٍ على تهديدٍ، والإنباءُ هنا كنايةٌ عَن الجزاءِ؛ لأنَّ الإنباءَ يَستلزِمُ العِلمَ بأعمالِهم السَّيِّئةِ، والقادِرُ إذا عَلِم بسوءِ صَنيعِ عَبدِه لا يَمنَعُه مِن عقابِه مانعٌ، وفي ذِكرِ ﴿كُنْتُمْ﴾ والفِعْلِ المضارعِ ﴿تَعْمَلُونَ﴾ دَلالةٌ على تكرُّرِ عمَلِهم، وتَمكُّنِه مِنهم⁽³⁾.

* * *

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيتان (٢٤-٢٥)

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿زُخْرُفَهَا﴾: أي: حُسنَها وبَهاءَها، وزينَتَها بالنَّباتِ، وأصلُ الزخرف: الذَّهَبُ والزِّينةُ المُزَوَّقةُ[1].

﴿حَصِيدًا﴾: أي: محصودةً، ومقطوعةً مِن أصولِها. وأصلُ (حصد): يدلُّ على قَطعِ الشَّيءِ[2].

﴿لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾: أي: لم تَكُنْ عامِرةً، مِن: غَنِيَ في المكانِ: إذا أقامَ فيه وعَمَّره، ومنه المَغاني: المَنازِلُ التي يَعمُرُها النَّاسُ. وأصلُ (غني): يدلُّ على الكِفايةِ[3].

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ مَثَلَ زينةِ الحياةِ الدُّنيا، في سُرعةِ زَوالِها، كمَثَلِ مَطَرٍ أنزَله اللهُ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٥٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٨).

مِن السَّماءِ إلى الأرضِ، فنبَتَ به أنواعٌ مِن نباتِ الأرضِ، اختلط بعضُها ببعضٍ، ممَّا يأكُلُه النَّاسُ والأنعامُ، حتى إذا ظهر حُسنُ الأرضِ بألوانِ النَّباتِ المُختَلِفةِ، وتزَيَّنَت بأنواعِ الحُبوبِ والثِّمارِ، والأزهارِ المتعَدِّدةِ الألوانِ والأشكالِ، وأيقنَ أهلُها أنَّهم قادِرونَ على حَصدِ زَرْعِها، وقَطْفِ ثِمارِها؛ أتاها قضاءُ اللهِ بإهلاكِ نَباتِها، فصَيَّرَ تعالى النَّباتَ مَقلوعًا هالِكًا، كأنْ لم يكُنْ قائمًا على ظَهرِ الأرضِ مِن قَبلُ، كذلك يُفصِّلُ اللهُ الآياتِ لِقَومٍ يتفَكَّرونَ.

ويُبيِّنُ تعالى أنَّه يدعو عِبادَه لِدُخولِ جَنَّتِه، السَّالِمةِ مِن جميعِ الآفاتِ، ويُرشِدُ ويُوفِّقُ من يشاءُ مِن عِبادِه لسُلوكِ الطَّريقِ المُستقيمِ، المُوصِلِ إلى الجنَّةِ، وهو الإسلامُ.

تَفسيرُ الآيتَين:

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ الله تعالى لَمَّا قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وكان سبَبُ ما ذُكِرَ مِن البَغيِ هو الإفراطَ في حبِّ التمتُّعِ بما في الدُّنيا من الزِّينةِ واللَّذَّاتِ؛ ضرَبَ مثلًا بَليغًا عَجيبًا للحياةِ الدُّنيا، يُذَكِّرُ من يبغي فيها على سُرعةِ زَوالِها وانقضائِها، ويَصرِفُ العاقِلَ عن الغُرورِ بها، ويهديه إلى القَصدِ والاعتدالِ فيها، واجتنابِ التوسُّلِ إليها بالبَغيِ والظُّلم، وحُبِّ العُلُوِّ والفَسادِ في الأرضِ، وأنَّها بحالِ ما تُعِزُّ وتُسِرُّ، تَضمَحِلُّ ويَؤُولُ أمرُها إلى الفَناءِ⁽¹⁾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٨٤).

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾.

أي: إنَّما مَثَلُ زِينةِ الحياةِ الدُّنيا في سُرعةِ زَوالِها، كمَثَلِ مَطرٍ أنزلناه من السَّماءِ إلى الأرضِ(١).

﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ﴾.

أي: فنَبَتَ بذلك المطَرِ أنواعٌ مِن نَباتِ الأرضِ مُتداخِلٌ بعضُها في بعضٍ(٢) ممَّا يأكُلُه النَّاسُ من الحُبوبِ والثِّمارِ والبُقولِ، وممَّا تأكُلُه الأنعامُ مِن الكَلأِ والعُشبِ(٣).

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ﴾.

أي: حتَّى إذا ظهَرَ حُسنُ الأرضِ بألوانِ النَّباتِ المُختَلفةِ، وتزيَّنَت بأنواعِ الحُبوبِ والثِّمارِ والأزهارِ المتعدِّدةِ الأشكالِ والألوانِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٥٠)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٦٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٠).

(٢) ممَّن اختار هذا المعنى لقوله تعالى: ﴿فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٥٠)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٦٣).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٥٠)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٦/ ١٩٤١).
قال الشوكاني: (والباءُ في: ﴿فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ للسببيةِ، أي: فاختلَط بسببِه نباتُ الأرضِ، بأن اشتَبَك بعضُه ببعضٍ حتى بلَغ إلى حدِّ الكمالِ). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٩٧).
وقيل: المرادُ: امتزجَ الماءُ بالنَّباتِ لِسَرَيانِه فيه. وممَّن اختار هذا المعنَى: القاسميُّ، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٥٠)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٠)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٥٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٠)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦١).

كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

وقال سُبحانه: ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ * وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾ [ق: ٧ - ١٠].

﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾.

أي: وأيقَنَ أهلُ الأرضِ- الذين زَرَعوها وغَرَسوها- أنَّهم قادِرونَ على حَصدِ زَرعِها، وقَطْفِ ثِمارِها⁽¹⁾.

﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾.

أي: جاء الأرضَ قضاؤُنا بإهلاكِ نَباتِها فجأةً؛ إمَّا ليلًا أو نهارًا، فصيَّرْنا النَّباتَ مَقلوعًا هالِكًا، كأنْ لم يكُنْ قائمًا على ظَهرِ الأرضِ يُزَيِّنُها بجمالِه مِن قَبلُ⁽²⁾!

كما قال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ [الكهف: ٤٥].

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

أي: كما بيَّنَّا لكم- أيُّها النَّاسُ- مَثَلَ الدُّنيا بهذا المِثالِ، وعرَّفناكم أمْرَها؛ نُبَيِّنُ ونُوضِّحُ- بمِثلِ ذلك التَّفصيلِ البديعِ- الآياتِ لقومٍ يتفكَّرونَ ويعتبرونَ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٥٠)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٣٧، ٢٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٧، ٣٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٥٠، ١٥١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٤، ١١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٨٤، ٢٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٤٢، ١٤٤).

فلا يغترُّونَ بالدُّنيا الفانيةِ(١).

كما قال سُبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٢١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ تعالى الدُّنيا، وسُرعةَ عَطَبِها وزَوالِها، ونَفَّرَ عن المَيلِ إليها بالمَثَلِ السَّابقِ؛ رغَّبَ في الآخرةِ، ودعا إلى الجنَّةِ(٢)، فقال:

﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ﴾.

أي: واللهُ يدعو عِبادَه إلى دُخولِ جَنَّتِه السَّالِمةِ مِن جميعِ الآفاتِ، فاطلبوها بطاعَتِه، ولا تطلُبوا الدُّنيا وزينَتَها؛ فإنَّها مليئةٌ بالآفاتِ والنَّكَباتِ، ومصيرُها إلى زوالٍ وفَناءٍ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٥١)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٦٦، ١٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٥)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦١)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٣٧)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٢). =

عن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((جاءتْ ملائكةٌ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو نائِمٌ، فقال بعضُهم: إنَّه نائمٌ، وقال بعضُهم: إنَّ العَينَ نائمةٌ، والقلبَ يَقظانُ، فقالوا: إنَّ لِصاحِبِكم هذا مَثَلًا، فاضربوا له مَثَلًا، فقال بعضُهم: إنَّه نائِمٌ، وقال بعضُهم: إنَّ العَينَ نائمةٌ، والقَلبَ يَقظانُ، فقالوا: مَثَلُه كمَثَلِ رَجُلٍ بنى دارًا، وجعل فيها مأدُبةً[1]، وبعثَ داعيًا، فمن أجابَ الدَّاعيَ دخل الدَّارَ، وأكلَ مِن المَأدُبةِ، ومَن لم يُجِبِ الدَّاعيَ لم يدخُلِ الدَّارَ، ولم يأكلْ من المأدُبة، فقالوا: أوِّلُوها له يَفْقَهْها، فقال بعضُهم: إنَّه نائمٌ، وقال بعضُهم: إنَّ العَينَ نائمةٌ، والقَلبَ يَقظانُ، فقالوا: فالدَّارُ الجنَّةُ، والدَّاعي مُحمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فمن أطاع محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقد أطاعَ الله، ومَن عصى محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقد عصى اللهَ، ومُحمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم فَرْقٌ[2] بين النَّاسِ))[3].

﴿وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

أي: واللهُ يُرشِدُ ويوفِّقُ مَن يَشاءُ مِن عِبادِه إلى الإسلامِ، وهو الطَّريقُ المُستَقيمُ المُوصِلُ مَن سلَكَه إلى الجنَّةِ[4].

= قال الخازن: (قال قتادة: اللهُ هو السَّلامُ ودارُه الجنَّةُ، فعلى هذا، السَّلامُ اسمٌ مِن أسماءِ الله عزَّ وجَلَّ، ومعناه: أنَّه سبحانه وتعالى سَلِمَ مِن جميعِ النَّقائِصِ والعُيوبِ والفناء... وقيل: إنَّه سبحانه وتعالى يُوصَفُ بالسَّلامِ؛ لأنَّ الخَلقَ سَلِموا مِن ظُلمِه. وقيل: إنَّه تعالى يُوصَفُ بالسَّلامِ، بمعنى: ذي السَّلامِ، أي: لا يقدِرُ على تخليصِ العاجِزينَ مِن المكارِهِ والآفاتِ إلَّا هو. وقيل: دارُ السَّلامِ اسمٌ للجنَّةِ، وهو جمعُ سلامةٍ. والمعنى: أنَّ مَن دخَلَها فقد سَلِم من جميعِ الآفات، كالمَوتِ والمَرَضِ والمصائبِ، والحُزنِ والغَمِّ والتَّعَبِ والنَّكَد. وقيل: سُمِّيَت الجنَّةُ دارَ السَّلامِ؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى يُسلِّمُ على أهلِها، أو تُسلِّمُ الملائكةُ عليهم). ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٣٨). ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٦٧، ١٦٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٣٧، ١٣٨).

[1] المَأدُبة: الطعامُ يُصنَعُ، ويُدعا إليه الناسُ. يُنظر: ((مصابيح الجامع)) للدماميني (١٠/ ١٥٣).

[2] فَرْقٌ: أي: فارِقٌ بين النَّاجي والهالِك مِن النَّاسِ. يُنظر: ((مصابيح الجامع)) للدماميني (١٠/ ١٥٤).

[3] رواه البخاري (٧٢٨١).

[4] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٥٣)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٣٧٨)، ((تفسير المنار)) =

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قَولُه تعالى: ﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾ هذه هي الدُّنيا التي يَستَغرِقُ فيها بعضُ النَّاسِ، ويضَيِّعونَ الآخرةَ كُلَّها لِيَنالوا منها بعضَ المَتاعِ، هذه هي، لا أمْنَ فيها ولا اطمِئنانَ، ولا ثباتَ فيها ولا استِقرارَ، ولا يملِكُ النَّاسُ مِن أمْرِها شيئًا إلَّا بمِقدارٍ⁽¹⁾.

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ شَبَّه الحياةَ الدُّنيا بماءِ السَّماءِ دونَ ماءِ الأرضِ؛ لأنَّ ماءَ السَّماءِ- وهو المطَرُ- لا تأثيرَ لِكَسبِ العَبدِ فيه بزيادةٍ أو نقصٍ، أو لأنَّه يستوي فيه جميعُ الخلائِقِ، بخلافِ ماءِ الأرضِ، فكان تشبيهُ الحياةِ به أنسَبَ⁽²⁾.

٢- الأمرُ المذكورُ في قَولِه تعالى: ﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا﴾ هو الأمْرُ الكونيُّ، ويقابلُه: الأمْرُ الدينيُّ، كما في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾⁽³⁾ [النحل: ٩٠].

٣- الإرادةُ نوعان: إرادةٌ كونيَّةٌ قَدَريَّةٌ، وهي المشيئةُ، ولا مُلازمةَ بينه وبين المحبَّةِ والرِّضا، بل يدخُلُ فيها الكُفرُ والإيمانُ، والطَّاعاتُ والعِصيانُ، والمَرضيُّ

= لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٨٦، ٢٨٧).

قال السعدي: (خَصَّ بالهدايةِ مَن شاء استخلاصَه واصطفاءَه، فهذا فَضلُه وإحسانُه. واللهُ يختَصُّ برَحمتِه من يشاءُ، وذلك عَدلُه وحِكمتُه، وليس لأحدٍ عليه حُجَّةٌ بعد البيانِ والرُّسُلِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٢).

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٧٧٥).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٤٥-٢٤٦).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٢٦٧).

والمحبوبُ والمكروهُ وضِدُّه، وإرادةٌ دينيَّةٌ شَرعيَّةٌ مختَصَّةٌ بمراضي اللهِ ومَحابِّه، وعلى مقتضاها أَمَرَ عِبادَه ونهاهم، وتجتَمِعُ الإرادةُ الكونيَّةُ والشَّرعيَّةُ في حَقِّ المُؤمِنِ الطائعِ، وتنفَرِدُ الكونيَّةُ في حقِّ الفاجرِ العاصي؛ فالله سبحانه دعا عبادَه عامَّةً إلى مرضاتِه، وهدى لإجابتِه من شاء منهم، كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ فعمَّمَ سُبحانه الدَّعوةَ، وخَصَّ الهدايةَ بمَن شاء(١).

٤- قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ أي: يدعو النَّاسَ جميعًا إلى دارِ السَّلامةِ عن كُلِّ مَكروهٍ وآفةٍ، وهي الجنَّةُ، وإنَّما ذُكِرَت بهذا الاسمِ لِذكرِ الدُّنيا بما يُقابِلُه مِن كَونِها مَعرِضًا للآفاتِ(٢).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ عَمَّ سبحانَه وتعالى بالدَّعوةِ أوَّلًا؛ إظهارًا للحُجَّةِ، وخَصَّ بالهدايةِ ثانيًا؛ استغناءً عن خَلْقِه، وإظهارًا للقُدرةِ، لأنَّ الحُكمَ له في خَلْقِه(٣)، وقيل أيضًا: عمَّ بالدَّعوةِ إلى دارِ السَّلامِ، وخَصَّ بالهدايةِ مَن يشاءُ، فذاك عَدلُه، وهذا فَضلُه(٤).

٦- قال اللهُ تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ هذه الآيةُ بَيِّنةُ الحُجَّةِ في الرَّدِّ على القَدَريَّةِ؛ لأنَّهم قالوا: هَدى اللهُ الخَلقَ كُلَّهم إلى صراطٍ مُستقيمٍ، واللهُ قال: ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ فردُّوا على اللهِ نُصوصَ القُرآنِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((أعلام السنة المنشورة)) للحكمي (ص: ٨٨)، وينظر أيضًا: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٤٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٣٧-١٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٩)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ١٥).

(٤) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١١٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٢٩).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ حثٌّ مِن الله تعالى لعبادِه على إجابةِ هذه الدَّعوةِ، والمبادرةِ إليها، والمُسارعةِ في الإجابةِ(١).

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ...﴾ فيه تشبيهٌ، وهو مِن التَّشبيهِ المركَّبِ؛ شُبِّهَت حالُ الدُّنيا في سُرعةِ تَقَضِّيها، وانقراضِ نَعيمِها بعدَ الإقبالِ، بحالِ نَباتِ الأرضِ في جَفافِه وذَهابِه حُطامًا بعدَم الْتَفَّ وتكاثَفَ، وزيَّنَ الأرضَ بخُضرتِه ورَفيفِه(٢)، وهذه الآيةُ تتنزَّلُ مَنزلةَ البيانِ لقَولِه: ﴿مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ المؤذِنةِ بأنَّ تَمتُّعَهم بالدُّنيا ما هو إلَّا لمدَّةٍ قصيرةٍ، فبيَّنَت هذه الآيةُ أنَّ التَّمتُّعَ صائرٌ إلى زَوالٍ، وأطنَبَت فشبَّهَت هيئةَ التَّمتُّعِ بالدُّنيا لأصحابِها بهيئةِ الزَّرعِ في نَضارتِه، ثمَّ في مَصيرِه إلى الحَصدِ(٣).

وفي هذه الآيةِ عَشرُ جُمَلٍ وقَع التَّركيبُ مِن مَجموعِها، بحيث لو سقَط منها شيءٌ اختَلَّ التَّشبيهُ، قيل: وجهُ تشبيهِ الدُّنيا بالماءِ أمْرانِ؛ أحَدُهما: أنَّ الماءَ إذا أخَذتَ منه فوقَ حاجَتِك تضَرَّرتَ، وإن أخذتَ قدْرَ الحاجةِ انتفعتَ به، فكذلك الدُّنيا. والثَّاني: أنَّ الماءَ إذا طبَّقتَ عليه كفَّك لِتَحفَظَه لم يَحصُلْ فيه شيءٌ

---

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٤٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٦).

والرَّفيفُ: النَّباتُ الذي يهتزُّ خُضرةً وتَلألُؤًا مِن نضارتِه. يُنظر: ((العين)) للخليل (٨/ ٢٥٥)، ((جمهرة اللغة)) لابن دريد (١/ ١٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٤١).

فكذلك الدُّنيا⁽¹⁾.

- وصيغةُ القَصرِ ﴿إِنَّمَا﴾ هنا لِتَأكيدِ المقصودِ مِن التَّشبيهِ، وهو سُرعةُ الانقِضاءِ، ولِتَنزيلِ السَّامِعين مَنزِلةَ مَن يَحسَبُ دَوامَ بهجةِ الحياةِ الدُّنيا؛ لأنَّ حالَهم في الانكِبابِ على نَعيمِ الدُّنيا كحالِ مَن يَحسَبُ دَوامَه، ويُنكِرُ أن يكونَ له انقِضاءٌ سريعٌ ومُفاجِئٌ، والمعنى: قَصرُ حالةِ الحياةِ الدُّنيا على مُشابهةِ حالةِ النَّباتِ الموصوفِ؛ فالقصرُ قَصْرُ قَلبٍ، بُنِيَ على تنزيلِ المُخاطَبينَ منزلةَ مَن يَعتقِدُ عَكسَ تِلك الحالةِ؛ شُبِّهتْ حالةُ الحياةِ في سُرعةِ تَقضِّيها، وزوالِ نَعيمِها بعدَ البهجةِ به، وتَزايُدِ نَضارتِها بحالِ نباتِ الأرضِ في ذَهابِه حُطامًا، ومَصيرِه حَصيدًا، ومِن بديعِ هذا التَّشبيهِ: تَضمُّنُه لتشبيهاتٍ مُفرَّقةٍ من أطوارِ الحالينِ المتشابهَينِ بحيثُ يَصلُحُ كلُّ جزءٍ مِن هذا التشبيهِ المركَّبِ لتشبيهِ جُزءٍ مِن الحالينِ المتشابِهينِ؛ ولذلك أَطْنَبَ وصْفَ الحالينِ مِن ابتدائِه⁽²⁾.

- قولُه: ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ...﴾ كلامٌ فصيحٌ بديعُ اللَّفظِ، حيث جُعِلَت الأرضُ آخِذةً زُخرُفَها على التَّمثيلِ بالعَروسِ، إذا أخَذَت الثِّيابَ الفاخِرةَ مِن كلِّ لونٍ، فاكْتَسَتها وتزَيَّنَت بغيرِها مِن ألوانِ الزِّيَنِ⁽³⁾.

- قولُه: ﴿كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾ فيه مُبالَغةٌ في التَّلَفِ والهلاكِ، حتَّى كأنَّها لم تُوجَدْ قَبلُ، ولم يَقُمْ بالأرضِ بهجةٌ خَضِرةٌ نضِرةٌ تَسُرُّ أهلَها⁽⁴⁾.

- قولُه: ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ تذييلٌ جامعٌ؛ أي مِثْلَ هذا التَّفصيلِ نُفصِّلُ، أي: نُبيِّنُ الدَّلالاتِ كلَّها الدَّالَّةَ على عُمومِ العلمِ والقدرةِ،

---

(1) يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٤/ ١٥٣٨).

(2) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٤١)، ويُنظَر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٤٠).

(3) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٠٦١)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٨).

(4) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٣٩).

وإتقانِ الصُّنعِ(١)، وفيه تعريضٌ بأنَّ الذين لم ينتَفِعوا بالآياتِ، ليسوا مِن أهلِ التفَكُّرِ، ولا كان تفصيلُ الآياتِ لأجْلِهم(٢).

- وفي قولِه: ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ خَصَّ (الْمُتَفَكِّرِينَ) بالذِّكرِ؛ تَشريفًا للمنزلةِ، وليَقعَ التَّسابُقُ إلى هذه الرُّتبةِ(٣)، ولأنَّهم هم المنتَفِعون بتَفصيلِ الآياتِ(٤).

٢- قولُه تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

- قولُه: ﴿دَارِ السَّلَامِ﴾ فيه إضافةُ الدَّارِ إلى اسمِه سُبحانَه؛ تَعظيمًا وتَشريفًا لها(٥)، وذلك على أحدِ أوجهِ التأويلِ.

- وفي قولِه: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ مناسَبةٌ حسَنةٌ؛ فإنَّه لَمَّا كان الدُّعاءُ عامًّا لم يتَقيَّدْ بالمشيئةِ، ولَمَّا كانت الهدايةُ خاصَّةً تقيَّدَت بالمشيئةِ، فقال: ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾(٦).

* * *

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١١٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٠).

الآيتان (٢٦-٢٧)

﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٦ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٧ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَلَا يَرْهَقُ﴾: أي: لا يَغشَى، ولا يَعلُو، وأصلُ (رهق): غِشْيانُ الشَّيءِ الشَّيءَ(١).

﴿قَتَرٌ﴾: أي: غبارٌ وكآبةٌ، وأصلُ (قتر): يدلُّ على تجميعٍ وتَضييقٍ(٢).

﴿ذِلَّةٌ﴾: أي: صَغارٌ، وأصْلُ الذُّلِّ: الخُضُوعُ والاستكانةُ(٣).

المعنَى الإجماليُّ:

يُبَيِّنُ تعالى أنَّ الَّذينَ أحسَنوا في الدُّنيا لهم الجنَّةُ في الآخرةِ، وزيادةٌ على ذلك، ومِن الزيادةِ- بل أعظمُها- النَّظَرُ إلى وَجهِ اللهِ الكريم، ولا يغشَى وُجوهَهم غُبارٌ ولا هَوانٌ ولا صَغارٌ، أولئك أصحابُ الجنَّةِ هم فيها ماكِثونَ أبدًا.

والذين عمِلوا السَّيِّئاتِ فعَصَوا وكفَروا بالله ورسولِه، فلهم جزاءٌ يسوؤُهم بحسبِ ما عمِلوا مِن السيئاتِ، دونَ زيادةٍ، ويغشاهم هَوانٌ وذُلٌّ وخِزيٌ، ليس

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٦٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٣٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٨).

لهم مِن اللهِ مِن مانعٍ يمنَعُ عنهم سَخَطَه وعذابَه، كأنَّما أُلبِسَت وجوهُهم- مِن شِدَّةِ سَوادِها- أجزاءً مِن اللَّيلِ في حالِ ظُلمَتِه، أولئك أصحابُ النَّارِ هم فيها ماكِثونَ أبدًا.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا دعا اللهُ تعالى عِبادَه إلى دارِ السَّلامِ؛ ذكَرَ السَّعاداتِ التي تحصُلُ لهم فيها⁽¹⁾.

وأيضًا لَمَّا أفهم خَتمُ الآيةِ بقَولِه: ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أنَّ مِن النَّاسِ مَن يهديه، ومنهم مَن يُضِلُّه، وأنَّ الكُلَّ فاعلونَ لِما يَشاءُ، كان موضِعَ أن يُقالَ: هل هم واحِدٌ في جزائِه، كما هم واحِدٌ في الانقيادِ لِمُرادِه؟ فقيل: لا، بل هم فَريقانِ، فذَكَرَهما⁽²⁾.

وأيضًا أنَّه لَمَّا دعا تعالى إلى دارِ السَّلامِ، كأنَّ النُّفوسَ تَشَوَّقَت إلى الأعمالِ المُوجِبةِ لها المُوصِلةِ إليها، فأخبَرَ عنها بقَولِه تعالى⁽³⁾:

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾.

أي: للَّذين أحسَنوا في الدُّنيا بالإيمانِ، وأحسَنوا في طاعةِ الرَّحمنِ؛ امتثالًا لأمرِه، واجتنابًا لِنَهيِه، على وَجهِ المُراقَبةِ له سُبحانه، وأحسَنوا إلى عبادِ اللهِ تعالى؛ هؤلاء لهم الجنَّةُ، ولهم زيادةٌ على ذلك، وأعظمُ أنواعِها النَّظَرُ إلى وجهِ الله عزَّ وجلَّ⁽⁴⁾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٥٦، ١٦٤)، ، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٧٠)، =

كما قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

وقال سبحانه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

وعن صُهَيبٍ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((إذا دخَلَ أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ، يَقولُ اللهُ تبارك وتعالى: تُريدونَ شَيئًا أزيدُكم؟ فيقولون: ألم تُبَيِّضْ وُجوهَنا؟! ألم تُدخِلْنا الجنَّةَ، وتُنْجِنا من النَّارِ؟! قال: فيَكشِفُ الحِجابَ، فما أُعطُوا شَيئًا أحَبَّ إليهم مِن النَّظَرِ إلى رَبِّهم عزَّ وجَلَّ، ثمَّ تلا هذه الآيةَ:

= ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤١٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٥، ١١٦)،، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣٠)، ((تفسير آيات أشكلت)) لابن تيمية (١/ ٣٩٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٣)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٢).

الجمهورُ على أنَّ ﴿الْحُسْنَى﴾ الجنَّةُ، و(الزيادة) هي النَّظَرُ إلى وجهِ الله عزَّ وجلَّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٥).

وذهب بعضُ المفَسِّرينَ- كابن جريرٍ، وابن كثيرٍ- إلى أنَّ المرادَ بالزيادةِ ما هو أعم من النَّظَرِ إلى وجهِ الله تعالى. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٢).

قال ابنُ جريرٍ: (ومِن الزيادةِ على إدخالِهم الجنةَ أن يكرمَهم بالنظرِ إليه، وأن يُعطيَهم غُرفًا مِن لآلئٍ، وأن يزيدَهم غفرانًا ورضوانًا؛ كلُّ ذلك مِن زياداتِ عطاءِ الله إيَّاهم على الحسنَى التي جعَلها الله لأهلِ جناتِه، وعمَّ ربُّنا جلَّ ثناؤُه بقولِه: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ الزياداتِ على الحسنَى، فلم يخصصْ منها شيئًا دونَ شيءٍ، وغيرُ مستنكَرٍ مِن فضلِ الله أن يجمعَ ذلك لهم، بل ذلك كلُّه مجموعٌ لهم إن شاء الله. فأولَى الأقوالِ في ذلك بالصوابِ أن يعمَّ كما عمَّه عزَّ ذكرُه). ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٦٤)

وقال ابنُ كثيرٍ: (وقولُه: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ هي تضعيفُ ثوابِ الأعمالِ بالحسنةِ عشرَ أمثالِها إلى سبعِمِائَةِ ضِعْفٍ، وزيادَةٌ على ذلك أيضًا ويشملُ ما يُعْطيهم اللَّهُ في الجِنانِ مِنَ القُصورِ والحُورِ والرِّضا عنهم، وما أخفاه لهم مِن قُرَّةِ أعْيُنٍ، وأفضلُ مِنْ ذلك وأعلاهُ النظرُ إلى وجهِه الكريمِ، فإنَّه زيادةٌ أعظمُ مِنْ جميعِ مَا أُعْطُوه، لا يَسْتَحِقُّونَها بعَمَلِهم، بلْ بفَضْلِه ورَحْمَتِه). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٢).

وقال ابنُ القيمِ: (ولما عطَف سبحانَه الزيادةَ على الحسنَى التي هي الجنةُ، دلَّ على أنَّها أمرٌ آخرُ مِن وراءِ الجنةِ، وقدرٌ زائدٌ عليها، ومَن فسَّر الزيادةَ بالمغفرةِ والرضوانِ فهو مِن لوازمِ رؤيةِ الربِّ تبارَك وتعالَى). ((حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح)) (ص: ٢٩١).

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾))(١).

﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا شرَحَ اللهُ تعالى ما يحصُلُ لأهلِ الجنَّةِ مِن السَّعاداتِ، شرَحَ بعد ذلك الآفاتِ التي صانَهم اللهُ بفَضلِه عنها، فقال تعالى(٢):

﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾.

أي: ولا يَغشى وجوهَ أهلِ الجنَّة غُبارٌ ولا كآبةٌ، ولا هوانٌ أو صَغَارٌ(.

كما قال تعالى: ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١].

وقال سبحانه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ﴾ [عبس: ٣٨-٣٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

أي: أولئك- الذين أحسَنوا- أهلُ الجنَّةِ، هم فيها ماكِثونَ أبدًا(٤).

﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

---

(١) رواه مسلم (١٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٦٥)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٦٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٩٩)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٢٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٨٧).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أخبَر تعالَى عن حالِ السُّعداءِ؛ عَطَف بذكرِ حالِ الأشقياءِ، فذَكَر عدلَه تعالى فيهم، وأنَّه يُجازيهم على السَّيِّئةِ بمثلِها، لا يزيدُهم على ذلك[١].

وأيضًا فإنَّ اللهَ تعالى كما شرحَ حالَ المُسلِمينَ في الآيةِ المتقدِّمةِ، شَرحَ حال مَن أقدَمَ على السيِّئاتِ في هذه الآيةِ[٢]، فقال:

﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا ﴾.

أي: والَّذين عمِلوا السيِّئاتِ[٣] في الدُّنيا، فعَصَوا وكفَروا بالله ورسولِه، فلهم جزاءٌ يسوؤُهم بحسبِ ما عمِلوا مِن السيئاتِ، دونَ زيادةٍ على ما يستحقُّونَ[٤].

كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

﴿ وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞ ﴾.

---

[١] يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٣).

[٢] يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٤٢).

[٣] قيل: تعمُّ السيئات هاهنا الكفرَ والمعاصي، وممن قال بذلك: ابنُ جريرٍ، وابنُ عطيةَ، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٦٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٦)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٢).

وقيل: المرادُ بها: الشركُ. وممن قال بذلك: الواحديُّ، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((الوجيز)) (ص: ٤٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٤٨). وهذا القولُ مرويٌّ عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٢٧).

وقيل: المرادُ بها المعاصي. وممَّن قال بذلك: القرطبي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣٢).

[٤] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٦٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٩٩)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٢٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٢).

أي: ويَغشاهم هوانٌ وخِزيٌ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٥].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٢، ٤٣].

﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾.

أي: ما لهم مِن اللهِ مِن مانعٍ يمنَعُ عنهم سَخَطَه وعذابَه(٢).

كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٤].

وقال سُبحانه: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ [غافر: ٣٣].

﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا﴾.

أي: كأنَّما أُلبِسَت وجوهُهُم- مِن شِدَّةِ سَوادِها- أجزاءً مِن اللَّيلِ في حالِ ظُلمَتِه(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٦٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣٢).

قال السعدي: (﴿وَتَرْهَقُهُمْ﴾ أي: تَغشاهم ﴿ذِلَّةٌ﴾ في قلوبِهم، وخَوفٌ مِن عذابِ اللهِ، لا يدفَعُه عنهم دافِعٌ، ولا يَعصِمُهم منه عاصِمٌ، وتسري تلك الذِّلَّةُ الباطنةُ إلى ظاهِرِهم، فتكونُ سَوادًا في الوُجوهِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٦٦)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٣٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٦٨)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٧٧ - ١٧٩)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠].

وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

أي: أولئك- الموصوفونَ بهذه الصفاتِ الذميمةِ- أهلُ النَّارِ، هم فيها ماكِثونَ أبدًا[1].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

لا عاصِمَ مِن اللهِ لا في الدُّنيا ولا في الآخرةِ؛ فإنَّ قضاءَه مُحيطٌ بِجَميعِ الكائِناتِ، وقدَرَه نافِذٌ في كلِّ المُحدَثاتِ، إلَّا أنَّ الغالِبَ على الطِّباعِ العاصيةِ، أنَّهم في الحياةِ العاجلةِ مُشتَغِلونَ بأعمالِهم ومُراداتِهم، أمَّا بعد الموتِ فكُلُّ أحدٍ يُقِرُّ بأنَّه ليس له مِن اللهِ مِن عاصمٍ، قال تعالى: ﴿مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

في قَولِه تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ مُناسبةٌ بينَ الإحسانِ، وبينَ النَّظَرِ إلى وجهِ اللهِ عزَّ وجلَّ، ووجهُ ذلك أنَّ الإحسانَ هو أنْ يَعبُدَ المؤمنُ ربَّه في الدُّنيا على وَجهِ الحُضورِ والمُراقبةِ، كأنَّه يراهُ بقَلبِه، وينظرُ إليه في حالِ عبادَتِه، فكان جزاءُ ذلك النَّظَرَ إلى اللهِ عِيانًا في الآخرةِ، وعكسُ هذا ما أخبَرَ

= الرازي)) (١٧/ ٢٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٤)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٢٠).

[1] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٩٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٨٨).

[2] يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٤٢).

اللهُ تعالى به عن جزاءِ الكفَّارِ في الآخرةِ: ﴿إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، وجَعَلَ ذلك جزاءً لحالِهم في الدُّنيا، وهو تَراكُمُ الرَّانِ على قُلوبِهم؛ حتى حُجِبَتْ عن مَعرِفتِه، ومُراقَبتِه في الدُّنيا، فكان جزاؤُهم على ذلك أنْ حُجِبُوا عن رؤيَتِه في الآخرةِ(١).

بلاغةُ الآيتين:

١- قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ جملةٌ مُستأنَفةٌ؛ لبيانِ أمْنِهم مِن المكارِه، بَعدَ بَيانِ فوزِهم بالمطالِبِ بقولِه: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾، وإنَّما ذَكَرَ أمْنَهم مِن المكارِهِ- مع أنَّ فَوْزَهم بالمطالِبِ يَقتضيه-؛ تَذكيرًا بما يُنقِذُهم اللهُ تعالى مِنه برحمتِه(٢).

- وفيه تقديمُ المفعولِ: ﴿وُجُوهَهُمْ﴾، على الفاعلِ: ﴿قَتَرٌ﴾؛ للاهتمامِ ببيانِ أنَّ المَصونَ مِن الرَّهَقِ أشرفُ أعضائِهم، وللتَّشويقِ إلى المؤخَّرِ؛ فإنَّ ما حقُّه التَّقديمُ إذا أُخِّر تَبْقَى النَّفسُ مُترقِّبةً لوُرودِه، فعند ورودِه عليها يَتَمكَّنُ عندَها فضْلَ تمكُّنٍ، ولأنَّ في الفاعلِ ضرْبَ تَفْصيلٍ(٣).

- وكنَى بالوجهِ عن جملةِ الجسَدِ؛ لكونِ الوجهِ أشرَفَه، ولِظُهورِ أثرِ السُّرورِ والحزنِ فيه(٤)، والمرادُ: لا ينالُهم مكروهٌ، بوجهٍ مِن الوجوهِ؛ لأنَّ المكروهَ إذا وقَع بالإنسانِ، تبيَّن ذلك في وجهِه، وتغيَّر وتكدَّر(٥).

---

(١) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤ / ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٢).

- وفيه تعريضٌ بالَّذين لم يَهدِهمُ اللهُ إلى صراطٍ مستقيم، وهم الَّذين كسَبوا السَّيِّئاتِ؛ تعجيلًا للمَساءةِ إليهم بطريقِ التَّعريضِ قبلَ التَّصريحِ، الذي يأتي في قولِه: ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ إلى قولِه: ﴿مُظْلِمًا﴾(١) [يونس: ٢٧].

- وجملةُ: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ نتيجةٌ للمقدِّمةِ؛ فبَيْنها وبينَ التي قبلَها كمالُ الاتِّصالِ؛ ولذلك فُصِلَت عنها، ولم تُعطَفْ(٢).

- واسمُ الإشارةِ ﴿أُولَئِكَ﴾ فيه تَنبيهٌ على أنَّهم استَحقُّوا الخلودَ لأجلِ إحسانِهم، وما فيه مِن معنى البُعدِ؛ للإيذانِ بعُلوِّ دَرجتِهم، وسُموِّ طبَقتِهم(٣).

٢- قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِها وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ عطفٌ على جملةِ: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾، وعبَّر في جانبِ المسيئين بفِعلِ ﴿كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ﴾، دونَ فِعْلِ (أساؤوا) كما عبَّر في جانبِ الَّذين أحسَنوا؛ للإشارةِ إلى أنَّ إساءتَهم مِن فِعْلِهم وسعيِهم؛ فما ظلَمَهم اللهُ ولكنْ أنفسَهم يَظلِمون(٤).

- وفيه تغييرُ السَّبْكِ حيثُ لم يَقُل: (وللَّذين كسَبوا السَّيِّئاتِ السُّوأى)، في مقابلةِ: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى﴾؛ لِمُراعاةِ ما بينَ الفريقينِ مِن كمالِ التَّنائي والتَّبايُنِ، وإيرادُ (الكَسْبِ)؛ للإيذانِ بأنَّ ذلك إنَّما هو لسوءِ صَنيعِهم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤ / ١٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٤٧).

وبسبب جنايتِهم على أنفُسِهم(١).

- وأيضًا قوله: ﴿أَحْسَنُوا﴾، و﴿كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ﴾ فيه تنبيهٌ على أنَّ المؤمِنَ لَمَّا خُلِقَ على الفِطرةِ واصَلَها بالإحسانِ، وعلى أنَّ الكافِرَ لَمَّا خُلِقَ على الفطرةِ انتقَلَ عنها، وكسَبَ السَّيِّئاتِ، فجَعلَ ذلك مُحسِنًا، وهذا كاسِبًا للسيِّئاتِ؛ ليدُلَّ على أنَّ المؤمِنَ سلك ما يَنبغي، وهذا سلَك ما لا يَنبغي(٢).

- قولُه: ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ فيه إسنادُ الرَّهَقِ إلى أنفُسِهم دون وُجوهِهم؛ للإيذانِ بأنَّها محيطةٌ بهم غاشيةٌ لهم جميعًا، وتنكيرُ ﴿ذِلَّةٌ﴾ للتَّفخيم(٣).

- قولُه: ﴿مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾: نفْيُ العاصمِ فيه مُبالغةٌ ظاهرةٌ في نفْيِ العِصمةِ من الله تعالى(٤).

- في قولِه: ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ مبالغةٌ في سَوادِ الوُجوهِ، ولَمَّا كانت ظُلمةُ اللَّيلِ نهايةً في السَّوادِ شبَّه سَوادَ وُجوهِهم بقِطَعٍ مِن اللَّيلِ حالَ اشتدادِ ظُلمتِه(٥).

* * *

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٣٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٧).

الآيات (٢٨-٣٠)

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨) فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَـٰفِلِينَ (٢٩) هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ (٣٠) ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَزَيَّلْنَا﴾: أي: فَرَّقْنا. وأصلُ التزايُل: التبايُن[١].

﴿تَبْلُو﴾: أي: تَختَبِرُ وتَعلَمُ. وأصلُ (بلو): يدلُّ على اختبارٍ[٢].

﴿أَسْلَفَتْ﴾: أي: قَدَّمَت وعَمِلَت، وأصلُ (سلف): يدلُّ على تقدُّمٍ وسَبْقٍ[٣].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾

﴿مَكَانَكُمْ﴾ اسمُ فِعلِ أمرٍ، مبنيٌّ على الفَتحِ، لا محَلَّ له من الإعرابِ، بمعنى: اثبُتوا، منقولٌ عن الظَّرفِ، والفاعِلُ ضَميرٌ مُستَتِرٌ وُجوبًا، تقديرُه (أنتم)، و﴿أَنْتُمْ﴾ ضميرٌ مبنيٌّ في محلِّ رفعٍ توكيدٌ للضَّميرِ المُستَتِرِ في اسمِ الفِعلِ،

---

[١] يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥٣).

[٢] يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٣٢٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣٤).
قال أبو حيان: (تختبرُ ما أسلفَتْ من العملِ، فتعرفُ كيف هو أقبيحٌ أم حسنٌ، أنافعٌ أم ضارٌّ، أمقبولٌ أم مردودٌ؟ كما يتعَرَّفُ الرجلُ الشَّيءَ باختبارِه). ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥١).

[٣] يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣٤).

﴿وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾ معطوفٌ على الضَّميرِ المُستَترِ، مرفوعٌ. وقيل: ﴿مَكَانَكُمْ﴾ مفعولٌ به منصوبٌ لِفعلٍ محذوفٍ، تَقديرُه (الزموا)(١).

المَعنى الإجماليُّ:

يُخاطِبُ اللهُ تعالى نبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قائلًا له: واذكرْ- يا مُحمَّدُ- يومَ نَجمَعُ الخَلقَ جميعًا لِمَوقفِ الحسابِ يومَ القيامةِ، ثمَّ نقولُ للذينَ أشرَكوا: الزَمُوا مَكانكم أنتم ومَن زَعَمتُم أنَّهم شُرَكاءُ لله في العبادةِ، وفَرَّقْنا بين المُشركينَ وشُرَكائِهم، وقال لهم شُركاؤهم الذين كانوا يعبدونَهم مِن دُونِ اللهِ: ما كُنتم تَعبُدونَنا في الحقيقةِ، بل كُنتُم تعبدونَ أهواءَكم وشَياطينَكم الذين أمَرُوكم بعبادَتِنا، فحَسْبُنا اللهُ شاهِدًا بيننا وبينكم؛ فهو سبحانَه وتعالى قد عَلِمَ أنَّا لم نأمُرْكم بعِبادَتِنا، ولم نكُن نَشعُرُ بعِبادتِكم لنا.

في ذلك المَوقفِ في أرضِ المَحشَرِ يومَ القيامةِ تعلَمُ كُلُّ نَفسٍ ما قَدَّمَت من خيرٍ أو شَرٍّ، وتَجِدُه مكتوبًا لِتُحاسَبَ عليه، ورُدَّ المُشرِكونَ إلى اللهِ رَبِّهم الحَقِّ؛ لِيُجازِيَهم بالعدلِ، وزال عنهم ما كانوا يختَلِقونَه من الكَذِبِ على اللهِ تعالى.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ في الآيتينِ السَّابِقَتينِ ما يختَصُّ به كلُّ فريقٍ مِن الفَريقينِ مِن الجَزاءِ وسِماتِه، (الذين أحْسَنوا والذين كسَبوا السَّيِّئاتِ)؛ جاءت هذه الآيةُ بإجمالِ حالةٍ جامعةٍ للفَريقَينِ، ثمَّ بتَفصيلِ حالةٍ يَمتازُ بها المُشرِكونَ؛ لِيَحصُلَ بذلك

---

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٦٧٣)، ((الدر المصون)) للسمين لحلبي (٦/ ١٨٩)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (١١/ ١١٤).

ذِكرُ فَظيعٍ مِن أحوالِ الذين بَلَغوا الغايةَ في كَسبِ السَّيِّئاتِ، وهي سَيِّئةُ الإشراكِ الذي هو أكبَرُ الكبائرِ، وبذلك حصَلَت المُناسَبةُ مع الجُملةِ التي قَبلَها المُقتَضيةِ عَطْفَها عليها(١).

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾.

أي: واذكُرْ- يا مُحَمَّدُ- يومَ نَجمَعُ جَميعَ الخَلقِ لِمَوقِفِ الحسابِ يومَ القيامةِ؛ الإنسَ والجِنَّ، والمُؤمِنينَ والكافِرينَ، والعابدينَ والمَعبودينَ(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧].

﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ ﴾.

أي: ثمَّ نقولُ للمُشرِكينَ: الزَموا مكانَكم، وقِفوا في مَوضِعِكم، أنتم والذين زَعَمتُم أنَّهم شركاءُ لله في عبادتِه(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٢٢].

﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾.

أي: ففرَّقْنا بين المُشرِكينَ العابدينَ، ومَعبُوديهم مِن دونِ اللهِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٠)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٧)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٥٠، ١٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٠)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٨٢، ١٨٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٧)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣٣)، =

كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٦ - ١٦٧].

وقال سُبحانه: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾ [الكهف: ٥٢].

﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴾.

أي: وقال المعبودونَ للمُشرِكينَ الذين عَبَدوهم: ما كُنتُم تعبدونَنا في الحقيقةِ، بل كُنتم تعبدونَ أهواءَكم وشَياطينَكم الذين أمَروكم بعبادَتِنا(١).

= ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧١)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٣٨٠)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤١٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٤٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٠٠)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ١٠١ - ١٠٣)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٢١)، ((تفسير لمنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٥١، ١٥٢).

قال البيضاوي: (قيل: يُنطِقُ الله الأصنامَ، فتشافِهُهم بذلك مكانَ الشفاعةِ التي يتوقَّعون منها. وقيل: المرادُ بالشركاءِ الملائكةُ والمسيحُ: وقيل: الشياطينُ). ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١١١). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣٣).

وممن ذهب إلى أن المراد بالشركاء هنا: الأصنام: البغوي، وابن عطية، والخازن، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤١٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٧)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٥١- ١٥٢).

وقيل: المرادُ بهم الملائكةُ، وممَّن ذهَب إلى ذلك: القرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣٣).

وقيل: المرادُ بالشُّركاءِ: جميعُ ما عُبِد مِن دونِ الله تعالى مِن ذَوي العقولِ وغيرِهم. وممَّن قال بذلك: الألوسي. يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٦/ ١٠٣).

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [النحل: ٨٦].

وقال سُبحانه: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا * فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ﴾ [الفرقان: ١٧-١٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الروم: ١٢-١٣].

وقال جلَّ جلاله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠-٤١].

﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَـٰفِلِينَ (٢٩)﴾.

أي: قال المَعبودونَ للذين عَبَدوهم: فحَسْبُنا اللهُ شاهدًا بيننا وبينكم، أيُّها المُشرِكونَ؛ فإنَّه قد عَلِمَ أنَّكم عَبَدتُمونا من غيرِ أن نأمُرَكم، ومِن دونِ أن نَشعُرَ بعِبادتِكم لنا⁽¹⁾.

كما قال تعالى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤].

وقال سُبحانه: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٢)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٣).

يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥-٦].

﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْۚ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ۝٣٠﴾.

﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿تَتْلُو﴾ مِن التِّلاوةِ، أي: تقرأُ كُلُّ نَفسٍ أعمالَها مِن كِتابِها يومَ القيامةِ، وقيل: المعنى: تَتبَعُ كُلُّ نَفسٍ ما قدَّمَتْ مِن خَيرٍ أو شَرٍّ[1].

٢- قِراءةُ ﴿تَبْلُو﴾، أي: تَخْبُرُ، فالمعنى: تَعلَمُ كُلُّ نَفسٍ ما قدَّمَت مِن خَيرٍ أو شَرٍّ[2].

﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾.

أي: في ذلك المَقامِ في أرضِ المَحشَرِ يومَ القيامةِ تَعلَمُ كلُّ نفسٍ ما قدَّمَت مِن خَيرٍ أو شَرٍّ، وتَجِدُه مكتوبًا لِتُحاسَبَ عليه[3].

---

[1] قرأ بها حمزةُ، والكِسائيُّ، وخلفٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٨٣).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٤، ١٧٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ١٧)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٤٤)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٥، ٢٦٦).

[2] قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٨٣).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٤، ١٧٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ١٧)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٤٤)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٣١).

[3] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٣)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٣/ ٢٩١)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٨٤)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٥٣).

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

وقال سُبحانه: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣- ١٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾.

أي: ورُجِعَ هؤلاء المُشركونَ إلى اللهِ الذي هو ربُّهم ومالِكُهم، والمتولِّي أمرَهم، الحَقُّ لا شكَّ فيه، دُونَ مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ مِن آلهةٍ⁽¹⁾.

كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ [الحج: ٦٢].

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾.

أي: وزال عن المُشرِكينَ وبطَلَ ما كانوا يختَلِقونَه مِن الكَذِبِ على اللهِ، بدعواهم أنَّ له شُرَكاءَ يَنفَعونَ مَن عَبَدَهم، ويَدفَعونَ عنه الضُّرَّ، ويُقَرِّبونَه إلى اللهِ⁽²⁾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٥)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٨٥)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٢١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٥)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٨٦)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ * وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [النحل: ٨٦-٨٧].

وقال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ * وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [القصص: ٧٤-٧٥].

الفَوائدُ التربويَّةُ:

قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ العبادةَ المَشوبةَ لا اعتدادَ بها، وأنَّ مَن استحَقَّ العبادةَ استحَقَّ الإخلاصَ فيها، وأنْ لا يُشرَك به أحدٌ(١).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ مِن نُكَتِ ذِكرِ حَشرِ الجَميعِ هنا: التَّنبيهُ على أنَّ فظيعَ حالِ المُشرِكينَ، وافتِضاحَهم، يكون بمرأًى ومَسمَعٍ من المؤمِنينَ، فتكونُ السَّلامةُ من تلك الحالةِ زيادةً في النِّعمةِ على المُسلِمينَ، وتقويةً في النِّكايةِ للمُشرِكينَ(٢).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾

= القرطبي)) (٨/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٥٤).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٥٠).

كَلِمةُ ﴿فَزَيَّلْنَا﴾ جاءت على لفظِ المُضيِّ بعدَ قَولِه: ﴿ثُمَّ نَقُولُ﴾ وهو مُنتظَرٌ في المُستقبَلِ، والسَّببُ فيه أنَّ الذي حكَمَ اللهُ فيه بأن سيكونُ، صار كالكائنِ الرَّاهِنِ الآنَ(١).

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾ إنَّما أضاف الشُّرَكاءَ إليهم لوجوهٍ:

منها: أنَّه يكفي في الإضافةِ أدنَى تعلُّقٍ، فلمَّا كان الكفارُ هم الذين أثبَتوا هذه الشركةَ؛ لا جرمَ حسنتْ إضافةُ الشركاءِ إليهم(٢)؛ تهكمًا مِن جهةٍ، وإشارةً إلى أنَّهم مِن صنعِهم هم، ولم يكونوا يومًا شركاءَ لله(٣).

وقيل: إنَّه تعالى لما خاطَب العابدينَ والمعبودينَ بقولِه: ﴿مَكَانَكُمْ﴾ صاروا شركاءَ في هذا الخطابِ(٤).

٤- إن قيل: كيف قال: ﴿وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ وقد أخبَرَ تعالى بـ ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد: ١١]، فالجوابُ: لا تناقُضَ بينهما، فالإخبارُ بأنَّه مولاهم؛ ذلك لأنَّه تعالى مَولى عبادِه جَميعًا، على معنى: أنَّه رَبُّهم ومالِكُ أمْرِهم، والمتصَرِّفُ فيهم بما شاء، وهو مَولاهم جميعًا في الرِّزقِ وإدرارِ النِّعَمِ، وأمَّا النَّفيُ فهو على معنى وِلايةِ المحبَّةِ والتَّوفيقِ والنَّصرِ، فهو مَولى المُؤمِنينَ خاصَّةً، وليس للكافرينَ نصيبٌ فيها(٥).

٥- اللهُ سبحانه يَقرِنُ في كتابِه بين الشِّركِ والكَذِب، كما يَقرِنُ بين الصِّدقِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٤٤)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٤٤).

(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٧٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٤٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١٩)، ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٨٩).

والإخلاص، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾، وقال تعالى عن الخليل: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ * أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾(١) [الصافات: ٨٥ - ٨٦].

بلاغة الآيات:

١- قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا...﴾ كلامٌ مستأنَفٌ، مَسوقٌ لبيانِ بعضٍ آخرَ مِن أحوالِهم الفظيعةِ، وتأخيرُه في الذِّكرِ مع تقدُّمِه في الوجودِ على بعضِ أحوالِهم المحكيَّةِ سابقًا؛ للإيذانِ باستقلالِ كلٍّ مِن السَّابقِ واللَّاحقِ بالاعتبارِ(٢).

- وقولُه: ﴿فَزَيَّلْنَا﴾، الفاءُ للدَّلالةِ على وقوعِ التَّزييلِ ومَباديه عَقِيبَ الخِطابِ مِن غيرِ مُهلةٍ، وإيثارُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي؛ للدَّلالةِ على التَّحقُّقِ الموروثِ؛ لزيادةِ التَّوبيخِ والتَّحسيرِ(٣).

- وقال: ﴿فَزَيَّلْنَا﴾، ولم يَقُلْ: (فزَلْنا بينهم)؛ إرادةَ تكثيرِ الفعلِ، وتكريرِه(٤).

٢- قولُه تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾، تذييلٌ وفَذْلَكةٌ للجُمَلِ السَّابقةِ، مِن قولِه: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ [يونس: ٢٥] إلى هنا(٥).

---

(١) يُنظر: ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (٢/ ٢٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٧٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٥٣).

– وقدَّم الظَّرفَ ﴿هُنَالِكَ﴾؛ للاهتمامِ به؛ لأنَّه الغرضُ الأهَمُّ مِن الكلامِ؛ لعِظَمِ ما يقَعُ فيه(١).

– وقولُه: ﴿تَبْلُو﴾ أي: تَختبِرُ، وهو هنا كنايةٌ عن التَّحقُّقِ وعِلمِ اليقينِ(٢).

– وفي قولِه: ﴿وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾، جُعل الضَّميرُ في ﴿رُدُّوا﴾ للنُّفوسِ المدلولِ عليها بـ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ على أنَّه معطوفٌ على ﴿تَبْلُو﴾، وعُدِل إلى الماضي؛ للدَّلالةِ على التَّحقُّقِ والتَّقرُّرِ، وإيثارُ صيغةِ الجمعِ؛ للإيذانِ بأنَّ ردَّهم إلى اللهِ يكونُ على طريقةِ الاجتماعِ، لا يُلائِمُه التَّعرُّضُ لوصفِ الحقِّيَّةِ في قولِه تعالى: ﴿مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾؛ فإنه للتَّعريضِ بالمردودينَ؛ فقولُه عز وجل: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ ممَّا لا مجالَ فيه للتَّدارُكِ قطعًا؛ فإنَّ ما فيه من الضَّمائرِ الثَّلاثةِ للمُشركين، فيَلزَمُ التَّفكيكُ حتمًا، وتخصيصُ ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ بالنُّفوسِ المشرِكةِ مع عُمومِ البلوى للكلِّ يأباه مَقامُ تَهويلِ المقامِ(٣).

* * *

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٤١).

الآيات (٣١-٣٣)

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ
ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا
تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ
﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿حَقَّتْ﴾: أي: وجَبَتْ وثبَتَتْ؛ يُقال منه: حقَّ على فُلانٍ كذا، يَحِقُّ عليه: إذا ثبَت ذلك عليه ووجَبَ، وأصلُ (حقَّ): يدلُّ على إحكامِ الشَّيءِ وصِحَّتِه[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يسألَ المُشركينَ: مَن الذي يرزُقُكم من السَّماءِ والأرضِ، أمْ مَن يملِكُ السَّمعَ والأبصارَ، ومن يُخرِجُ الشَّيءَ الحيَّ من الشيءِ الميِّتِ بقُدرتِه العظيمةِ، ويُخرِجُ الشَّيءَ الميِّتَ من الشَّيءِ الحيِّ، ومن يدبِّرُ أمرَ جَميعِ الخلائقِ، ويتصَرَّفُ في السَّماءِ والأرضِ بما شاء، فسيقولُ المُشركونَ: اللهُ وَحدَه من يفعَلُ ذلك، فقُل لهم يا محمَّدُ: أفلا تتَّقونَه، وتخافونَ عِقابَه؟!

فذلكم اللهُ الذي يفعَلُ كُلَّ ذلك، هو المستحِقُّ للعبادةِ وَحدَه، وهو ربُّكم الحقُّ الذي لا شَكَّ فيه، فأيُّ شَيءٍ غيرِ الحَقِّ إلا الضَّلالُ، فأنَّى تُصرفونَ؟!

ثم بيَّنَ تعالى أنَّه كما صُرِفَ المُشرِكونَ عن الحقِّ، واستَمَرُّوا على شِركِهم، كذلك حقَّت كلِمةُ اللهِ على الذين فَسَقوا أنَّهم لا يُؤمِنونَ.

---

[1] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٩٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤١١).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى فضائِحَ عَبَدةِ الأوثانِ؛ أتبَعَها بذِكرِ الدَّلائلِ على فسادِ مَذهَبِهم بما يوبِّخُهم، ويَحُجُّهم بما لا يُمكِنُ إلَّا الاعترافُ به من حالِ رِزقِهم وحواسِّهم، وإظهارِ القُدرةِ الباهرةِ في الموتِ والحياةِ(١).

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾.

أي: قُل- يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: مَن الذي يرزُقُكم من السَّماءِ مياهَ الأمطارِ، ويَرزُقُكم من الأرضِ أنواعًا من الحبوبِ والثِّمارِ والبُقولِ والمعادِنِ(٢)؟!

كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ [إبراهيم: ٣٢].

وقال سبحانه: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَائِقَ غُلْبًا * وَفَاكِهَةً وَأَبًّا * مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [عبس: ٢٤ - ٣٢].

﴿ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٦)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٨٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٠٤)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ١٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٣).

أي: أم مَن الذي يملِكُ سَمعَكم وأبصارَكم، ولو شاء لسَلَبَكم إيَّاها(١)؟!

كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك: ٢٣].

وقال سُبحانه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام: ٤٦].

﴿وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾.

أي: ومَنْ يُخرِجُ الشَّيءَ الحَيَّ مِن الشَّيءِ الميِّتِ بقُدرتِه العظيمةِ، فيُخرِجُ الإنسانَ الحيَّ والأنعامَ والبهائمَ الأحياءَ من النُّطَف الميِّتةِ، ويُخرِجُ الزَّرعَ من الحَبَّةِ، والنَّخلةَ من النَّواةِ، والدَّجاجةَ مِن البيضةِ، والمؤمنَ من الكافِرِ، إلى غيرِ ذلك(٢)؟!

﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾.

أي: ومَنْ يُخرِجُ الشَّيءَ الميِّتَ مِن الشَّيءِ الحَيِّ بقُدرتِه العظيمةِ، فيُخرِجُ النُّطفةَ الميِّتةَ مِن الإنسانِ الحيِّ والأنعامِ والبهائمِ الأحياءِ، ويُخرِجُ الحَبَّةَ من الزَّرعِ، والنَّواةَ من النَّخلةِ، والبيضةَ من الدَّجاجةِ، والكافرَ من المؤمِنِ، إلى غيرِ ذلك(٣)؟!

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [الأنعام: ٩٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٣).

(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٦)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٣).

﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾.

أي: ومَنْ يُقدِّر أمرَ جَميعِ الخلائقِ، ويتصَرَّفُ في السَّماءِ والأرضِ بما يشاء⁽¹⁾؟!

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ [السجدة: ٥].

﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾.

أي: فسيقولُ المُشرِكونَ: الله وَحدَه هو الذي يرزُقُنا من السَّماءِ والأرضِ، ويَملِكُ السَّمعَ والأبصارَ، ويُخرِجُ الحَيَّ من الميِّتِ، ويُخرِجُ الميِّتَ مِن الحيِّ، ويُدَبِّرُ الأمرَ⁽²⁾.

﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

أي: فقُل- يا مُحمَّدُ- لهؤلاء المُشرِكينَ: أفلا تتَّقونَ الله، وتخافونَ عِقابَه على إصرارِكم على الشِّركِ، فتُخلِصون له العبادةَ؟! فأنتم مُقِرُّونَ أنَّه خالِقُكم ورازِقُكم، ومدبِّرُ أمورِكم⁽³⁾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٦)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٦، ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٨)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٥٧).

كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٦ - ٨٧].

﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ﴾.

أي: فهذا الذي يفعَلُ هذه الأفعالَ؛ فَيرزُقُكم من السَّماءِ والأرضِ، ويَملِكُ السَّمعَ والأبصارَ، ويُخرِجُ الحَيَّ مِنَ الميِّتِ، ويُخرِجُ الميِّتَ مِن الحَيِّ، ويُدَبِّرُ الأمرَ؛ هو المستَحِقُّ للعبادةِ وَحْدَه دونَ ما سواه، وهو ربُّكم الحَقُّ الذي لا شَكَّ فيه(١).

كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، ((أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يقولُ إذا قام إلى الصلاةِ مِن جَوفِ اللَّيلِ: اللهمَّ لك الحمدُ، أنت نورُ السَّمواتِ والأرضِ، ولك الحَمدُ، أنت قيَّامُ السَّمواتِ والأرضِ، ولك الحمدُ، أنت ربُّ السَّمواتِ والأرضِ ومَن فيهنَّ، أنت الحقُّ، ووَعدُك الحَقُّ، وقَولُك الحَقُّ، ولِقاؤك حَقٌّ، والجنَّةُ حَقٌّ، والنَّارُ حَقٌّ، والسَّاعةُ حَقٌّ، اللهمَّ لك أسلمتُ، وبك آمنتُ، وعليك توكَّلتُ، وإليك أنَبْتُ، وبك خاصَمتُ، وإليك حاكَمتُ، فاغفِرْ لي ما قدَّمتُ وأخَّرتُ، وأسرَرتُ وأعلَنتُ، أنت إلهي، لا إلهَ إلَّا أنت))(٢).

﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ﴾.

أي: فأيُّ شَيءٍ غيرِ الحقِّ إلَّا الضَّلالُ؟! فلا واسطةَ بين الحَقِّ والباطِلِ، فمن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٧)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٣).

(٢) رواه البخاري (١١٢٠)، ومسلم (٧٦٩) واللفظ له.

عبدَ غَيرَ اللهِ المستَحِقِّ وَحدَه للعبادةِ، فقد ضلَّ(١).

﴿ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ﴾.

أي: فكيف يَقَعُ صَرفُكم بعدَ وضوحِ الحقِّ، فتَعدِلونَ عن عبادةِ الله إلى عبادةِ ما سواه، وأنتم تعلمونَ أنَّ الله وَحْدَه هو المتفرِّدُ بالخَلقِ والتَّدبيرِ(٢)؟!

﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٣٣ ﴾.

أي: كما صُرِف المُشرِكونَ عَنِ الحقِّ، واستمرُّوا على شِركِهم، كذلك وجب قضاءُ الله وحُكمُه السَّابقُ الصادر عن عِلمِه، على الذين خَرَجوا عن الحقِّ إلى الباطِلِ، بأنَّهم لا يُؤمنونَ، وأنَّهم مُعَذَّبونَ(٣).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦-٩٧].

وقال سبحانه: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣٥، ٣٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٧)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣٥، ٣٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٧)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٩٠ - ١٩٢)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٠٤، ٥٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٧).

وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١].

الفوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- في قولِه: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ لم يقتصِرْ برزقِ الناسِ على جهةٍ واحدةٍ؛ ليُفيضَ عليهم نعمتَه، ويوسِّعَ رحمتَه[١].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ يدلُّ على أنَّ المُخاطَبينَ بهذا الكلام كانوا يَعرِفونَ اللهَ تعالى، ويُقِرُّونَ به، وهم الذين قالوا في عبادَتِهم للأصنام: (إنَّها تقرِّبُنا إلى الله زُلفى، وإنَّهم شفعاؤنا عند الله)، وكانوا يعلمونَ أنَّ هذه الأصنامَ لا تنفَعُ ولا تضُرُّ[٢].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ فيه تقريرُ أنَّ التَّوحيدَ لا يصِحُّ مع الفَصلِ بين الرُّبوبيَّةِ والألوهيَّةِ، كما كانوا يفعلونَ، فيقرُّونَ بتوحيدِ الرُّبوبيَّةِ دونَ توحيدِ الألوهيَّةِ[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ بيانُ أنَّ المُشرِكينَ لم يكونوا يُسَوُّونَ بين آلِهَتِهم وبين اللهِ في كُلِّ شَيءٍ، بل كانوا يؤمِنونَ بأنَّ اللهَ هو الخالِقُ المالِكُ لهم، وهم

---

[١] يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢ / ٣٤٥).

[٢] يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٤٧).

[٣] يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٩٣).

مخلوقونَ مَملوكونَ له، ولكنْ كانوا يُسَوُّونَ بينه وبينها في المحبَّةِ والتَّعظيمِ، والدُّعاءِ والعبادةِ والنَّذرِ لها، ونحوِ ذلك مما يُخَصُّ به الرَّبُّ سُبحانَه(١).

٥- التَّدبيرُ يُضافُ إلى اللهِ تارةً؛ وإلى الملائكةِ تارةً، فيُضافُ إلى الله تعالى أمرًا وإذنًا ومَشيئةً، كقولِه تعالى عن نَفسِه: ﴿وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾، ويُضافُ إلى الملائكةِ تارةً أخرى؛ لِكَونِهم هم المباشِرينَ والمُمتَثِلينَ للتَّدبيرِ، قال تعالى: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥]، وهذا كما أضاف التوفِّيَ إليهم تارةً، كقوله تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: ٦١]؛ وإليه تارةً، كقوله تعالى: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ﴾(٢) [الزمر: ٤٢].

٦- قول الله تعالى: ﴿ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ عبَّرَ عن الباطِلِ بالضَّلالِ؛ لأنَّ الضَّلالَ أشنَعُ أنواعِ الباطِلِ(٣).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ بيانُ أنَّ مَن عَبَدَ غيرَ اللهِ، فما عَبَدَ إلَّا الضلالَ المحضَ، والباطلَ البَحتَ(٤)، فاللهُ تعالى هو الإلهُ الذي يُعبَدُ بحَقٍّ، وعبادَتُه وَحْدَه هي الهُدى، فما سواها من عبادةِ الشُّركاءِ والوُسَطاءِ ضَلالٌ، فكُلُّ مَن يَعبُدُ غَيرَه معه، فهو مُشرِكٌ مُبطِلٌ ضالٌّ(٥).

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ فيه مِن قواعِدِ العقائِدِ الدينيَّةِ، وأصولِ التَّشريعِ والعِلمِ، أنَّ الحَقَّ والباطِلَ ضِدَّانِ لا يَجتَمِعانِ، وأنَّ الهُدى والضَّلالَ ضِدَّانِ لا يجتَمِعانِ،

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ١٨).

(٢) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٥٩).

(٤) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٣٤٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٩٣).

ولهذا الأصلِ فروعٌ كثيرةٌ في الدِّينِ والعِلمِ العَقليِّ⁽¹⁾.

٩- الكلامُ المذكورُ في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ هو الكلامُ الكونيُّ، ويقابلُه: الكلامُ الدينيُّ- وهو الذي يأمُرُ به ويَنهى- كما في قولِه تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾⁽²⁾ [التوبة: ٦].

بلاغة الآيات:

١- قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾

- قولُه تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ استفهامٌ تقريريٌّ، وجاء الاستدلالُ بطريقِ الاستفهامِ والجوابِ؛ لأنَّ ذلك في صورةِ الحوارِ، فيكون الدَّليلُ الحاصلُ به أوقَعَ في نُفوسِ السَّامِعين⁽³⁾.

- وفي قولِه تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ مُناسَبةٌ حسنةٌ، حيثُ قال اللهُ تعالى هنا: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ.... فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾، وفي سورةِ سبأٍ قال: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾ [سبأ: ٢٤]، فأفرَد لفظَ السَّماءِ في الأولى، وجمَعه في الثَّانيةِ مع اتِّحادِ المعنى، والتَّساوي في ألفاظِ الآيتَينِ غير ما ذُكِر، وقال في يونُسَ: ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ وقال في سبأٍ ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ ووجهُ ذلك: أنَّ الآياتِ التي في يونُسَ سِيقَت مَساقَ الاحتجاجِ عليهم بما أقَرُّوا به ولم يُسكِنْهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٩٣-٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٥٥).

إنكارُه، مِن كَونِ الرَّبِّ تعالى هو رازِقَهم ومالِكَ أسماعِهم وأبصارِهم ومُدَبِّرَ أمورِهم وغيرِها، ومُخرِجَ الحَيِّ مِن المَيِّتِ، والمَيِّتِ مِن الحيِّ، فلمَّا كانوا مقِرِّينَ بهذا كُلِّه، حَسُنَ الاحتجاجُ به عليهم أنَّ فاعِلَ هذا هو اللهُ الذي لا إلهَ غَيرُه، فكيف يعبُدونَ معه غيرَه، ويجعلونَ له شُرَكاءَ لا يَملِكونَ شَيئًا من هذا، ولا يستطيعونَ فِعلَ شَيءٍ منه؟! ولهذا قال- بعد أن ذكَرَ ذلك مِن شأنِه تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ أي: لا بُدَّ أنَّهم يُقِرُّونَ بذلك ولا يَجحَدونَه، فلا بدَّ أن يكونَ المذكورُ ممَّا يُقِرُّونَ به، والمُخاطَبونَ المحتَجُّ عليهم بهذه الآيةِ إنَّما كانوا مُقِرِّينَ بنُزولِ الرِّزقِ مِن قِبَلِ هذه السَّماءِ التي يشاهِدونَها بالحِسِّ، ولم يكونوا مقِرِّينَ ولا عالِمينَ بنُزولِ الرِّزقِ مِن سَماءٍ إلى سماءٍ حتى تنتهيَ إليهم، ولم يصِلْ عِلمُهم إلى هذا، فأُفرِدَ لفظُ السَّماءِ هنا؛ فإنَّه لا يمكِنُهم إنكارُ مَجيءِ الرِّزقِ منها، لا سيَّما والرِّزقُ هاهنا إن كان هو المطرَ، فمجيئُه من السَّماءِ التي هي السَّحابُ؛ فإنَّه يُسمَّى سَماءً لعُلُوِّه، فلمَّا انتظمَ هذا بذِكرِ الاحتجاجِ عليهم، لم يصلُحْ فيه إلَّا إفرادُ السَّماءِ؛ لأنَّهم لا يُقِرُّونَ بما ينزِلُ من فوقِ ذلك من الأرزاقِ العظيمةِ للقُلوبِ والأرواحِ، ولا بُدَّ من الوحيِ الذي به الحياةُ الحقيقيَّةُ الأبديَّةُ، وهو أَولى باسمِ الرِّزقِ مِن المطَرِ الذي به الحياةُ الفانيةُ المنقَضِيةُ، فما يَنزِلُ من فوقِ ذلك مِن الوحيِ والرَّحمةِ والألطافِ والمواردِ الربَّانيَّةِ والتنَزُّلاتِ الإلهيَّةِ، وما به قِوامُ العالَمِ العُلويِّ والسُّفليِّ- مِن أعظَمِ أنواعِ الرِّزقِ، ولكِنَّ القَومَ لم يكونوا مقِرِّينَ به فخُوطِبوا بما هو أقرَبُ الأشياءِ إليهم، بحيث لا يُمكِنُهم إنكارُه.

وأمَّا الآيةُ التي في سورة سبأ فلم يَنتظِمْ بها ذِكرُ إقرارِهم بما يَنزِلُ مِن السَّمواتِ؛ ولهذا أمَرَ رسولَه بأن يتولَّى الجوابَ فيها، ولم يذكُرْ عنهم أنَّهم المُجيبونَ المُقِرُّونَ، فقال: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾

ولم يقُل: (سَيقُولونَ اللهُ) فأمرَ تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُجيبَ بأنَّ ذلك هو اللهُ وَحدَه الذي يُنزِلُ رِزقَه على اختلافِ أنواعِه ومنافِعِه من السَّمواتِ السَّبعِ، وأمَّا الأرضُ فلم يَدَعُ السِّياقُ إلى جَمعِها في واحدةٍ مِن الاثنتَينِ؛ إذ يُقِرُّ به كُلُّ أحدٍ؛ مُؤمِنٍ وكافرٍ، وبَرٍّ وفاجرٍ(١).

وقيل: إنَّ الإفرادَ الواردَ في آيةِ يونُسَ مُحصِّلٌ للمعنى مع الإيجازِ، وأمَّا الواردُ في سورةِ سبَأٍ على الجمعِ فرُوعِيَ فيه ما تقَدَّم مِن قولِه تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢]، والمرادُ بذلك: نَفْيُ الشُّرَكاءِ له تعالى، ثمَّ عاد الكلام إلى ذلك أيضًا، فقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ على الجمعِ مُناسَبةً؛ إذِ الآيةُ قبلَ هذه في قضيَّةٍ واحدةٍ، وهي نفيُ الشُّركاءِ والأندادِ، فجاءت على ما يُناسِبُ الَّتي قبلَها(٢).

- قولُه تعالى: ﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ فيه إفرادُ السَّمعِ؛ لأنَّه مصدَرٌ فهو دالٌّ على الجنسِ الموجودِ في جميعِ حواسِّ النَّاسِ، وأمَّا الأبصارُ فجيءَ به جمعًا؛ لأنَّه اسمٌ، فهو ليس نصًّا في إفادةِ العمومِ؛ لاحتمالِ توَهُّمِ بصَرٍ مخصوصٍ، فكان الجمعُ أدَلَّ على قصدِ العمومِ، وأنفى لاحتمالِ العهدِ(٣).

وقيل: وحَّدَ السَّمعَ؛ لأنَّ إدراكَه لِجنسٍ واحدٍ هو الأصواتُ، وجمع البَصرَ لِتَعدُّدِ أجناسِ المُبصَراتِ(٤)، وأفرَد البصرَ في سورةِ الإسراءِ، في قولِه: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾[الإسراء: ٣٦]؛ لأنَّ

---

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١١٧).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٤٠-٢٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٩١).

المرادَ الواحدُ لكلِّ مخاطَبٍ بقولِه: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾(١) [الإسراء: ٣٦].

- وخَصَّ هاتين الحاسَّتينِ بالذِّكرِ ﴿السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾؛ لأنَّ عليهما مدارَ الحياةِ الحيوانيَّة، وكمالَ البَشَريَّة، وتحصيلَ العلومِ الأوَّلية(٢). وفيه وجهٌ آخرُ: أنَّه خَصَّهما بالذِّكرِ مِن بابِ التَّنبيهِ على المفضولِ بالفاضِلِ، ولكمالِ شَرَفِهما ونَفْعِهما(٣)، ولما فيهما مِن الصنعةِ العجيبةِ، والقدرةِ الباهرةِ العظيمةِ(٤).

- قولُه: ﴿وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾: فيه الإتيانُ بالعُمومِ بعدَ الخُصوصِ(٥)، فلَمَّا ذكَرَ تعالى التَّفصيلَ في قوله: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾؛ ذكَرَ بعده كلامًا كليًّا، وهو قولُه: ﴿وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾؛ وذلك لأنَّ أقسامَ تَدبيرِ اللهِ تعالى في العالَمِ العُلويِّ، وفي العالَمِ السُّفليِّ، وفي عالَمَيِ الأرواحِ والأجسادِ، أمورٌ لا نهايةَ لها، وذِكرُ كُلِّها كالمتعَذِّرِ، فلمَّا ذكَرَ بعضَ تلك التفاصيلِ؛ لا جرَمَ عَقَّبَها بالكلامِ الكُليِّ؛ لِيدُلَّ على الباقي(٦)، وإيثارُ صيغةِ المضارعِ؛ للدَّلالةِ على تَجدُّدِ التَّدبيرِ واستمرارِه(٧).

٢- قولُه تعالى: ﴿فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٦٣)، وينظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٠٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٤٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٤٧).

(٧) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١١٨).

- قولُه: ﴿فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ﴾ فَذْلَكةٌ لِما تقدَّم، أي: ذلكم الذي اعترَفتُم باتِّصافِه بالنُّعوتِ المذكورةِ هو اللهُ، واسمُ الإشارةِ عائدٌ إلى اسم الجلالةِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ المشارَ إليه جَديرٌ بالحُكمِ الَّذي سيُذكَرُ بعدَ اسْمِ الإشارةِ، من أجْلِ الأوصافِ المتقدِّمةِ على اسمِ الإشارةِ، وهي كونُه الرَّازِقَ، الواهبَ الإدراكِ، الخالِقَ، المدبِّرَ؛ لأنَّ اسْمَ الإشارةِ قد جمَعها(١).

- قولُه: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ الاستفهامُ هنا إنكاريٌّ في معنى النَّفيِ، أي: إنكارُ الواقعِ ونَفيُه واستبعادُه؛ ولذلك وقَع بعدَه الاستثناءُ في قولِه: ﴿إِلَّا الضَّلَالُ﴾؛ فلذلك دخلَت (إلَّا)، وصَحِبَه التَّقريرُ والتَّوبيخُ، والتَّقديرُ: ليس بَعْدَ الحقِّ إلَّا الضَّلالُ، فمَن تَخطَّى الحقَّ الَّذي هو عبادةُ اللهِ تعالى وقَعَ في الضَّلالِ، وفيه مِن المبالَغةِ ما ليس في توجيهِ الإنكارِ إلى نفْسِ الفِعلِ؛ لأنَّ كلَّ موجودٍ لا بدَّ مِن أن يَكونَ وُجودُه على حالٍ مِن الأحوالِ قَطعًا، فإذا انتَفى جميعُ أحوالِ وُجودِه، فقد انتَفى وجودُه، والضَّلالُ هو الباطلُ الضَّائعُ المضمَحِلُّ؛ وإنَّما سُمِّي بالمصدَرِ مُبالَغةً، كأنَّه نفْسُ الضَّلالِ والضَّياعِ(٢).

- وقولُه: ﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ، بمعنى إنكارِ الواقعِ واستبعادِه، والتَّعجُّبِ منه(٣).

- وفي إيثارِ صيغةِ المبنيِّ للمفعولِ ﴿تُصْرَفُونَ﴾ إيذانٌ بأنَّ الانصِراف مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١١٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٤٢).

قال الألوسي: (الإنكارُ والتعجبُ متوجِّهانِ في الحقيقةِ إلى منشأِ الصرفِ، وإلَّا فنفسُ الصرفِ منه تعالى، على ما هو الحقُّ، فلا معنَى لإنكارِه، والتعجُّبِ منه مع كونِه فعلَه جلَّ شأنُه، وإنَّما لم يُسندِ الفعلَ إلى الفاعلِ؛ لعدمِ تعلُّقِ غرضٍ به). ((تفسير الألوسي)) (٦/ ١٠٥، ١٠٦).

الحقِّ إلى الضَّلالِ ممَّا لا يَصدُرُ عن العاقلِ بإرادتِه، وإنَّما يقَعُ عندَ وُقوعِه مِن جهةِ صارِفٍ خارجيٍّ(١).

- قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ تذييلٌ للتَّعجُّبِ مِن استِمرارِهم على الكفرِ بعدَما ظهَر لهم مِن الحُجَجِ والآياتِ، وتأْييسٌ مِن إيمانِهم، بإفادةِ أنَّ انتِفاءَ الإيمانِ عنهم بتقديرٍ مِن اللهِ تعالى عليهم؛ فقد ظهَر وُقوعُ ما قدَّره مِن كلمتِه في الأزَلِ(٢).

- وفي قولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال اللهُ تعالى هنا: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، بينَما قال في سورةِ غافرٍ: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [غافر: ٦]، ففي الأولى قال: ﴿كَذَٰلِكَ﴾، وفي سورةِ غافرٍ قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ بالواوِ، وقال في الأولى: ﴿عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا﴾، وفي الثَّانيةِ: ﴿عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وقال في الأولى: ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وفي الثَّانيةِ: ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾؛ ووجهُ تركِ الواوِ في هذا الموضعِ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ وإثباتِها في سورةِ غافرٍ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: أنَّ القصَّةَ بعد ﴿كَذَٰلِكَ﴾ هي الَّتي قبْلَها؛ فهي مرتبطةٌ بها بعَودِها إليها، وبكافِ التَّشبيهِ؛ فاستغنَت بهذين الرَّابطَين عن حرفِ العطفِ، وهؤلاء الَّذين حقَّت عليهم كلمةُ اللهِ أنَّهم لا يُؤمنون، هم الَّذين خُوطبوا بقولِه: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾، وليس كذلك ما في سورةِ غافرٍ؛ لأنَّه وإن تَعلَّق به بكافِ التَّشبيهِ فإنَّه يَنقَطِعُ عنه بأنَّ المذكورين بعدَ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ غيرُ المذكورين قبلَها؛ فقولُه: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٥٩).

وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ﴾ [غافر: ٥] خبرٌ عن الَّذين كانوا قبلَ النَّبيِّ، وما بعدَه مِن قولِه: ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ إنَّما هو وعيدٌ لِمَن هو في عصرِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ فلمَّا انقطَع ما بعدَ (كَذَلِكَ) عمَّا قبلَها احتاج إلى الواوِ، وما في سورةِ يونُسَ لَمَّا لم ينقَطِعْ ما بعدَها عمَّا قبلَها، لم يحتَجْ إليها.

ووجهُ اختصاصِ ما في سورةِ يونُس بقوله: ﴿عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا﴾، واختصاصُ ما في سورةِ غافر بقولِه: ﴿عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ فلأنَّ الأوَّلَ في ذِكرِ قومٍ أخبَر عنهم بقولِه: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ٣١]، فأخَذ إقرارَهم بأنَّ اللهَ تعالى هو الَّذي يَرزُقُهم مِن مطرِ السَّماءِ، ونباتِ الأرضِ، وهو الَّذي يَملِكُ أسماعَهم وأبصارَهم، وهو الَّذي يُخرِجُ الحيَّ مِن الميِّتِ، وأنَّه هو الَّذي يُدبِّرُ أمورَ الخلقِ مِن ابتداءِ أحوالِهم إلى انتهائِها، وكانوا ممَّن أخبَر اللهُ تعالى عنهم بقولِه: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، فبايَنوا بإثباتِ الخالقِ وما زعَموه مِن معرفةِ الخالقِ، وقد أنكَروه وجحَدوا بآياتِه، وفسَقوا- بأنْ عبَدوا معه غيرَه ولم يُثبِتوا النَّبيَّ ونُبوَّتَه- الفسْقَ الَّذي هو كفرٌ، لا يَنفَعُ معه الإقرارُ الأوَّلُ، فقال تعالى: ﴿هَؤُلَاءِ﴾ الَّذين أقَرُّوا بالخالقِ وصفاتِ فِعلِه، ثمَّ خرَجوا عمَّا دخَلوا فيه بإنكارِ نُبوَّةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وبعبادةِ آلهةٍ مع اللهِ تعالى، كان ذلك فسقًا؛ لخُروجِهم عن حُكمِ مَن يُقِرُّ بما أقَرُّوا به، والفسقُ فسقان: كفرٌ، وفسقٌ ليس بكفرٍ؛ فأخبَر عن هؤلاء بـ﴿الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ في سورةِ يونُسَ لذلك.

وأمَّا في سورةِ غافرٍ فإنَّه لم يتَقدَّمْه مثلُ ما تقدَّم هنا، بل قال تعالى قبلَه: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ * كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ [غافر: ٤-٥]؛ فأخبَر عن الكفَّارِ الَّذين في عصرِه

بأنَّهم كفَروا بمُجادَلتِهم في آياتِ اللهِ، فشبَّههم بالقومِ الَّذين مضَوْا قبلَهم؛ حيث قال: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾، ثمَّ قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾، فلمَّا أراد الَّذين قدَّم ذِكرَهم مِن أوَّلِ القصَّةِ، كان وصفُهم بما وصَفَهم به قبلُ مِن الكفرِ أولى وأدَلَّ على أنَّ المعنَيَين بوجوبِ النَّارِ لهم.

ووجهُ مُناسبةِ قولِه تعالى هنا في سورةِ يونُسَ: ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وقولُه في سورةِ غافرٍ: ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [غافر: ٦]: أنَّه تعالى أراد أن يُبيِّنَ في سورةِ يونُسَ أنَّهم- وإن أقَرُّوا باللهِ تعالى، وأثبَتوه خالِقًا قادِرًا- غيرُ مؤمنين، وما داموا يَعبُدون غيرَه لا يُؤمِنون؛ فالقصدُ إلى إبطالِ ما بذَلوه بألسِنَتِهم من الإقرارِ بخالقِهم، والمرادُ في آيةِ غافرٍ توَعُّدُهم على كُفرِهم بالنَّارِ؛ إذ لم يتَقدَّمْ ذِكرُ إقرارٍ يُشبِهُ إقرارَ المؤمنين، فيَبطُلُ بتَركِهم سائرَ ما أمر اللهُ تعالى به؛ فجاء كلٌّ على ما يُناسِبُ السِّياقَ(١).

* * *

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٧٣٦-٧٤١)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٤١-٢٤٢).

الآيات (٣٤-٣٦)

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

غريب الكلمات:

﴿تُؤْفَكُونَ﴾: أي: تُصرَفون عن الحقِّ، وتُصَدُّون عن الصوابِ، وتَعْدِلونَ، يُقالُ: أفَكَ الرجلُ عن كذا: إذا عدَل عنه، والإفْكُ: كلُّ مصروفٍ عن وجهِه الذي يحقُّ أن يكونَ عليه، وأصلُ (أفك): قلبُ الشيءِ، وصرفُه عن جهتِه(١).

المعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ نَبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يقولَ للمُشركينَ: هل مِن آلهتِكم- الذين زعَمتُم أنَّهم شُركاءُ لله في العبادةِ- مَن يَبتَدِئُ خلقَ أيِّ شَيءٍ، ثمَّ إذا مات يُعيدُه مَرَّةً أُخرَى؟ ثم يأمرُه أن يجيبَهم قائلًا: اللهُ وَحدَه يبدأُ الخَلقَ ثُمَّ يعيدُه، فكيف تُصرَفونَ عن اتِّباعِ الحقِّ إلى الباطلِ؟!

ويأمُرُه تعالى أن يقولَ لهم: هل من آلهتِكم- الذين زعمتُم أنَّهم شُركاءُ للهِ في العبادةِ- مَن يهدي إلى الحَقِّ، وأن يجيبَهم بقولِه: اللهُ وَحدَه مَن يَهدِي إلى الحَقِّ، اللَّهُ الذي يهدي إلى الحَقِّ أحَقُّ أن يُطاعَ، أم شُركاؤُهم الذين لا يَهتَدونَ، ولا يَهدُونَ إلَّا أن يهدِيَهم غيرُهم؟! فما لكم- أيُّها المُشرِكونَ- كيف تحكمونَ؟

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٥).

ويُبَيِّنُ الله تعالى أنَّه ما يتَّبِعُ أكثرُ هؤلاء المُشرِكينَ في إشراكِهم باللهِ تعالى إلَّا مُجَرَّدَ ظَنٍّ ضعيفٍ، مِن غَيرِ يَقينٍ، وهو لا يُغني من اليقينِ شَيئًا، إنَّ اللهَ عليمٌ بما يَفعلونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا استفهَم الكافرينَ عن أشياءَ مِن صِفاتِ اللهِ تعالى واعتَرَفوا بها، ثمَّ أنكَرَ عليهم صَرْفَهم عن الحَقِّ وعبادةِ اللهِ، استَفْهَم عن شيءٍ هو سبَبُ العبادةِ، وهو إبداءُ الخَلقِ، وهم يُسَلِّمونَ ذلك: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ ثمَّ أعاد الخَلقَ وهم مُنكِرونَ ذلك، لكنَّه عَطَفَه على ما يُسَلِّمونَه؛ لِيُعلَمَ أنَّهما سواءٌ بالنِّسبةِ إلى قُدرةِ الله تعالى، وأنَّ ذلك لِوضوحِه وقيامِ بُرهانِه، قُرِنَ بما يُسلِّمونَه؛ إذْ لا يدفَعُه إلَّا مكابِرٌ، إذ هو من الواضحاتِ التي لا يختَلِفُ في إمكانِها العُقَلاءُ⁽¹⁾.

وأيضًا بعدَ أن أقام عليهم الدليلَ على انفرادِ الله تعالى بالرزقِ، وخلقِ الحواسِّ، وخلقِ الأجناسِ، وتدبيرِ جميعِ الأمورِ، وأنَّه المستحقُّ للإلهيةِ بسببِ ذلك الانفرادِ؛ بيَّن هنا أنَّ آلهتَهم مسلوبةٌ مِن صفاتِ الكمالِ، وأنَّ اللهَ متَّصفٌ بها، فقال تعالى⁽²⁾:

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٦٠).

أي: قُلْ- يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: هل من آلهَتِكم- التي زَعَمتم أنَّها شُرَكاءُ لله في العبادةِ- مَن يبتدِئُ خَلقَ أيِّ شَيءٍ مِن العَدَمِ، ثمَّ إذا مات يُعيدُه إلى الحياةِ مَرَّةً أخرى(١)؟!

﴿قُلِ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾.

أي: قُل- يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: اللهُ وَحدَه هو الذي يَبتَدِئُ خَلقَ كُلِّ شَيءٍ مِن العدَمِ، ثمَّ يُعيدُه بعد مَوتِه متى شاء مِن غَيرِ مُعاونٍ ولا شريكٍ(٢).

كما قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [يونس: ٤].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: ٢٠].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

﴿فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾.

أي: فكيف تُصرَفونَ وتُقلَبونَ عن اتِّباعِ الحَقِّ إلى الباطِلِ(٣)؟!

﴿قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ۝٣٥﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٧، ١٧٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٨). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٤).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بَيَّنَ عَجزَ أصنامِ الكافرينَ عن الإبداءِ والإعادةِ- اللَّذينِ هما من أقوى أسبابِ القُدرةِ، وأعظَمِ دَلائِلِ الألوهيَّةِ- بَيَّنَ عَجزَهم عن هذا النَّوعِ مِن صفاتِ الإلهِ، وهو الهِدايةُ إلى الحَقِّ، وإلى مناهجِ الصَّوابِ(١).

﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ﴾.

أي: قُلْ- يا مُحمَّدُ- للمُشركينَ: هل مِنْ آلهتِكم مَنْ يُرشِدُ الضَّالَّ، ويُوفِّقُه إلى مَعرفةِ الحَقِّ واتِّباعِه(٢)؟!

﴿ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ﴾.

مناسبتُها لما قبلَها:

لَمَّا كان الكافِرونَ مُعتَقدينَ أنَّ شُركاءَهم تهدي إلى الحَقِّ، ولا يُسَلِّمونَ حَصرَ الهدايةِ لله تعالى، أمَرَ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأن يبادِرَ بالجوابِ، فقال(٣):

﴿ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ﴾.

أي: قُلْ- يا مُحمَّدُ- للمُشركينَ: اللهُ وَحدَه هو الذي يُرشِدُ ويُوفِّقُ مَن يَشاءُ إلى مَعرفةِ الحَقِّ واتِّباعِه(٤).

كما قال تعالى: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٥-٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٨، ١٧٩)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٩٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٨، ١١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٩)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ١٩)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٩٢، ١٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٤).

وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وعن عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضي الله عنه، عن رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ((أنَّه كان إذا قام إلى الصَّلاةِ قال: وجَّهتُ وجهيَ للَّذي فطر السَّمواتِ والأرضَ حَنيفًا، وما أنا من المُشركينَ، إنَّ صلاتي ونسكي ومحيايَ ومماتي للَّه رَبِّ العالمينَ، لا شريكَ له، وبذلك أُمِرتُ وأنا من المُسلِمينَ، اللهمَّ أنت المَلِكُ لا إله إلا أنت، أنت ربِّي، وأنا عبدُك، ظلمتُ نفسي، واعترَفتُ بذنبي، فاغفِرْ لي ذنوبي جميعًا؛ إنَّه لا يغفِرُ الذُّنوبَ إلا أنت، واهدِني لأحسَنِ الأخلاقِ لا يهدي لأحسَنِها إلَّا أنت، واصرِفْ عني سَيِّئَها لا يَصرِفُ عني سَيِّئَها إلا أنت...))⁽¹⁾.

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رضي الله عنهما، أنَّه سَمِعَ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((إنَّ قُلوبَ بني آدَمَ كُلَّها بين إصبَعينِ من أصابعِ الرَّحمنِ كقلبٍ واحدٍ، يُصَرِّفُه حيث يشاءُ. ثم قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: اللهمَّ مُصَرِّفَ القُلوبِ، صَرِّفْ قلوبَنا على طاعَتِك))⁽²⁾.

﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾.

أي: آللهُ الذي يهدي إلى الحَقِّ أحقُّ أن يُطاعَ ويُعبَدَ، أم شُركاؤُهم الذين لا يَهتَدونَ بأنفُسِهم، ولا يَهدُونَ مَن يَعبُدُهم، إلَّا أن يهدِيَهم غيرُهم⁽³⁾؟!

---

(١) رواه مسلم (٧٧١).

(٢) رواه مسلم (٢٦٥٤).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (١/ ٤٦٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٩. ١٨٠)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤١)، ((جامع المسائل)) لابن تيمية (١/ ١٣٨، ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٤).

و﴿يَهِدِّي﴾- بفتحِ الياءِ وكسرِ الهاءِ وتشديدِ الدالِ المكسورةِ، على قراءةِ حفصٍ. ويَعْقُوبَ الحضرميِّ- أصلُه (يهتدي)، فأُدْغِمت التاءُ في الدالِ، وكُسِرت الهاءُ؛ لالتقاء الساكنين. يُنظر: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٤٤)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٣١).

﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾.

أي: فما بالُكم- أيُّها المُشرِكونَ- تَعبُدونَ المخلوقَ العاجِزَ، وتترُكونَ عبادةَ الخالقِ الذي يَهدِيكم؟! كيف تحكمونَ بالباطلِ فتُساوونَ بين الله وبين خَلْقِه في العبادةِ(١)؟!

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٣٦)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بَعدَ أن أمَرَ اللهُ رَسولَه بأن يَحُجَّهم فيما جَعلوهم آلهةً، وهي لا تَصَرُّفَ ولا تدبيرَ ولا هدايةَ لها؛ أعقب ذلك بأنَّ عِبادتَهم إيَّاها اتِّباعٌ لظَنٍّ باطلٍ(٢).

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾.

أي: وما يتَّبِعُ أكثَرُ هؤلاء المُشرِكينَ في إشراكِهم باللهِ إلَّا مُجَرَّدَ ظَنٍّ ضعيفٍ واهٍ، من غيرِ يقينٍ ولا دليلٍ على صِحَّةِ إشراكِهم بالله عزَّ وجلَّ(٣).

﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾.

أي: إنَّ الظَّنَّ لا يُوصِلُ إلى الحَقِّ، ولا يُنتفَعُ به في شيءٍ يَحتاجُ إلى اليقينِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨١)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨١)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٩٣)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٥٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٠٦)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٢٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٤)، ((تفسير ابن =

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ ذو علم بما يفعَلُ المُشرِكونَ، وسيُجازيهم على ذلك(١).

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

ينبغي أن يكونَ غَرَضُ المُسلِمِ مِن حياتِه تزكيةَ نَفسِه، وتكميلَها باتِّباعِ الحَقِّ في كلِّ اعتقادٍ، والهدى- وهو الصَّلاحُ- في كُلِّ عَملٍ، وبناؤُهما على أساسِ العِلم دونَ الظَّنِّ وما دونَه من الخَرْصِ والوَهمِ؛ يُرشِدُ إلى ذلك قولُ الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾(٢).

الفَوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ الفائدةُ في ذِكرِ هذه الحُجَّةِ على سبيلِ السُّؤالِ والاستفهامِ؛ أنَّ الكلامَ إذا كان ظاهِرًا جَليًّا، ثمَّ ذُكِرَ على سبيلِ الاستفهامِ، وتَفويضِ الجوابِ إلى المَسؤولِ، كان ذلك أبلَغَ وأوقَعَ

= عاشور)) (١١/ ١٦٦).

قال الخازن: (﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ يعني: أنَّ الشَّكَّ لا يُغني عن اليقينِ شَيئًا، ولا يقومُ مقامَه، وقيل في الآية: إنَّ قَولَهم: إنَّ الأصنامَ آلهةٌ، وإنَّها تشفَعُ لهم ظنٌّ منهم لم يَرِدْ به كتابٌ، ولا يَعني أنَّها لا تدفَعُ عنهم من عذابِ اللهِ شيئًا). ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٤٣).

ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٩٣).

في القَلبِ(١).

٢- قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ هم لا يَقدِرونَ على دعوى ذلك لِمَعبوداتِهم، وفي ذلك الحُجَّةُ القاطعةُ والدَّلالةُ الواضِحةُ على أنَّهم في دعواهم أنَّها أربابٌ، وشُرَكاءُ لله في العبادةِ- كاذِبونَ مُفترَونَ، وهذا توقيفٌ على قصورِ الأصنامِ وعَجزِها، وتنبيهٌ على قدرةِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ(٢).

٣- قولُه تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ الآية، احتجاجٌ على الكفَّارِ، فإنْ قِيل: كيفَ يحتجُّ عليهم بإعادةِ الخلقِ، وهم لا يعترفون بها؟ فالجوابُ: أنَّهم معترفونَ أنَّ شركاءَهم لا يقدرونَ على الابتداءِ ولا على الإعادةِ، وفي ذلك إبطالٌ لربوبيتِهم، وأيضًا فوُضِعتِ الإعادةُ موضعَ المتفقِ عليه؛ لظهورِ برهانِها(٣).

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ فيه سؤال: لِمَ أمَرَ رَسولَه بأن يَعترِفَ بذلك، والإلزامُ إنَّما يحصُلُ لو اعترَف الخَصمُ به؟ والجوابُ: ذكر العُلَماءُ لذلك عِدَّةَ أوجُهٍ:

الوجه الأول: أنَّ الدَّليلَ لَمَّا كان ظاهرًا جَليًّا، فإذا أُوردَ على الخَصمِ في مَعرِضِ الاستفهامِ- ثمَّ إنَّه بنَفسِه يقولُ الأمرَ كذلك- كان هذا تنبيهًا على أنَّ هذا الكلامَ بلغ في الوضوحِ إلى حيثُ لا حاجةَ فيه إلى إقرارِ الخَصمِ به، وأنَّه سواءٌ أقَرَّ أو أنكرَ، فالأمرُ مُتقرِّرٌ ظاهِرٌ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٧٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٤٨-٢٤٩).

الوجه الثاني: أنَّه لَمَّا كان الكافِرونَ لِمُكابَرتِهم لا يُقِرُّونَ بذلك، أمَرَ تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُجيبَ، فقال: ﴿قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾(١).

الوجه الثالث: أنَّه لَمَّا كان هذا السُّؤالُ ممَّا لا يُجيبونَ عنه، كما أجابوا عن أسئلةِ الخِطابِ الأوَّلِ؛ لإنكارِهم البَعثَ والمَعادَ، لا لاعتقادِهم أنَّ شُرَكاءَهم تفعَلُ ذلك- لقَّنَ اللهُ رَسولَه الجوابَ: ﴿قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾(٢).

٥- قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ بيَّنَ سبحانَه بما هو مُستَقِرٌّ في الفِطَرِ أنَّ الذي يهدي إلى الحَقِّ أحقُّ بالاتِّباعِ ممَّن لا يهتَدي إلَّا أنْ يهديَه غيرُه؛ فلزِمَ أنْ يكونَ الهادِي بنَفسِه هو الكامِلَ، دون الذي لا يهتدي إلَّا بغَيرِه، وإذا كان لا بُدَّ مِن وجودِ الهادي لِغَيرِ المُهتَدي بنَفسِه، فهو الأكملُ(٣).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى﴾ بيانُ أنَّ الذي يَهدي إلى الحَقِّ مُطلقًا هو اللهُ، والذي لا يَهدِي إلَّا أن يُهدَى صفةُ كلِّ مخلوقٍ؛ لا يُهدَى إلَّا أنْ يَهدِيَه اللهُ تعالى، وهذا هو المقصودُ بالآيةِ، وهي أنَّ عبادةَ اللهِ أَولى مِن عبادةِ خلْقِه(٤).

٧- الظنُّ لا يُرادُ به في الكِتابِ والسُّنَّةِ الاعتقادُ الرَّاجِحُ، كما هو في اصطلاحِ طائفةٍ مِن أهلِ الكلامِ في العِلمِ، ويسمُّونَ الاعتقادَ المرجوحَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٩٥).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٨٢).

(٤) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٦/ ٤٧٥).

وهمًا، بل قد قال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إيَّاكم والظَّنَّ؛ فإنَّ الظنَّ أكذَبُ الحديثِ))⁽¹⁾، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾، فالاعتقادُ المرجوحُ هو ظنٌّ، وهو وهْمٌ⁽²⁾.

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾

- قولُه: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ...﴾ استِئنافٌ على طريقةِ التَّكريرِ لقولِه قبْلَه: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾؛ لأنَّ هذا مقامُ تَقريرٍ وتعديدِ الاستدلالِ، وهو مِن دَواعي التَّكريرِ⁽³⁾، وإنَّما لم يُعطَفْ على ما قَبْلَه؛ إيذانًا باستقلالِه في إثباتِ المطلوبِ⁽⁴⁾.

- والاستفهامُ في ﴿هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ...﴾ إنكارٌ، وتقريرٌ بإنكارِ ذلك، وللتَّبكيتِ والإلزامِ؛ إذ ليس المتكلِّمُ بطالبٍ للجوابِ، ولا يسَعُهم إلَّا الاعترافُ بذلك؛ فهو في مَعنى نفيِ أن يكونَ مِن آلِهَتِهم مَن يَبدَأُ الخلقَ ثُمَّ يُعيدُه⁽⁵⁾.

- قولُه: ﴿قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ فيه إعادةُ الجملةِ في الجوابِ بتَمامِها غيرَ مَحذوفةِ الخبَرِ، كما في الجوابِ السَّابقِ؛ لِمَزيدِ التَّأكيدِ والتَّحقيقِ، حيث أُبرِزَ الجوابُ في جُملةٍ مُبتدَأةٍ مُصرَّحٍ بخبَرِها؛ فعاد

---

(١) رواه البخاري (٥١٤٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤ / ١٤٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤ / ١٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٦١).

الخبرُ فيها مُطابِقًا لخبرِ اسمِ الاستفهامِ، وذلك تأكيدٌ وتثبيتٌ(١).

- قوله: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ ذِكْرُ إعادةِ الخَلْقِ في الموضعَينِ، مع أنَّهم لا يَعترِفون بها نوعٌ مِن الإدماجِ في الحِجاجِ(٢)، وهو فنٌّ بديعٌ(٣).

٢- قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾

- قولُه: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ...﴾ تكريرٌ آخرُ بَعْدَ قولِه: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾، ومجموعُ الجُملتَين مفيدٌ قَصْرَ صفةِ الهدايةِ إلى الحقِّ على اللهِ تعالى، دونَ آلِهَتِهم، وهو قصرُ إفرادٍ(٤)، وهو احتِجاجٌ آخرُ على ما ذُكِرَ؛ جيءَ به إلزامًا لهم بعدَ إلزامٍ، وإفحامًا إثْرَ إفحامٍ، وفَصْلُه عمَّا قَبْلَه وعدَمُ عَطفِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٤ / ١٤٣).

(٢) الإدماجُ: لُغةً: هو الإدخالُ واللَّفُّ؛ يُقال: أدْمجَ الشَّيءَ في ثوبٍ، إذا لَفَّه فيه، وأدْمَجْتُ مَتاعي، إذا أدخلتَه في ثوبٍ أو حقيبةٍ أو نحوِها. واصطلاحًا: هو تَضمُّن كلامٍ سِيقَ لمعنًى- مَدحًا كان أو غيرَه- مَعنًى آخَرَ، كإدْخالِ فِكْرةٍ في فكرةٍ، أو غَرضٍ بلاغيٍّ في غَرضٍ آخَرَ، أو وَجْهٍ من وُجُوه البدِيع في وجهٍ منه آخَرَ، بأسلوبٍ مِن الكلامِ لا يَظهرُ منه إلَّا إحدَى الفِكرتين، أو أحدُ الغرَضينِ، أو أحدُ الوجْهَين؛ فإذا تأمَّل المتفكِّرُ ظهَر له المُدْمَجُ، وسَرَّه هذا الإدماجُ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ﴾ فأُدْمِجَ غَرَضٌ في غَرضٍ؛ فإنَّ الغرضَ منها تفردُه تعالى بوصفِ الحمدِ، وأُدمِج فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٠٥)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حبنكة الميداني (٢/ ٤٢٧)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٦١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ١٦١-١٦٢).

عليه؛ للدَّلالةِ على استقلالِه⁽¹⁾.

- وقولُه: ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ...﴾ تفريعُ استفهامٍ تقريريٌّ على ما أفادَتْه الجملَتان السَّابقَتان مِن قَصْرِ الهدايةِ إلى الحقِّ على اللهِ تعالى دونَ آلِهَتِهم⁽²⁾، وهذا الاستفهامُ للإلزامِ⁽³⁾.

- قولُه: ﴿أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى﴾ فيه مِن المبالغةِ ما لا يَخْفى، وإنَّما نفى عنه الاهتِداءَ مع أنَّ المفهومَ ممَّا سبَق نفيُ الهدايةِ؛ لأنَّ نفيَها مُستتبعٌ لنفيِه غالبًا؛ فإنَّ مَن اهتَدى إلى الحقِّ لا يَخْلو عن هدايةِ غيرِه في الجملةِ⁽⁴⁾.

- قولُه: ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ الاستفهامُ في ﴿فَمَا لَكُمْ﴾ للإنكارِ التَّوبيخيِّ، وفيه تعجُّبٌ مِن حالِهم⁽⁵⁾.

- وجملةُ ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ استفهامٌ يتَنزَّلُ مَنزِلةَ البيانِ لِما في جملةِ: ﴿فَمَا لَكُمْ﴾ مِن الإجمالِ؛ ولذلك فُصِلَت عنها، أي: لم تُعطَفْ، فهو مِثلُه استفهامٌ تعجُّبيٌّ من حُكمِهم الضَّالِّ إذ حَكَموا بإلهيَّةِ مَن لا يَهتَدي، فهو تعجُّبٌ على تعجُّبٍ⁽⁶⁾.

- ومِن محاسِنِ البلاغةِ في هذه الآيةِ: الجمْعُ بين تَعديةِ الفِعلِ (يهدي) بالحرفَين، وبين ترْكِ التَّعديةِ وهو حذفُ المتعلِّقِ الدَّالِّ على العمومِ؛ ففِعلُ الهُدَى يتَعدَّى بنَفسِه، وبـ (اللَّام)، وبـ(إلى)، وكلٌّ مِنها وقَع في

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤ / ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤ / ١٤٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ١٤٣-١٤٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٤٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٦٤).

مَوقِعِه الَّذي تَقتَضيه البلاغةُ؛ أمَّا الأوَّلُ ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾؛ فقد عدَّاه بإلى في حيِّزِ الاستفهامِ الإنكاريِّ؛ للإيذانِ بأنَّه لا أحَدَ مِن هؤلاءِ الشُّركاءِ المتَّخَذين بالباطلِ يدُلُّ النَّاسَ على الطَّريقِ الَّذي يَنتَهي سالِكُه إلى الحقِّ مِن علمٍ وعملٍ وهو التَّشريعُ؛ فهو يَنفي المقدِّماتِ ونَتائِجَها، والأسبابَ ومُسبَّباتِها، ولو عدَّاه بنَفسِه لَمَا أفاد إلَّا إنكارَ هدايةِ الإيصالِ إلى الحقِّ بالفعلِ، دون هدايةِ التَّشريعِ الموصلةِ إليه، ولو عدَّاه باللَّام لكان بمعنى تَعديَتِه بنفسِه إن كانت اللَّامُ للتَّقويةِ أو لإنكارِ هدايةٍ يُقصَدُ بها الحقُّ إن كانت للتَّعليلِ، والأوَّلُ أعَمُّ وأبلَغُ كما هو ظاهرٌ. وأمَّا الثَّاني ﴿قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ وهو تَعديَتُه باللَّام فهو يَستلزِمُ الأوَّلَ، وعلى جوازِ استِعمالِ اللَّام بمَعنَيَيْها، يكونُ مَعناه: قُلِ اللهُ يَهْدي لِما هو الحقُّ؛ لأجْلِ أن يَكونَ المهتدون به على الحقِّ. وأمَّا الثَّالثُ- أي حَذْفُ المتعلِّقِ-: فهو في الشِّقِّ الثَّاني مِن قولِه: ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى﴾، ومعناه مع ما قَبْلَه نصًّا واقتِضاءً: أفمَن يَهْدي إلى الحقِّ ويَهْدي له ويَهْديه- وهو اللهُ تعالى- أحَقُّ أن يُتَّبَعَ فيما يَشرَعُه، أم مَن لا يَهْدي غيرَه ولا هو يَهْتدي بنفسِه- ممَّن عُبِد مَن دونَه- إلَّا أن يَهدِيَه غيرُه، أي: اللهُ تعالى؛ إذ لا هادِيَ غيرُه؟ وهذا استِثْناءٌ مُفرَّغٌ مِن أعمِّ الأحوالِ؛ لأنَّ مَن نفَى عَنهم الهدايةَ ممَّن اتُّخِذوا شُركاءَ للهِ تعالى يَشمَلُ المسيحَ عيسى ابنَ مريمَ وعُزيرًا والملائكةَ عليهم السَّلامُ، وهؤلاء كانوا يَهْدون إلى الحقِّ بهدايةِ اللهِ ووَحْيِه كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبياء: ٧٣]، وقيل: الاستثناءُ مُنقَطِعٌ، فمعنى ﴿إِلَّا أَنْ يُهْدَى﴾: لكنَّه يَحتاجُ أن يُهْدى(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٩٦-٢٩٧).

٣- قولُه تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ فيه تخصيصُ هذا الاتِّباعِ بأكثَرِهم مع مُشاركةِ المعانِدين لهم في ذلك؛ للتَّلويحِ بما سيَكونُ مِن بَعضِهم مِن اتِّباعِ الحقِّ والتَّوبةِ(١)، وقيلَ: المرادُ بأكثَرِهم جَميعُهم(٢).

- وتنكيرُ ﴿ظَنًّا﴾ للتَّحقيرِ، أي: ظنًّا واهيًا، ودلَّت صيغةُ القَصرِ (ما... إلَّا) على أنَّهم ليسوا في عَقائدِهم المنافيةِ للتَّوحيدِ على شيءٍ من الحقِّ؛ ردًّا على اعتِقادِهم أنَّهم على الحقِّ(٣).

- وجملةُ ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ تعليلٌ لما دلَّ عليه القَصْرُ مِن كونِهم ليسوا على شيءٍ من الحقِّ؛ فكيف يَزعُمون أنَّهم على الحقِّ(٤)؟!

- وجُملةُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ استئنافٌ للتَّهديدِ بالوَعيدِ(٥).

* * *

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٦٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٣٧-٤٠)

﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿تَأْوِيلُهُ﴾: أي: عاقِبتُه، وما يَؤُولُ إليه، ووقوعُ ما أخبَر به، وأصلُ (أول) هنا: يدُلُّ على انتِهاءِ الأمرِ(١).

﴿عَاقِبَةُ﴾: عاقبةُ كلِّ شيءٍ: آخرُه، أو: ما يُؤدِّي إليه السببُ المتقدِّمُ، والعاقبةُ تختصُّ بالثوابِ إذا أُطْلِقتْ، وقد تُستعمَلُ في العقوبةِ إذا أُضيفَتْ، وأصلُ (عقب): تأخيرُ شيءٍ، وإتيانُه بعدَ غيرِه(٢).

مُشكِلُ الإعرابِ:

قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾

﴿أَنْ يُفْتَرَى﴾: مَصدرٌ مُؤوَّلٌ في محَلِّ نَصبٍ، خَبرُ كان، أي: وما كان هذا القُرآنُ افتِراءً، والمَصدرُ هنا بمعنى المَفعولِ، أي: مُفتَرًى. ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ﴾:

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٩).

﴿تصديقَ﴾ منصوبٌ، خبَرُ (كان) المحذوفةِ هي واسمُها، والتقديرُ: ولكِنْ كان تَصديقَ، أو منصوبٌ على أنَّه مفعولٌ مِن أجلِه لفِعلٍ مقدَّرٍ، أي: وما كان هذا القرآنُ أن يُفتَرَى، ولكن أُنزِلَ للتَّصديقِ، والجُملةُ معطوفةٌ بـ (الواو) على ما قَبْلَها[1].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُبَيِّنُ تعالى أنَّه لا يُمكِنُ أن يكونَ هذا القرآنُ مَكذوبًا، يأتي به أحَدٌ غيرُ اللهِ تعالى، ولكِنْ أنزَلَه اللهُ مُصَدِّقًا للكتُبِ السَّابقةِ المُنَزَّلةِ على أنبيائِه، وتِبيانًا لِمَا كتَبَه اللهُ على هذه الأمَّةِ مِن الفرائضِ والأحكامِ، والعقائدِ والأخبارِ، لا شَكَّ في أنَّه مِن رَبِّ العالَمينَ.

أم يقولُ المُشرِكونَ: اختلقَ مُحمَّدٌ القُرآنَ، فأمرَ اللهُ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يقولَ لهم: إنْ كنتُ قد افتَرَيتُه- كما تزعمونَ- فأْتوا بسُورةٍ واحدةٍ مِثلِ القُرآنِ؛ فأنتم عَرَبٌ مِثلي، وادعُوا مَن قَدَرتُم أن تَدْعُوه؛ لِيُعينَكم على المجيءِ بسُورةٍ مِثلِ سُوَرِ القرآنِ، إنْ كُنتُم صادقينَ في دعواكم أنِّي افتَرَيتُه.

بل كذَّبَ المُشرِكونَ بالقُرآنِ الذي لم يُحيطُوا بعِلمِ ما فيه، وقبل أن يقَعَ ما أخبَرَ اللهُ تعالى أنَّه آتيهم، مِن العُقوبةِ التي توعَّدَهم اللهُ بها على تكذيبِهم بالقُرآنِ، كذلك كذَّبَ الذينَ مِن قَبلِهم، فانظُرْ- يا مُحمَّدُ- كيف كانت نهايةُ المُكَذِّبينَ بآياتِ اللهِ مِن الأُمَمِ الماضيةِ.

ثمَّ بيَّنَ تعالى أنَّ مِن المُشرِكينَ مَن سيُؤمِنُ بالقُرآنِ، ويتوبُ مِن الكُفرِ، ومنهم من

---

[1] يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٣٤٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٦٧٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٢٠١-٢٠٢).
قال ابنُ هشام: (ما بعد (لكن) ليس معطوفًا بها؛ لدُخولِ الواو عليها، ولا بالواوِ؛ لأنَّه مُثبَتٌ وما قبلها منفيٌّ، ولا يُعطَفُ بالواو مُفرَدٌ على مُفرَدٍ إلَّا وهو شريكُه في النَّفيِ والإثباتِ، فإذا قُدِّرَ ما بعد الواوِ جُملةً صحَّ تَخالُفُهما، كما تقولُ: ما قام زيدٌ وقام عمرٌو). يُنظر: ((مغني اللبيب)) (ص: ٧٩٠).

لا يؤمِنُ به، وسيبقَى على كُفرِه حتى يموتَ، وربُّك- يا مُحمَّدُ- أعلَمُ بالمُفسِدينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَمَا كَانَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لما فرَغ سبحانَه مِن دلائلِ التوحيدِ وحُجَجِه؛ شرَع في تثبيتِ أمرِ النبوَّةِ(١).

وأيضًا لَمَّا تقدَّم قولُهم: ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ وكان مِن قَولِهم: (إنَّه افْتَراه)؛ قال تعالَى(٢):

﴿ وَمَا كَانَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾.

أي: ما يَنْبغي لهذا القرآنِ أن يختلِقَه أحدٌ مِن الخلقِ على الله، ولا يمكنُ أن يكونَ إلَّا مِن عندِ اللَّهِ(٣).

﴿وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾.

أي: ولكِنْ أنزَلَه الله مُصَدِّقًا للكتُبِ السَّابقةِ التي أنزَلَها على أنبيائِه(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨١، ١٨٢)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٩٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٢)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٩٩، ٢٠٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٠٩).
قال السَّعدي: (أنزَلَه ﴿تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ مِن كُتُبِ اللهِ السَّماويَّةِ، بأنْ وافقَها، وصَدَّقَها بما شَهِدَت به، وبشَّرَت بنزولِه، فوقع كما أخبَرَت). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٤). =

كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

أي: وتبيانًا لِما كتَبَه اللهُ على أُمَّةِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن الفرائِضِ والأحكامِ، والعقائِدِ والأخبارِ(١).

كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

وقال سبحانه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

أي: لا شكَّ في أنَّ القُرآنَ مِن عندِ اللهِ رَبِّ العالَمينَ(٢) وليس كلامَ غَيرِه(٣).

= وقال ابنُ عاشور: (﴿وَتَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ كونُه مُصَدِّقًا للكتُبِ السَّالفةِ، أي، مُبَيِّنًا للصادقِ منها، ومُميِّزًا له عمَّا زِيدَ فيها، وأسيءَ مِن تأويلِها، كما قال تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾... وأيضًا هو مُصَدَّقٌ (بفتح الدال) بشَهادةِ الكتُبِ السَّالفةِ فيما أخذَتْ مِن العَهدِ على أصحابِها أن يؤمِنوا بالرَّسولِ الذي يجيءُ مُصَدِّقًا وخاتَمًا، فالوصفُ بالمَصدرِ صالحٌ للأمرينِ؛ لأنَّ المَصدرَ يقتَضي فاعلًا ومفعولًا). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٦٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٢)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٤).

وممَّن اختار هذا المعنى: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ، وابنُ كثيرٍ، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة. وقيل: المرادُ أنَّ القُرآنَ مُبيِّنٌ لِما جاء في الكتُبِ السَّابقةِ. وممَّن اختار هذا المعنى: القرطبيُّ، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٦٩).

(٢) قال السعدي: (تنزيلٌ ﴿مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الذي ربَّى جميعَ الخَلقِ بنِعَمِه، ومِن أعظَمِ أنواعِ تَربيتِه أنْ أنزَلَ عليهم هذا الكتابَ الذي فيه مصالِحُهم الدينيَّةُ والدُّنيويَّةُ، المُشتَمِلَ على مكارِمِ الأخلاقِ ومحاسِنِ الأعمالِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٢)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢].

وقال سُبحانه: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [السجدة: ٢].

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٣٨) ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا نفى اللهُ تعالى أن يكونَ القُرآنُ مُفترًى، بل جاء مُصَدِّقًا لِما بين يَدَيه من الكُتُبِ، وبيانًا لِما فيها؛ ذكَرَ هنا أعظَمَ دَليلٍ على أنَّه مِن عندِ الله، وأقام البرهانَ القاطعَ على ذلك، وهو الإعجازُ الذي اشتمَلَ عليه، فتحدَّى جميعَ الخلقِ بسورةٍ واحدةٍ مثلِه، فأبطلَ بذلك دعواهم افتراءَه(١).

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾.

أي: أم(٢) يقولُ المُشرِكونَ المُكَذِّبونَ: اختلَقَ مُحمَّدٌ القُرآنَ مِن نَفسِه، وكَذَبَ على اللهِ(٣)؟!

﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ ﴾.

أي: قُلْ- يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: إنْ كنتُ قد افترَيتُ هذا القُرآنَ- كما

= كثير)) (٤/ ٢٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٦٩).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٥٦).

(٢) اختُلِف في المرادِ بـ (أم) فقِيل: هي المتضمنةُ معنَى (بل)، والهمزةِ، أي: بل أيقولونَ. وقيل: (أم) هذه بمنزلةِ همزةِ الاستفهامِ، وقيل: (أم) هي المعادلةُ للهمزةِ، وحُذِفت الجملةُ قبلَها، والتقديرُ: أيُقِرُّون به أم يقولون: افتراه. وقِيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٢)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٢١)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٤).

تَزعُمونَ- فأنتم عرَبٌ مِثلي، فأْتوا بسُورةٍ واحدةٍ مِن جنسِ القُرآنِ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤].

﴿وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

أي: وادعُوا- أيُّها المُشرِكونَ- مَن قَدَرتُم أن تَدْعُوه مِن شُرَكائِكم وأوليائِكم؛ لِيُعينوكم على المجيءِ بسُورةٍ واحدةٍ مِثلِ سُوَرِ القُرآنِ، إن كُنتُم صادِقينَ في زَعمِكم أنِّي افتريتُ القُرآنَ(٢).

كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى مجموعَ الدَّلائِلِ التي في إثباتِ أنَّ القُرآنَ مُعجزٌ، ذكَرَ السَّبَبَ الذي لأجْلِه كذَّبُوا القُرآنَ(٣).

وأيضًا لَمَّا أقام اللهُ تعالى الدَّليلَ على أنَّ القُرآنَ كلامُه، وكان الدَّليلُ إنَّما مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٢، ١٨٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٤).

قال ابنُ عطيةَ: (الضَّميرُ عائِدٌ على القُرآنِ المتَقَدِّمِ الذِّكرِ، كأنَّه قال: فأْتُوا بسورةٍ مِثلِ القُرآنِ، أي: في معانيه وألفاظِه). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٣، ١٨٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٥٥).

شَأنِه أن يُقامَ على مَن عَرَض له غَلَطٌ أو شُبهةٌ، وكان قَولُ الكافرينَ ﴿افْتَرَاهُ﴾ لا عن شُبهةٍ، وإنَّما هو مجَرَّدُ عِنادٍ- نبَّه سُبحانه على ذلك، وعلى أنَّه إنَّما أقام الدَّليلَ لإظهارِ عِنادِهم، لا لأنَّ عِندَهم شُبهةً في كونِه حَقًّا، بالإضرابِ عَن قَولِهم(١)، فقال تعالى:

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾.

أي: بل كذَّب المُشرِكونَ بالقُرآنِ الذي لم يُحيطوا بعِلمِ ما فيه مِنَ الحَقِّ، ولم يَفهَموه(٢).

كما قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٨٤].

وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف: ١١].

﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾.

أي: ولَمْ يأتِهم بعدُ حَقيقةُ ما وُعِدوا في الكِتابِ، بما يَؤُولُ إليه أمْرُهم مِن العُقوبةِ، ونزولِ العذابِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٠٢، ٢٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٢٨٢، ٢٨٣، ٣١٣) و (١٧/ ٣٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٧٢، ١٧٣).

قال القرطبي: (قولُه: ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ أي: ولم يأتِهم حقيقةُ عاقبةِ التَّكذيبِ مِن نُزولِ العذابِ بهم. أو كذَّبوا بما في القُرآنِ مِن ذِكرِ البَعثِ والجنَّةِ والنَّارِ، ولم يأتِهم تأويله، أي: حقيقةُ ما وُعِدوا في الكتابِ. قاله الضحَّاكُ). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤٥).

قال ابنُ عاشورٍ: (والتَّأويلُ الَّذي في هذه الآيةِ يَحْتَمِلُ المعنيينِ ولعلَّ كِلَيْهما مرادٌ، أي لَمَا يأتِهم تأويلُ مَا يدَّعونَ أنَّهم لم يفهموه مِن معاني القرآنِ؛ لعدمِ اعتيادِهم بمعرفةِ أمثالِها، مثلَ حكمةِ =

كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٣].

﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

أي: كما كذَّب المُشركونَ بالحَقِّ، كذلك كذَّبَ المُشركونَ مِن الأُمَم الماضيةِ بالحَقِّ الذي جاءَهم مِن اللهِ تعالى⁽¹⁾.

كما قال تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ * ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [فاطر: ٢٥- ٢٦].

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أي: فانظُرْ- يا مُحمَّدُ- كيف كانت نهايةُ المكذِّبينَ بآياتِ اللهِ مِن الأُمَم الماضيةِ؛ أهلَكْناهم، وسنُهلِكُ كذلك الظَّالِمينَ المكَذِّبينَ مِن هذه الأمَّةِ، فلا تحسبَنَّهم يُفلِتونَ منَّا⁽²⁾.

= التَّشريعِ، ووقوعِ البعثِ، وتفضيلِ ضعفاءِ المؤمنينَ على صناديدِ الكافرينَ، وتنزيلِ القرآنِ مُنَجَّمًا، ونحوِ ذلك. فهم كانوا يعتبرونَ الأمورَ بما ألِفوه في المحسوساتِ، وكانوا يقيسون الغائِبَ على الشَّاهِدِ، فكذَّبوا بذلك وأمثالِه قبلَ أن يأتِيَهم تأويلُه. ولو آمنوا ولازموا النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم لعَلِموها واحدةً بعدَ واحدةٍ. وأيضًا لَمَّا يَأْتِهم تأويلُ ما حَسِبُوا عدمَ التَّعجيلِ به دليلًا على الكذبِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٧٢، ١٧٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٧٣، ١٧٤).
ومِمن صرَّح بأنَّ الخطابَ للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ابنُ جريرٍ وابنُ عاشورٍ.
قال الخازن: (وقيل: يحتمِلُ أن يكونَ الخِطابُ لكُلِّ فَردٍ مِن النَّاسِ، والمعنى: فانظُرْ- أيُّها الإنسانُ- كيف كان عاقِبةُ مَن ظلَمَ، فاحذَرْ أن تفعَلَ مِثلَ فِعلِه). ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٤٤).

كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ [محمد: ١٠].

وقال سُبحانه: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ * ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ * كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ١٦ - ١٩].

﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ( )﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ الله تعالى تكذيبَ مُشرِكي قُريشٍ، كان ذلك ربَّما أيأسَ مِن إذعانِهم وتَصديقِهم، وآذَنَ باستئصالِهم لتَكمُلَ المُشابهةُ للأوَّلينَ، وكان صلَّى اللهُ عليه وسلَّم شديدَ الشَّفَقةِ عليهم، والحِرصِ على إيمانِهم، فأتبَعَه تعالى بقَولِه هذا؛ بيانًا لأنَّ عِلمَه بانقسامِهم أوجَبَ عدَمَ استئصالِهم⁽¹⁾.

وأيضًا لَمَّا بيَّنَ تعالى في الآياتِ السَّابقةِ حالَ مُشركي قُرَيشٍ في اتِّهامِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بافتراءِ القُرآنِ، وبتكذيبِهم بوَعيدِه لهم؛ بيَّنَ في هاتينِ الآيتينِ أقسامَ هؤلاءِ القَومِ في تكذيبِهم ومُستقبَلِ أمْرِهم، أو حالِهم ومُستقبَلِهم في الإيمانِ، وفي عَمَلِ المكَذِّبينَ بمُقتَضى تكذيبِهم، وعَمَلِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بمُقتَضى رسالتِه إلى أنْ يأتيَ أمرُ اللهِ فيهم⁽²⁾.

﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾.

أي: ومِنَ المُشرِكينَ مَن سَيُؤمِنُ بالقُرآنِ، ويتوبُ مِن الكُفرِ، ومِنهم من لا يُؤمِنُ بالقُرآنِ أبدًا، ويستمِرُّ على كُفرِه حتى يموتَ⁽³⁾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٠٤)، ((تفسبر أبي حيان)) (٦/ ٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٠). =

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾.

أي: وربُّك- يا مُحمَّدُ- أعلَمُ بالمكذِّبينَ، ومَن يبقَى منهم مُصِرًّا على الكُفرِ، فيُجازيهم بأعمالِهم(١).

كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ [آل عمران: ٦٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قَولُ اللهِ تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ في هذا دليلٌ على التثبُّتِ في الأمورِ، وأنَّه لا ينبغي للإنسانِ أن يُبادِرَ بقَبولِ شَيءٍ أو رَدِّه، قبل أن يحيطَ به عِلمًا(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: ما كان لِأنْ يُفتَرى، يقولُ: ما كان لِيُفعَلَ هذا، فلم ينفِ مُجَرَّدَ فِعلِه، بل نفى احتمالَ فِعلِه، وأخبَرَ بأنَّ مِثلَ هذا لا يقَعُ، بل يمتَنِعُ وقوعُه، فيكونُ المعنى: ما يُمكِنُ، ولا يحتَملُ، ولا يجوزُ أن يُفتَرَى هذا القُرآنُ مِن دُونِ الله؛ فإنَّ الذي يفتَريه مِن دونِ اللهِ مَخلوقٌ، والمخلوقُ لا يقدِرُ على ذلك(٣).

= وممن قال بهذا القول المذكور: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ، وأبو حيانَ، وابنُ كثيرٍ. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل المراد: ومِنَ المُشرِكينَ مَن يُصدِّقُ بأنَّ القُرآنَ حَقٌّ، ولكِنَّه يجحَدُ به عنادًا واستكبارًا، ومِنَ المُشرِكينَ مَن لا يُصدِّقُ بالقُرآنِ أصلًا، وممن اختار هذا القول: النَّحاسُ، والشوكانيُّ، والقاسميُّ، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للنحاس (٣/ ٢٩٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٠٨)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٧٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٤)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٤).

(٣) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٥/ ٤٢٥).

٢- قال الله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ ففرَّقَ بين الإحاطةِ بعلمِه وبين إتيانِ تأويلِه، فتبيَّنَ أنَّه يُمكِنُ أن يُحيطَ أهلُ العِلمِ والإيمانِ بعلمِه، ولَمَّا يأتِهم تأويلُه، وأنَّ الإحاطةَ بعِلمِ القُرآنِ ليست إتيانَ تأويلِه؛ فإنَّ الإحاطةَ بعِلمِه معرفةُ معاني الكلامِ على التَّمامِ، وإتيانَ التَّأويلِ نَفسُ وُقوعِ المُخبَرِ به⁽¹⁾.

٣- في قَولِه تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ ذمٌّ لِمَن كذَّبَ بما لم يُحِطْ بعِلْمِه، فما قاله النَّاسُ من الأقوالِ المُختَلِفةِ في تفسيرِ القُرآنِ وتأويلِه، ليس لأحدٍ أنْ يُصَدِّقَ بقَولٍ دونَ قولٍ بلا عِلمٍ، ولا يُكذِّبَ بشيءٍ منها إلَّا أنْ يحيطَ بعِلمِه، وهذا لا يُمكِنُ إلَّا إذا عَرفَ الحقَّ الذي أُريدَ بالآيةِ، فيَعلَم أنَّ ما سواه باطلٌ، فيُكذِّب بالباطِلِ الذي أحاط بعلمِه، وأمَّا إذا لم يعرِفْ مَعناها، ولم يُحِطْ بشَيءٍ منها عِلمًا؛ فلا يجوزُ له التكذيبُ بشَيءٍ منها⁽²⁾.

٤- في قَولِه تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ مَن جَهِلَ شيئًا عاداه⁽³⁾.

٥- قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ﴾ فيه تفريقُ كَلِمةِ الكُفَّارِ، وأنَّهم لَيسُوا مُستَوينَ في اعتقاداتِهم، بل هم مُضطَرِبونَ، وإن شَمِلَهم التَّكذيبُ والكُفرُ⁽⁴⁾، وذلك على أحد وجهَي تأويلِ الآيةِ.

٦- في قَولِه تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ إخبارٌ أنَّ مَن قَبْلَ المكذِّبينَ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٤٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٦٢).

أصلٌ يُعتبَرُ به، والفرعُ نفوسُهم، فإذا ساوَوهم في المَعنى ساوَوهم في العاقِبةِ[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى﴾ يفيدُ المبالغةَ في نفْيِ أن يكونَ القرآنُ مُفتَرًى مِن غيرِ اللهِ، أي: مَنسوبًا إلى اللهِ كَذبًا وهو آتٍ مِن غيرِه، فإنَّ قولَه: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى﴾ أبلَغُ مِن أن يُقالَ: (ما هو بِمُفترًى)؛ لما يَدُلُّ عليه فِعلُ الكَونِ مِن الوجودِ، أي: ما وُجِدَ أن يُفتَرى، أي: وجودُه مُنافٍ لافترائِه؛ فدَلالةُ ذاتِه كافيةٌ في أنَّه غيرُ مفترًى[2].

- قولُه: ﴿هذا الْقُرْآنُ﴾ الإشارةُ بـ﴿هَذَا﴾ فيها تفخيمُ المشارِ إليه وتَعظيمُه، وكونُه جامِعًا للأوصافِ الَّتي يَستحيلُ وُجودُها فيه أن يَكونَ مُفترًى[3].

- قولُه: ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ﴾، لَمَّا نَفى عن القرآنِ الافتراءَ أخبَر عنه بأنَّه تصديقٌ وتفصيلٌ، فجَرَت أخبارُه كلُّها بالمصدَرِ؛ تَنْويهًا ببلوغِه الغايةَ في هذه المعاني حتَّى اتَّحد بأجناسِها[4].

٢- قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

- قولُه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾، (أم) للإضرابِ الانتقاليِّ مِن النَّفيِ في ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى﴾ إلى الاستفهامِ الإنكاريِّ التَّعجُّبيِّ، وهو ارتقاءٌ

---

[1] يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٠٧).

[2] يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٦٨).

[3] يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٧).

[4] يُنظر: . ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٦٩).

بإبطالِ دَعْواهم أن يَكونَ القُرآنُ مُفتَرًى مِن دونِ اللهِ، والاستفهامُ مقدَّرٌ، والمعنى: بل أَيَقولون: افْتَراه بعدَما تبيَّن لهم مِن الدَّلائلِ على صِدْقِه وبَراءتِه مِن الافتراءِ، وهذا الاستفهامُ تقريرٌ لإلزامِ الحُجَّةِ عليهم، أو إنكارٌ لقولِهم واستِبْعادٌ(١)، وهذا على أحدِ أوجهِ تأويلِ (أم).

– ومِن بَديعِ الأسلوبِ وبَليغِ الكلامِ: أنْ قَدَّمَ وصْفَ القرآنِ بما يَقْتَضي بُعْدَه عن الافتراءِ في قولِه: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى﴾ وبما فيه مِن أجَلِّ صِفاتِ الكتُبِ، وبتَشريفِ نِسْبتِه إلى اللهِ تعالى، ثمَّ أعقَب ذلك بالاستِفْهامِ في قولِه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ عن دَعْوى المشركين افتراءً؛ لِيَتلقَّى السَّامعُ هذه الدَّعوى بمَزيدِ الاشمئزازِ والتَّعجُّبِ مِن حَماقةِ أصحابِها؛ فلذلك جُعِلَت دَعْواهم افتِراءَه في حيِّزِ الاستفهامِ الإنكاريِّ التَّعجُّبيِّ(٢).

٣- قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾

– قولُه: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ (بل) إضرابٌ انتقاليٌّ لبيانِ كُنْهِ تَكْذيبِهم، وأنَّ حالَهم في المبادَرةِ بالتَّكذيبِ قبْلَ التَّأمُّلِ أعجَبُ مِن أصلِ التَّكذيبِ؛ إذ إنَّهم بادَروا إلى تَكْذيبِه دونَ نظَرٍ في أدلَّةِ صِحَّتِه التي أشار إليها قولُه: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾(٣).

– وعبَّر بقولِه: ﴿بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ دونَ أن يُقالَ: (بل كذَّبوا به مِن غيرِ أن يُحيطوا بعِلمِه)، أو نحوُ ذلك؛ للإيذانِ بكمالِ جَهلِهم به، وأنَّهم لم يَعلَموه

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٤٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ١٧١).

إلَّا بعُنوانِ عدمِ العلمِ به، وبأنَّ تكذيبَهم به إنَّما هو بسبَبِ عدمِ عِلْمِهم به؛ لأنَّ إدارةَ الحكمِ على الموصولِ (ما) مُشعِرةٌ بعِلِّيَّةِ مَا في حيِّزِ الصِّلةِ له⁽¹⁾.

– وفيه نفيُ إتيانِ التَّأويلِ بكلمةِ (لَمَّا) الدَّالَّةِ على التَّوقُّعِ بعدَ نفيِ الإحاطةِ بعِلمِه بكلمةِ (لم)؛ لتَأكيدِ الذَّمِّ، وتَشديدِ التَّشنيعِ؛ فإنَّ الشَّناعةَ في تكذيبِ الشَّيءِ قبْلَ عِلمِه المتوقَّعِ إتيانُه، أفحَشُ منها في تَكذيبِه قبلَ علمِه مُطلقًا⁽²⁾.

– قولُه: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ التَّكذيبَ عادةُ المعانِدين الكافرين؛ ليَعلَمَ المشرِكون أنَّهم مُماثِلون للأُممِ الَّتي كذَّبَت الرُّسلَ فيَعتبِروا بذلك، وتعريضٌ بالنِّذارةِ لهم بحُلولِ العذابِ بهم، كما حلَّ بأولئك الأممِ الَّتي عرَفَ السَّامِعونَ مَصيرَها وشاهَدوا دِيارَها، وتسليةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّه ما لَقِي مِن قومِه إلَّا مِثلَ ما لَقِي الرُّسلُ السَّابقون مِن أقوامِهم⁽³⁾.

– قولُه: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ فيه وضعُ المُظهَرِ ﴿عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ موضِعَ المُضمَرِ (عاقِبتُهم)؛ للإيذانِ بكونِ التَّكذيبِ ظُلمًا، أو بعِلِّيَّتِه لإصابةِ ما أصابهم مِن سوءِ العاقبةِ، وبدُخولِ هؤلاء الظَّالِمين في زُمرَتِهم جُرمًا ووَعيدًا دُخولًا أوَّليًّا⁽⁴⁾.

٤- قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾

– قولُه: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ﴾، في اختيارِ صيغةِ المُضارِعِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤ / ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ١٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٤٧).

﴿يُؤْمِنُ﴾ دلالةٌ على استمرارِ الإيمانِ به مِن بَعضِهم معَ المعانَدةِ، واستمرارِ عدمِ الإيمانِ به مِن بعضِهم أيضًا[1]، وذلك على أحدِ وجهي تأويلِ الآيةِ.

- وجملةُ: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ مُعترِضةٌ في آخِرِ الكلامِ، وهي تعريضٌ بالوعيدِ والإنذارِ[2]، وفي تعلُّقِ العلمِ بالمفسِدين وَحْدَهم: تهديدٌ عظيمٌ لهم[3].

---

[1] يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٧٥).

[2] يُنظر: ((المصدر السابق)).

[3] يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٦٢).

الآيات (٤١-٤٤)

﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

المَعنَى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى لنبيِّه مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: وإن كذَّبَك المُشرِكونَ، ولم يُؤمِنوا بما جِئتَهم به من الحَقِّ، فقل لهم: لي عَمَلي ولكم عمَلُكم، لا تُؤاخَذونَ بما أعمَلُ، ولا أُؤاخَذُ بما تَعمَلونه.

ويخبرُ نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّ مِن الكُفَّارِ مَن يستَمِعُ إلى تلاوتِك- يا مُحمَّدُ- للقُرآنِ، وإلى حديثِك، وقلوبُهم غافلةٌ لا ينتَفِعونَ بما سَمِعوه من ذلك، أفأنت تستطيعُ أن تُسمِعَ الصُّمَّ، خصوصًا إذا كانوا لا عَقلَ لهم، وأنَّ منهم من ينظُرُ إليك- يا مُحمَّدُ- أفأنت تُرشِدُ العُميَ، ولو كانوا مع ذلك بدونِ بَصيرةٍ.

إنَّ اللهَ لا يَظلِمُ أحدًا من النَّاسِ شَيئًا، ولكنَّ النَّاسَ هم الذين يَظلِمونَ أنفُسَهم بكُفرِهم ومَعاصيهم، فيَستَحِقُّونَ عِقابَه عَزَّ وجلَّ، ولا يضرُّونَه شيئًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ ﴾.

﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ﴾.

أي: وإنْ كذَّبَك- يا مُحمَّدُ- المُشرِكونَ، ولم يُؤمِنوا بما جِئتَهم به من الحَقِّ، فقل

لهم: لي عمَلي الذي سيُجازيني اللهُ به، ولكم عَمَلُكم الذي سيُجازيكم اللهُ عليه(١).

كما قال سبحانه: ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٥].

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ [البقرة: ١٣٩].

﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾.

أي: وقُلْ- يا مُحمَّدُ- للمُشركينَ: لا تُؤاخَذونَ بجَريرةِ أعمالي، ولا أُؤاخَذُ بجَريرةِ أعمالِكم(٢).

كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١ - ٦].

وقال سُبحانه: ﴿قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٢٥].

﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يَعۡقِلُونَ ٤٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أنبأ اللهُ رَسولَه بأنَّ مِن قَومِه مَن لا يؤمِنُ بهذا القُرآنِ حالًا ولا استِقبالًا؛ إذ لا ينفَعُهم البيانُ مهما يكُنْ ناصِعًا، ولا ينفَعُهم البُرهانُ وإن كان قاطِعًا، وأنَّ الذي عليه في المُصِرِّينَ على تكذيبِه منهم بعدما جاءَهم به مِن الآياتِ التي دمَغَتْهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٠٨).

بالحُجَج البيِّناتِ، أن يتبَرَّأَ منهم، وينتظِرَ أمرَ اللهِ فيهم- كان مِن شأنِ هذا النَّبأِ أن يُثيرَ عَجَبَه؛ لِغَرابتِه في نفسِه، وأن يسوءَه؛ لِما يشيرُ إليه مِن انتقامِ الله منهم؛ بيَّنَ له مَثَلَ الذين فقَدوا الاستعدادَ للإيمانِ، وعَلَّمَه ما لم يكُن يَعلَمُه مِن سُنَّةِ الله تعالى فيهم، وكَونِ مُصيبتِهم من أنفسِهم، فلا حولَ له ولا قُوَّةَ على هدايتِهم⁽¹⁾.

وأيضًا لَمَّا سبَقَ تَقسيمُ المُشرِكينَ بالنِّسبةِ إلى اعتقادِهم في الأصنامِ إلى مَن يَتَّبِعُ الظَّنَّ، ومَن يُوقِنُ بأنَّ الأصنامَ لا شيءَ، وتقسيمُهم بالنِّسبةِ لتصديقِ القُرآنِ إلى قِسمَينِ: من يؤمِنُ بصِدقِه ومَن لا يؤمِنُ بصِدقِه؛ كمَّلَ في هذه الآيةِ تَقسيمَهم بالنِّسبةِ للتلقِّي مِن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى قِسمَينِ: قسمٌ يَحضُرونَ مَجلِسَه، ويستمعونَ إلى كلامِه، وقِسمٌ لا يحضُرونَ مَجلِسَه وإنَّما يتوسَّمونَه، وينظُرونَ سَمتَه، وفي كلا الحالينِ مَسلكٌ عَظيمٌ إلى الهُدى لو كانوا مهتدينَ⁽²⁾.

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾.

أي: ومِن الكُفَّارِ مَن يستَمِعُ إلى تلاوتِك للقرآنِ وحديثِك- يا مُحمَّدُ- وقلوبُهم غافلةٌ، لا ينتَفِعونَ بسَماعِهم ذلك⁽³⁾.

كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام: ٢٥].

وقال سُبحانه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٦)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٢٢)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٥).

﴿أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يَعۡقِلُونَ﴾.

أي: أفأنت- يا مُحمَّدُ- تستطيعُ أن تُسمِعَ الصُّمَّ، وخصوصًا إذا كانوا مع صَمَمِهم جُهَّالًا، لا عَقلَ لهم(١)؟! فكذلك لا تقدِرُ على جَعلِ الكُفَّارِ ينتفِعونَ بالسَّماعِ منك(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢١ - ٢٣].

وقال سُبحانه: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ [النمل: ٨٠].

﴿وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أخبَرَ اللهُ تعالى أنَّ طَريقًا عظيمًا من طُرُقِ العِلمِ قد انسَدَّ على المُشرِكينَ،

---

(١) قال أبو حيانَ: (حَريٌّ بمن عَدِمَ السَّمعَ والعَقلَ ألَّا يكونَ له إدراكٌ لشيءٍ البتَّةَ، بخلاف أنْ لو كان الأصَمُّ عاقلًا؛ فإنَّه بِعَقلِه يهتدي إلى أشياءَ). ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٦٣).
وقال ابنُ عاشورٍ: (أي: ولو انضَمَّ إلى صمَمِهم عدَمُ عُقولِهم؛ فإنَّ الأصَمَّ العاقِلَ ربَّما تفَرَّسَ في مُخاطِبِه، واستدَلَّ بملامِحِه). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٧٩). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٢٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٩٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٦)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٥).

وهو طريقُ المَسموعاتِ المُتعَلِّقةِ بالخَيرِ، ذكَرَ انسدادَ الطَّريقِ الثَّاني، وهو: طريقُ النَّظَرِ، فقال تعالى[١]:

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ﴾.

أي: ومِن الكُفَّارِ مَن ينظُرُ إليك- يا مُحمَّدُ- ولا ينتَفِعونَ بذلك النَّظَرِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا * إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤١- ٤٢].

﴿أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُواْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾.

أي: أفأنتَ- يا مُحمَّدُ- تستطيعُ أن تُرشِدَ العُمْيَ الذين لا بَصرَ لهم ينتَفِعونَ به، وخصوصًا إذا انضَمَّ إلى ذلك فقدُ البَصيرةِ[٣]؟! فكذلك لا تَقدِرُ على هدايةِ

---

[١] يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٦٥).

[٢] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٠، ٢٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٥).

قال ابن كثير: (أي: ينظُرونَ إليك، وإلى ما أعطاك اللهُ؛ مِن التُّؤَدةِ، والسَّمتِ الحَسَنِ، والخُلُقِ العَظيمِ، والدَّلالةِ الظَّاهرةِ على نُبُوَّتِك لأولي البصائِرِ والنُّهَى، وهؤلاءِ يَنظُرونَ كما يَنظُرُ غيرُهم، ولا يحصُلُ لهم من الهدايةِ شَيءٌ ممَّا يحصُلُ لِغَيرِهم). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٠-٢٧١).

[٣] يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٦٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٤٩)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٢٨)، ((تفسير المنار)) (١١/ ٣١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٧٩).

قال الزمخشري: (أتحسَبُ أنَّك تقدِرُ على هدايةِ العُمي، ولو انضَمَّ إلى العمَى- وهو فَقدُ البَصَرِ- فقدُ البصيرةِ؛ لأنَّ الأعمى الذي له في قَلبِه بصيرةٌ، قد يَحدِسُ ويتظَنَّنُ، وأمَّا العَمى مع الحُمقِ، فجَهدُ البَلاءِ). ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٤٩).

وقال ابنُ عاشور: (وأما معنى: لا يُبصِرونَ، فإنَّهم لا بصيرةَ لهم يتبصَّرونَ بها. وهو الذي فسَّرَ به «الكشَّاف» وهو الوجهُ؛ إذ بدونِه يكون معنى: لا يُبصِرونَ مُساويًا لمعنى العَمَى، فلا تقَعُ المبالغةُ بـ (لو) الوصليَّةِ مَوقِعَها، إذ يصيرُ: أفأنت تهدي العُميَ ولو كانوا عُميًا. ومقتضى كلام «الكشَّاف» أنه يقال: أبصَرَ: إذا استعمَلَ بصيرتَه، وهي التفكيرُ والاعتبارُ بحقائقِ الأشياءِ، =

الكُفَّارِ الذين عَمِيَت قلوبُهم عن رؤيةِ الحَقِّ⁽¹⁾.

كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وقال سُبحانه: ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ﴾ [النمل: ٨١].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ۝٤٤ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ الله تعالى في الآيتَينِ السَّابقَتينِ فَريقَينِ، ووصَفَهما بالشِّقْوةِ؛ يَنظُرونَ ويَسمَعونَ، ولا يَعقِلونَ ولا يُؤمِنونَ؛ وذلك للقَضاءِ السَّابقِ عليهم- أخبَرَ اللهُ في هذه الآيةِ أنَّ تَقديرَ الشِّقْوةِ عليهم ما كان ظُلمًا منه؛ وذلك لكمالِ عدلِه؛ حيثُ يضعُ الأمورَ في مواضعِها، ويوقعُها في مواقعِها عن علمٍ بمن يستحقُّ الهدَى أو الضلالةَ والعمَى، وإذا كَسَبوا المعاصيَ فقد ظَلَموا أنفُسَهم؛ لأنَّ الفِعلَ منسوبٌ إليهم، وإن كان القضاءُ لله تعالى⁽²⁾.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا ﴾.

أي: إنَّ اللهَ لا يفعلُ بخلقِه ما لا يستحقُّون منه؛ فلا يسلبُ أحدًا الإيمانَ، ولا يصرفُه عن الهدَى إلَّا إذا استحقَّ ذلك؛ لكمالِ علمِه سبحانَه وحكمتِه وعدلِه، وأيضًا فهو لا يعُاقِبُ مَن لم يستوجِبِ العقابَ، ولا يزيدُ في سَيِّئاتِ المُسيئينَ،

= وكلام «الأساس» يحومُ حَولَه، وأيًّا ما كان فالمرادُ بقولِه: لا يُبصِرونَ، معنى التأمُّلِ، أي: ولو انضَمَّ إلى عمَى العُمْيِ عدَمُ التَّفكيرِ، كما هو حال هؤلاء الذين ينظُرونَ إليك). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٧٩).

(1) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٦)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤٦).

(2) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٠٩).

ولا يَنقُصُ مِن حَسَناتِ المُحسِنينَ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

وعن أبي ذرٍّ رَضِيَ الله عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما روى عن اللهِ تبارك وتعالى، أنَّه قال: ((يا عبادِي، إنِّي حرَّمتُ الظُّلمَ على نَفسِي، وجَعَلتُه بينكم مُحرَّمًا، فلا تَظَالَموا))(٢).

﴿وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

أي: ولكنَّ النَّاسَ هم الذينَ يَظلِمونَ أنفُسَهم، ويضُرُّونَها بكُفرِهم باللهِ ومَعصيتِه، فيستَحِقُّونَ عقابَه، ولا يضرُّونَ اللهَ شَيئًا(٣).

كما قال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الإيمانَ والتوفيقَ به تعالى لا بِغَيرِه، وفي ذلك تسليةٌ مِن اللهِ عَزَّ وجَلَّ لنبيِّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ(٤).

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٨٠).

(٢) رواه مسلم (٢٥٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٧)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٠/ ٣٣٨).

لَا يَعْقِلُونَ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾ المرادُ مِن الآيتَين: أنَّ هدايةَ الدِّين كهدايةِ الحِسِّ، ولا تكونُ إلَّا للمُستعدِّ لها بهدايةِ العَقلِ، وأنَّ هدايةَ العَقلِ لا تحصُلُ إلَّا بتوجُّهِ النَّفسِ، وصِحَّةِ القَصدِ. وهذا الصِّنفُ مِن الكُفَّارِ قد انصَرَفت أنفُسُهم عن استعمالِ عُقولِهم في الدَّلائلِ البَصَريَّةِ والسَّمعيةِ؛ لإدراكِ مَطلَبٍ مِن المطالِبِ ممَّا وراءَ شهواتِهم وتقاليدِهم، وليس المرادُ أنهم فقَدوا نعمةَ العَقلِ الغَريزيِّ، ولا نعمةَ الحواسِّ، بل استعمالَها النَّافعَ⁽¹⁾.

الفَوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فيه أنَّ اللهَ لا يؤاخِذُ أحدًا مِن النَّاسِ بعَمَلِ الآخَرِ⁽²⁾.

٢- النَّظَرُ إلى حالةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهديِه وأخلاقِه، وأعمالِه وما يدعو إليه؛ مِن أعظَمِ الأدلَّةِ على صِدقِه وصِحَّةِ ما جاء به، ويكفي البَصيرَ عَن غيرِه من الأدلَّةِ؛ يُبيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾⁽³⁾.

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾ إيئاسُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم من إسماعِ هؤلاء الصُّمِّ، وهدايةِ هؤلاء العُمي، وقفَّى على ذلك بقَولِه تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ فأمثالُ هذه الآياتِ تَحثُو التُّرابَ في فِي مَن يزعُمُ أنَّ الآيةَ تدُلُّ على الجَبرِ، وعَدَمِ اختيارِ العبدِ في كُفرِه وإيمانِه⁽⁴⁾.

---

(1) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣١٥).

(2) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٣١٣).

(3) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٦٥).

(4) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٥٢٢).

٤- قولُه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ذِكْرُ هذا عَقِبَ ما تَقَدَّم مِن عدمِ الاهتداءِ بالأسماعِ والأبصارِ؛ لبيانِ أنَّ ذلك لم يَكُنْ لأجلِ نَقْصٍ فيما خَلَقَه اللَّهُ لهم مِن السَّمْعِ والعقلِ والبصرِ والبصيرةِ، بل لأجلِ ما صارَ في طبائِعِهم مِن التَّعَصُّبِ والمُكابرةِ للحقِّ، والمجادلةِ بالباطلِ، والإصرارِ على الكفرِ، فهم الَّذين ظَلموا أنفسَهم بذلك، ولم يَظْلِمْهم اللَّهُ شيئًا مِن الأشياءِ، بل خَلَقَهم، وجعلَ لهم مِنَ المشاعرِ ما يُدركونَ به أكملَ إدراكٍ، وركَّبَ فيهم مِن الحواسِّ ما يَصِلونَ به إلى ما يريدونَ، ووَفَّرَ مَصالحَهم الدُّنيويَّةَ عليهم، وخلَّى بينَهم وبينَ مصالِحِهم الدِّينيَّةِ، فعلَى نفسِها براقِشُ(١) تَجْني(٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١- **قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾**

- قولُه: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ فيه معنى الحصرِ بتَقْديمِ المعمولِ ﴿لِي﴾ ﴿وَلَكُمْ﴾، وبالتَّعبيرِ بالإضافةِ بـ﴿عَمَلِي﴾ و﴿عَمَلُكُمْ﴾(٣).

- وقولُه: ﴿أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بيانٌ لجملةِ: ﴿لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾؛ ولذلك فُصِلَت، أي: لم تُعطَفْ على الَّتي قبلَها(٤)، وهي أيضًا تأكيدٌ لِمَا أفادَته لامُ الاختصاصِ مِن عدَمِ تعدِّي جَزاءِ

---

(١) بَراقِشُ: اسمُ كَلبةٍ نَبَحَت جَيشًا كانوا قصَدُوا أهلَها، فخفيَ عليهم مكانُهم، فلمَّا نبَحَتْهم عَرَفوهم فعَطَفوا عليهم فاجتاحُوهم، فذهَبَت مثَلًا، ويُضرَبُ هذا المثلُ للرجُلِ يرجِعُ إصلاحُه بإفسادٍ، ويُوافيه الشَّرُّ مِن نَفْسِه. يُنظر: ((جمهرة الأمثال)) للعسكري (٢/ ٥٢)، ((لسان العرب)) لابن منظور (٦/ ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٧٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

العمَلِ إلى غيرِ عامِلِه(١).

- وقولُه: ﴿أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فيه العُدولُ عن الإتيانِ بالعملِ مَصدَرًا، كما أُتيَ به في قولِه: ﴿لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ إلى الإتيانِ به فِعْلًا صِلَةً لِـ(ما) الموصولةِ؛ للدَّلالةِ على البراءةِ مِن كلِّ عملٍ يَحدُثُ في الحالِ والاستقبالِ(٢).

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث بدَأ في المأمورِ بقولِه: ﴿لِي عَمَلِي﴾؛ لأنَّه آكَدُ في الانتفاءِ مِنهم، وبَدَأ في البراءةِ بقولِه: ﴿أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ﴾؛ لأنَّ هذه الجملةَ جاءت كالتَّوكيدِ والتَّتميمِ لِما قبْلَها؛ فناسَب أن تَلِيَ قولَه: ﴿وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾، ولِمُراعاةِ الفواصلِ؛ إذ لو تَقدَّم ذِكْرُ براءةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم كما تقدَّم ذِكْرُ ﴿لِي عَمَلِي﴾ لم تقَعِ الجملةُ فاصلةً؛ إذ كان يكونُ التَّركيبُ: (وأنتم بَريئون ممَّا أعملُ)(٣).

٢- قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ وقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾ جيءَ بالفعلِ المضارعِ ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ ﴿يَنْظُرُ﴾ دونَ اسمِ الفاعلِ (مُستمِعون- ناظِرٌ)؛ للدَّلالةِ على تكرُّرِ الاستماعِ والنَّظرِ(٤).

- قولُه: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾ جمَع الضَّميرَ الرَّاجِعَ إلى كلمةِ (مَنْ) مع الاستماعِ؛ رعايةً لجانبِ المعنى، وأفرَدَه

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤ / ١٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٧٧).

مع النَّظَرِ؛ مُحافَظةً على ظاهرِ اللَّفظِ، ولعلَّ ذلك للإيماءِ إلى كَثرةِ المستَمِعين بِناءً على عدمِ توقُّفِ الاستماعِ على ما يَتوقَّفُ عليه النَّظرُ مِن المقابلةِ، وانتفاءِ الحجابِ والظُّلمةِ⁽¹⁾، وقيل: لعلَّ اختلافَ الصِّيغتين للمُناسَبةِ مع مادَّةِ فِعْلَيْ (يَسْتَمِعُ) و(يَنْظُرُ)؛ ففِعلُ (يَنظُر) لا تُلائِمُه صيغةُ الجمعِ؛ لأنَّ حُروفَه أثقَلُ مِن حروفِ (يَستمِعُ)؛ فيكونُ العدولُ استِقْصاءً لِمُقتَضى الفصاحةِ⁽²⁾.

– قولُه: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ وقولُه: ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ﴾ استِفْهامان مُستعمَلان في التَّعجُّبِ مِن حالِهم؛ إذ يَستمِعون إلى دعوةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ولا يَعقِلونها، وإذ يَنظُرون أعمالَه وسيرتَه ولا يَهتَدون بها، فليس في هذين الاستِفْهامَين معنى الإنكارِ على مُحاولة النَّبيِّ إبلاغَهم وهدْيَهم؛ لأنَّ المقامَ يَنْبو عن ذلك⁽³⁾، وفي هذا مبالغةٌ عظيمةٌ في انتفاءِ قَبولِ ما يُلْقى إلى هؤلاء؛ إذ جمَعوا بين الصَّممِ وانتفاءِ العقلِ، وبين العمَى وفَقْدِ البصيرةِ⁽⁴⁾.

– وفي الاستِفْهامَين تقديمُ المسنَدِ إليه (أنتَ) على الخبَرِ الفِعْليِّ بقولِه: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ﴾ وقولِه: ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِي﴾ دون أن يُقالَ: (أتُسمِعُ الصُّمَّ) و(تَهْدي العُمْي)؛ فكان هذا الاستفهامُ التَّعجُّبيُّ فيهما مُؤكَّدًا مُقوًّى⁽⁵⁾.

– و(لو) في قولِه: ﴿وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ وقولِه: ﴿وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾ وَصْليَّةٌ دالَّةٌ على المبالغةِ في الأحوالِ، وهي الَّتي يكونُ الَّذي بعدَها أقصى ما يَعلَّقُ به الغَرَضُ⁽⁶⁾، وجوابُ (لو) في الجُملتَين محذوفٌ؛ لِدَلالةِ قولِه تعالى:

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٨٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ١٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٦٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٧٨).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

﴿تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ و﴿تَهْدِي الْعُمْيَ﴾ عليه، وكلٌّ منهما مَعطوفةٌ على جُملةٍ مقدَّرةٍ مقابِلةٍ لها في الفَحْوى، أي: أفأَنتَ تُسمِعُ الصُّمَّ لو كانوا يَعقِلون، ولو كانوا لا يَعقِلون، أفأنتَ تَهدي العُميَ لو كانوا يُبصِرون، ولو كانوا لا يُبصِرون؟! أي: على كلِّ حالٍ مفروضٍ، وقد حُذِفَت الأولى في البابِ حذفًا مُطَّرِدًا؛ لِدَلالةِ الثَّانيةِ عليها دلالةً واضحةً؛ فإنَّ الشَّيءَ إذا تحقَّق عند تحقُّقِ المانعِ، أو المانعِ القويِّ فلأَنْ يَتحقَّقَ عند عدَمِه، أو عند تحقُّقِ المانعِ الضَّعيفِ أولَى، وعلى هذه النُّكْتةِ يدورُ ما في (لو) و(أنْ) الوَصليَّتين مِن التَّأكيدِ(١).

٣- قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ تذييلٌ، وشَمِل عمومَ النَّاسِ المشركين الَّذين يَستمِعون ولا يَهْتَدون، ويَنظُرون ولا يَعتبِرون، والمقصودُ مِن هذا التَّذييلِ: التَّعريضُ بالوعيدِ بأنْ سيَنالُهم ما نال جَميعَ الَّذين ظلَموا أنفُسَهم بتكذيبِ رُسلِ اللهِ(٢).

- وقولُه: ﴿وَلَكِنَّ النَّاسَ...﴾ فيه وضْعُ الظَّاهرِ مَوضِعَ الضَّميرِ- إذ قال: ﴿وَلَكِنَّ النَّاسَ﴾ ولم يقُل: (ولكنَّهم)-؛ لزيادةِ تعيينٍ وتقريرٍ(٣)، ففيه إشارةٌ إلى أنَّ هذا الظُّلمَ خاصٌّ بهم دونَ سائرِ أنواعِ الحَيوانِ؛ فإنَّها لا تعدو في استعمالِ مَشاعِرِها وقُواها ما خُلِقَت لأجلِه مِن حِفظِ حياتِها الشَّخصيَّةِ والنَّوعيَّةِ، وأمَّا النَّاسُ فقد يستَعمِلونَها فيما يَضُرُّهم في حياتِهم الحيوانيَّةِ الدُّنيويَّةِ، وفي حياتِهم الرُّوحيَّةِ الأُخرويَّةِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٤٨- ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣١٦).

- وقولُه: ﴿أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ فيه تقديمُ المفعولِ ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ على عامِلِه ﴿يَظْلِمُونَ﴾؛ لإفادةِ تَغْليطِهم بأنَّهم ما جَنَوْا بكُفْرِهم إلَّا على أنفُسِهم، وما ظلَموا اللهَ ولا رُسلَه، فما أضَرُّوا بعمَلِهم إلَّا أنفُسَهم(١).

* * *

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٨٠).

الآيات (٤٥-٤٧)

﴿ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولٞۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمۡ قُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

المَعنى الإجماليُّ:

يَقولُ تعالى: ويومَ يَجمَعُ اللهُ الكافرينَ في موقِفِ الحِسابِ، كأنَّهم لم يمكُثوا في الدُّنيا إلَّا ساعةً مِن نهارٍ، يتعارَفُ النَّاسُ بينهم يومَ القيامةِ، كما كانوا يتعارَفونَ في الدُّنيا، قد خَسِرَ ثوابَ اللهِ وجَنَّتَه الذين كذَّبوا بلِقاءِ اللهِ، وما كانوا مُهتَدينَ.

وإمَّا نُرِكَ- يا مُحمَّدُ- عُقوبةَ الكُفَّارِ في حياتِك بأن نُعَجِّلَها لهم، أو نُمِتْك قبل أن نُرِيَك ذلك؛ فإلينا مَرجِعُهم ومَصيرُهم، ثمَّ اللهُ شاهِدٌ على ما كانوا يَفعَلونَه في الدُّنيا، وسيُجازيهم به.

ثمَّ يبيِّنُ تعالى أنَّ لكُلِّ أمَّةٍ رَسولًا مِن اللهِ، يدعوهم إلى الإيمانِ وعِبادةِ اللهِ وَحدَه، فإذا جاء الأمةَ رَسولُهم يومَ القيامةِ لِيَشهَدَ عليهم، حكَمَ اللهُ بينهم بالعَدلِ، وهو غيرُ ظالمٍ لهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا وصَفَ الكُفَّارَ بقِلَّةِ الإصغاءِ، وتَرْكِ التَّدبُّرِ؛ أتبَعَه بالوعيدِ لهم(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٥٩).

وأيضًا لَمَّا كان في سابقِ الآياتِ ما ذُكِرَ مِن أفانينِ جِدالِهم في أباطيلِهم وضَلالِهم، وكان فِعلُ ذلك- ممَّن لا يرى حَشرًا ولا جزاءً، ولا نعيمًا وراء نعيم هذه الدَّارِ- فِعلَ فارغِ السِّرِّ، مُستطيلٍ للزَّمانِ، آمِنٍ مِن نوازلِ الحَدَثانِ- حَسُنَ تَعقيبُه بأنَّهم يَرَونَ يومَ الحَشرِ مِن الأهوالِ ما يَستَقصِرونَ معه مُدَّةَ لُبثِهم في الدُّنيا، فقد خَسِروا إذَن دُنياهم بالنِّزاعِ، وآخِرتَهم بالعذابِ الذي لا يُستطاعُ، وليس له انقِطاعٌ(١).

وأيضًا لمَّا جاء فيما مضَى ذكرُ يومِ الحشرِ، إذ هو حينُ افتضاحِ ضلالِ المشركينَ ببراءةِ شركائِهم منهم- أتبعَ ذلك بالتقريعِ على عبادتِهم الأصنامَ، مع وضوحِ براهينِ الوحدانيةِ للهِ تعالى، وإذ كان القرآنُ قد أبلغهم ما كان يعصمُهم مِن ذلك الموقفِ الذَّليلِ لو اهْتَدَوا به، أُتْبِعَ ذلك بالتنويهِ بالقرآنِ، وإثباتِ أنَّه خارجٌ عن طوقِ البشرِ، وتسفيهِ الذين كذَّبوه، وتفنَّنوا في الإعراضِ عنه، واستوفَى الغرض حقَّه، عاد الكلامُ إلى ذِكرِ يومِ الحشرِ مرةً أُخرَى؛ إذ هو حينُ خيبةِ أولئك الذين كذَّبوا بالبعثِ، وهم الذين أشْرَكوا، وظهَر افتضاحُ شركِهم في يومِ الحشرِ، فكان مثلَ ردِّ العجزِ على الصدرِ(٢).

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ ﴾.

أي: ويومَ(٣) يَجمَعُ اللهُ الكافرينَ في موقِفِ الحِسابِ، فيَستقِلُّون حِينذاك مُدَّةَ مُكثِهم في الدُّنيا، كأنَّهم لم يَعيشوا فيها إلَّا ساعةً مِن نَهارٍ(٤)!

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٨١).

(٣) قال ابنُ عطيةَ: (﴿وَيَوْمَ﴾ ظرفٌ، ونصبُه يصحُّ بفعلٍ مضمَرٍ، تقديرُه: «واذكرْ يومَ»، ويصحُّ أن ينتصبَ بالفعلِ الذي يتضمَّنُه قولُه: ﴿كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ﴾، ويصحُّ نصبُه بـ ﴿يَتَعَارَفُونَ﴾). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٢، ١٢٣)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ * قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٢-١١٤].

وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا * يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه: ١٠٢-١٠٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٥-٥٦].

وقال سُبحانه: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: ٤٦].

= الرازي)) (١٧/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٥٧).

وممَّن اختار هذا المعنى المذكورَ: ابنُ كثيرٍ، والشوكانيُّ، ومحمد رشيد رضا، والسعدي، والشِّنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥١٠)، ((تفسير المنار)) (١١/ ٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٥)، ((أضواء البيان)) (٢/ ١٥٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ مقاتلٌ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٣٣).

وقيل: المعنى: كأنَّهم لم يَمكُثوا في قُبورِهم بين مَوتِهم وحَشْرِهم إلَّا ساعةً مِن نهارٍ. وممن اختار هذا القولَ: ابنُ الأنباريِّ، والسمعانيُّ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢١١)، ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٣٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ ابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٣٣).

قال الشوكاني: (المرادُ باللُّبثِ: هو اللُّبثُ في الدُّنيا، وقيل: في القُبورِ، استَقَلُّوا المدَّةَ الطَّويلةَ؛ إمَّا لأنَّهم ضيَّعوا أعمارَهم في الدُّنيا، فجعلوا وجودَها كالعَدمِ، أو استقصَروها للدَّهَش والحيرةِ، أو لِطُولِ وُقوفِهم في المَحشَرِ، أو لِشدَّةِ ما هم فيه من العذابِ، نسوا لذاتِ الدُّنيا، وكأنَّها لم تكُن). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥١٠). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٣٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١١٤).

﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾.

أي: يَعرِفُ النَّاسُ بَعضُهم بعضًا يومَ القيامةِ، كما كانوا في الدُّنيا يَعرِفونَ بَعضَهم(١).

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾.

أي: قد خَسِرَ ثوابَ اللهِ وجَنَّتَه الجاحِدونَ لِلقاءِ اللهِ، يومَ القيامةِ، فاستحَقُّوا دخولَ النَّارِ، وما كانوا موفَّقينَ للحَقِّ بتكذيبِهم بالبَعثِ بعدَ المَوتِ(٢).

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ هذه الآيةَ تتمَّةُ الرَّدِّ على المُشرِكينَ في تكذيبِ ما لم يُحيطوا بعِلمِه، ولَمَّا يأتِهم تأويلُه، مِن العقابِ الذي سبَقَ ذِكرُه(٣).

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤٧، ٣٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧١، ٢٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٥).

قال الزجاج: (وفي معرفةِ بَعضِهم بعضًا، وعِلمِ بَعضِهم بإضلالِ بَعضٍ، التوبيخُ لهم، وإثباتُ الحجَّةِ عليهم). ((معاني القرآن)) (٣/ ٢٢).

قال ابنُ عطيةَ: (وأما قوله: ﴿يَتَعَارَفُونَ﴾ فيحتملُ أن يكونَ معادلة لقولِه: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ كأنَّه أخبَرَ أنَّهم يومَ الحشرِ يَتعارَفونَ، وهذا التعارفُ على جهةِ التلاومِ والخزي مِن بعضِهم لبعضٍ، ويحتملُ أن يكونَ في موضعِ الحالِ مِن الضمير في ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾، ويكونُ معنى التعارفِ كالذي قبلَه، ويحتملُ أن يكونَ حالًا مِن الضميرِ في ﴿يَلْبَثُوا﴾، ويكونُ التعارفُ في الدُّنيا، ويجيءُ معنَى الآيةِ: ويومَ نحشرُهم للقيامةِ فتنقطعُ المعرفةُ بينَهم والأسبابُ، ويصيرُ تعارفُهم في الدُّنيا كساعةٍ مِن النَّهارِ لا قدرَ لها). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٧)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢١٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣١٩).

أي: وإمَّا نُعجِّلْ عُقوبةَ الكُفَّارِ في حياتِك- يا مُحمَّدُ- فترَاها(١)، أو نُمِتْك قبل أن نُرِيَك ذلك فيهم؛ فمَصيرُهم إلينا بكلِّ حالٍ(٢).

﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ﴾.

أي: ثمَّ اللهُ شاهدٌ على ما كانوا يفعَلونَه في الدُّنيا، وسيُجازيهم به(٣).

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولٞۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمۡ قُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٤٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بَيَّنَ حالَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في قَومِه؛ بيَّنَ حالَ الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ مع أقوامِهم؛ تسليةً له، وتطمينًا لِقَلبِه(٤).

وأيضًا لَمَّا كان في الآيةِ السَّابقةِ التَّهديدُ بالعذابِ- إمَّا في الدُّنيا أو في الآخرةِ-

---

(١) قال الشوكاني: (وقد أراه اللهُ سُبحانه قَتْلَهم وأسْرَهم، وذُلَّهم وذَهابَ عِزِّهم، وانكسارَ سَورةِ كِبرِهم؛ بما أصابهم به في يومِ بَدرٍ وما بعدَه مِن المواطِنِ، فلله الحَمدُ). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤٨، ٣٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٨٤).

وممَّن اختار المعنَى المذكورَ، على اعتبارِ أنَّ قَولَه تعالى: ﴿فَإِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾ جوابٌ للشَّرطِ ﴿إِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾، وما عُطِفَ عليه ﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾: ابنُ جريرٍ، وابنُ عطيةَ، والقرطبي، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٨٤).

وقال الزمخشري: (﴿فَإِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾ جوابُ ﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾، وجوابُ ﴿نُرِيَنَّكَ﴾ محذوفٌ، كأنَّه قيل: وإمَّا نُرينَّك بعضَ الذي نَعِدُهم في الدُّنيا فذاك، أو نتوفَّينَّك قبلَ أن نُرِيَكه فنحن نُرِيكه في الآخرةِ). ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٨)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢١٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٦٧).

غيرَ مُعَيَّنٍ له صلَّى الله عليه وسلَّم واحدةٌ منهما- أتبَعَها بما هو صالحٌ للأمرَينِ بالنِّسبةِ إلى كلِّ رَسولٍ؛ إشارةً إلى أنَّ أحوالَ الأُمَمِ على غيرِ نظامٍ؛ فلذلك لم يَجزِمْ بتعيينِ واحدةٍ مِن الدارَينِ للجَزاءِ، وجعل الأمرَ مَنوطًا بالقِسطِ⁽¹⁾.

وأيضًا فإنَّها بمنزلةِ السَّبَبِ لِمَضمونِ الجملةِ التي قبلَها؛ فقد بيَّنتْ أنَّ مَجيءَ الرَّسولِ للأمَّةِ هو مُنتهى الإمهالِ، وأنَّ الأمَّةَ إن كذَّبَت رسولَها استحقَّت العقابَ على ذلك، فهذا إعلامٌ بأنَّ تكذيبَهم الرَّسولَ هو الذي يجُرُّ عليهم الوعيدَ بالعقابِ⁽²⁾.

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ﴾.

أي: ولكلِّ أمَّةٍ من الأُمَمِ الماضيةِ رَسولٌ أرسَلَه اللهُ إليهم، يدعوهم إلى الإيمانِ، وعبادةِ اللهِ وَحْدَه⁽³⁾.

﴿ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾.

أي: فإذا أتَى الأمةَ رسولُهم يومَ القيامةِ؛ لِيَشهَدَ عليهم، حَكَم اللهُ بينهم بالعَدلِ، وهو غيرُ ظالمٍ لهم⁽⁴⁾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥١١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٨، ١٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٢)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣٠).

وممَّن اختار هذا المعنَى المذكورَ: ابنُ جريرٍ، والقرطبيُّ، وابنُ كثيرٍ، والقاسميُّ. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٩).

وقيل: فإذا أتَى الأمةَ رسولُهم في الدُّنيا فكذَّبوه، حَكَم الله بين الرُّسُلِ وأتباعِهم وبين المكَذِّبينَ بالعَدلِ، فأنجَى عبادَه المؤمنينَ، وعذَّب الكافرينَ في الدُّنيا بعذابِ الاستئصالِ، وهو غيرُ ظالمٍ لهم، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

وممَّن اختار هذا المعنى: أبو السعودِ، والشوكانيُّ، والسعديُّ، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير أبي =

كما قال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٦٩].

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ تنبيهٌ على قِصَرِ الأمَلِ، وهو العِلمُ بقُرْبِ الرَّحيلِ، وسرعةِ انقضاءِ مدةِ الحياةِ، وهو مِن أنفعِ الأمورِ للقَلبِ؛ فإنه يبعَثُه على مبادرةِ طَيِّ صحائفِ الأعمالِ، ويثيرُ ساكِنَ عَزَماتِه إلى دارِ البقاءِ، ويَحُثُّه على قضاءِ جَهازِ سَفَرِه، وتدارُكِ الفارِطِ، ويُزَهِّدُه في الدنيا، ويرَغِّبُه في الآخرة، فيقومُ بقَلبِه- إذا داومَ مُطالعةَ قِصَرِ الأمَلِ- شاهِدٌ من شواهِدِ اليَقينِ، يُريه فَناءَ الدُّنيا، وسُرعةَ انقضائِها، وقِلَّةَ ما بَقِيَ منها، وأنَّها قد ترحَّلَت مُدبِرةً، وأنَّها لم يبقَ مِنها إلَّا كما بَقِيَ مِن يومٍ صارت شَمسُه على رؤوسِ الجبالِ، ويُريه بقاءَ الآخرةِ ودوامَها، وأنَّها قد ترحَّلَت مُقبِلةً، وقد جاء أشراطُها وعلاماتُها، وأنَّه مِن لقائِها كمُسافرٍ خرج صاحِبُه يتلقَّاه، فكلٌّ منهما يسيرُ إلى الآخَرِ، فيُوشِكُ أن يلتَقيا سريعًا⁽¹⁾.

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ * وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ نقِفُ من هاتينِ الآيتَينِ أمامَ حَقيقةِ الألوهيَّةِ وحقيقةِ العبوديَّةِ- التي يرتكِزُ عليها التصوُّرُ الإسلاميُّ كلُّه- وعنايةِ المَنهَجِ القرآنيِّ بتَوضيحِها وتقريرِها في كُلِّ مُناسَبةٍ، وفي صُوَرٍ شتَّى مُتنوِّعة،

= السعود)) (٤/ ١٥١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٨٧).

وممَّن قال بهذا القولِ من السَّلفِ: الحسنُ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٣٣).

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٤٤٨).

إنَّه يُقالُ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إنَّ أمرَ هذه العقيدةِ، وأمرَ القومِ الذينَ يُخاطَبونَ بها، كلُّه لله، وأنْ ليس لك من الأمرِ شَيءٌ، وقد ينقضي أجَلُك كلُّه ولا ترى نهايةَ القومِ الذين يكَذِّبونَك ويُعانِدونَك ويُؤذونَك، فليس حتمًا على اللهِ أن يُريَك عاقِبتَهم، وما يُنزِلُه بهم من جزاءٍ، هذا له وَحدَه سُبحانَه، أمَّا أنت- وكلُّ رَسولٍ- فعليك البَلاغُ، ثمَّ يمضي الرَّسولُ، ويدَعُ الأمرَ كُلَّه لله؛ ذلك كي يعلَمَ العَبيدُ مجالَهم، وكي لا يستعجِلَ الدُّعاةُ قَضاءَ الله مهما طال عليهم في الدَّعوةِ، ومهما تعَرَّضوا فيها للعَذابِ⁽¹⁾.

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فيه تحذيرٌ مِن مُشاقَّةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم⁽²⁾.

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾ يدلُّ على أنَّه تعالى يُري رَسولَه أنواعًا مِن ذُلِّ الكافرينَ وخِزيِهم في الدُّنيا، وسيَزيدُ عليه بعد وفاتِه، ولا شكَّ أنَّه حصل الكثيرُ منه في زمانِ حياةِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وحصل الكثيرُ أيضًا بعد وفاتِه، والذي سيحصُلُ يومَ القيامةِ أكثرُ، وهو تنبيهٌ على أنَّ عاقِبةَ المُحِقِّينَ محمودةٌ، وعاقِبةَ المُذنِبينَ مَذمومةٌ⁽³⁾.

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾ جاء الكلامُ على طريقةِ إبهامِ الحاصِلِ مِن الحالَينِ؛ لإيقاعِ النَّاسِ بين الخَوفِ والرَّجاءِ، وإن كان المخاطَبُ به النبيَّ

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٧٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٦١).

صلَّى اللهُ عليه وسلَّم(١).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾: رتَّبَ شَهادتَه تعالى على فِعلِهم، على رجوعِهم إليه في القيامةِ، مع أنَّه شهيدٌ عليهم في الدُّنيا أيضًا؛ لأنَّ المرادَ بما ذُكِرَ نَتيجتُه، وهو العذابُ والجزاءُ، كأنَّه قال: ثمَّ اللهُ مُعاقِبٌ، أو مُجازٍ على ما يَفعَلونَ(٢).

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ هذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّ كُلَّ جمَاعةٍ ممَّن تقَدَّمَ، قد بَعثَ الله إليهم رسولًا، وأنَّ اللهَ تعالى ما أهمَلَ أمَّةً مِن الأمَمِ قَطُّ، ويتأكَّدُ هذا بقَولِه تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

فإنْ قيل: كيف يصِحُّ هذا مع أحوالِ الفَترةِ، ومع قَولِه سُبحانه: ﴿لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ﴾ [يس:٦]؟ فالجواب: أنَّ الآيةَ لا تُوجِبُ أن يكونَ الرَّسولُ حاضرًا مع القَومِ، لأنَّ تقدُّمَ الرَّسولِ لا يمنَعُ مِن كَونِه رسولًا إليهم، كما لا يَمنَعُ تَقَدُّمُ رسولِنا من كونِه مَبعوثًا إلينا إلى آخِرِ الأبدِ، وتُحمَلُ الفَترةُ على ضَعفِ دَعوةِ الأنبياءِ، ووُقوعِ مُوجِباتِ التَّخليطِ فيها(٣).

وقيل: آباءُ القومِ الَّذين لم يُنْذَروا ليسوا أُمَّةً مستقلَّةً حتَّى يردَ الإشكالُ في عدمِ إنذارِهم، معَ قَولِه: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ بل هم بعضُ أُمَّةٍ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٤٧).

وقال العكبري: (﴿ثُمَّ﴾ هاهنا غيرُ مُقتَضِيَةٍ ترتيبًا في المعنَى، وإنَّما رَتَّبَتِ الأخبارَ بعضَها علَى بعضٍ، كقولك: زيدٌ عالمٌ، ثُمَّ هو كريمٌ). ((التبيان في إعراب القرآن)) (٢/ ٦٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٦١).

(٤) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٢٦).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾

- قولُه: ﴿كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا ساعةً مِنَ النَّهارِ﴾ فيه تخصيصُ السَّاعةِ بالنَّهارِ؛ لأنَّ ساعاتِه أعرَفُ حالًا مِن ساعاتِ اللَّيلِ(١)، فكأنَّ هؤلاءِ يتحَقَّقونَ قِلَّةَ ما لَبِثوا؛ إذْ كلُّ أمَدٍ طَويلٍ إذا انقضى، فهو واليَسيرُ سَواءٌ(٢).

- وقولُه: ﴿قَدْ خَسِرَ الذين كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ استئنافٌ فيه معنى التَّعجُّبِ، كأنَّه قيل: ما أخْسَرَهم(٣)!

- وفيه إظهارٌ في موضعِ الإضمارِ، والتَّعبيرُ عنهم بالموصولِ ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا﴾ مع كَونِ المقامِ مَقامَ إضمارٍ- حيث لم يَقُلْ: خَسِروا-؛ لِذَمِّهم بما في حيِّزِ الصِّلةِ، والإشعارِ بعِلِّيَّتِه لِما أصابَهم؛ فنبَّه على العِلَّةِ الموجبةِ للخُسرانِ، وهو التَّكذيبُ بلقاءِ اللهِ(٤).

٢- قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ فيه العدولُ إلى صيغةِ الاستقبالِ ﴿نَعِدُهُمْ﴾؛ لاستحضارِ الصُّورةِ، أو للدَّلالةِ على التَّجدُّدِ والاستمرارِ، أي: نَعِدُهم وعدًا مُتجدِّدًا حسَبما تَقْتَضيه الحِكمةُ مِن إنذارٍ غِبَّ إنذارٍ، وفي

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٥٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٥٠).

تخصيصِ البعضِ بالذِّكرِ رمزٌ إلى العِدَةِ بإراءةِ بعضِ الموعودِ(١).

– وجملةُ: ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ اسميَّةٌ تُفيدُ الدَّوامَ والثَّباتَ، وتقديمُ المجرورِ ﴿فَإِلَيْنَا﴾ على عامِلِه، وهو ﴿مَرْجِعُهُمْ﴾؛ للاهتمامِ(٢).

– وقوله: ﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾ حرفُ ﴿ثُمَّ﴾ للتراخي الرتبي (أي: كون الجملةِ المعطوفةِ بها أعلَى رتبةً مِن المعطوفةِ عليها)؛ فإنَّ جملةَ: ﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾ لاشتمالِها على التعريضِ بالجزاءِ على سوءِ أفعالِهم كانت أهمَّ مرتبةً في الغرضِ، وهو غرضُ الإخبارِ بأنَّ مرجعَهم إلى اللهِ؛ لأنَّ إرجاعَهم إلى الله مجملٌ، واطلاعَه على أفعالِهم المكنى به عن مؤاخذتِهم بها هو تفصيلٌ للوعيدِ المجملِ، والتفصيلُ أهمُّ مِن الإجمالِ، وقد حصَل بالإجمالِ ثم بتفصيلِه تمامُ تقريرِ الغرضِ المسوقِ له الكلامُ، وتأكيدُ الوعيدِ(٣)، وقيل: جاء بـ(ثم) الدالةِ على التبعيدِ، مع كونِ الله سبحانَه شهيدًا على ما يفعلونَه في الدارين؛ للدلالةِ على أنَّ المرادَ بهذه الأفعالِ ما يترتَّب عليها مِن الجزاءِ، أو ما يحصلُ مِن إنطاقِ الجوارحِ بالشهادةِ عليهم يومَ القيامةِ، فجعَل ذلك بمنزلةِ شهادةِ اللهِ عليهم(٤).

٣- قولُ الله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال تعالى هنا: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، وقال فيما بعدُ مِن هذه السُّورةِ: ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥٤]، وقال في سورةِ الزُّمَرِ: ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٨٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير القنوجي)) (٦/ ٧٢).

وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٦٩]، وفي آخِرِ السُّورة: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥]؛ فورَد في الموضِعَين من سورةِ يونُسَ ﴿بِالْقِسْطِ﴾، وفي الموضِعَين مِن سورةِ الزُّمرِ ﴿بِالْحَقِّ﴾؛ وذلك لأنَّ القِسْطَ يُرادُ به العملُ، والتَّسويةُ في الحكم، فمَظِنَّةُ وُرودِه حيث يُرادُ مُوازَنةُ الجزاءِ بالأعمالِ مِن غيرِ زيادةٍ، والحقُّ: الصِّدقُ، فوُرودُه حيث يُرادُ تَصديقُ وعيدٍ، أو إخبارٌ متقدِّمٌ، وإنَّ اللهَ سبحانه وعَد المؤمنين بزيادةِ الأُجورِ والإحسانِ بما يَفوتُ الغاياتِ، ويَفوقُ الحصرَ، ولم يَجعَلْ جَزاءَهم على أعمالِهم الدِّينيَّةِ وِفاقًا لأعمالِهم في مَقاديرِ الجزاءِ، بل قال تعالى: ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٥٨]، وقال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، ومنه جعَل الحسَنةَ بعَشْرِ أمثالِها؛ ولَمَّا كان الواردُ في آيتَي الزُّمرِ مُنزَّلًا على الحُكمِ حقًّا بين النَّبيِّين والشُّهداءِ والملائكةِ قال تعالى: ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ [الزمر: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ [الزمر: ٧٥]، والضميرُ في الأولى إمَّا أن يَكونَ للنَّبيِّين والشُّهداءِ، وهؤلاء ممَّن يُضاعَفُ أُجورُهم؛ فجيءَ بقولِه: ﴿بِالْحَقِّ﴾ [الزمر: ٦٩]؛ تصديقًا لما وُعِدوا مِن الزِّيادةِ، وليس مَوضعَ وُرودِ القِسْطِ، وإمَّا أن يكونَ للخَلقِ كافَّةً- وفيهم المؤمِنُ والكافرُ-؛ فورَد قولُه: ﴿بِالْحَقِّ﴾ [الزمر: ٦٩]؛ تصديقًا لِما ورَد في حقِّ الفريقَين: مِن الزِّيادةِ في أجْرِ المؤمنِ، والعدلِ في حقِّ الكافرِ، فلا يُظلَمُ مِثقالَ ذرَّةٍ، وإنَّما جَزاؤُه وِفاقُ عمَلِه، ولا يَصِحُّ هذا إنْ لو قيل: (وقُضي بينَهم بالقسطِ)، وعلى هذا ما ورَد في الآيةِ الأخيرةِ مِن فُروقٍ.

وأمَّا آيَتا يُونُسَ فقد تقدَّم الأولَى مِنهما آياتٌ في تأنيسِ نبيِّنا صلَّى الله عليه وسلَّم، وتعنيفِ كفَّارِ قُريشٍ ووَعيدِهم، وتَسْليتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في

إبراهيمَ؛ فختامُ الآياتِ قَبْلَها بقوله: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ [يونس: ٤٦]، ثمَّ قال: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ﴾ [يونس: ٤٧]، أي: حضَرهم في القيامةِ وقد كذَّبوه في الدُّنيا قُضي بينَهم وبينَه، فنَجا المصدِّقُ، وهلَك المكذِّبُ، ولما لم يَقصِدْ هنا تفضيلَ أحوالِ المصدِّقين، بل لَحَظَ الطَّرَفين من التَّصديقِ والتَّكذيبِ، كان موضعُ التَّعبيرِ بـ(القِسْطِ) الَّذي هو العدلُ بينَ المصدِّقِ والمكذِّبِ، وبناءُ الآياتِ على إرغامِ المكذِّبين. ولا يُناسِبُ هذا إلَّا ذِكْرُ العدلِ بحسَبِ ما بُنِيَت عليه الآياتُ قبلَه، وأمَّا قولُه في الآيةِ بعدُ: ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾، فمُسِرُّو نَدامتِهم هم المكذِّبون، وهم المشاهِدون العذابَ، والضَّميرُ في قوله: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ عائدٌ عليهم؛ فليس موضع التَّعبيرِ بقولِه: ﴿بِالْحَقِّ﴾؛ فوضَح وُرودُ كلٍّ مِن هذه الآياتِ على ما يُناسِبُ ويُلائِمُ(١).

* * *

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٤٤-٢٤٦).

الآيات (٤٨-٥٢)

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ۚ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿بَيَٰتًا﴾: أي: ليلًا، وَقتَ اشتِغالِهم بالنَّوم، وأصلُ (بيت): يدلُّ على مأوى الإنسانِ باللَّيلِ[1].

﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ﴾: أي: يَستخبِرونَك، والنبأُ: خبرٌ له شأنٌ عظيمٌ. وأصلُ (نبأ): يدلُّ على الإتيانِ من مكانٍ إلى مكانٍ[2].

﴿إِى﴾: أي: نَعَم، وهي كلمةٌ موضوعةٌ لتحقيقِ كلامٍ مُتقدِّمٍ[3].

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ المُشركينَ يقولونَ مُخاطبينَ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ومَن

---

[1] يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٢).

[2] يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٥١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٠).

[3] يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٥١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣١).

اتَّبعه: متى سيأتي عذابُ اللهِ الذي تَعِدونَنا به إن كُنتم صادقينَ؟

فأمَرَ اللهُ نبيَّه محمَّدًا أن يُجيبَهم: أنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا يَقدِرُ على ضَرِّ نَفسِه ولا نَفْعِها، إلَّا ما شاء اللهُ أن يَملِكَه ويقدِرَ عليه، وليس ممَّا يقدِرُ عليه أن يأتيَهم بما سألوا من العذابِ، لكلِّ قَومٍ وقتٌ مُحَدَّدٌ قَدَّرَه اللهُ لانقضاءِ مُدَّتِهم، فإذا جاء ذلك الوقتُ فلا يُؤخَّرونَ عنه ساعةً، ولا يتقَدَّمُ أجَلُهم عنه، وأمَرَه أن يقولَ لهم: أخبِروني إن أتاكم عذابُ اللهِ ليلًا أو نهارًا، ماذا يستعجِلُ المجرِمونَ مِن العذابِ سِوى الشَّرِّ الذي لا يستطيعونَ اجتنابَه؟! أثُمَّ إذا وقع العذابُ بكم آمَنتُم، حين لا ينفَعُكم الإيمانُ، آلآنَ تؤمِنونَ وقد كنتم تستعجِلونَه مُكَذِّبينَ به؟!

ثمَّ يُبَيِّنُ تعالى أنَّه يُقالُ يومَ القيامةِ للَّذين ظَلَموا أنفُسَهم: ذوقوا العذابَ الدَّائِمَ، فهل يَجزيكم اللهُ إلَّا بما كُنتم تَعمَلونه في الدُّنيا.

ثمَّ يقولُ اللهُ لنبيِّه: يستخبِرُك المُشرِكونَ قائلينَ: أحقٌّ ما تَعِدُنا به؟ قل لهم: نعَم وربِّي، إنَّه لحَقٌّ لا شَكَّ فيه، وما أنتم بمعجزينَ الله، بل هو قادِرٌ عليكم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

عَطفٌ على جُملةِ ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ [يونس: ٤٦] والمناسَبةُ أنَّه لَمَّا بَيَّنَت الآيةُ السَّالفةُ أنَّ تعجيلَ الوعيدِ في الدُّنيا للمُشرِكينَ وتأخيرَه سواءٌ عند الله تعالى؛ إذ الوعيدُ الأتَمُّ هو وعيدُ الآخرةِ- أُتبِعَت بهذه الآيةِ حكايةً لتهكُّمِهم على تأخيرِ الوَعيدِ(١).

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٨٨).

أي: ويقولُ المُشرِكونَ: متى سيأتينا عذابُ اللهِ إن كُنتُم- أيُّها الرَّسولُ ومَن اتَّبَعَك- صادقينَ فيما تَعِدونَنا به مِن العَذابِ⁽¹⁾؟!

﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةًۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

أَمَرَ اللهُ تعالى النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأن يُجيبَ عن شُبهةِ تأخُّرِ الوعيدِ بجوابٍ يحسِمُ المادَّةَ، وهو قولُه: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ والمرادُ أنَّ إنزالَ العذابِ على الأعداءِ، وإظهارَ النُّصرةِ للأولياءِ، لا يَقدِرُ عليه أحَدٌ إلَّا اللهُ سُبحانه، وأنَّه تعالى ما عَيَّنَ لذلك الوعدِ والوعيدِ وقتًا مُعَيَّنًا⁽²⁾.

وأيضًا لَمَّا تضَمَّنَ قَولُهم: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ استعجالَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بما يتوعَّدُهم به، أمَرَه بأن يتبَرَّأَ من القدرةِ على شيءٍ لم يُقْدِرْه اللهُ عليه⁽³⁾.

﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ ﴾.

أي: قُلْ لهم- يا مُحمَّدُ-: لا أقدِرُ على ضَرٍّ نَفسي ولا نَفْعِها في ديني ولا دُنياي، إلَّا ما شاء اللهُ أن أملِكَه وأقدِرَ عليه، ولستُ قادرًا على الإتيانِ بما

---

(١) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٠٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٨٩).

قيل: المرادُ بالوَعدِ: قيامُ السَّاعةِ. وممَّن اختار ذلك: ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٩).

وقيل: الوعدُ المذكورُ هو ما هُدِّدوا به من عذابِ الدُّنيا. وممَّن اختار ذلك: ابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٨٩).

وممَّن قال بنحو هذا القولِ مِن السَّلفِ ابنُ عبَّاس. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٦٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٣٤).

تسألونَني عنه مِن العذابِ(١).

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾.

أي: لكلِّ قومٍ وقتٌ محددٌ قدَّره اللهُ لانقضاءِ مُدَّتِهم(٢).

﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

أي: إذا جاء وقتُ انقضاءِ أجَلِ كلِّ أمةٍ، فلا يُؤخَّرونَ عن ذلك الوَقتِ الذي قدَّرَه اللهُ لهلاكِهم ساعةً، ولا يتقدَّم أجَلُهم عنه(٣).

كما قال تعالى: ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ [الحجر: ٥].

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ۝٥٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا كان جُلُّ قَصدِ المُشرِكينَ بِقَولِهم السَّابِقِ: الاستهزاءَ، وكان وقوعُه أمرًا مُمكِنًا، وكان مِن شأنِ العاقِلِ أن يَبعُدَ عن كلِّ خَطَرٍ ممكِنٍ- أمَرَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بجوابٍ آخَرَ(٤).

وأيضًا فإنَّ هذا جوابٌ ثانٍ عَن قَولِهم: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ باعتبارِ ما يتضَمَّنُه قَولُهم مِن الوَعدِ بأنَّهم يُؤمِنونَ إذا حَقَّ الوَعدُ الذي توعَّدَهم به، وهذا الجوابُ إبداءٌ لخَلَلِ كَلامِهم واضطرابِ استهزائِهم، وقع هذا الأمرُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٩، ١٩٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٣٦-١٣٧).

بأن يُجيبَهم هذا الجوابَ بعد أن أُمِرَ بأن يجيبَهم بقَولِه: ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ وهذا الجوابُ واقعٌ موقعَ التَّسليمِ الجَدَليِّ بعد أن يُجابَ المُخطئُ بالإبطالِ(١).

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا﴾.

أي: قُلْ- يا محمَّدُ- للمُشركينَ: أخبِروني إن أتاكم عذابُ اللهِ ليلًا، وقتَ نَومِكم، أو نهارًا، وقتَ اشتغالِكم بمَعاشِكم(٢).

﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

أي: أيَّ شيءٍ(٣) يَستعجِلُ المُشرِكونَ مِن العذابِ إلا الشَّرَّ الذي لا يستطيعونَ دَفْعَه عن أنفُسِهم(٤)؟

﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾﴾.

﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥١٣).

(٣) على اعتبارِ أنَّ (ما) و(ذا) اسمًا واحدًا، في موضع نصب، ويجوز أن يكون (ما) استفهامًا، و(ذا) بمعنى (الذي)، ويكون المعنى: ما الذي يستعجل منه المجرمون؟ كقولك: أيُّ شيء الذي يستعجل منه المجرمون؟ يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٢٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩٠)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٢١، ٢٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٩٣).

قال ابنُ عطيَّةَ: (الضميرُ في ﴿مِنْهُ﴾ يحتملُ أن يعودَ على اللهِ عزَّ وجَلَّ، ويحتملُ أن يعودَ على العَذابِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٤). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٥٠).

قال القرطبي: (أي: إنْ أتاكم العذابُ، فما نَفْعُكم فيه؟! ولا يَنفَعُكم الإيمانُ حِينئذٍ). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٥٠).

أي: أإذا نزَلَ عذابُ اللهِ بكم- أيُّها المُشرِكونَ- آمَنتُم به(١) حين لا ينفَعُكم الإيمانُ(٢)؟!

قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ٨٤-٨٥].

﴿ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾.

أي: آلآنَ تُؤمِنونَ- أيُّها المُشرِكونَ- بعد أن وقَعَ بكم العذابُ، وقد كنتُم قبل مَجيئِه تَستعجِلونَه مُكَذِّبينَ به(٣)؟

كما قال تعالى عن فِرعونَ لَمَّا أدركَه الغَرَقُ: ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ * آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩٠-٩١].

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾.

أي: ثُمَّ يُقالُ يومَ القيامةِ للَّذين ظَلَموا أنفُسَهم بالكُفرِ بالله: تجرَّعوا العذابَ

---

(١) قيل: المرادُ آمَنتُم بالله، وممَّن اختار ذلك: البغويُّ، وابنُ كثيرٍ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٦).

وقيل: المرادُ آمَنتُم بالعذابِ. وممَّن اختار ذلك: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩٠)، ((البسيط)) للواحدي(١١/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩٠)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٢٢)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٢٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩٠)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٩٤).

الدَّائمَ الذي لا ينقَطِعُ(١).

﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾.

أي: يُقالُ للذينَ ظَلَموا: هل يُجازيكم اللهُ إلَّا بما كُنتُم تعملونَ في الدُّنيا من الكُفرِ والتَّكذيبِ والمعاصي(٢)؟

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا * هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ * اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٣ - ١٦].

وقال سُبحانه: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِلطَّاغِينَ مَآبًا * لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا * لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا * إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا * جَزَاءً وِفَاقًا * إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا * وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا * وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا * فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: ٢١ - ٣٠].

﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لما أخبَر عن الكفارِ بقولِه: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨]، وأجابَ عنه؛ حكَى عنهم أنَّهم رجَعوا إلى الرسولِ مرةً أخرَى في عينِ هذه الواقعةِ، وسألوه عن ذلك السُّؤالِ مرةً أُخرَى(٣).

وأيضًا فإنَّ هذا حِكايةُ فَنٍّ مِن أفانينِ تكذيبِ المُشركينَ، فمَرَّةً يتظاهرونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٦٤).

باستبطاءِ الوَعدِ استخفافًا به، ومَرَّةً يُقبِلونَ على الرَّسولِ في صورةِ المُستَفهِمِ الطَّالبِ، فيسألونَه: أهذا العذابُ الخالدُ- أي: عذابُ الآخرةِ- حَقٌّ؟! فالجملةُ مَعطوفةٌ على جملةِ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾(١) [يونس: ٤٨].

﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ﴾.

أي: ويَستخبِرُك المُشرِكونَ- يا محمَّدُ- فيقولونَ لك: أحقٌّ ما تَعِدُنا به(٢)؟

﴿قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾.

أي: قُلْ لهم- يا محمَّدُ-: نعَمْ، وأُقسِمُ بربِّي إنَّ ما وعَدْتُكم به لَحَقٌّ واقعٌ، لا شكَّ فيه، وما أنتم بفائِتي اللهِ؛ فهو قادرٌ عليكم(٣).

الفَوائدُ التربويَّةُ:

في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أعظَمُ واعظٍ، وأبلَغُ زاجرٍ لِمَن صار ديدَنُه وهِجِّيراه المُناداةَ لرسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والاستغاثةَ به عندَ نُزولِ النَّوازِلِ التي لا يَقدِرُ على دَفْعِها إلَّا اللهُ سبحانه، وكذلك مَن صار يطلُبُ مِن الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما لا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٦).

ممَّن اختار أنَّ الضميرَ ﴿هو﴾ يعودُ على البعثِ وقيامِ السَّاعةِ: ابنُ كثيرٍ، والسعديّ. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المرادُ به العذابُ الأُخرويُّ. وممن اختار ذلك: ابنُ جريرٍ، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٩٥).

وقيل: المرادُ به العذابُ الدُّنيويُّ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٦٤).

وقال القُرطبي: (قولُه تعالى: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ﴾ أي: يَستَخبرونَك- يا مُحمَّدُ- عن العذابِ وقيامِ السَّاعةِ). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٦).

يقدِرُ على تحصيلِه إلَّا اللهُ سُبحانَه، فإنَّ هذا مقامُ رَبِّ العالمينَ الذي خلقَ الأنبياءَ والصَّالحين وجميعَ المخلوقينَ، ورزَقهم، وأحياهم ويُميتُهم، فكيف يُطلَبُ من نبيٍّ من الأنبياءِ، أو مَلَكٍ من الملائكةِ، أو صالحٍ مِن الصالحينَ ما هو عاجزٌ عنه، غيرُ قادرٍ عليه، ويُترَكُ الطَّلَبُ لِرَبِّ الأربابِ، القادرِ على كلِّ شَيءٍ، الخالق الرزاق، المعطي المانعُ؟! وحَسبُك بما في هذه الآيةِ مَوعِظةً؛ فإنَّ هذا سَيِّدُ ولَدِ آدَمَ، وخاتَمُ الرُّسُل، يأمُرُه اللهُ بأن يقولَ لعبادِه: لا أملِكُ لِنَفسي ضَرًّا ولا نفعًا، فكيف يملِكُه لِغَيرِه، وكيف يملِكُه غيرُه- مَن رُتبَتُه دون رُتبَتِه، ومَنزِلَتُه لا تبلُغُ إلى مَنزِلتِه- لنفسِه، فضلًا عن أن يَملِكَه لِغَيرِه، فيا عجبًا لِقَومٍ يعكُفونَ على قبورِ الأمواتِ، الذين قد صاروا تحت أطباقِ الثَّرى، ويطلُبونَ منهم من الحوائجِ ما لا يقدِرُ عليه إلَّا اللهُ عزَّ وجَلَّ! كيف لا يتيقَّظونَ لِما وقَعوا فيه مِن الشِّركِ، ولا يتنَبَّهونَ لِما حَلَّ بهم من المُخالفةِ لِمَعنى: لا إلهَ إلَّا اللهُ، ومَدلولِ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾⁽¹⁾؟!

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ يدلُّ على أنَّ أحدًا لا يموتُ إلَّا بانقضاءِ أجَلِه، وكذلك المقتولُ لا يُقتَلُ إلَّا على هذا الوجهِ⁽²⁾.

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ أمَرَ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُجيبَهم بهذا القَسَمِ، والفائدةُ فيه أمورٌ:

أحدها: أن يَستَميلَهم النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ويتكَلَّمَ معهم بالكلامِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٦٢)، ويُنظر أيضًا: ((شرح العقيدة الطحاوية)) لابن أبي العز (١/ ١٢٧).

المُعتادِ، ومن الظَّاهِرِ أنَّ مَن أخبَرَ عن شيءٍ وأكَّدَه بالقَسَمِ، فقد أخرَجَه عن الهَزْلِ، وأدخَلَه في بابِ الجِدِّ. وثانيها: أنَّ النَّاسَ طَبَقاتٌ؛ فمِنهم مَن لا يُقِرُّ بالشَّيءِ إلَّا بالبُرهانِ الحَقيقيِّ، ومنهم من لا ينتَفِعُ بالبُرهانِ الحَقيقيِّ، بل ينتَفِعُ بالأشياءِ الإقناعيَّةِ نحو القَسَمِ⁽¹⁾.

٣- كثرةُ الحَلِفِ مكروهٌ، ولكنْ قد يُستحَبُّ إذا كان فيه مصلحةٌ شرعيَّةٌ، كما أمَرَ اللهُ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾، ﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن: ٧]، ﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾⁽²⁾ [سبأ: ٣].

بلاغة الآيات:

١- قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيه حكايةُ قولِهم بصيغةِ المضارِعِ (يَقولون)؛ لِقَصدِ استِحضارِ الحالةِ، وللدَّلالةِ على تكرُّرِ صُدورِه مِنهم، والسُّؤالُ مُستعمَلٌ في الاستِبْطاءِ، وهو كِنايةٌ عن عدَمِ اكتِراثِهم به، وأنَّهم لا يَأْبهون به؛ لِيَنتقِلَ مِن ذلك إلى أنَّهم مُكذِّبون بحُصولِه بطريقِ الإيماءِ بقَرينةِ قولِهم: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وهُم يُريدون أنَّا لا نُصدِّقُك حتَّى نرى ما وعَدتَنا؛ كِنايةً عن اعتِقادِهم عدَمَ حُلولِه، وأنَّهم لا يُصدِّقون به⁽³⁾.

٢- قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾

- قولُه: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾: فيه تقديمُ الضَّرِّ؛ لأنَّ مَساقَ النَّظْمِ لإظهارِ العَجْزِ عنه، وأمَّا ذِكْرُ النَّفعِ فلِتَوسيعِ الدَّائرةِ تَكمِلةً للعَجزِ، وما

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((مختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية)) للبعلي (ص: ٥٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٨٩).

وقَع في سورةِ الأعرافِ مِن تقديمِ النَّفعِ في قوله: ﴿قُل لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأعراف: ١٨٨]؛ للإشعارِ بأهمِّيَّتِه والمقامُ مَقامُه(١).

وقيل: قَدَّمَ ذِكرَ الضَّرِّ هنا، وإن كان مأمورًا أن يتحدَّثَ عن نَفسِه؛ لأنَّهم هم يَستعجِلونَ الضَّرَّ، فمن بابِ التَّناسُقِ قدَّمَ ذِكرَ الضَّرِ، أمَّا في موضعٍ آخَرَ في سورةِ الأعرافِ، فقَدَّمَ النَّفعَ في مثل هذا التَّعبيرِ؛ لأنَّه الأنسَبُ أن يطلُبَه لِنَفسِه، وهو يقولُ: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾(٢) [الأعراف: ١٨٨].

- قولُه: ﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ فيه إظهارُ ﴿أَجَلُهُمْ﴾ في موقعِ الإضمارِ؛ فعلى القولِ بأنَّ الضَّميرَ في ﴿أَجَلُهُمْ﴾ جُعِل للأُمَمِ المدلولِ عليها بـ (كلِّ أُمَّةٍ)؛ فإظهارُ (الأجَلِ) مُضافًا إليه؛ لإفادةِ المعنى المقصودِ الَّذي هو بُلوغُ كلِّ أُمَّةٍ أجَلَها الخاصَّ بها، فالإظهارُ في موقعِ الإضمارِ؛ لزيادةِ التَّقريرِ، والإضافةُ إلى الضَّميرِ؛ لإفادةِ كَمالِ التَّعيينِ، أي: إذا جاءَها أجَلُها الخاصُّ بها(٣).

- قولُه: ﴿فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ فيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قدَّم بيانَ انتفاءِ الاستِئْخارِ على بيانِ انتفاءِ الاستقدام؛ لأنَّ المقصودَ الأهَمَّ بيانُ عدَمِ خَلاصِهم مِن العذابِ ولو ساعةً، وذلك بالتَّأخُّرِ، بخِلافِ ما في قولِه تعالى: ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ [الحجر: ٥، والمؤمنون:٤٣]، حيث تقدَّم (السَّبقُ) في الذِّكرِ؛ لأنَّ المرادَ بيانُ سِرِّ تأخيرِ عَذابِهم مع استحقاقِهم له حسَبما يُنبِئُ عنه قولُه تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٣]؛ فالأهَمُّ إذ ذاك بيانُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤ / ١٥١).

(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٧٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤ / ١٥٢).

انتفاءِ السَّبْقِ⁽¹⁾.

٣- قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾

- أَمَرَ تعالى النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بجوابٍ آخَرَ بعدَ الجوابِ في الآيةِ المتقدِّمةِ، في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾، حذف مِن هذا الجوابِ الآخرِ واوَ العطفِ؛ لئلا يُظنَّ أنَّه لا يكفي في كونِه جوابًا إلا بضمِّه إلى ما عُطِف عليه⁽²⁾.

- قال: ﴿بَيَاتًا﴾ ولم يَقُل: (لَيْلًا) مع أنَّه أكثرُ استعمالًا، وأظهَرُ مطابقةً مع النَّهارِ؛ لأنَّ المعهودَ في الاستعمالِ عندَ ذِكرِ الإهلاكِ والتَّهديدِ ذِكرُ البَياتِ، وإنْ قُرِنَ به النَّهارُ⁽³⁾.

- لَمَّا كان أخذُ اللَّيلِ أنكى وأسرَعَ، قَدَّمَه فقال: ﴿بَيَاتًا﴾ أي: في اللَّيلِ بَغتةً وأنتم نائِمونَ⁽⁴⁾.

- لَمَّا كان الظَّفَرُ ليلًا لا يستلزِمُ الظَّفَرَ نهارًا مُجاهرةً، قال: ﴿أَوْ نَهَارًا﴾ أي: مُكاشَفةً، وأنتم مُستَيقِظونَ⁽⁵⁾.

- قولُه: ﴿مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ يحتملُ أن تكونَ جملةُ الاستفهامِ جاءت على سبيلِ التَّلطُّفِ بهم، والتَّنبيهِ لهم على أنَّ العذابَ لا ينبَغي أن يُستعجَلَ، ويجوزُ أن تكونَ الجملةُ جاءَت على سبيلِ التَّعجُّبِ والتَّهويلِ للعذابِ، أي: أيَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٣٦-١٣٧).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٤٨).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٣٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

شيءٍ شديدٍ تَستعجِلون مِنه، أي: ما أشدَّ وأهوَلَ ما تستَعجِلون مِن العذابِ[١]! ويحتملُ أنَّ الاستفهامَ مُستعمَلٌ في الإنكارِ عَليهم، وفي التَّعجُّبِ مِن تَعجُّلِهم العذابَ بنِيَّةِ أنَّهم يُؤمِنون به عندَ نُزولِه[٢].

- وقولُه أيضًا: ﴿مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ فيه إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ، حيث لم يَقُلْ: (ماذا يَستعجِلون منه)؛ لِقَصدِ التَّسجيلِ عليهم بالإجرامِ، وللتَّنبيهِ على خطَئِهم في استعجالِ الوعيدِ؛ لأنَّه يأتي عليهم بالإهلاكِ فيَصيرون إلى الآخرةِ[٣]، فإنَّهم لِجُرمِهم ينبغي أن يَفزَعوا من مجيءِ الوَعيدِ لا أن يَستعجِلوا[٤].

٤- **قوله تعالى: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾**

- قولُه: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ﴾ استفهامٌ مستعمَلٌ في الإنكارِ بمعنى التَّغليطِ، وإفسادِ رأيِهم؛ فإنَّهم وعَدوا بالإيمانِ عند نزولِ العذابِ؛ استهْزاءً مِنهم، فوقَع الجوابُ بمُجاراةِ ظاهرِ حالِهم، وبيانِ أخطائِهم[٥].

- قولُه: ﴿آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ الاستفهامُ في ﴿آلْآنَ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ عن حصولِ إيمانِهم عند حُلولِ ما توَعَّدهم؛ فعبَّر عن وقتِ وُقوعِه باسمِ الزَّمانِ الحاضرِ، وهو (الآنَ)؛ حكايةً لِلسانِ حالِ مُنكِرٍ عليهم في ذلك الوقتِ؛ استحضَر حالَ حُلولِ الوعدِ، كأنَّه حاضرٌ في زمنِ التَّكلُّمِ، وهذا الاستحضارُ مِن تخييلِ الحالةِ المستقبَلةِ واقعةً[٦].

---

[١] يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٦٨).

[٢] يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٩٢).

[٣] يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ١٩٣).

[٤] يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٢٤).

[٥] يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٩٤).

[٦] يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿وَقَدْ كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ يُفيدُ تَشديدَ التَّوبيخِ والتَّقريعِ، وزيادةَ التَّنديمِ والتَّحسيرِ؛ وتقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿بِهِ﴾ على الفعلِ ﴿تَسْتَعْجِلُونَ﴾؛ للاهتمامِ بالوعدِ الَّذي كذَّبوا به، ولمُراعاةِ الفواصلِ(١).

٥- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾

- في الإتيانِ بـ (ثُمَّ) إشارةٌ إلى تراخي ذلك عن الإهلاكِ في الدُّنيا بالمُكثِ في البَرزخِ، أو إلى أنَّ عَذابَه أدنى مِن عذابِ يَومِ الدِّينِ(٢).

- قولُه: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ فيه استعمالُ صِيغةِ المُضِيِّ ﴿قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ في معنى المستقبَلِ؛ تَنبيهًا على تحقيقِ وُقوعِه، مِثْلُ ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ﴾(٣) [النحل: ١].

- وقولُه: ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ فيه إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ- حيث لم يَقُلْ: (قيل لهم)- فوضَع الموصولَ موضِعَ الضَّميرِ؛ لِتَسجيلِ وصفِ الظُّلمِ عليهم، أي: لِذَمِّهم بما في حيِّزِ الصِّلةِ، وللإشعارِ بعِلِّيَّتِه لإصابةِ ما أصابَهم(٤).

- وقولُه: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ الاستفهامُ إنكاريٌّ بمعنى النَّفيِ؛ ولذلك جاء بعدَه الاستثناءُ ﴿إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾، وفيه توبيخٌ لهم، وتوضيحٌ أنَّ الجزاءَ هو على كَسْبِ العبدِ(٥).

- قَولُ الله تعالى: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ﴾ بناه للمَفعولِ؛ لأنَّ المُخيفَ مُطلَقُ الجَزاءِ(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤ / ١٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٩٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٩٥).

(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٣٨).

٦- قولُه تعالى: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾

- الاستِفْهامُ في قولِه: ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ استفهامٌ على جهةِ الإنكارِ والاستهزاءِ⁽¹⁾.

- وقولُه أيضًا: ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ فيه تقديمُ الخبَرِ (حقٌّ) على المبتدَأِ ﴿هُوَ﴾؛ للاهتمامِ به⁽²⁾.

- قولُه: ﴿قُلْ إِيْ وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ فيه زيادةُ توكيدٍ بإظهارِ الجملةِ الَّتي كانَت تُضمَرُ بعدَ قولِه: ﴿إِيْ وَرَبِّي﴾، وهي مَسوقةٌ مُؤكَّدةٌ بـ(إنَّ) واللَّامِ؛ مُبالَغةً في التَّوكيدِ في الجوابِ⁽³⁾.

* * *

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٧١).

الآيات (٥٤-٥٦)

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

المَعنَى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ تعالى أنَّه لو كان لكُلِّ نَفسٍ كفَرَت باللهِ أو أشركَت به جميعُ ما في الأرضِ، لبَذَلَتْه يومَ القيامةِ- لو كان يُقبَلُ منها- لِتَفتديَ به من عذابِ اللهِ تعالى، وأخفى الكُفَّارُ الحَسرةَ والتأسُّفَ على كُفرِهم حين رأَوا عذابَ اللهِ تعالى يومَ القيامةِ، وتيقَّنوا أنَّه واقعٌ بهم، وقضى اللهُ بينهم بالعَدلِ، وهو غيرُ ظالمٍ لهم.

ألَا إنَّ لله وَحدَه كلَّ ما في السَّمواتِ والأرضِ، ألا إنَّ وَعدَه تعالى حقٌّ لا محالةَ، ولكِنَّ أكثَرَ أولئك المُشركينَ لا يَعلَمونَ.

هو سبحانَه وَحْدَه يُحيي ويُميتُ، وإليه وَحْدَه- أيُّها النَّاسُ- مَرجِعُكم ومَصيرُكم بعد مَوتِكم، فيُجازيكم يومَ القيامةِ بأعمالِكم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى العذابَ، وأقسَمَ على حقيقَتِه، وأنَّ المُشرِكينَ لا يُفلِتونَ منه؛ ذكَرَ بعضَ أحوالِ الظَّالِمينَ في الآخرةِ(١)، فقال:

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٧٢).

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ﴾.

أي: ولو أنَّ لكُلِّ نَفسٍ كفَرَت باللهِ، جميعَ ما في الأرضِ، لبَذَلَت ذلك يومَ القيامةِ- لو كان يُقبَلُ منها- لتفتَدِيَ به من عذابِ اللهِ(١).

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٩١].

﴿ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ ﴾.

أي: وأخفَى الكُفَّارُ(٢) الحَسرةَ والتأسُّفَ على كُفرِهم حين رأَوْا عذابَ اللهِ يومَ القيامةِ، واستيقَنوا أنَّه واقعٌ بهم(٣).

﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾.

أي: وقضَى اللهُ بينَ الكُفَّارِ بالعَدلِ، وهو غيرُ ظالمٍ لهم(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩٢)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٦).

(٢) ذهب عامَّةُ المُفَسِّرينَ إلى أنَّ المُرادَ بالكُفَّارِ هنا رُؤساؤُهم، فأخفَوا النَّدامةَ مِن أتباعِهم الذين أضَلُّوهم. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٢٤).

وذهب ابنُ عطيَّةَ إلى أنَّه عامٌّ في جميعِهم. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩٢)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩٢)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٢٧)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٩٨).

قيل: المراد: وقضى اللهُ يومئذٍ بين الأتباعِ والرُّؤساءِ منهم بالعَدلِ. وممَّن ذهَب إلى ذلك: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩٢)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٥٢).

﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٥ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى قال قبلَ هذه الآيةِ: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ﴾ [يونس: ٥٤]، فلا جرَمَ قال في هذه الآيةِ: ليس للظالمِ شَيءٌ يَفتَدي به؛ فإنَّ كلَّ الأشياءِ مِلكُ اللهِ تعالى ومُلكُه(١).

﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾.

أي: ألَا(٢) إنَّ لِلَّهِ وَحْدَه جميعَ ما في السَّمواتِ والأرضِ، فلا مانِعَ يَمنعُه من إنفاذِ حُكمِه(٣).

﴿أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

أي: ألا إنَّ وعدَ اللهِ(٤) حقٌّ لا محالةَ، ولكنَّ أكثَرَ أولئك المُشرِكينَ لا يعلمونَ

وقيل: معنى: قُضِيَ بينهم: قُضِيَ فيهم، أي: قضِيَ على كلِّ واحدٍ منهم بما يستحِقُّه بالعدل، وليس المعنى أنَّه قُضِيَ بين كلِّ واحدٍ وآخَرَ. وممَّن ذهَب إلى ذلك: ابنُ عاشورٍ، فقال: (لأنَّ القَضاءَ هنا ليس قضاءَ نزاعٍ، ولكنَّه قَضاءُ زَجرٍ وتأنيبٍ؛ إذ ليس الكلامُ هنا إلَّا على المشرِكينَ، وهم صِنفٌ واحد، بخلافِ قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ [يونس: ٤٧] فإنَّ ذلك قضاءٌ بين المُرسَلِ إليهم وبين الرُّسُلِ، كما قال تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ * فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾[الأعراف: ٦- ٧]). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٩٨).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٦٦).

(٢) قال القرطبي: (﴿أَلَآ﴾ كلمةُ تَنبيهٍ للسَّامِعِ، تُزادُ في أوَّلِ الكلامِ، أي: انتَبِهوا لِما أقولُ لكم). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٦).

(٤) قيل: المرادُ به: عذابُه للمُشرِكينَ. وممن اختار ذلك: ابنُ جريرٍ، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٩٩). =

ذلك، فهم به يُكذِّبونَ⁽¹⁾.

﴿ هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٥٦ ﴾.

﴿ هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ﴾.

أي: اللهُ وَحدَه هو المتصَرِّفُ بالإحياءِ والإماتةِ، فلا يتعذَّرُ عليه إحياءُ المُشرِكينَ وغَيرِهم، ولا إماتَتُهم إذا أراد ذلك⁽²⁾.

﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾.

أي: وإلى اللهِ وَحْدَه مَصيرُكم- أيُّها النَّاسُ- بعد مَوتِكم، فيُجازيكم يومَ القيامةِ بأعمالِكم⁽³⁾.

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

النفعُ والضرُّ، والثوابُ والعقابُ يكون على الأعمالِ الصالحةِ والسيئةِ، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأرْضِ لافْتَدَتْ بِهِ﴾، فـ ﴿لَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾ بالكفرِ والمعاصي جميعَ ﴿مَا فِي الأَرْضِ﴾ مِن ذهبٍ وفضةٍ وغيرِهما، لتفتديَ به مِن عذابِ اللهِ يومَ القيامةِ ﴿لافْتَدَتْ بِهِ﴾ ولما نفَعها ذلك⁽⁴⁾.

= وقيل: المرادُ به: البَعثُ وقيامُ السَّاعةِ. وممن اختار ذلك: ابنُ كثيرٍ، ومحمد رشيد رضا. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٦٦).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لافْتَدَتْ بِهِ﴾ ذكَرَ ﴿لِكُلِّ نَفْسٍ﴾ دون أن يُقالَ (ولو أنَّ لكم ما في الأرضِ لافتَدَيتُم به)؛ لأنَّ المعنى أنَّ هذا العذابَ لا تتحَمَّلُه أيَّةُ نَفسٍ على تفاوُتِ الأنفُسِ في احتمالِ الآلامِ (١).

٢- قال تعالى: ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ وإنَّما يقَعُ هذا الكِتمانُ منهم قبلَ إحراقِ النَّارِ لهم، فإذا أحرَقَتْهم النَّارُ ألهَـتْهم عن هذا التصَنُّعِ لِمَن كان يَتبَعُهم في الدُّنيا؛ يدلُّ على هذا قَولُه تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا...﴾ الآيات [المؤمنون: ١٠٦]، فهم في هذه الحالِ لا يكتُمونَ نَدَمَهم(٢).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ صَدَّرَ الجملةَ بحَرفِ التَّنبيهِ (ألا) الذي يُفتَتَحُ به الكلامُ؛ لِتَنبيهِ الغافلينَ عن هذه الحَقيقةِ، وإن كانوا يعرِفونَها؛ لكثرةِ ذُهولِ النَّاسِ عن تذكُّرِ أمثالِها(٣).

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيه تقييدُ نَفيِ العِلمِ بالأكثَرِ؛ إشارةً إلى أنَّ منهم مَن يعلَمُ ذلك، ولكِنَّه يجحَدُه مكابرةً(٤).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٢٥) ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٠٠).

ويحتملُ أن يكونَ ذكَر الأكثَرَ، والمرادُ به الجميعُ؛ لأن عُظْمَ الشيءِ يقومُ مقامَ جميعِه، فذِكرُ الأكثرِ كذِكْرِ الجميعِ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ١٦٤).

- قولُه: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لافْتَدَتْ بِهِ﴾، فيه تقديمُ خبرِ (أنَّ) ﴿لِكُلِّ نَفْسٍ﴾ على الاسمِ ﴿ما﴾؛ للاهتمامِ بما فيه مِن العمومِ؛ بحيث يَنُصُّ على أنَّه لا تَسلَمُ نفسٌ مِن ذلك(١).

- وقولُه: ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ فيه التَّعبيرُ عن الإسرارِ المستقبَليِّ بلفظِ الماضي ﴿وَأَسَرُّوا﴾؛ تَنبيهًا على تحقيقِ وُقوعِه حتَّى كأنَّه قد مضَى، والمعنى: وسيُسِرُّون النَّدامةَ قطعًا، وكذلك قولُه: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾(٢).

- والعدولُ إلى صيغةِ الجمعِ ﴿وَأَسَرُّوا﴾ مع تحقُّقِ العمومِ في صورةِ الإفرادِ أيضًا (وأسَرَّت)؛ لإفادةِ تَهويلِ الخَطْبِ بكَونِ الإسرارِ بطريقِ المعيَّةِ والاجتماعِ، ولم يُراعَ ذلك فيما سبَق لتحقيقِ ما يُتوخَّى مِن فرضِ كَونِ جميعِ ما في الأرضِ لكلٍّ واحدةٍ من النُّفوسِ(٣).

٢- قَولُه تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ تذييلُ إنهاءٍ للكلامِ المتعلِّقِ بصدقِ الرَّسولِ والقرآنِ وما جاء به مِن الوعيدِ، وتَرقُّبِ يومِ البعثِ ويومِ نُزولِ العذابِ بالمشركين، وقد اشتَمل هذا التَّذييلُ على مُجمَلِ تفصيلِ ذلك الغرَضِ، وعلى تعليلِه بأنَّ مَن هذه شُؤونُه لا يَعجِزُ عن تَحقيقِ ما أخبَر بُوقوعِه، وافتُتِح هذا التَّذييلُ بحَرفِ التَّنبيهِ ﴿أَلَا﴾، وأُعيدَ فيه حرفُ التَّنبيهِ للتأكيدِ على استِماعِه، وللتَّنبيهِ على أنَّه كلامٌ جامعٌ هو مُحصِّلةُ الغرَضِ الَّذي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٥٤).

سَمِعوا تَفصيلَه آنِفًا(١)، وقيل: أعاد حرفَ التنبيهِ (ألا) تأكيدًا لتمييزِه تعالى بهذا التنبيهِ عما سبَقه؛ لأنَّه المقصودُ هنا بذاتِه، وإنَّما ذكر قبلَه للاستدلالِ عليه، أي كلُّ ما وعَد به على لسانِ رسلِه حقٌّ واقعٌ، لا ريبَ فيه؛ لأنَّه وعدُ المالكِ القادرِ على إنجازِ ما وعَد، لا يعجزُه منه شيءٌ(٢).

– وفيه تأكيدُ الخبرِ بحرفِ (إنَّ)؛ للرَّدِّ على المشركين؛ لأنَّهم لَمَّا جعَلوا للهِ شُرَكاءَ فقد جعَلوها غيرَ مَملوكةٍ للهِ، وكذلك أكَّد بحرفِ التَّوكيدِ (إنَّ) بعدَ حرفِ التَّنبيهِ (ألَا) في الموضِعَين؛ للاهتمامِ به، ولِرَدِّ إنكارِ مُنكِري بعضِه والَّذين هم بمَنزِلةِ المنكِرين بعضَه الآخَرَ(٣).

– وفي قولِه: ﴿إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تقديمُ خبَرِ إنَّ ﴿لِلَّهِ﴾ على اسمِها ﴿مَا﴾؛ للاهتمامِ باسمِه تعالى، ولإفادةِ القَصْرِ؛ لِرَدِّ اعتقادِهم الشَّركةَ(٤).

– وفي قولِه تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال اللهُ تعالى هنا: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، ثم قال بعدَ عشرِ آياتٍ مِن الآيةِ المذكورةِ: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ﴾ [يونس: ٦٦]، ثم قال بعدَ ذلك: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾ [يونس: ٦٨]، فقال في الآيةِ الأولى: ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، وفي الثَّانيةِ: ﴿مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٩٨- ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٩٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

فِي الْأَرْضِ﴾؛ وذلك لأنَّ الأُولى جاءَت بعدَ قولِه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ﴾ [يونس: ٥٤]، فكان المعنى: أنَّ النَّفْسَ الظَّالمةَ إذا رأَتْ عذابَ اللهِ تعالى لو مَلَكَت جميعَ ما في الأرضِ لبذَلَته في فداءِ نفسِها، وهي تَحرِصُ على اليَسيرِ مِن حُطامِها في ظُلمِ أهلِها؛ فكرَّر على ذلك بقولِه: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: إنَّ النَّفسَ الظَّالمةَ لا تَملِكُ ما في الأرضِ فتَفتَدي به، ولو ملَكَتْه لَما قُبِلَ في فِدائِها، وكيف يكونُ لها ذلك، واللهُ تعالى مالِكُ ما في السَّمواتِ والأرضِ، وليس للعبدِ ذلك، ولا مَحِلُّه هنالك؟! فناسَب لهذا المكان: (ما).

وأمَّا الموضعُ الَّذي ذُكِر فيه (مَن) فلم يَصِحَّ فيها غيرُها؛ لأنَّ قبلَه: ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ٦٥- ٦٦]، والمعنى: لا يَحزُنْك ما يتَوعَّدُك به الكفَّارُ مِن القتلِ وأنواعِ المكروهِ؛ فإنَّ العزَّةَ للهِ تعالى، لا يَمنَحُ الكفَّارَ قُدرةً على ما يُريدونه مِنك، بل يُعطيك القدرةَ عليهم، والغلَبَةَ لهم، فإنَّه يَملِكُ مَن في السَّمواتِ ومَن في الأرضِ، ولا قوَّةَ لهم إلَّا به، ولا قُدرةَ لهم إلَّا مِن عِندِه، فاقتضى هذا المكانُ (مَن)⁽¹⁾.

والسَّببُ في إعادةِ (مَن) في قولِه: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ٦٦]، وتَرْكِ إعادةِ (ما) في الآيةِ الأولى ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ٥٥]، فلَم يَقُلْ: (وما في الأرضِ): أنَّ المقصودَ بالذِّكرِ أنَّه قادرٌ على أن يَكفِيَ نَبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أمْرَه مِمَّن في الأرضِ

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٧٤٣-٧٤٥)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص:١٤١)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٤٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٤٨).

مِن الكفَّارِ الَّذين بُعِث إليهم، وخوَّفوه أذاهم؛ فقرَن إلى ذِكْرِهم ذِكْرَ مَن في السَّمواتِ، وهم أكبَرُ شأنًا وأعظَمُ أمرًا؛ فإذا مُلِكوا كان مَن دونهم أذوَنَ؛ فإعادةُ (مَن) مع ذِكرِ الأرضِ؛ للتَّوكيدِ الَّذي اقتَضاه القَصدُ إلى ذِكْرِهم. وأمَّا حذفُ (ما) في الآيةِ الأولى عندَ ذِكْرِ الأرضِ؛ فلأنَّ ذِكرَها قد تَقدَّم، وهو: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ٥٤]، فلمَّا قال: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، كان ما في ذِكْرِ الأرضِ هناك، ورُجوعُ هذا إلى ذلك المعنى مِثلُ ذِكْرِه في هذا الموضِعِ، فأغْنَى ذلك عن التَّكريرِ⁽¹⁾.

- ووجهُ تَكْرارِ (ما) في قولِه: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾ [يونس: ٦٨]، وحَذْفِها من الآيةِ الأولى: أنَّ قَبْلَه: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ٦٨]، فنزَّه نفْسَه تعالى عن الولَدِ، وأخبَر أنَّه غنيٌّ عمَّا يُجلَبُ باتِّخاذِه، ويُستفادُ بمَكانِه، إذ كان مالِكًا لكلِّ ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ، فكان الموضعُ موضعَ توكيدٍ؛ فكأنَّه قال: (إذا كان له كلُّ ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ، فلِماذا يتَّخِذُ الولدَ؟)، فإعادةُ (ما) في هذا المكانِ؛ لهذا الضَّربِ من التَّوكيدِ، أي: هو غنيٌّ لا يَحتاجُ إلى ولَدٍ يُعينُه على شيءٍ ممَّا في السَّمواتِ، وهو مالِكٌ له كلِّه، ولا إلى أن يُعينَه على شيءٍ ممَّا في الأرضِ، وهو مالِكٌ له بأسْرِه، فلمَّا تأكَّد الكلامُ في مثلِ هذا المكانِ جاءت (ما) مُعادَةً لهذا الشَّأنِ⁽²⁾.

---

(1) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٧٤٥)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص:١٤١)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٤٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٤٩).

(2) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٧٤٦-٧٤٧)، ((أسرار التكرار في =

– وفي قولِه تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ إظهارُ اسمِ الجلالةِ دونَ الإتيانِ بضَميرِه؛ لِتَفخيمِ شأنِ الوعدِ، والإشعارِ بعِلَّةِ الحُكمِ(١)، ولِتَكونَ الجملةُ مُستقلَّةً؛ لِتَجريَ مَجْرى المثَلِ، والكلامِ الجامعِ(٢).

* * *

= القرآن)) للكرماني (ص:١٤١)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٤٣-٢٤٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ١٩٩).

الآيتان (٥٧-٥٨)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿مَّوْعِظَةٌ﴾: الوعظُ: تخويفٌ، أو: زجرٌ مُقترنٌ بتَخويفٍ، وتذكيرٌ بالخيرِ وما يَرِقُّ له القلبُ(١).

المعنى الإجماليُّ:

يُوجِّهُ الله سُبحانَه نداءً إلى النَّاسِ كافَّةً، فيقولُ: يا أيُّها النَّاسُ، قد أتاكم من ربِّكم قرآنٌ يأمُرُكم ويزجُرُكم، ويرَقِّقُ قُلوبَكم، وهو دواءٌ للقلوبِ مِن الشَّهواتِ والشُّبُهاتِ، ورُشدٌ لِمن اتَّبَعه مِن الخَلقِ، فيُنجيه مِن الهلاكِ، وهو رحمةٌ يحصُلُ به الخيرُ والإحسانُ والثَّوابُ للمُؤمنينَ، ثمَّ أمر رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يقولَ: افرَحوا بالإيمانِ والقُرآنِ، لا بمتاعِ الدُّنيا، وأموالِها الزَّائلةِ؛ فذلك خيرٌ ممَّا يجمَعُه النَّاسُ مِن حُطامِها الفاني.

تَفسيرُ الآيتَين:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكَرَ الأدلَّةَ على الألوهيَّةِ والوحدانيَّةِ والقدرةِ؛ ذكَرَ الدلائِلَ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٢٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٠).

الدالَّةَ على صحَّةِ النبوَّةِ، والطَّريقَ المؤدِّيَ إليها وهو القُرآنُ، والمتَّصِفُ بهذه الأوصافِ الشَّريفةِ هو القُرآنُ⁽¹⁾.

وأيضًا لَمَّا بيَّنَ الله تعالى أنَّ الرَّسولَ حَقٌّ وصِدقٌ بظهورِ المُعجِزاتِ على يَدَيه، في قَولِه: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [يونس: ٣٧]، إلى قَولِه: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨] وصَفَ القرآنَ هنا بصفاتٍ أربعٍ: أوَّلُها: كونُه مَوعِظةً. وثانيها: كونُه شِفاءً لِما في الصُّدورِ. وثالثُها: كونُه هدًى. ورابعُها: كونُه رحمةً للعالَمينَ⁽²⁾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾.

أي: يا أيُّها النَّاسُ، قد أتاكم قرآنٌ يأمُرُكم ويزجُرُكم، ويرقِّقُ قُلوبَكم، وتَصلُحُ به أحوالُكم، مُنزَّلٌ مِن عندِ ربِّكم⁽³⁾.

﴿وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾.

أي: ودواءٌ للقُلوبِ مِن الشَّهَواتِ والشُّبُهاتِ، يشفي من الجَهلِ والشَّكِّ، والنِّفاقِ والغَيِّ⁽⁴⁾.

كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

وقال سُبحانه: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٠/ ٣٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩٣)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩٣)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٥٣)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ١٥، ٤٤ - ٤٦)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٤/ ٣٢٢، ٣٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٧).

وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٤].

﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

أي: وبيانٌ للحَلالِ مِن الحرامِ، ودليلٌ على الطَّاعةِ والمعصية، ورشدٌ لمن اتَّبَعه، وهو رحمةٌ يحصلُ به الخَيرُ والإحسانُ والثوابُ للمُؤمِنينَ(١).

كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

وقال سُبحانه: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

أنَّه يتفرَّعُ على كونِ القُرآنِ هُدًى ورحمةً للمُؤمِنينَ تَنبيهُهم إلى أنَّ ذلك فضلٌ مِن اللهِ عليهم ورحمةٌ بهم، يحِقُّ لهم أن يَفرَحوا بهما، وأن يَقْدُروا قَدْرَ نِعمَتِهما، وأن يعلَموا أنَّها نِعمةٌ تَفوقُ نعمةَ المالِ التي حُرِمَ منها أكثَرُ المؤمنينَ، ومُنِحَها أكثَرُ المُشرِكينَ(٢).

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ ﴾.

أي: قُلْ - يا مُحمَّدُ(٣) -: بالإسلامِ والقرآنِ فلْيَفرَحوا، لا بمتاعِ الدُّنيا الفانيةِ، وأموالِها الزَّائلةِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩٣، ١٩٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٠٣).

(٣) قيل: المرادُ: قُلْ للمُشرِكينَ. وممَّن اختار ذلك: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩٤، ١٩٨).

وقيل: المرادُ: قُلْ لجَميعِ النَّاسِ. وممَّن اختار ذلك: ابنُ عطيةَ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩٤، ١٩٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٤٩)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٣١). =

﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

أي: الإسلامُ والقُرآنُ خَيرٌ مما يجمَعُ النَّاسُ في الدُّنيا مِن مَتاعٍ وأموالٍ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾. قَولُه: ﴿وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ أي: دواءٌ للقُلوبِ مِن داءِ الجَهلِ والشبهاتِ والشهواتِ وغيرِها؛ لأنَّ داءَ الجهلِ أضرُّ للقلبِ مِن المَرَضِ للبَدَنِ، وأمراضُ القلبِ هي الأخلاقُ الذَّميمةُ، والعقائدُ الفاسدةُ، والجَهالاتُ المُهلِكةُ، والقرآنُ مُزيلٌ لهذه الأمراضِ كُلِّها؛ لأنَّ فيه المواعِظَ والزَّواجِرَ، والتخويفَ، والتَّرغيبَ والتَّرهيبَ، والتَّحذيرَ والتَّذكيرَ، فهو

= قال الواحدي: (قال ابنُ عباسٍ، ومجاهدٌ، والحسنُ، وقتادةُ: فضلُ الله الإسلامُ، ورحمتُه القرآنُ. وهذا قولُ عامةِ المفسِّرين). ((الوسيط)) (٢/ ٥٥١).

قال ابنُ القَيِّم: (قال أبو سعيدٍ الخُدريُّ: فضلُ الله: القرآنُ، ورحمتُه: أنْ جَعَلَكم مِن أهلِه، وقال هلالُ بنُ يساف: بالإسلامِ الذي هداكم إليه، وبالقرآنِ الذي علَّمَكم إيَّاه، هو خيرٌ مما تَجمَعون: من الذَّهَبِ والفِضَّةِ، وكذلك قال ابنُ عبَّاس والحَسَن وقتادة: فَضلُه: الإسلامُ، ورحمتُه: القرآنُ، وقالت طائفةٌ من السَّلَفِ: فَضلُه: القرآنُ، ورَحمتُه: الإسلامُ.

والتحقيقُ: أنَّ كُلًّا منهما فيه الوَصفانِ؛ الفَضلُ والرحمةُ، وهما الأمرانِ اللَّذانِ امتَنَّ الله بهما على رسولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ [الشورى: ٥٢]). ((إغاثة اللهفان)) (١/ ٣١).

وقال ابن عاشور: (لم يختلف المفسِّرون في أنَّ القرآنَ مرادٌ مِن فَضلِ اللهِ ورَحمتِه). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٠٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩٤، ١٩٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٠٥).

قال ابنُ عاشورٍ: (ضَميرُ ﴿يَجْمَعُونَ﴾ عائدٌ إلى النَّاسِ في قولِه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ﴾ [يونس: ٥٧] بقرينةِ السِّياقِ، وليس عائدًا إلى ما عاد إليه ضميرُ ﴿فَلْيَفْرَحُوا﴾؛ فإنَّ القَرائنَ تصرِفُ الضَّمائِرَ المُتشابِهةَ إلى مصارِفِها). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٠٥).

الشِّفاءُ لهذه الأمراضِ القَلبيَّةِ(١).

٢- قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ إذا حصل الهُدى، وحَلَّت الرَّحمةُ النَّاشِئةُ عنه، حصلتِ السَّعادةُ والفلاحُ، والرِّبحُ والنَّجاحُ، والفَرَح والسُّرورُ؛ ولذلك أمَرَ تعالى بالفَرَحِ بذلك، فقال: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾(٢).

٣- قال الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ إذا حَصَلَت اللَّذَّاتُ الرُّوحانيَّةُ، فإنَّه يجبُ على العاقِلِ ألَّا يفرَحَ بها من حيثُ هي هي، بل يجِبُ أن يفرَحَ بها من حيثُ إنَّها مِن اللهِ تعالى، وبفضلِ اللهِ وبرحمته(٣).

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ فيه كراهةُ تأسفِ القارئ والعالم على ضيقِ حالِه في الدُّنيا، واستحبابُ تذكرِه أنَّ ما أُوتي أفضلُ مما أُوتي أصحابُ الأموالِ(٤).

٥- نِعمةُ الدِّينِ المتَّصِلةُ بسَعادةِ الدَّارَينِ، لا نسبةَ بينها وبين جميعِ ما في الدُّنيا، ممَّا هو مُضمَحِلٌّ زائِلٌ عن قَريبٍ، قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ مِن مَتاعِ الدُّنيا ولذَّاتِها(٥).

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ إنَّما أمَرَ اللهُ تعالى بالفَرَحِ بفَضلِه ورَحمتِه؛ لأنَّ ذلك ممَّا يُوجِبُ انبساطَ النَّفسِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٧٠).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٤٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٦٦).

ونَشاطَها، وشُكرَها لله تعالى وقوَّتَها، وشِدَّةَ الرَّغبةِ في العِلمِ والإيمانِ الدَّاعي للازديادِ منهما، وهذا فَرَحٌ مَحمودٌ، بخلافِ الفَرَح بشهواتِ الدُّنيا ولذَّاتِها، أو الفَرَح بالباطلِ؛ فإنَّ هذا مذمومٌ⁽¹⁾.

٧- الفَرحُ في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ هو فرحُ القَلبِ، وهو مِن الإيمانِ، ويثابُ عليه العبدُ، فإنَّ فَرَحَه به يدلُّ على رضاه به، بل هو فَوقَ الرِّضا؛ لأنَّه يكونُ على قَدْرِ محبَّتِه، فإنَّ الفرحَ إنَّما يكونُ بالظَّفَر بالمحبوبِ، وعلى قَدْرِ محبَّتِه يفرحُ بحُصولِه له، فالفرَحُ باللهِ وأسمائِه وصِفاتِه، ورَسولِه وسُنَّتِه وكلامِه، محضُ الإيمانِ وصَفوتُه ولُبُّه، وله عبوديَّةٌ عجيبةٌ، وأثَرُ القَلبِ لا يعبَّرُ عنه، فابتهاجُ القَلبِ وسُرورُه وفَرَحُه باللهِ وأسمائِه وصِفاتِه، وكلامِه ورَسولِه ولقائِه؛ أفضَلُ ما يُعطاه، بل هو أجَلُّ عطاياه، والفَرَحُ في الآخرةِ باللهِ ولقائِه بحَسَبِ الفَرَحِ به ومحبَّتِه في الدُّنيا، فالفَرَحُ بالوصولِ إلى المحبوبِ يكونُ على حسَبِ قُوَّةِ المحبَّةِ وضَعفِها، فهذا شأنُ فَرَحِ القَلبِ⁽²⁾.

٨- قال الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ فبهذا الفَضلِ الذي آتاه اللهُ عِبادَه، وبهذه الرَّحمةِ التي أفاضَها عليهم من الإيمانِ، فبذلك وَحدَه فلْيَفرَحوا؛ فهذا هو الذي يستحِقُّ الفَرَحَ، لا المالُ ولا أعراضُ هذه الحياةِ، إنَّ ذلك هو الفرَحُ العُلويُّ الذي يُطلِقُ النَّفسَ من عِقالِ المَطامعِ الأرضيَّةِ، والأعراضِ الزَّائلةِ، فيَجعَلُ هذه الأعراضَ خادمةً للحياةِ لا مَخدومةً، ويَجعَلُ الإنسانَ فَوقَها وهو يستمتِعُ بها، لا عبدًا خاضعًا لها، والإسلامُ لا يُحقِّرُ أعراضَ الحياةِ الدُّنيا لِيَهجُرَها النَّاسُ ويَزهَدوا فيها، إنما هو يَزِنُها بوَزنِها؛ ليَستمتِعَ بها النَّاسُ وهم أحرارُ الإرادةِ، طُلَقاءُ اليدِ، مَطمَحُهم أعلَى

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٦٦).

(٢) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ٢٤٨).

مِن هذه الأعراضِ، وآفاقُهم أسمَى مِن دنيا الأرضِ، الإيمانُ عندهم هو النِّعمةُ، وتأديةُ مُقتَضياتِ الإيمانِ هي الهدَفُ، والدُّنيا بعد ذلك مملوكةٌ لهم، لا سُلطانَ لها عليهم(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ المرادُ بما جاءَهم وبَلَغَهم هو ما أُنزِلَ من القرآنِ، وقُرِئَ عليهم، وقد عبَّرَ عنه بأربعِ صِفاتٍ هي أصولُ كَمالِه وخَصائِصِه وهي: أنَّه مَوعِظةٌ، وأنَّه شِفاءٌ لِما في الصُّدورِ، وأنَّه هُدًى، وأنَّه رَحمةٌ للمُؤمِنينَ(٢).

٢- قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فالقُرآنُ شِفاءٌ لما في الصُّدورِ مِن مَرَضِ الجهلِ والغَيِّ؛ فإنَّ الجَهلَ مَرَضٌ شفاؤه العِلمُ والهُدى، والغَيَّ مَرَضٌ شِفاؤُه الرُّشدُ(٣).

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ جعَلَه تبارك وتعالى رحمةً للمُؤمنينَ به دونَ الكافرينَ به؛ لأنَّ مَن كفَرَ به فهو عليه عَمًى، وفي الآخرةِ جزاؤُه على الكُفرِ به الخلودُ في لظَى(٤).

٤- قال تعالى: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ الهدُى أجلُّ الوسائِلِ، والرَّحمةُ أكمَلُ المقاصِدِ والرَّغائِبِ(٥).

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ دخولُ

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٧٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٩٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٧).

الباءِ على كلٍّ مِن الفَضلِ والرَّحمةِ هنا يدلُّ على استقلالِ كلٍّ منهما بالفَرَحِ به[1].

٦- شَرَعَ اللهُ لهذه الأُمَّةِ الفرحَ والسرورَ بتمامِ نِعمَتِه وكمالِ رَحمَتِه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾[2].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ لا تَنافي بين الأمرِ بالفَرَحِ هنا، وبين النَّهيِ عنه في قَولِه تعالى: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص:٧٦] لاختلافِ المتعَلَّقِ، فالمأمورُ به هنا الفَرَحُ بفَضلِ اللهِ وبرَحمتِه، والمنهيُّ هناك الفَرَحُ بجَمعِ الأموالِ لرئاسةِ الدُّنيا، وإرادةِ العُلُوِّ بها، والفَسادِ والأَشَرِ[3].

بَلاغةُ الآيتينِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾

- قولُه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ فيه الْتِفاتٌ، ورجوعٌ إلى استِمالَتِهم نحوَ الحقِّ، واستنزالِهم إلى قَبولِه واتِّباعِه، بعدَ تحذيرِهم مِن غَوائلِ الضَّلالِ بما تُلِيَ عليهم مِن القوارِعِ النَّاعيةِ عليهم سوءَ عاقبتِهم، وإيذانٌ بأنَّ جميعَ ذلك مَسوقٌ لِمَصالِحِهم ومَنافِعِهم[4].

- وافتِتاحُ الكلامِ بـ ﴿قَدْ﴾؛ لِتَأكيدِه؛ لأنَّ في المُخاطَبين كثيرًا ممَّن يُنكِرُ هذه الأوصافَ للقرآنِ[5].

- قولُه: ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ فيه التَّعرُّضُ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ، وهو حَسنُ الموقِعِ هنا؛

---

[1] يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٣٣).

[2] يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (١/ ١٦٠).

[3] يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٧٦).

[4] يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٥٥).

[5] يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٠١).

ففيه تنبيهٌ على أنَّها بالغةٌ غايةَ كَمالِ أمثالِها(١)، وتذكيرٌ بما يَزيدُها تعظيمًا، وتبيينٌ لوجوبِ الاتِّعاظِ بها إيمانًا وتسليمًا؛ لأنَّها مِن مالكِ أمرِ النَّاسِ، ومُرَبِّيهم بفَضلِه ورَحمتِه، وعِلمِه وحِكمتِه(٢).

- وقَولُه تعالى: ﴿وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾ خُصَّ الصَّدرُ بالذِّكرِ؛ لأنَّه مَوضِعُ القَلبِ وغيرِه، وهو أعزُّ مَوضعٍ في الإنسانِ لِمكانِ القَلبِ(٣).

- وفيه تنكيرُ كلٍّ مِن ﴿مَوْعِظَةٌ﴾ ﴿وَشِفَاءٌ﴾ ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾؛ للتَّفخيمِ(٤).

٢- قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾

- قولُه: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ فيه تلوينٌ للخِطابِ، وتوجيهٌ له إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ ليَأمرَ النَّاسَ بأن يَغتنموا ما في القرآنِ العظيمِ مِن الفضلِ والرَّحمةِ(٥).

- وأيضًا في قولِه: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ فيه حذفُ أحَدِ الفِعلَينِ؛ لِدَلالةِ المذكورِ عليه؛ إذ أصلُ الكلامِ: (بِفَضلِ اللهِ وبِرحمتِه فَلْيَفرَحوا، فبذلك فَليَفرحوا)، والتَّكريرُ للتَّأكيدِ والتَّقريرِ(٦).

- وأخَّرَ الأمرَ، وقدَّمَ عليه متعَلَّقَه؛ لإفادةِ الاختصاصِ؛ فإنَّ أصلَ المعنى بدونِهما: (قُل لِيَفرَحوا بفضلِ الله وبِرَحمتِه)، كأنَّه قال: (إنْ كان في الدنيا

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٥٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ١٥٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٥٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٧٥).

شيءٌ يستَحِقُّ أن يُفرَحَ به، فهو فضلُ اللهِ ورَحمتُه)⁽¹⁾.

- والإشارةُ في قولِه: ﴿فَبِذَلِكَ﴾ للمذكورِ، وهو مجموعُ الفضلِ والرَّحمةِ، واخْتِير للتَّعبيرِ عنه اسمُ الإشارةِ (ذَلِكَ)؛ لِما فيه مِن الدَّلالةِ على التَّنويهِ والتَّعظيمِ، مع زيادةِ التَّمييزِ والاختصارِ⁽²⁾.

* * *

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٠٤).

الآيتان (٥٩-٦٠)

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ
أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ
يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

المَعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ تعالى رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يقولَ للمُشركينَ: أخبِروني عن هذا الرِّزقِ الذي خلَقَه اللهُ لكم، فأحللتُم بعضَ ذلك لأنفُسِكم، وحرَّمتُم بَعضَه، قلْ لهم: هل اللهُ أباح لكم تحليلَ ما أحلَلْتُم، وتحريمَ ما حرَّمتُم، أم أنَّكم تَختَلِقونَ عليه الكَذِبَ؟!

ثمَّ توعَّدَهم سبحانَه بسوءِ المَصيرِ على جُرأتِهم وكَذِبِهم، فقال: وما يظُنُّ هؤلاءِ الذينَ يتخَرَّصونَ على اللهِ الكَذِبَ، أنَّ اللهَ فاعِلٌ بهم يومَ القيامةِ بكَذِبِهم وفِرِيَتِهم عليه؟! أيحسَبونَ أنَّه سيترُكُهم بدونِ عِقابٍ؟ كلَّا، إنَّ عقابَهم لَشديدٌ بسببِ افترائِهم عليه الكَذِبَ، إنَّ اللهَ لذو فَضلٍ على خَلْقِه بنِعَمِه الكثيرةِ، والتي منها تسخيرُه نِعَمَ الدُّنيا لهم، وإمهالُه العاصينَ وعدمُ مُعاجَلتِهم بالعقوبةِ، ولكنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَشكرونَ اللهَ على تفضُّلِه عليهم بذلك.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ النبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ الدَّلائِلَ الكثيرةَ على صِحَّةِ نُبُوَّةِ نَفسِه، وبيَّنَ فسادَ سؤالاتِهم وشُبُهاتِهم في إنكارِها- أتبَعَ ذلك ببيانِ فَسادِ طَريقتِهم في شرائِعِهم

وأحكامِهم، وبيَّنَ أنَّ التَّمييزَ بين هذه الأشياءِ بالحِلِّ والحُرمةِ- مع أنَّه لم يشهَدْ بذلك لا عَقلٌ ولا نَقلٌ- طريقٌ باطِلٌ، ومَنهجٌ فاسِدٌ، والمقصودُ إبطالُ مذاهِبِ القومِ في أديانِهم وفي أحكامِهم، وأنَّهم ليسُوا على شيءٍ في بابٍ مِن الأبوابِ(١).

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ تعالى قولَه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [يونس: ٥٧]، وكان المرادُ بذلك كتابَ اللهِ المُشتَمِلَ على التَّحليلِ والتَّحريمِ- بَيَّنَ فسادَ شَرائِعِهم وأحكامِهم من الحلالِ والحرامِ مِن غَيرِ مُستَنَدٍ في ذلك إلى وَحيٍ(٢).

وأيضًا فهذا الكلامُ وقَع عقبَ ما تقدَّم مِن تكذيبِهم بالقرآنِ، وادعائِهم أنَّه مفترى، وأنَّه ليس بحقٍّ، ثم إبطالِ أن يكونَ القرآنُ مفترًى على اللهِ؛ لأنَّه اشتَمل على تفصيلِ الشريعةِ، وتصديقِ الكتبِ السالفةِ، ولأنَّه أعجزَ مكذِّبيه عن معارضتِه، فلما استوفَى ذلك بأوضحِ حجَّةٍ، وبانَتْ لقاصدِ الاهتداءِ المحجةُ، لا جرَمَ دالت النوبةُ إلى إظهارِ خَطلِ عقولِهم، واختلالِ تكذيبِهم(٣).

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾.

أي: قُلْ- يا مُحمَّدُ- للمُشركينَ: أخبِروني عن الرِّزقِ الذي خَلقَه اللهُ لكم، فجعَلْتُم بعضَه حرامًا عليكم، وبَعضَه حلالًا لكم(٤).

﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٠٧-٢٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٠١)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٣٥، ٢٣٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٧).

ومعنى إنزالِ الرزق: كونُه مقَدَّرًا في السماءِ، محصَّلٌ هو أو ما يتوقَّفُ عليه وجودًا أو بقاءً بأسبابٍ سَماويَّةٍ، كالمطرِ الذي ينزِلُ من جهةِ العلوِّ. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٥٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٠٩).

أي: قُلْ - يا مُحمَّدُ - للمُشرِكينَ: آللَّهُ أذِنَ لكم بأن تُحَرِّموا ما حرَّمتُم، وتُحِلُّوا ما أحلَلْتُم، أم أنَّكم تَكذِبونَ على اللهِ في ذلك[1]؟!

كما قال سُبحانه: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: ٢١].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦].

وقال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ * وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٣٨-١٣٩].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

---

[1] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٠١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٢٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٧).
قال أبو حيان: (والظَّاهِرُ أنَّ «أم» مُتَّصِلةٌ، والمعنَى: أخْبِروني آللَّهُ أذِنَ لكم في التَّحليلِ والتحريمِ، فأنتم تفعلونَ ذلك بإذنِه، أم تكذبونَ على اللَّه في نسبةِ ذلك إليه؟ فنبَّه بتوقيفِهم على أحدِ القسمينِ، وهم لا يمكنُهم ادِّعاءُ إذنِ اللَّه في ذلك فثَبَت افتراؤُهم. وقال الزمخشري: ويجوزُ أن تكونَ الهمزةُ للإنكارِ، و(أم) منقطعةٌ بمعنى (بل) أتفترونَ على الله تقريرًا للافتراءِ. انتهَى). ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٧٧)، ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٥٤).

﴿ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا كان قد مضَى من أدلَّةِ المعادِ ما صَيَّرَه كالشَّمسِ، وكان افتراؤُهم قد ثبت بعَدَمِ قُدرتِهم على مُستنَدٍ بإذنِ اللهِ لهم في ذلك؛ قال مشيرًا إلى أنَّ القيامةَ ممَّا هو معلومٌ لا يَسوغُ إنكارُه(١):

﴿ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾.

أي: وما ظنُّ الذين يتقوَّلونَ على اللهِ الكَذِبَ أن يَحُلَّ بهم يومَ القيامةِ مِن النَّكالِ؟ أيحسَبونَ أنَّ اللهَ لا يُعاقِبُهم به(٢)؟!

كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾.

أي: إنَّ اللهَ لَصاحِبُ تفَضُّلٍ على النَّاسِ بنِعَمِه الكثيرةِ؛ ومنها: ما سخَّره لهم من نِعَمِ الدُّنيا وأباحه لهم، ومنها إمهالُ العاصِينَ، وعَدَمُ معاجَلتِهم بالعقوبةِ، ولكِنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَشكُرونَ اللهَ على ما تفضَّلَ به مِن نِعَمٍ، بل يستعينون بها على مَعصِيتِه، ويحرِّمون بَعضَها(٣).

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٠٣)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٧).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ فيه إنكارٌ على من حَرَّمَ ما أحَلَّ الله، أو أحَلَّ ما حرَّمَ، بمجَرَّدِ الآراءِ والأهواءِ التي لا مُستنَدَ لها، ولا دليلَ عليها(١)، وكفَى بهذه الآيةِ زاجرةً زجْرًا بليغًا عن التَّجوُّزِ فيما يُسأَلُ عنه مِن الأحكام، وباعثًا على وُجوبِ الاحتياطِ فيه(٢).

الفَوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا﴾ عبَّرَ عن الخَلْقِ بالإنزالِ؛ تنبيهًا على أنَّه شَيءٌ لا يُمكِنُ للمُشركينَ ادِّعاؤه لأصنامِهم؛ لنزولِ أسبابِه من موضِعٍ لا تعلُّقَ لهم به بوجهٍ(٣).

٢- الأصلُ في العباداتِ التَّوقيفُ، فلا يُشرَعُ منها إلَّا ما شَرَعه اللهُ تعالى، وإلَّا دخَلْنا في معنى قَولِه تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]. والعاداتُ الأصلُ فيها العفوُ، فلا يُحظَرُ منها إلَّا ما حَرَّمَه، وإلَّا دَخَلْنا في معنى قَولِه تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا﴾(٤).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٥٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٤٨).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٩/ ١٧).

وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ فيه أنَّ كُلَّ ما خلقَه اللهُ تعالى للنَّاسِ، وسَخَّرَه من سائرِ مَنافعِ الكونِ، الأصلُ فيه الإباحةُ كالرِّزقِ، ويؤخَذُ من هذه الآيةِ بالفحوَى، وبناءِ المِنَّةِ فيه على كَونه منه تعالى⁽¹⁾.

٤- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُم مِن رِزْقٍ فَجَعَلْتُم مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ ذَمٌّ لمَن دانَ بغير شرعِ اللهِ سبحانه⁽²⁾.

٥- الإذنُ المذكورُ في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُم مِن رِزْقٍ فَجَعَلْتُم مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ هو إذْنٌ شرعيٌّ - وهو ما يأمرُ به سبحانَه ويَرضاه - وأمَّا الإذنُ الكَونيُّ، فهو كقولِه تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢] أي: بمَشيئتِه وقدَرِه⁽³⁾.

٦- إنَّ المشركين قد ارتكبوا في دينِهم بما يلزمُهم منه مماثلةُ الحالةِ التي أنكروها، فإنَّهم قد وضعوا دينًا، فجعلوا بعضَ أرزاقِهم حلالًا لهم، وبعضَها حرامًا عليهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُم مِن رِزْقٍ فَجَعَلْتُم مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ فإن كان ذلك حقًّا بزعمِهم، فمَن الذي أبلَغهم تلك الشرائعَ عن الله، ولماذا تقبَّلوها عمَّن شرَعها لهم، ولم يكذِّبوه، وهم لا يستطيعون أن يلتزموا ذلك، وإن كان ذلك مِن تلقاءِ أنفسِهم فقد افتروا على الله، فلزمهم ما ألصقوه بالنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم فعلق بهم، وبرأ الله منه رسولَه، فهذا الاستدلالُ مِن الطريقِ المسمَّى بالقلبِ⁽⁴⁾

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٤/ ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٨٢).

(٤) المعارضةُ على سبيلِ القلبِ: هي معارضةُ دليلِ المعللِ بعينِ دليلِه، وإيضاحُه أن يقولَ له: دليلُك هذا ينتجُ نقيضَ دعواك، فهو حجةٌ عليك لا لك، وسُمِّيت معارضةً بالقلبِ؛ لأنَّه =

في علمِ الجدلِ(١).

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ هذه الآيةُ وإن كانت في صُورةِ الاستعلامِ، إلَّا أنَّ المرادَ منها تعظيمُ وعيدِ مَن يَفتَري عليه تعالى(٢).

٨- قولُ الله تعالى: ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فيه سؤالٌ: أنَّ هذا تهديدٌ، فكيف ناسَبَه قَولُه بعدُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾؟ الجواب: هو مُناسِبٌ لأنَّ مَعناه: إنَّ الله لذو فَضلٍ على النَّاسِ؛ حيث أنعمَ عليهم بالعَقلِ، وإرسالِ الرُّسُلِ، وتأخيرِ العذابِ، وفتحِ بابِ التَّوبةِ، أي: كيف تَفتَرونَ على اللهِ الكَذِبَ مع تضافُرِ نِعَمِه عليكم(٣)؟!

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾

- قولُه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾، الاستفهامُ في ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ و﴿آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ تقريريٌّ، باعتبارِ إلزامِهم بأحَدِ الأمْرَينِ؛ إمَّا أن يكونَ اللهُ أَذِن لهم، أو أنْ يكونوا مُفتَرين على اللهِ، وقد شِيبَ التَّقريرُ في ذلك بالإنكارِ(٤).

- و﴿قُلْ﴾ الثَّاني تأكيدٌ لـ﴿قُلْ﴾ الأوَّلِ، وهو معترِضٌ بينَ جملةِ الاستفهامِ

= قَلْب عليه دليلَه بعينِه حجةً عليه لا له. يُنظر: ((آداب البحث والمناظرة)) للشنقيطي (ص: ٧٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٤٩-٢٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٠٨).

الأولى وجملةِ الاستفهامِ الثَّانيةِ؛ لزيادةِ إشرافِ الأسماعِ عليه(١).

- قولُه: ﴿أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ و(أَمْ) متَّصِلةٌ، والاستفهامُ للتَّقريرِ والتَّبكيتِ؛ لتَحقُّقِ العلمِ بالشِّقِّ الأخيرِ قطعًا، كأنَّه قيل: أم لم يَأذَنْ لكم، بل تَفتَرون عليه سُبحانه؛ ويجوزُ أن يكون الاستفهام للإنكارِ، و﴿أَمْ﴾ منقطِعةٌ، بمعنى: بَلْ أتَفْتَرون على اللهِ؛ تقريرًا للافتراءِ(٢).

- وفيه: إظهارُ الاسمِ الجليلِ، وتقديمُه على الفعلِ ﴿تَفْتَرُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على كمالِ قُبحِ افترائِهم، وتأكيدًا للتَّبكيتِ إثْرَ تأكيدٍ، مع مُراعاةِ الفَواصلِ(٣).

- واختيارُ الاستدلالِ عليهم بشيءٍ مِن تشريعِهم في خصوصِ أرزاقِهم في قولِه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا...﴾ يزيدُ هذا الاستدلالَ مناسبةً بآخرِ الكلامِ الذي قبلَه؛ ليظهرَ ما فيه مِن حسنِ التخلُّصِ إليه، وذلك أنَّ آخرَ الكلامِ المتقدِّمِ جملةُ ﴿هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾، أي: مِن أموالِهم، وتلك الأموالُ هي التي رزَقهم الله إيَّاها، فجعَلوا منها حلالًا، ومنها حرامًا، وكفَروا نعمةَ الله؛ إذ حرَّموا على أنفسِهم مِن طيِّباتِ ما أعطاهم ربُّهم، وحسبُهم بذلك شناعةً بهم ملصقةٌ، وأبوابًا مِن الخيرِ في وجوهِهم مغلقةٌ(٤).

٢- قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ (ما) للاستفهامِ، وهذا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٠٧-٢٠٨).

الاستفهامُ مُستعمَلٌ هنا في التَّعجُّبِ مِن حالِهم، والمقصودُ به: التَعريضُ بالمشرِكين؛ لِيَستَفيقوا مِن غَفلتِهم، ويُحاسِبوا أنفُسَهم⁽¹⁾.

- وأبْهَمَ الأمرَ، أي: لم يُوضِّحْ جَزاءَهم، على سبيلِ التَّهديدِ والإبعادِ يومَ يكونُ الجزاءُ بالإحسانِ والإساءةِ⁽²⁾.

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ العدولُ عن مُقتَضى الظَّاهرِ إلى الإتيانِ بالموصولِ بالصِّلةِ المختصَّةِ بهم: ﴿الَّذِينَ يَفْتَرُونَ...﴾- إذ كان مُقتَضى الظَّاهرِ أن يُؤتى بضَميرِ (هُم) مُضافًا إليه الظَّنُّ، إمَّا ضميرَ خطابٍ أو غَيبةٍ، فيُقالَ: (وما ظَنُّكم) أو (وما ظنُّهم)؛ للتَّنبيهِ على أنَّ التَّرديدَ بين أن يَكونَ اللهُ أَذِنَ لهم فيما حرَّموه، وبين أن يَكونوا مُفتَرين عليه قد انحصَر في القسمِ الثَّاني، وهو كونُهم مُفتَرين؛ إذ لا مَساغَ لهم في ادِّعاءِ أنَّه أَذِنَ لهم، فإذا تعيَّن أنَّهم مُفتَرون، فقد صار الافتراءُ حالَهم المختصَّ بهم، وفي الموصولِ إيذانٌ بعِلَّةِ التَّعجُّبِ مِن ظنِّهم بأنفُسِهم يومَ القيامةِ⁽³⁾

- قولُه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ تذييلٌ للكلامِ المفتتَحِ بقوبه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧]، وفيه قطعٌ لِعُذرِ المشركين، وتَسجيلٌ عليهم بالتَّمرُّدِ بأنَّ اللهَ تفضَّل عليهم بالرِّزقِ والموعظةِ والإرشادِ، فقابَلوا ذلك بالكفرِ دون الشُّكرِ، وجعَلوا رِزقَهم أنَّهم يُكذِّبون، في حينِ قابَله المؤمِنون بالفرَحِ والشُّكرِ فانتفَعوا به في الدُّنيا والآخرةِ⁽⁴⁾، مع ما فيه من التَّأكيدِ بـ(إنَّ) واللامِ واسْميَّةِ الجملةِ.

- وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢١٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٢١١).

مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال اللهُ تعالى هنا: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾، وكذلك في سورةِ النَّملِ قال: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [النمل: ٧٣]، وأمَّا في البقرةِ ويوسُفَ وغافرٍ، فقال: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣، يوسف: ٣٨، غافر: ٦١]، ووجهُ ذلك: أنَّ في سورةِ يونُسَ تقدَّم قولُه: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥٥] فوافَقه، وفي غيرِها جاء بلفظِ الصَّريحِ⁽¹⁾، وأيضًا لأنَّ آيةَ غافرٍ لَمَّا تقدَّمها قولُه تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧]، ومقصودُ هذه الآيةِ تحريكُ الخلقِ للاعتبارِ، والتَّذكيرُ بما نصَب سبحانه مِن الدَّلائلِ والآياتِ؛ فاقتَضى ذلك تَكرارَ الظَّاهرِ، كما في آيةِ التَّذكيرِ والتَّنبيهِ، ثمَّ جيءَ بعدَ هذا بقولِه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾؛ فنُوسِبَ بينَ هذا وبينَ ما تقدَّم؛ لِتَجيءَ هذه الآياتُ على مِنهاجٍ واحدٍ مِن التَّذكيرِ، فاقتضَتِ الثَّانيةُ تَكريرَ الظَّاهرِ. وأمَّا آيةُ يونُسَ فإنَّما تقدَّمها تأنيسٌ بقولِه تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا...﴾ الآيةَ [يونس: ٥٨]، ثمَّ رجَع الكلامُ إلى تَعنيفِ الكُفَّارِ في تَحْكيمِهم، فقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩]، ثمَّ قال: ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾، ولم يتقدَّمْ تَكريرٌ يُطلَبُ بمُناسَبةٍ؛ فلِذلك ورَد الكلامُ على ما هو الأصلُ مِن الإتيانِ بالضَّميرِ؛ لِيَحصُلَ به ربطُ الكلامِ، فجاء كلٌّ مِن الموضِعَينِ على ما يَقتَضيه ما قَبلَه؛ رَعيًا لِتَناسُبِ الكلامِ⁽²⁾.

* * *

---

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص:١٤١).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٤٦).

الآيات (٦١-٦٤)

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ (٦١) أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (٦٤) ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تُفِيضُونَ﴾: أي: تأخُذونَ فيه، وتَخوضونَ، وأصلُ (فيض): يدلُّ على جَرَيانِ الشَّيءِ بسُهولةٍ[1].

﴿يَعْزُبُ﴾: أي: يَبعُدُ ويَغيبُ، وأصلُ (عزب): يدلُّ على تباعُدٍ وتنَحٍّ[2].

﴿مِثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾: أي: زنةِ نملةٍ صغيرةٍ، يقالُ: هذا على مثقالِ هذا أي: على وزنِ هذا، وأصلُ (ثقل): ضدُّ الخفةِ، والذَّرَّةُ هي أصغرُ النَّملِ، وتُطلَقُ كذلك على ما لا وزنَ لها، وما يرفعُه الريحُ مِن الترابِ، وأجزاءِ الهواءِ في الكوةِ[3]، وأصلُ (ذَرَّ): يَدُلُّ على لَطافَةٍ وانتشارٍ[4].

---

[1] يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٦٥)، ((السفردات)) للراغب (ص: ٦٤٨).

[2] يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٧، ٣٥٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣١٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٢).

[3] الكوةُ- بفتحِ الكافِ وضمِّها- : الخرقُ في الحائطِ ونحوِه. يُنظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٣٩/ ٤٢٥).

[4] يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص ٤٥٥)، =

مشكلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾

﴿مِنْ مِثْقَالِ﴾: فاعلٌ لـ ﴿يَعْزُبُ﴾ مرفوعٌ محلًّا، مجرورٌ لَفظًا، و (مِنْ) حرفُ صِلةٍ، ﴿وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ﴾ (ولا): الواوُ عاطفةٌ. (لا) زائدةٌ؛ لتأكيدِ النفيِ. (أصغَرَ وأكبرَ) مجروران عطفًا على لفظِ ﴿مِثْقَالِ﴾، أو على ﴿ذَرَّةٍ﴾، وجرُّهما بالفتحةِ نيابةً عن الكسرةِ؛ لأنَّهما ممنوعانِ مِن الصَّرفِ؛ للوَصفيَّةِ ووَزنِ الفِعلِ. و﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾: أي: إلَّا هو في كتابٍ، والاستثناءُ مُنقطِعٌ. وقيل: (لا) فيهما نافيةٌ للجنسِ و (أصغر) و(أكبر) اسماها، فهما مَبْنيانِ على الفتحِ. ويوقَفُ على ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ ومَا بعدَهَا مُستَأْنف ليس معطوفًا على ما قبلَه. و﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ (إلَّا) أداةُ حصرٍ، و (فِي كِتَابٍ) متعلِّقٌ بمحذوفِ خبرِ (لا) النافيةِ للجنسِ.

وقُرِئ: ﴿وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ﴾ بالرفعِ فيهما عطفًا على محلِّ ﴿مِثْقَالِ﴾؛ لأنَّه في موضعِ رفعٍ بـ ﴿يَعْزُبُ﴾. أو هو مبتدأٌ، و (في كتاب) متعلقٌ بمحذوفِ خبرٌ له(١).

المَعنَى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: وما تكونُ- يا مُحمَّدُ- في أيِّ عملٍ من الأعمالِ، وما تتلو من سورةٍ من القُرآنِ، ولا تعملونَ- أيُّها النَّاسُ- عملًا مِن خَيرٍ أو شَرٍّ، صغيرًا أو كبيرًا، إلَّا واللهُ مطَّلِعٌ عليكم، حين تأخُذونَ فيه وتَعمَلونَه، فنَحفَظُه عليكم

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٨٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦٧)، ، ((تاج العروس)) للزبيدي (٢٨/ ١٥٧).

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٣٤٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٦٧٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٢٣٠)، ((مغني اللبيب)) لابن هشام (ص: ٣١٧).

ونَجزيكم به، وما يغيبُ عن ربِّك- يا مُحمَّدُ- مِن زِنةِ نَملةٍ صَغيرةٍ في الأرضِ ولا في السَّماءِ، ولا أصغَرِ الأشياءِ ولا أكبَرِها، إلَّا وهو في لوحٍ مَحفوظٍ مكتوبٍ فيه كلُّ شَيءٍ، ألَا إنَّ مَن تولَّاهم اللهُ تعالى بنَصرِه ومحَبَّتِه ورعايتِه، لا خوفٌ عليهم ممَّا يَستَقبِلونَه، ولا هم يَحزنونَ على ما فاتهم، وهؤلاء الأولياءُ هم الذين آمنوا بما وجبَ عليهم الإيمانُ به، وكانوا يتَّقونَ اللهَ بامتثالِ أوامِرِه، واجتنابِ نواهيه، فلهؤلاءِ الأولياءِ البُشرى مِن اللهِ في الحياةِ الدُّنيا وفي الآخرةِ بما يَسُرُّهم، لا تغييرَ لِقَولِ اللهِ، ولا خُلْفَ لوَعدِه، ذلك هو الفوزُ العظيمُ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أطال اللهُ تعالى الكلامَ في أمرِ الرَّسولِ، بإيرادِ الدَّلائلِ على فسادِ مذاهِبِ الكفَّارِ، وفي أمْرِه بإيرادِ الجَوابِ عن شُبُهاتِهم، وفي أمرِه بتحَمُّلِ أذاهم، وبالرِّفقِ معهم- ذكَرَ هذا الكلامَ ليحصُلَ به تمامُ السَّلوةِ والسُّرورِ للمُطيعينَ، وتمامُ الخوفِ والفَزَعِ للمُذنبينَ، وهو كونُه سُبحانَه عالِمًا بعمَلِ كُلِّ واحدٍ، وبما في قَلْبِه من الدَّواعي والصَّوارفِ؛ فإنَّ الإنسانَ ربَّما أظهَرَ مِن نفسِه نُسُكًا وطاعةً، وزُهدًا وتقوى، ويكونُ باطِنُه مملوءًا من الخَبَثِ، وربما كان بالعَكسِ مِن ذلك، فإذا كان الحَقُّ سُبحانَه عالِمًا بما في البواطِنِ، كان ذلك من أعظَمِ أنواعِ السُّرورِ للمُطيعينَ، ومن أعظَمِ أنواعِ التَّهديدِ للمُذنِبينَ(١).

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ الله تعالى جُملةً مِن أحوالِ الكُفَّارِ ومذاهِبِهم، والرَّدَّ عليهم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٧٢).

ومحاورةَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لهم، وذكَرَ فَضْلَه تعالى على النَّاسِ، وأنَّ أكثَرَهم لا يشكُرُه على فَضلِه- ذكَرَ تعالى اطِّلاعَه على أحوالِهم وحالِ الرَّسولِ معهم في مجاهَدتِه لهم، وتلاوةِ القرآنِ عليهم، وأنَّه تعالى عالمٌ بجميعِ أعمالِهم، واستطرَدَ من ذلك إلى ذِكرِ أولياءِ الله تعالى، ليُظهِرَ التفاوتَ بين الفريقينِ؛ فريقِ الشَّيطانِ وفَريقِ الرَّحمنِ(١).

وأيضًا لَمَّا ذكَّرَ اللهُ تعالى عبادَه بفَضلِه، وما يجِبُ عليهم مِن شُكرِه، وبكونِ أكثَرِهم لا يَشكرونَه كما يجِبُ عليهم- عطفَ على ذلك تذكيرَه لهم بإحاطةِ عِلمِه بشُؤونِهم وأعمالِهم كُلِّها؛ صغيرِها وكبيرِها، جليلِها وحقيرِها، وبكُلِّ ما في العوالِمِ عُلويِّها وسُفليِّها؛ ليحاسِبُوا أنفُسَهم على تقصيرِهم في ذِكْرِه وشُكرِه وعبادتِه(٢).

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾.

أي: وما تكونُ- يا محمَّدُ(٣)- في أيِّ عملٍ من الأعمالِ، وما تتلو من سورةٍ مِن القرآنِ، ولا تعملونَ- أيُّها النَّاسُ- مِن عَمَلٍ صغيرٍ أو كبيرٍ، من خيرٍ أو شَرٍّ، إلَّا واللهُ مطَّلِعٌ عليكم حين تأخذونَ فيه، وتَقومونَ به(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٣٨).

(٣) قال الواحدي: (الخطابُ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأُمَّتُه داخلونَ في هذا الخطابِ؛ لأنَّ خِطابَ الرَّئيسِ خطابٌ له ولأتباعِه، يدلُّ على هذا قَولُه: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾. ((الوسيط)) (٢/ ٥٥٢).

ومِمَّن ذهَب إلى ذلك: ابنُ عطيةَ والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢١١-٢١٣). =

﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ﴾.

أي: وما يغيبُ عن رَبِّك- يا مُحمَّدُ- وزنُ نَملةٍ صَغيرةٍ في الأرضِ ولا في السَّماءِ، ولا أصغَرَ مِن ذلك ولا أكبَرَ، فلا يخفَى عليه سبحانَه أصغرُ الأشياءِ، وإنْ خفَّ في الوزنِ كلَّ الخِفَّةِ، ولا أكبرُها وإنْ عَظُمَ وثَقُل وزنُه، وكلُّ ذلك في لوحٍ مَحفوظٍ، مكتوبٍ فيه كلُّ شَيءٍ[1].

كما قال الله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ

= اختلف المفسِّرون في الضَّميرِ في ﴿مِنْهُ﴾ إلى ماذا يعودُ؟ فقيل: يعودُ إلى القرآن. وممن ذهب إلى ذلك: ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٠٤).

وقيل: يعودُ إلى الشَّأنِ. وممَّن ذهب إلى ذلك: الزَّجَّاج، وابن عطية. يُنظر: ((معاني القرآن)) (٣/ ٢٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٧).

وقيل: يعودُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ. وممَّن ذهب إلى ذلك: الواحدي. يُنظر: ((الوسيط)) (٢/ ٥٥٢).

قال الخازن: (اختلَفوا في الضَّميرِ في ﴿مِنْهُ﴾ إلى ماذا يعودُ؟ فقيل: يعودُ إلى الشأنِ؛ إذ تلاوةُ القرآنِ شأنٌ مِن شؤونِ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، بل هو أعظَمُ شُؤونِه، فعلى هذا يكونُ داخلًا تحت قولِه تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ إلَّا أنَّه سبحانه وتعالى خصَّه بالذِّكرِ لِشَرَفِه وعلوِّ مَرتبتِه. وقيل: إنَّه راجعٌ إلى القرآنِ؛ لأنَّه قد تقَدَّمَ ذِكرُه في قولِه سُبحانه وتعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ﴾ [يونس: ٥٨]، فعلى هذا يكونُ المعنى: وما تتلو من القرآنِ من قرآنٍ، يعني: من سورةٍ وشَيءٍ منه؛ لأنَّ لفظَ القُرآنِ يُطلَقُ على جميعِه وعلى بَعضِه. وقيل الضَّميرُ في ﴿مِنْهُ﴾ راجِعٌ إلى اللهِ تعالى، والمعنى: وما تتلو من اللهِ مِن قُرآنٍ نازلٍ عليك). ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٤٩).

ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٣٧)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٣٩).

[1] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٠٧، ٢٠٨)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٧، ١٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٥٦، ٣٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢١٤-٢١٥).

قال ابنُ عاشورٍ: (والمرادُ بالأرضِ والسماءِ هنا العالَمُ السفليُّ والعالَمُ العلويُّ، والمقصودُ تعميمُ الجهاتِ والأبعادِ بأخصرِ عبارةٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢١٤).

وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وقال سُبحانه: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: ٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لمَّا بيَّن سبحانه إحاطتَه بجميعِ الأشياءِ، وكان في ذلك تقويةٌ لقلوبِ المطيعين، وكسرٌ لقلوبِ العاصينَ؛ ذكَر حالَ المطيعينَ[1]، فقال:

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

أي: ألَا إنَّ مَن تولَّاهم اللهُ تعالى بنَصرِه ومحبَّتِه ورعايتِه، لا خوفٌ عليهم ممَّا يستَقبِلونَه، ولا هم يَحزَنونَ على ما مَضَى[2].

ثمَّ ذكَر وصفَهم، فقال:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

أي: هم الذين آمَنوا بما وجبَ عليهم الإيمانُ به، وصدَّقوا إيمانَهم بلزومِ تقوى اللهِ، بفِعلِ أوامِرِه، واجتنابِ نَواهيه[3].

---

[1] يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥١٩).

[2] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢١٧، ٢١٨).

[3] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢١٨).

﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ ﴾.

﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ﴾.

أي: لأولياءِ اللهِ البُشرى من اللهِ في الحياةِ الدُّنيا- ومن ذلك ما وُعِدوا به من الخَيرِ في القرآنِ والسُّنَّةِ، ومن البِشاراتِ الرُّؤيا الصَّالحةُ، والثَّناءُ الحَسَنُ- ولهم البُشرى في الآخرةِ بدُخولِ الجنَّةِ[1].

كما قال تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التوبة: ٢١-٢٢].

وقال سُبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت: ٣٠-٣١].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ * لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١ - ١٠٣].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الحديد: ١٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢١٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ٨)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ١٥١، ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢١٩).

قال ابن عطية: (أمَّا بُشرى الآخرةِ، فهي بالجنَّةِ. قولًا واحِدًا). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٩).

وعن البراءِ بنِ عازبٍ رضي الله عنه، قال: قال النبي صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ العبدَ المؤمنَ إذا كان في انقطاعٍ من الدنيا، وإقبالٍ مِن الآخرةِ، نزَل إليه ملائكةٌ مِن السماءِ بيضُ الوجوهِ، كأنَّ وجوهَهم الشمسُ، معهم كفنٌ مِن أكفانِ الجنةِ، وحنوطٌ(١) مِن حنوطِ الجنةِ، حتى يجلسوا منه مدَّ البصرِ، ثم يجيءُ ملكُ الموت عليه السَّلام حتى يجلسَ عندَ رأسِه، فيقول: أيَّتُها النفسُ الطيبةُ، اخرُجي إلى مغفرةٍ مِن الله ورضوانٍ، فتخرج تسيلُ كما تسيلُ القطرةُ من فِي السِّقاء، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدَعوها في يدِه طرفةَ عينٍ حتى يأخذوها، فيجعلوها في ذلك الكفنِ، وفي ذلك الحنوطِ، ويخرج منها كأطيبِ نفحةِ(٢) مسكٍ وُجدت على وجهِ الأرضِ، فيصعدون بها، فلا يمرُّون - يعني بها - على ملإٍ من الملائكةِ إلا قالوا: ما هذا الروحُ الطيبُ؟! فيقولون: فلانُ بنُ فلانٍ، بأحسنِ أسمائِه التي كانوا يسمُّونه بها في الدُّنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماءِ الدنيا، فيستفتحون له، فيُفتح لهم، فيشيِّعُه من كلِّ سماءٍ مقرَّبوها إلى السماءِ التي تليها، حتى يُنتهَى به إلى السماءِ السابعةِ، فيقول الله عزَّ وجلَّ: اكتبوا كتابَ عبدي في عِلِّيين(٣)، وأعيدوه إلى الأرضِ، فإنِّي منها خلقتُهم، وفيها أُعيدُهم، ومنها أُخرجُهم تارةً أخرَى، فتُعاد روحُه في جسدِه، فيأتيه ملَكانِ، فيُجلسانِه، فيقولانِ له: مَن ربُّك؟ فيقول: ربِّي الله، فيقولان له: ما دينُك؟ فيقول: ديني الإسلامُ، فيقولان له: ما هذا الرجلُ الذي بُعِث فيكم؟ فيقول: هو رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فيقولان له: وما علمُك؟ فيقولُ: قرأتُ كتابَ الله، فآمنتُ به، وصدَّقت، فينادي منادٍ في السماءِ: أن صدَق عبدي، فأفرِشوه مِن الجنة، وألْبِسوه مِن الجنةِ، وافتحوا له بابًا إلى

---

(١) الحَنوطُ: ما يُخلَطُ مِن الطِّيبِ لأكفانِ الموتى وأجسادِهم. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٣/ ١١٧٦).

(٢) النَّفحةُ: المرَّةُ مِن نَفحِ الطِّيبِ، أي: رائحَتِه. يُنظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٥/ ٣٢٥).

(٣) عِلِّيِّين: هو ديوانُ المُقَرَّبينَ. يُنظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٥/ ٣٢٦).

الجنةِ، فيأتيه من رَوْحها(١)، وطِيبها، ويُفسحُ له في قبرِه مدَّ بصرِه، ويأتيه رجلٌ حسنُ الوجهِ، حسنُ الثيابِ، طيِّبُ الرِّيحِ، فيقول: أبْشِرْ بالذي يَسرُّك، هذا يومُك الذي كنتَ تُوعَدُ، فيقولُ له: مَن أنت؟ فوجهُك الوجهُ يجيءُ بالخيرِ، فيقولُ: أنا عملُك الصالحُ، فيقول: ربِّ أقِمِ الساعةَ حتى أرجعَ إلى أهلِي ومالِي))(٢).

وعن أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللهِ عنه، قال: ((قيل لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أرأيتَ الرَّجُلَ يعمَلُ العمَلَ مِن الخَيرِ، ويَحمَدُه النَّاسُ عليه؟ قال: تلك عاجِلُ بُشرى المؤمِنِ))(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لم يَبْقَ من النُّبُوَّةِ إلا المُبَشِّراتُ، قالوا: وما المُبَشِّراتُ؟ قال: الرؤيا الصالحةُ))(٤).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أيها الناسُ، إنه لم يبقَ من مبشراتِ النبوةِ إلا الرؤيا الصالحةُ، يراها المسلمُ، أو تُرى له))(٥).

﴿لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾.

لا خُلْفَ لوعدِ الله؛ فما وعَد الله فهو حقٌّ، لا يمكنُ تغييرُه ولا تبديلُه، وهو كائنٌ لا محالةَ(٦).

---

(١) مِن رَوْحِها- بفتح الراء- : أي: مِن نَسيمِها. يُنظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٥/ ٣٢٧).

(٢) أخرجه أحمد (١٨٥٣٤)، والطيالسي (٧٨٩)، والحاكم (١٠٧).

صحَّح إسناده الطبري في ((مسند عمر)) (٢/ ٤٩٤)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (١/ ٣٠٠)، وقال ابنُ منده في ((الإيمان)) (٣٩٨): إسنادُه متَّصلٌ مشهورٌ ثابتٌ على رسمِ الجماعةِ، وحسَّنه المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (٤/ ٢٨٠).

(٣) رواه مسلم (٢٦٤٢).

(٤) رواه البخاري (٦٩٩٠).

(٥) رواه مسلم (٤٧٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٩)، ((تفسير القرطبي)) =

كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ [الأنعام: ١١٥].

وقال سُبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩].

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾.

أي: ما يُبَشَّرُ به أولياءُ اللهِ هو الظَّفَرُ العَظيمُ بكلِّ مَحبوبٍ، والنجاةُ الكبيرةُ مِن كُلِّ مَحذورٍ⁽¹⁾.

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- مما يُوجِبُ خشيةَ اللهِ تعالى في السِّرِّ والعَلانيةِ ضرورةُ مُراقبتِه تعالى؛ والعلمُ بأنَّه شاهِدٌ ورقيبٌ على قلوبِ عبادِه وأعمالِهم، وأنَّه مع عبادِه حيث كانوا، كما دلَّ القرآنُ على ذلك في مواضِعَ، منها قولُه تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾⁽²⁾.

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ الإفاضةُ في العمَلِ أخَصُّ مِن إتيانِه مُطلقًا، وحِكمةُ تَخصيصِها بالذِّكرِ دونَ اللَّفظِ الأعمِّ منها، هي أنَّ ما يُفيضُ فيه الإنسانُ مهتَمًّا به مندفِعًا فيه، جديرٌ بألَّا يَنسى أو يَغفُلَ عن مراقبةِ رَبِّه فيه، واطِّلاعِه عليه؛ فاللَّفظُ يذَكِّرُه به تذكيرًا منبِّهًا مُؤثِّرًا، وكذلك لفظُ (يَعزُب) الدالُّ على الخفاءِ والبُعدِ معًا، فكأنَّه يقولُ: إنَّ ما شأنُه أن يَبعُدَ ويَخفى عليكم مِن أعمالِكم لا يغيبُ

= (٨/ ٣٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ١٦٤).

عن عِلمِ رَبِّكم؛ فإنَّه لا يَعزُبُ عنه مِن مثقالِ ذَرَّةٍ⁽¹⁾.

٣- أولياءُ اللهِ هم الذين جَمَعوا بين الإيمانِ الصَّحيحِ ومَلَكةِ التقوى له عزَّ وجلَّ، وما تقتضيه مِن عمَلٍ، فظاهِرُ الآيةِ أنَّ مَن آمَن واتَّقى، فهو داخِلٌ في أولياءِ اللهِ، وهذا هو الذي تقتضيه الشَّريعةُ في الوليِّ، فكلُّ من كان مؤمنًا تقيًّا كان لِلَّه وليًّا، وقد ضَمِنَ اللهُ تعالى لأوليائِه ألَّا يحصُلَ لهم ما يخافونَه، وألَّا يحُلَّ بهم ما يَحزُنُهم، قال الله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾⁽²⁾.

الفَوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ التعبيرُ في خطابِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالشَّأنِ- وهو الأمرُ العظيمُ أو ذو البالِ- يدلُّ على أنَّ جَميعَ أمورِه وأعمالِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كانت عظيمةً، حتى العاداتِ منها؛ لأنَّه كان قُدوةً صالحةً فيها كلِّها⁽³⁾.

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ إن قيل: كيف جُمِعَ الضَّميرُ، مع أنَّه أُفرِدَ قبلُ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ﴾ والخطابُ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؟

الجواب: جُمِعَ ليدُلَّ على أنَّ الأُمَّةَ داخِلونَ مع النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما خوطِبَ به قبلُ⁽⁴⁾، أو جُمِعَ تعظيمًا للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم⁽⁵⁾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢/ ٢٢٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٣٩).

(٤) والقاعدةُ أنَّ الخطاباتِ الموجهةَ إلى النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، تشملُ الأُمَّةَ إلا لدليلٍ. يُنظر: ((قواعد التفسير)) لخالد السبت (٢/ ٥٧٨).

(٥) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٥٠).

٣- قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ الذرُّ: صغارُ النملِ، جعَلها الله مثالًا؛ إذ لا يُعرفُ في الحيوانِ المتغذِّي المتناسلِ المشهورِ النوعِ والموضعِ أصغرُ منه⁽¹⁾.

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ إنَّما قُيِّد بقَولِه تعالى: ﴿فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ تقريبًا لعُقولِ العامَّةِ⁽²⁾، فعبَّر بالأرضِ والسماءِ مع أنَّه سبحانَه لا يغيبُ عنه شيءٌ، لا فيهما، ولا فيما هو خارجٌ عنهما؛ لأنَّ الناسَ لا يشاهدونَ سواهما، وسوَى ما فيهما مِن المخلوقاتِ⁽³⁾.

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ فيه إشارةٌ إلى ما في الوجودِ مِن أشياءَ لا تُدرِكُها الأبصارُ، وقد رُئِيَ كثيرٌ منها في هذا العَصرِ بالآلاتِ التي تكبِّرُ المرئيَّاتِ أضعافًا كثيرةً، ولم يكُنْ هذا ممَّا يَخطُرُ في البالِ في عصرِ التَّنزيلِ، فهو من دقائقِ تَعبيرِ القُرآنِ، التي تَظهَرُ حِكمتُها للنَّاسِ آنًا بعد آنٍ⁽⁴⁾.

٦- من ظنَّ أنَّ أحدًا مِن الذين لا يؤدُّونَ الواجباتِ، ولا يترُكونَ المُحَرَّماتِ- سواءٌ كان عاقلًا، أو مجنونًا، أو مُولَهًا أو مُتَوَلِّهًا- فمن اعتقَدَ أنَّ أحدًا مِن هؤلاء، مِن أولياءِ اللهِ المُتَّقينَ، وحِزبِه المُفلِحينَ، وعبادِه الصَّالحينَ، وجُندِه الغالبينَ، السَّابقينَ المُقَرَّبينَ والمُقتَصِدينَ، الذين يرفَعُ الله درجاتِهم بالعِلمِ والإيمانِ، مع كونِه لا يؤدِّي الواجباتِ، ولا يترُكُ المُحَرَّمات- كان المُعتقِدُ لولايةِ مِثلِ هذا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٤٠).

كافرًا مرتدًّا عن دينِ الإسلام، غيرَ شاهدٍ أنَّ مُحمَّدًا رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، بل هو مكَذِّبٌ لمُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما شَهِدَ به؛ لأنَّ محمَّدًا أخبَرَ عن الله أنَّ أولياءَ اللهِ هم المُتَّقونَ المؤمِنونَ؛ قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾(١).

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فيه أنَّ أهلَ الثَّوابِ لا يحصُلُ لهم خوفٌ في مَحفِلِ القيامةِ، كما قال تعالى أيضًا: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾(٢) [الأنبياء: ١٠٣].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ هذه البُشرى مُبَيَّنةٌ في مواضِعَ مِن كتابِ الله تعالى، وقد يُرادُ بها متعَلَّقُها الذي يبشَّرونَ به، ولم يُذكَرْ هنا؛ ليشمَلَ كلَّ ما بُشِّروا به في كتابِ الله تعالى، وعلى لسانِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأمَّا البُشرَى في الحياةِ الدُّنيا فأهمُّها البشارةُ بالنَّصرِ، وبحُسنِ العاقِبةِ في كلِّ أمرٍ، وباستخلافِهم في الأرضِ ما أقاموا شَرعَ اللهِ وسُنَنَه، ونَصَروا دينَه، وأعلَوْا كَلِمتَه، وأمَّا في الآخرةِ فمِن أكمَلِها وأجمَعِها لمعاني الآيةِ لأكمَلِهم قولُه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾(٣) [فصلت: ٣٠ - ٣٢].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٤٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٤٢).

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ اشتمَلَ على النجاةِ مِن كلِّ محذورٍ، والظَّفَرِ بكلِّ مَطلوبٍ مَحبوبٍ، وحُصِرَ الفَوزُ فيه؛ لأنَّه لا فوزَ لِغَيرِ أهلِ الإيمان والتَّقوى(١).

بلاغة الآيات:

١- قوله تعالى: ﴿وَما تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَما تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَما يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ﴾: على القولِ بأنَّ الضَّميرَ في ﴿مِنْهُ﴾ عائدٌ على شأنٍ، و﴿مِنْ قُرْآنٍ﴾ تفسيرٌ للضَّميرِ؛ فيكون خُصَّ ﴿مِنْ قُرْآنٍ﴾ مِن العمومِ؛ لأنَّ القرآنَ هو أعظَمُ شُؤونِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وتنبيهًا على علُوِّ مَرتبتِه، وعلى القولِ بأنَّه يعودُ على التَّنزيلِ، وفُسِّر بالقرآنِ لأنَّ كلَّ جزءٍ منه قرآنٌ، فيكونُ أُضمِرَ قبلَ الذِّكرِ على سَبيلِ التَّفخيمِ له(٢).

- قولُه: ﴿وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ فيه تعميمٌ للخطابِ بعدَ تخصيصِه بمَن هو رأسُهم؛ ولذلك ذُكِر حيث خصَّ ما فيه فخامةٌ، وذُكر حيث عمَّ ما يتَناوَلُ الجليلَ والحقيرَ(٣).

- قولُه: ﴿مِنْ عَمَلٍ﴾ مفعولُ ﴿تَعْمَلُونَ﴾، فهو مَصدرٌ بمعنى المفعولِ، وأُدخِلَت عليه (مِن)؛ لإفادة التَّعميمِ؛ لِيَشمَلَ العملَ الجليلَ والحقيرَ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٥٤)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٧٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٧٨-٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١١٦-١١٧).

والخيرَ والشَّرَّ[١]، فدخولُ ﴿مِنْ﴾ التبعيضيَّة على النكرةِ المنفيةِ يؤكِّدُ هذا العُمومَ[٢].

- قولُه: ﴿وَما يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ﴾ فيه مُواجَهةُ اللهِ تعالى بالخطابِ لرسولِ اللهِ وحدَه؛ تَشريفًا له وتَعظيمًا[٣].

- و(مِنْ) في قولِه: ﴿مِنْ مِثْقالِ ذَرَّةٍ﴾؛ لِتَأكيدِ عُمومِ النَّفيِ الَّذي في ﴿وَمَا يَعْزُبُ﴾[٤].

- قولُه: ﴿وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ﴾ ناسبَ تقديمُ ﴿وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾؛ لأنَّه ذكَر تعالى أنَّه لا يَغيبُ عن عِلمِه أدقُّ الأشياءِ الَّتي نُشاهِدُها، وهي الذَّرَّةُ، ثمَّ أتى بقولِه: ﴿وَلَا أَكْبَرَ﴾ على سبيلِ إحاطةِ عِلمِه بجَميعِ الأشياءِ؛ فمَن عَلِم أدَقَّ الأشياءِ وأخفاها كان عِلمُه مُتعلِّقًا بأكبَرِ الأشياءِ وأظهَرِها[٥]، ولأنَّ ذكرَ الأصغرِ هو الأهَمُّ في سياقِ العِلمِ بالخفيِّ، وعَطفَ عليه الأكبرَ؛ لإفادةِ كونِ الأكبَرِ لا يكبُرُ عليه سُبحانه، كما أنَّ الأصغَرَ لا يَعزُبُ عنه[٦].

- وفي قولِه تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ مناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال اللهُ تعالى هنا: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾، وقال في

---

[١] يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢١٣).

[٢] يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٣٩).

[٣] يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٧٩).

[٤] يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢١٤).

[٥] يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٧٩).

[٦] يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٤٠).

سورةِ سبأ: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ: ٣]، وقال فيما بعدُ: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٢٢]؛ فقدَّم الأرضَ على السَّماءِ في سورةِ يونُسَ، وعكَس ذلك في الموضِعَين من سورةِ سبأ؛ ووجهُ ذلك: أنَّ آيةَ يونُسَ مقصودٌ فيها من تأكيدِ الاستيفاءِ والاستغراقِ ما لم يُقصَدْ في الأُخرَيَين، وإن كان العمومُ مُرادًا في الجميعِ، إلَّا أنَّ آيةَ يونُسَ قضَت بزيادةِ التَّأكيدِ؛ ولذلك تكَرَّرَت فيها معَ ما قبلَها (ما) النَّافيةُ المتلقَّى بها القَسَمُ في قولِه: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ [يونس: ٦١]، فقوَّى بذلك قصْدَ تأكيدِ الاستغراقِ، وتَضمينِ الكلامِ معنى القسَمِ؛ فقال تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ بزيادةِ (مِن) في الفاعلِ، وهي مقتَضِيةٌ معنى الاستغراقِ في مثلِ هذا. ثمَّ إنَّه قد تَقدَّم قبلَ هذه الآيةِ قولُه تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾؛ فدخولُ (مِن) في المفعولِ في الموضِعَين مِن قولِه: ﴿وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾- حيث زِيدَت في المفعولِ، وهو اسمٌ نَكِرةٌ، وارِدٌ في سياقِ النَّفيِ- وذلك محصِّلٌ للاستغراقِ، ثمَّ حُمِل عليه قولُه تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾؛ فناسبَ هذا تقديمَ ذِكرِ الأرضِ على السَّماءِ؛ لأنَّ السَّماءَ مَصعَدُ الأمرِ ومحَلُّ العُلوِّ ومسكَنُ الملائكةِ، وهي مُشاهَدةٌ لهم ومُستقبَلُ الدَّاعين، منها يُنزَّلُ الأمرُ ورزقُ العبادِ، وفيها الخزَنةُ مِن الملائكةِ، وإليها يُصعَدُ بأرواحِ المؤمِنين ويَعرُجُ الملائكةُ السَّيَّاحون في الأرضِ المسؤولون

عن أفعالِ العبادِ، فكان العِلمُ بما فيها أجلى وأظهرَ، وكان العلمُ بما في الأرضِ أخفى، وهذا بالنَّظرِ إلينا وبحسَبِ مُتعارَفِ أحوالِنا، وإلَّا فعِلمُ اللهِ سبحانه بما في الأرضِ وما في السَّماءِ سواءٌ، كما أنَّ عِلمَه بالسِّرِّ والجهرِ مُستوٍ: ﴿سَوَاءٌ مِنكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ [الرعد: ١٠]، ولكنَّا إنَّما خُوطِبْنا على أحوالِنا وبما نَتَعاهَدُه ونَتَعارَفُه مِن المعاني والصِّفاتِ؛ ولذلك ورَد في القرآنِ التَّعجُّبُ والدُّعاءُ والتَّرجِّي وغيرُ ذلك، فخُوطِبَ العبادُ بما يَتَعارَفون عليه ويَألَفونه فيما بينَهم؛ فلمَّا كانت الأرضُ بالنِّسبةِ إلى اسْمِها- فيما ذكَرْنا- كان أمرُها أخفى، وكان أمرُ السَّماءِ أوضَحَ وأقرَبَ من حيثُ ما ذكَرْنا، خُوطِب الخلقُ على ذلك، فقُدِّم ذِكرُ ما هو عِندَنا كافَّةً أخفى. فقيل عند قصدِ المبالَغةِ في تأكيدِ الاستغراقِ والقسَمِ على ذلك: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾(١) [يونس: ٦١].

وقيل: إنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكَر في هذه الآيةِ شَهادتَه على أحوالِ أهلِ الأرضِ وأعمالِهم، ثمَّ وصَل بذلك قولَه: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾ [يونس: ٦١]، ناسَب أن تُقدَّمَ الأرضُ على السَّماءِ في هذا الموضعِ(٢).

وقيل: إنَّ تقديمَ الأرضِ هنا؛ لأنَّ ما فيها أعلَقُ بالغرَضِ الَّذي فيه الكلامُ. وهو أعمالُ النَّاسِ فقد قال: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾؛ فإنَّهم مِن أهلِ الأرضِ، بخلافِ ما في سورةِ سبَأٍ: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٣]؛ فإنَّه لَمَّا كان المقامُ لذِكرِ عِلمِ الغيبِ، والغيبُ ما غاب عن النَّاسِ، ومُعظمُه في السَّماءِ لاءَم ذلك أنْ قُدِّمَت السَّماءُ على الأرضِ(٣)، فاقتضَى حسنُ النظمِ تقديمُها مرتبةً في الذكرِ مع المخاطبينَ الذين هم أهلُها، بخلافِ

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٤٦-٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢١٤).

الآيةِ التي في سبأ، فإنَّها منتظمةٌ بقولِه ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ﴾[١]. وقيل: إنَّه قدَّم ذِكْرَ الأرضِ؛ لأنَّ الكلامَ مع أهلِها، وأخَّره في آيةِ سبَأٍ وقدَّم السَّماءَ؛ لأنَّها في سِياقِ ثَنائِه تعالى على نفسِه ووَصْفِه بإحاطةِ عِلمِه؛ فناسَب تقديمُ السَّماءِ لأنَّها أعظَم، فإنَّ فيها مِن الشُّموسِ وعَوالِمِها ما يَبْعُدُ بعضُه عن بعضٍ مَسافةَ أُلوفٍ[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فيه افتتاحُ الكلامِ بأداةِ التَّنبيهِ ﴿أَلَا﴾؛ للإيماءِ إلى أهميَّةِ شأنِه؛ ولذلك أُكِّدت الجملةُ بـ ﴿إِنَّ﴾ بعدَ أداةِ التَّنبيهِ؛ فصُدِّرَتِ الجملةُ بحَرْفَي التَّنبيهِ (ألَا)، والتَّحقيقِ (إنَّ)؛ لزيادةِ تقريرِ مَضمونِها[٣].

- قولُه: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فيه تَقْديمُ المُسنَدِ إليه ﴿هُمْ﴾ على الخبَرِ الفِعْليِّ ﴿يَحْزَنُونَ﴾؛ لِتَقويةِ الحُكْمِ الحاصلِ بالخبرِ الفعليِّ، أي: لا يَحصُلُ لهم خوفٌ متمكِّنٌ ثابتٌ يَبقَى فيهم، ولا يَجِدون تَخلُّصًا منه[٤].

٣- قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ فيه التَّعبيرُ بصيغةِ الماضي ﴿وَكَانُوا﴾، وهو يَدُلُّ على أنَّ التَّقْوى مُلازِمةٌ لهم، وجاء بصِيغةِ المضارعِ قولُه: ﴿يَتَّقُونَ﴾، وهو يَدُلُّ على أنَّها مُتجدِّدةٌ منهم؛ ففي قولِه: ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ إشعارٌ بمُصاحبَتِهم للتَّقوى مُدَّةَ حياتِهم؛ فحالُهم في المستقبَلِ كحالِهم في الماضي[٥].

---

[١] يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٦٣).

[٢] يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٣٩).

[٣] يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢١٦).

[٤] يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢١٧).

[٥] يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢١٨).

٤- قوله تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

- قولُه: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ جملةٌ مُستأنَفةٌ استِئنافًا بيانيًّا، كأنَّه قيل: هل لهم وراءَ ذلك مِن نِعمةٍ وكَرامةٍ؟ فقيل: لهم ما يَسُرُّهم في الدَّارَين(١).

- وفيه إيثارُ الإبهامِ والإجمالِ في البُشْرى؛ للإيذانِ بكونِه وراءَ البيانِ والتَّفصيلِ(٢).

- وجملةُ: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ مُؤكِّدةٌ لجملةِ: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى﴾ ومُقرِّرةٌ لِمَضمونِها؛ فلذلك فُصِلَت- أي: لم تُعطَفْ بالواوِ(٣).

- واختيارُ اسمِ الإشارةِ ﴿ذَلِكَ﴾؛ لأنَّه أجمَعُ لِمَا ذُكِر، وفيه كمالُ تمييزٍ له؛ لزيادةِ تقريرِ مَعناه، وذُكِر ضميرُ الفصلِ ﴿هُوَ﴾ بعدَ اسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ لزيادةِ التَّأكيدِ، ولإفادةِ القصرِ، أي: هو الفوزُ العظيمُ لا غيرُه ممَّا يتقلَّبُ فيه المشرِكون في الحياةِ الدُّنيا مِن رزقٍ ومَنَعةٍ وقوَّةٍ(٤).

- قولُه: ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ فيه تفسيرٌ لِما أُبهِم فيما سبَق، وهذه الجملةُ والَّتي قَبلَها اعتراضٌ؛ لِتَحقيقِ المبشَّرِ به، وتعظيمِ شأنِه، أو هذه تَذْييلٌ، والسَّابقةُ اعتِراضٌ(٥).

* * *

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٢٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٦٠).

الآيتان (٦٥-٦٦)

﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَخْرُصُونَ﴾: أي: يَخدِسُون ويحزُرونَ، أو يكذِبونَ، لأَنَّ الكاذبَ لا يتحرَّى في الأمورِ، بل يُخمِّنُ ويحزُر، ولا يتحرَّى الحقائقَ، وكلُّ قولٍ عن ظنٍّ وتخمينٍ، يُقال له: خرصٌ، سواءٌ كان ذلك مطابقًا للشيءِ أو مخالفًا له، وأصلُ الخرصِ: حَزْرُ الشَّيءِ⁽¹⁾.

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَوْلُه تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ﴾

﴿وَمَا يَتَّبِعُ﴾: في (ما) وجهان؛ الأول: أن تكونَ نافيةً، و﴿شُرَكَاءَ﴾ مفعولُ ﴿يَتَّبِعُ﴾، ومفعولُ ﴿يَدْعون﴾ محذوفٌ لفَهمِ المعنى، والتَّقديرُ: وما يتَّبِعُ الذين يَدْعُون مِنْ دون اللهِ آلهةً شُرَكاءَ، ومعنى: وما يتَّبِعونَ شُرَكاء، أي: وما يتَّبِعونَ حقيقةَ الشُّرَكاءِ، وإن كانوا يسمُّونَها شُرَكاءَ. الثاني: أن تكونَ استفهاميَّةً في محلِّ نصبٍ، مفعولٌ مقَدَّم لـ﴿يَتَّبِعُ﴾، أي: وأيَّ شيءٍ يتَّبعونَ؟ و﴿شُرَكَاءَ﴾ على هذا مفعولٌ به لـ﴿يَدْعُونَ﴾، وقيل غيرُ ذلك⁽²⁾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٨، ١٩٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٨، ٢٣١، ٣٧٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٥٧)، (تفسير أبي حيان)) (٦/ ٨٤)، ((الدر المصون)) =

المعنَى الإجماليُّ:

يخاطِبُ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مسلِّيًا له عمَّا لَقِيَه من أعدائِه مِن أذًى، فيقولُ له: ولا يَحزُنْك قَولُ المُشرِكينَ، كافترائِهم على اللهِ وتكذيبِهم لك، واستهزائِهم بالحَقِّ؛ لأنَّ اللهَ هو المنفَرِدُ بجميعِ العِزَّةِ في الدُّنيا والآخرةِ، فهو مانِعُك من أذى المُشرِكينَ، وهو السَّميعُ العليمُ.

ويبيِّنُ تعالى أنَّه له كلُّ مَن في السَّمَواتِ ومَن في الأرضِ؛ وأيَّ شيءٍ يتَّبِعُ مَن يدعو غيرَ اللهِ من الشُّرَكاءِ؟ ما يتَّبِعونَ إلَّا الظَّنَّ بلا دليلٍ، وإنْ هم إلَّا يكذِبونَ فيما ينسُبونَه إلى اللهِ.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا حكَى عن الكفَّارِ شُبهاتِهم المتقَدِّمةَ، وأجاب عنها؛ عدلوا إلى طريقٍ آخَرَ، وهو أنَّهم هدَّدوه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وخوَّفوه بأنَّهم أصحابُ أموالٍ وأتباعٍ، فنسعَى في قَهرِك وفي إبطالِ أمْرِك، فأجاب تعالى عن هذا الطَّريقِ(١).

وأيضًا فإنَّه بعد أن بيَّن اللهُ تعالى لِرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حالَ أوليائِه وصِفتَهم وما بشَّرَهم به في الحياةِ الدُّنيا وفي الآخرةِ، وكونَه لا تبديلَ لِكلماتِه فيما بشَّرَهم ووعَدَهم، كما أنَّه لا تبديلَ لها فيما أوعَدَ به أعداءَه المُشرِكينَ. وكان هذا يتضَمَّنُ الوعدَ بنَصرِه ونَصرِ مَن آمن له- وهم أولياءُ اللهِ وأنصارُ دينِه- على ضَعفِهم وفَقرِهم، وكانت العِزَّةُ- أي: القوَّةُ والغَلَبةُ- في مكَّةَ لا تزالُ للمُشرِكينَ

= للسمين الحلبي (٦/ ٢٣٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٠/ ٣٦٨).

بكَثرتِهم، وكانوا لغُرورِهم بكَثرتِهم وثَروتِهم يُكَذِّبونَ بوَعدِ اللهِ، وكان ذلك يَحزُنُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- قال تعالى مسلِّيًا له ومؤكِّدًا وَعدَه له ولأوليائِه، ووعيدَه لأعدائِهم وأعدائِه⁽¹⁾:

﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾.

أي: ولا يُحزِنْك- يا مُحَمَّدُ- قَولُ المُشركينَ، كافترائِهم على اللهِ، وتكذيبِهم لك، واستهزائِهم بالحَقِّ⁽²⁾.

﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾.

أي: فإنَّ اللهَ هو المُنفَرِدُ بجميعِ العِزَّةِ في الدُّنيا والآخرةِ، فله وَحْدَه القوَّةُ الكامِلةُ، والقُدرةُ التامَّةُ، والغَلَبةُ الشَّامِلةُ، فهو ناصِرُك ومُعينُك، ومانِعُك مِن أذى المُشركينَ- يا مُحَمَّدُ- وهو القادِرُ على عقابِهم، والانتقامِ منهم، حتى تصيرَ أعَزَّ منهم⁽³⁾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٢٦)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٥١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٨).

قال ابنُ عاشورٍ: (وَصِيغَةُ ﴿ولَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ خطابٌ للنَّبِي صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وظاهِرُ صِيغَتِه أنَّه نهيٌ عن أنْ يُحْزِنَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم كلامُ المشركينَ، معَ أنَّ شأنَ النَّهيِ أنْ يَتَوَجَّه الخطابُ به إلى مَن فعَل الفعلَ المنهيَّ عنه، ولكنَّ المقصودَ من مثلِ هذا التَّركيبِ نهيُ النَّبي- عليه الصَّلاةُ والسَّلام- عن أنْ يتأثَّرَ بما شأنُه أنْ يُحزنَ النَّاسَ من أقوالِهم، فلمَّا وجَّه الخطابَ إليه بالنَّهيِ عن عملٍ هو مِن عملِ غيرِه تعيَّنَ أنَّ المرادَ بذلك الكنايةُ عن نهيِه هو عن حصولِ ذلك الحزنِ في نفسِه بأنْ يصرفَ عن نفسِه أسبابَه وملزوماتِه، فيؤول إلى معنَى لا تترُكْ أقوالَهم تُحْزِنك). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٢١).

والوقفُ يكون على كلمةِ ﴿قَوْلُهُمْ﴾، والابتداءُ يكونُ بقولِه: ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾؛ لكي لا يُتوهَّمَ أنَّ جملةَ ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ مِن قولِهم. يُنظر: ((إيضاح الوقف والابتداء)) للأنباري (٢/ ٧٠٧)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (١/ ٢٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٢٦)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٢)، ((تفسير =

﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

أي: وهو- سُبحانَه- السَّميعُ لأقوالِ عِبادِه، العليمُ بأحوالِهم، ومن ذلك سَماعُه لأقوالِ المُشرِكينَ، وعِلمُه بأعمالِهم، وما في قُلوبِهم، فيُجازيهم بذلك، ويدفَعُ عنك أذاهم- يا مُحمَّدُ- فاكتفِ بعِلمِ اللهِ وكفايتِه عزَّ وجلَّ⁽١⁾.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّ العِزَّةَ له، وهي القَهرُ والغَلَبةُ- ذكَرَ ما يُناسِبُ القَهرَ، وهو كَونُ المخلوقاتِ مِلكًا له تعالى⁽٢⁾، فقال:

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

أي: ألا إنَّ لله كلَّ مَن في السَّمواتِ وكُلَّ مَن في الأرضِ، فهم مِلكُه، يتصَرَّفُ فيهم كيف يشاءُ، وهو المستَحِقُّ وَحدَه للعبادةِ⁽٣⁾.

﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ﴾.

أي: وأيَّ شيءٍ يتَّبِعُ هؤلاء الذين يقولونَ: إنَّ لله شُرَكاءَ⁽٤⁾؟!

= السعدي)) (ص: ٣٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٢٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٢٦)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٢٧)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٠)، ((تفسير آيات =

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾.

أي: ما يَتَّبِعُ المُشرِكونَ في دَعواهم الشُّرَكاءَ لله إلَّا مُجَرَّدَ الظَّنِّ بلا دليلٍ، وما هم إلَّا يتقوَّلونَ الكَذِبَ على اللهِ ظنًّا بِلا عِلمٍ(١).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ اللامُ في قَولِه: ﴿لِلَّهِ﴾ للمِلكِ، وقد أفاد جعلُ جِنسِ العزَّةِ مِلكًا للهِ أنَّ جميعَ أنواعِها ثابتٌ لله(٢)؛ فالغَلَبةُ والقُوَّةُ والمَنَعةُ لله جميعُها لا يَملِكُ أحَدٌ مِن دُونِه شَيئًا منها، فهو يَهَبُها لِمَن يشاءُ، ويَحرِمُها مَن يشاءُ، وليسَت للكَثرةِ دائمًا كما يدَّعونَ؛ فكم مِن فئةٍ قليلةٍ غَلَبَت فئةً كثيرةً بإذنِ الله، وقد وعدَ بها رسُلَه والذينَ آمَنوا بهم واتَّبَعوهم من أوليائِه، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]، و﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]، و﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، فعِزَّتُه تعالى ذاتيَّةٌ له، وعِزَّةُ رَسولِه والمُؤمِنينَ به ومنه عزَّ وجَلَّ، كما قال تعالى:

= أشكلت على كثير من العلماء)) لابن تيمية (١/ ١٤٤- ١٤٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٧٦).

وممن ذهب إلى أنَّ (ما) هنا استفهاميةٌ: ابنُ جريرٍ، ومال إليه ابنُ عطيةَ، واختاره ابنُ تيميةَ. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: إنَّ (ما) نافيةٌ، ومعنَى الآيةِ على ذلك: ما يتَّبعونَ في الحقيقةِ شركاءَ للهِ؛ فإنَّه ليس لله شريكٌ، وإنَّما يتَّبعونَ الظنَّ، وممن ذهب إلى أنَّ (ما) نافيةٌ: الواحدي، وابنُ الجوزي، والقرطبي، ومحمد رشيد رضا، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٥٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٠١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٢٧)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٢٣).

﴿وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾(١) [آل عمران: ٢٦].

الفَوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

قَولُ الله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ عبَّرَ بـ (مَن) التي للعُقَلاءِ، والمرادُ كلُّ ما في الكونِ؛ لأنَّ السِّياقَ لِنَفي العِزَّةِ عن غيرِه، والعقلاءُ بها أجدَرُ، فنفيُها عنهم نفيٌ عن غيرِهم بطريقِ الأَوْلى، ثم غُلِّبوا لشَرَفِهم على غيرِهم(٢).

وقيل: خص العُقَلاءَ المميِّزين، وهم الملائكةُ والثَّقلان في قوله: ﴿مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾؛ لِيُؤذِنَ أنَّ هؤلاء إذا كانوا له وفي مُلكِه فهُم عَبيدٌ كُلُّهم، وهو سبحانه وتعالى ربُّهم، ولا يَصلُحُ أحدٌ منهم للرُّبوبيَّةِ، ولا أن يكونَ شَريكًا له فيها، فما وَراءهم ممَّا لا يُعقَلُ أحَقُّ أن لا يكونَ له نِدًّا وشَريكًا، ولِيَدُلَّ على أنَّ مَن اتَّخذ غيرَه ربًّا مِن ملَكٍ أو إنسيٍّ، فضلًا عن صنمٍ أو غيرِ ذلك، فهو مُبطِلٌ(٣).

بلاغةُ الآيتينِ:

١- **قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾**

- قولُه: ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ﴾ على القولِ بأنَّ المرادَ بقولِهم بعضُ أفرادِه، وهو التَّكذيبُ والتَّهديدُ، وما يَتشاوَرون به في أمرِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فيكونُ مِن إطلاقِ العامِّ المرادِ به الخاصُّ(٤).

- قولُه: ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ استئنافٌ بمعنى التَّعليلِ، كأنَّه قيل: ما لي لا أحزَنُ؟ فقيل: إنَّ العزَّةَ للهِ جميعًا؛ تعليلًا لِدَفعِ الحزنِ عنه؛ ولذلك فُصِلَتْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٧٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٨٣- ٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٨٢- ٨٣).

عن جملةِ النَّهيِ: ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ﴾ ولم تُعطَفْ عليها(١).

- وقولُه: ﴿جَمِيعًا﴾ حالٌ مِن ﴿الْعِزَّةُ﴾ مؤكِّدةٌ لمضمونِ الجملةِ قبْلَها، المفيدِ لاختصاصِه تعالى بجميعِ جنسِ العزَّةِ؛ لِدَفعِ احتمالِ إرادةِ المبالَغةِ في مِلْكِ ذلك الجنسِ(٢).

- وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ مناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال اللهُ تعالى هنا: ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [يونس: ٦٥]، وقال في سورةِ (المنافقون): ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]؛ لأنَّ المرادَ في سورةِ يونُسَ: العزَّةُ الخاصَّةُ باللهِ، وهي: عِزَّةُ الإلهيَّةِ، والخَلْقِ والإماتةِ، والإحياءِ والبقاءِ الدَّائمِ، وشِبْهِها، وفي سورةِ (المنافقون) العزَّةُ المشترَكةُ، وهي في حقِّ اللهِ تعالى: القدرةُ والغَلَبةُ، وفي حقِّ رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: عُلُوُّ كَلمتِه، وإظهارُ دينِه، وفي حقِّ المؤمنين: نَصرُهم على الأعداءِ(٣). وفيه وجهٌ آخَرُ: وهو أنَّ السِّياقَ في يونُسَ سياقُ حمايةِ اللهِ لأوليائِه، فيُفرِدُه بالعِزَّةِ جميعًا- وهي أصلًا للهِ وحدَه، والرَّسولُ والمؤمِنون يَستمِدُّونها منه-؛ لِيُجرِّدَ منها النَّاسَ جميعًا، ومُشرِكو قُريشٍ العُتاةُ داخِلون في النَّاسِ(٤)، فلا مضادَّةَ بينَ قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾، وقَولِه: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]؛ لأنَّ عِزَّةَ الرَّسولِ والمؤمنينَ كُلَّها باللهِ، فهي للهِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٢١-٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٢٣).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٥١).

(٤) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٨٠٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٧٩)، ويُنظر أيضًا: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٥٩).

٢- قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ فيه افتتاحُ الجملةِ بحرفِ التَّنبيهِ ﴿أَلَا﴾، والمقصودُ منه إظهارُ أهمِّيَّةِ العلمِ بمَضمونِها وتحقيقِه؛ ولذلك عُقِّب بحرفِ التَّأكيدِ ﴿إِنَّ﴾، وزيدَ ذلك تأكيدًا بتقديمِ الخبَرِ ﴿لِلَّهِ﴾ على الاسمِ ﴿مَنْ﴾ وباجتلابِ لامِ المِلْكِ في ﴿لِلَّهِ﴾(١).

- وابتدأ بالسَّموات؛ لأنَّ مِلكَها يدُلُّ على مِلكِ الأرضِ بطَريقِ الأَولى(٢)، وأيضا لعظَمِها، ولأنَّها أشرفُ مِن الأرضِ وأعلَى(٣).

- قولُه: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ﴾ على القولِ بأنَّ ﴿مَا يَتَّبِعُ﴾ في مَعْنى الاستفهامِ- أيْ: وأيَّ شيءٍ يتَّبِعون، فـ﴿مَا﴾ استفهامٌ بمعنى الإنكارِ والتَّوبيخِ، فتكونُ اسمًا في موضعِ نصبٍ بـ﴿يَتَّبِعُ﴾، كأنَّه قيل: وأيَّ شيءٍ يتَّبِعُ الَّذين تَدْعونهم شُركاءَ مِن الملائكةِ والنَّبيِّين؛ تقريرًا لكونِهم مُتَّبِعين للهِ تعالى مُطيعين له، وتَوبيخًا لهم على عدَمِ اقتدائِهم بهم في ذلك(٤).

* * *

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٥٦).

(٣) يُنظر: ((كشف المعاني)) لابن جماعة (ص: ٢٥١)، ((تفسير العثيمين: الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٥٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٢٣٦).

الآيات (٦٧-٧٠)

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٧) قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٨) قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (٦٩) مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ (٧٠) ﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿سُلْطَانٍ﴾: أي: حُجَّة، وأصْلُ السُّلطانِ: القوَّةُ والقهرُ، من التَّسلُّط؛ ولذلك سُمِّي السُّلطانُ سُلطانًا(١).

﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾: أي: تهدءُوا فيه مِن التصرُّفِ والحركةِ، وتستقرُّوا لراحةِ أبدانِكم، والسُّكونُ: ثبوتُ الشيءِ بعدَ تحرُّكٍ، وأصلُ (سَكَنَ): يَدُلُّ على خِلافِ الاضْطِرابِ والحركةِ(٢).

المَعنى الإجماليُّ:

يُخاطِبُ اللهُ تعالى النَّاسَ مبينًا بعضَ مظاهرِ نِعمِه عليهم، فيقولُ: إنَّه وَحْدَه الذي خلَقَ لهم اللَّيلَ؛ لأجلِ أن يَهدَؤوا ويَستَريحوا فيه مِن العَناءِ والتَّعَب، وجعَلَ لهم النَّهارَ مُضيئًا؛ لِيَسعَوْا لطَلَبِ رِزقِهم، وقَضاءِ حَوائِجِهم، إنَّ في ذلك لدَلالاتٍ للَّذينَ يَسمَعونَ آياتِ اللهِ، ويَعتَبِرونَ بها.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣ / ٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٧، ٤٢٠، ٧٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٢٧) (١٨/ ٣٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٨٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٧).

ثمَّ بيَّنَ تعالى أنَّ مُشركي العرَبِ زَعَموا أنَّ لله ولدًا، تنزَّه سُبحانَه عن ذلك، هو الغنيُّ عن الزَّوجةِ والوَلَدِ، وعن جميعِ خَلْقِه، له جميعُ ما في السَّمَواتِ وما في الأرضِ، فكيف يكونُ له ولَدٌ ممَّن خلَقَ، وكلُّ شَيءٍ مملوكٌ له؟ وليس عند هؤلاء المُشركينَ دليلٌ على أنَّ الله اتَّخذَ ولدًا مِن خَلْقِه، أيقولونَ على الله ما لا يعلمونَ حَقيقتَه وصِحَّتَه؟

ثمَّ وجَّه سُبحانه الخطابَ إلى نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: قلْ- يا محمَّدُ-: إنَّ الذينَ يَختَلِقونَ على الله الكَذِبَ لا يَفوزونَ في الدُّنيا ولا في الآخرةِ، لهم في الدُّنيا متاعٌ قليلٌ، ثمَّ إلينا مَصيرُهم، ثمَّ نُذيقُهم في النَّارِ لعذابَ المُوجِعَ؛ بسبَبِ كُفرِهم بالله.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ٦٧ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها استدلالٌ على مَضمونِ ما قَبلَها مِن نَفيِ وُجودِ شُرَكاءَ له في الخلقِ والتَّقديرِ، ولا بالشَّفاعةِ عنده في التصَرُّفِ والتَّدبيرِ؛ فهو الذي جعلَ لكم الوقتَ قِسمَينِ بمقتضى عِلمِه ومَشيئتِه بدونِ مُساعدٍ ولا شفيعٍ، بل بمَحضِ الحِكمةِ البالغةِ والرَّحمةِ الشَّاملةِ؛ أحدُهما: اللَّيلُ، جعَلَه مُظلِمًا لأجلِ أن تسكُنوا فيه بعد طولِ الحَرَكةِ والتقلُّبِ في الأرضِ، تستريحونَ مِن التَّعَبِ في طلَبِ الرِّزقِ، وثانيهما: النَّهارُ، جعَلَه مُضيئًا ذا إبصارٍ لتَنتَشِروا في الأرضِ، وتقوموا بجميعِ أعمالِ العُمرانِ والكَسبِ⁽¹⁾.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٧١).

أي: اللهُ وَحْدَه هو الذي خلَقَ لكم - أيُّها النَّاسُ - اللَّيلَ؛ لأجل أن تَهدَؤوا عن الحَرَكةِ، وتستريحوا فيه مِن العَناءِ والتَّعَب، وجعل لكم النَّهارَ مُضيئًا تُبصِرونَ فيه لِمَعاشِكم، وقضاءِ حوائِجِكم(١).

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾.

أي: إنَّ في اختلافِ حالِ اللَّيلِ والنَّهارِ بالظُّلمةِ والضِّياءِ، واختلافِ حالِ أهلِهما فيهما بالسُّكونِ والحَرَكةِ، لَدَلالاتٍ للَّذينَ يَسمَعونَ آياتِ الله ويَعُونَها، فيَقبلونَها، ويعتَبِرونَ بها على عَظَمتِه وعِلمِه، وقُدرتِه ورَحمتِه، وحِكمَتِه واستحقاقِه وَحْدَه للعبادةِ(٢).

كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٥- ٦].

وقال سُبحانه: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النمل: ٨٦].

﴿قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱلْغَنِىُّ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٨)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٢٧، ٢٢٨)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٥٤، ٢٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٢٨)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٥٥، ٢٥٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦١)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢٠٣، ٢٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٢٧، ٢٢٨).

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾.

أي: قال مُشرِكو العَرَبِ: الملائكةُ بناتُ اللهِ(١)!!

﴿سُبْحَانَهُ﴾.

أي: تنزَّه اللهُ عن أن يكونَ له ولَدٌ(٢).

﴿هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

أي: اللهُ هو الغنيُّ عن الزَّوجةِ والوَلَدِ، وعن جميعِ خَلْقِه، له جميعُ ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ، خَلقًا ومُلكًا وتصَرُّفًا، فكيف يَحتاجُ إلى شيءٍ مِن خَلقِه، وكيف يتَّخِذُ منهم ولدًا(٣)؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٢٩)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٥٦)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٢٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٢٩).

ومِمن اختار أنَّ الضميرَ في ﴿قَالُوا﴾: عائدٌ على المشركينَ الذين قالوا: الملائكةُ بناتُ الله: ابنُ جريرٍ، والواحدي، والبغوي وابنُ عطيةَ، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: المصادر السابقة.

قال ابنُ عطيةَ: (الضَّميرُ في ﴿قَالُوا﴾ للكفَّارِ العَرَب، وذلك قولُ طائفةٍ منهم: الملائكةُ بناتُ الله، والآيةُ بعدُ تعُمُّ كُلَّ مَن قال نحو هذا القَولِ، كالنصارى ومن يُمكِنُ أن يعتَقِد ذلك مِن الكَفَرةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣١).

ومِن المفسِّرين مَن جعَل الضميرَ في ﴿قَالُوا﴾ عائدًا على مَن نسَب إلى الله الولدَ، ممن قال: الملائكةُ بناتُ الله، أو عزيرٌ ابنُ الله، أو المسيحُ ابنُ الله. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٨٥)، ((تفسير المنار)) (١١/ ٣٧٢).

وقال الرازي: (ويحتملُ أن يكونَ قد كان فيهم قومٌ مِن النَّصارَى قالوا ذلك). ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٨٠).

لكن قال ابنُ عاشورٍ بعدَ أن بيَّن أنَّ الضميرَ في ﴿قَالُوا﴾ يعودُ إلى الذين يَدْعون مَن دونِ الله شركاءَ، قال: (وليسَ المرادُ مِن الضميرِ غيرَهم مِن النَّصارى؛ لأنَّ السورةَ مكيةٌ، والقرآنُ المكيُّ لم يتصدَّ لإبطالِ زيغِ عقائدِ أهلِ الكتابِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٢٩)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣١)، ((تفسير القرطبي)) =

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٥].

﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍ بِهَٰذَآ ﴾.

أي: ليس عندكم- أيُّها المشركون- دليلٌ وحجَّةٌ على أنَّ الله اتَّخذ ولدًا مِن خَلقِه[1].

﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

أي: أتقولونَ- أيُّها المُشرِكونَ- على اللهِ قَولًا لا تَعلَمونَ حَقيقتَه وصِحَّتَه، فتنسُبونَ إليه الوَلَد جهلًا منكم بغيرِ دَليلٍ[2]؟!

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ الله تعالى لَمَّا بيَّنَ بالدَّليلِ القاهِرِ أنَّ إثباتَ الوَلَدِ لله تعالى قولٌ باطِلٌ، ثم بيَّنَ أنَّه ليس لهذا القائلِ دَليلٌ على صِحَّةِ قَولِه، فقد ظهَرَ أنَّ ذلك المذهَبَ افتراءٌ على الله، ونِسْبة ما لا يليقُ به إليه؛ فبيَّنَ أنَّ مَن هذا حالُه، فإنَّه لا يُفلحُ البتَّةَ[3].

= (٨/ ٣٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٩).

[1] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٢٩)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦١)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٢/ ١٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٩).

[2] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦١)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٥٤).

[3] يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٨٢).

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾.

أي: قُلْ- يا مُحمَّدُ-: إنَّ الذين يَكذِبونَ على اللهِ فيَنسُبونَ إليه الولَدَ، لا يفوزونَ، ولا يَنجُونَ، ولا يأمنونَ في الدُّنيا ولا في الآخرةِ[1].

﴿ مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

﴿ مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾.

أي: لهم مَتاعٌ قليلٌ في الدُّنيا يتمَتَّعونَ به إلى انقضاءِ آجالِهم، ثمَّ إلينا مصيرُهم بعد مَوتِهم[2].

﴿ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴾.

أي: ثمَّ نُذيقُهم في النَّارِ العذابَ الغليظَ المُوجِعَ؛ بسبَبِ كُفرِهم باللهِ في الدُّنيا[3].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ مِن لطائفِ المُناسَبة أنَّ النورَ الذي هو كيفيَّةُ زَمَنِ النَّهارِ، شيءٌ وُجوديٌّ، فكان زمانُه حقيقًا بأن يُوصَفَ بأوصافِ العُقَلاءِ، بخلافِ اللَّيلِ؛ فإنَّ ظُلمَتَه عَدَميَّةٌ، فاقتُصِرَ في العبرةِ به على ذِكرِ الفائدةِ الحاصلةِ فيه، وهي أن يسكُنوا فيه[4].

---

[1] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٣)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ١٤٧).

[2] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣٠)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٥٧)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٢٨)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٥٤).

[3] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦١)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٣).

[4] يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٢٧).

٢- إن قيل: إنَّ قَولَ الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ يدلُّ على أنَّه تعالى ما خلَقَ اللَّيلَ إلَّا لهذا الوجهِ، وقولَه: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ يدلُّ على أنَّه تعالى أراد بتخليقِ اللَّيلِ والنَّهارِ أنواعًا كثيرةً مِن الدلائلِ، فالجوابُ: أنَّ قَولَه تعالى: ﴿لِتَسْكُنُوا﴾ لا يدلُّ على أنَّه لا حِكمةَ فيه إلَّا ذلك، بل ذلك يقتضي حصولَ تلك الحكمةِ، أمَّا قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ فالمرادُ: يتدبَّرونَ ما يَسمَعونَ ويَعتَبِرونَ به⁽¹⁾.

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ يدلُّ على أنَّ صِفةَ العبوديَّةِ تُنافي صِفةَ البُنُوَّةِ، ويؤخَذُ مِن هذا أنَّ الوَلَدَ لا يُستَرَقُّ لأبيه ولا لأُمِّه؛ ولذلك يُعتَقُ الولدُ على مَن يَملِكُه مِن أبٍ أو أمٍّ وإنْ عَلَيا⁽²⁾.

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ في هذه الآيةِ سَمَّى اللهُ تعالى الحُجَّةَ العِلميَّةَ سُلطانًا؛ لأنَّها تُوجِبُ تسَلُّطَ صاحِبِها واقتدارَه، فله بها سُلطانٌ على الجاهلينَ، بل سُلطانُ العِلمِ أعظَمُ مِن سُلطانِ اليَدِ، ولهذا ينقادُ النَّاسُ للحُجَّة ما لا ينقادونَ لليَدِ؛ فإنَّ الحُجَّةَ تنقاد لها القلوبُ، وأمَّا اليدُ فإنَّما ينقادُ لها البدنُ، فالحجَّةُ تأسِرُ القلبَ وتقودُه، وتُذِلُّ المُخالِفَ، وإن أظهَرَ العِنادَ والمكابرةَ، فقَلبُه خاضِعٌ لها ذليلٌ، مقهورٌ تحت سُلطانِها، بل سلطانُ الجاهِ إن لم يكُن معه عِلمٌ يُساسُ به فهو بمَنزلةِ سُلطانِ السِّباعِ والأُسودِ ونحوِها، قُدرة بلا عِلمٍ ولا رحمةٍ، بخلافِ سُلطانِ الحُجَّة، فإنَّه قُدرةٌ بعِلمٍ ورحمةٍ وحِكمةٍ، ومَن لم يكن له اقتدارٌ في عِلمِه، فهو إمَّا لِضَعفِ حُجَّتِه وسُلطانِه، وإمَّا لِقَهرِ سُلطانِ اليَدِ والسَّيفِ له، وإلَّا فالحُجَّةُ ناصرةٌ نَفسَها،

---

(1) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٨٠).

(2) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٣١).

ظاهِرةٌ على الباطِلِ، قاهِرةٌ له⁽¹⁾.

٥- قال الله تعالى: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ لما نفَى البُرهانَ عنهم جعَلَهم غيرَ عالِمينَ، فدلَّ على أنَّ كُلَّ مَقالةٍ لا دليلَ عليها ولا برهان، فهي جَهالةٌ، وليسَتْ مِن العلمِ في شيءٍ⁽²⁾.

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ لا يختَصُّ هذا الوعيدُ بالصورةِ المذكورةِ، بل كلُّ من قال في ذاتِ اللهِ تعالى وفي صفاتِه قَولًا بغيرِ عِلمٍ وبغَيرِ حُجَّةٍ بيِّنةٍ؛ كان داخلًا في هذا الوعيدِ⁽³⁾.

بلاغة الآيات:

١- قَولُه تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾

- قولُه: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾: فيه طريقٌ مِن طُرقِ القَصرِ، وهو تعريفُ المسنَدِ والمسنَدِ إليه ﴿هُوَ الَّذِي﴾، وهو هنا قصرٌ حقيقيٌّ⁽⁴⁾.

- وذكَر عِلَّةَ خلقِ اللَّيلِ فقال: ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾، وحذَفها من النَّهارِ، وذكَر وصْفَ النَّهارِ ﴿مُبْصِرًا﴾ وحذَفه مِن اللَّيلِ، وكلٌّ مِن المحذوفِ يدُلُّ على مُقابِلِه، والتَّقديرُ: جعَل اللَّيلَ مُظلِمًا؛ لِتَسكُنوا فيه، والنَّهارَ مُبصِرًا؛ لِتتحرَّكوا فيه في مَكاسِبِكم وما تَحتاجون إليه بالحرَكةِ، وهو مِن بابِ الاحتباكِ؛ حيث حَذَفَ مِن كُلٍّ مِن آيتَيِ اللَّيلِ والنَّهارِ ما أثبَتَ مُقابِلَه في الأُخرَى، والعَكس⁽⁵⁾.

---

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٦٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٢٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٨٤، ٨٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٧٢).

– قولُه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ ما في اسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ مِن معنى البُعدِ؛ للإيذانِ ببُعدِ مَنزلةِ المشارِ إليه، وعُلوِّ رُتبتِه(١).

– وقولُه: ﴿لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ فيه تخصيصُ الآياتِ بالَّذي يَسمَعون معَ أنَّها منصوبةٌ لِمَصلحةِ الكلِّ؛ لأنَّهم المنتَفِعون بها(٢)، وفي وَصْفِ القومِ بأنَّهم يَسمَعون إشارةٌ إلى أنَّ تلك الآياتِ والدَّلائلَ تَنهَضُ دَلالتُها للعُقولِ بالتَّأمُّلِ فيها، وأنَّ توجُّهَ التَّفكيرِ إلى دَلائلِها غيرُ مُحتاجٍ إلَّا إلى التَّنبيهِ عليها، ولَفْتِه إليها، والوصفُ بالسَّمعِ تعريضٌ بأنَّ الَّذين لم يَهتَدوا بها، ولا تَفطَّنُوا لِدَلالتِها بمَنزِلةِ الصُّمِّ، كقولِه تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ﴾(٣) [الزخرف: ٤٠].

٢- قوله: ﴿قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَما فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطانٍ بِهذا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

– قولُه: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيهٌ وتقديسٌ له عمَّا نَسَبوا إليه، وتعجُّبٌ مِن كَلمَتِهم الحمقاءِ(٤).

– قولُه: ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ علَّةٌ لِنَفيِ الولَدِ؛ لأنَّ ما يُطلَبُ به الولَدُ مَن يَلِدُ، وما يَطلُبُه له السَّببُ في كلِّه الحاجةُ، فمَنِ الحاجةُ منتفِيَةٌ عنه كان الولَدُ عنه مُنتفِيًا(٥).

– وجملةُ: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ مُقرِّرةٌ لوصفِ الغِنى بأنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٦٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٨٥).

ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ مِلكُه(١).

– ولَمَّا كان سياقُ الاستدلالِ يَقتَضي التَّأكيدَ، أعاد (ما) فقال: ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾(٢).

– قولُه: ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾ فيه الْتِفاتٌ مِن الغيبةِ إلى الخطابِ؛ لِمَزيدِ المبالَغةِ في الإلزامِ والإفحامِ(٣).

– و﴿مِنْ﴾ في قولِه: ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾؛ لتأكيدِ النَّفيِ بالاستغراقِ، أي: استغراقِ نفيِ جميعِ أنواعِ الحجَّةِ قَويِّها وضَعيفِها، عَقْليِّها وشَرعيِّها(٤).

– وقولُه: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ استفهامٌ مستعمَلٌ في التَّوبيخِ والتَّقريعِ على جَهلِهم واختلافِهم(٥).

٣- قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾

– قولُه: ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ فيه تلوينٌ للخطابِ، وتوجيهٌ له إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لِيُبيِّنَ لهم سوءَ مغبَّتِهم، ووَخامةَ عاقِبَتِهم(٦).

٤- قوله تعالى: ﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾

– قولُه: ﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ القضاءَ عليه بعدَمِ الفلاحِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٣١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٦٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤ / ١٦٣).

يتَوجَّه عليه أن يَسأَلَ سائلٌ: كيف نَراهم في عِزَّةٍ وقُدرةٍ على أذى المسلِمين، وصدِّ النَّاسِ عن اتِّباعِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم؟! فهو جوابٌ على تقديرِ سؤالٍ، أنَّ قائلًا قال: كيف لا يُفلِحون وهم في الدُّنيا مُفلِحون بأنواعٍ ممَّا يَتلذَّذون به؟! فيُجابُ السَّائلُ بأنَّ ذلك تَمتيعٌ في الدُّنيا لا يُعبَأُ به، أو لهم مَتاعٌ في الدُّنيا زائلٌ لا بقاءَ له، ثمَّ يَلْقَون الشَّقاءَ المؤبَّدَ في الآخرةِ، وإنَّما عدَمُ الفلاحِ مَظهَرُه الآخرةُ⁽¹⁾.

- ومادَّةُ (متع) مُؤذِنةٌ بأنَّه غيرُ دائمٍ، وتنكيرُه مؤذِنٌ بتقليلِه، وتقييدُه بأنَّه ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ مؤكِّدٌ للزَّوالِ وللتَّقليلِ⁽²⁾.

* * *

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٣٣).

الآيات (٧١-٧٣)

﴿ ۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ٧١ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٧٢ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ٧٣ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿كَبُرَ﴾: أي: شَقَّ، وعَظُمَ وصَعُبَ. وأصلُ (كبر): يدلُّ على خِلافِ الصِّغَرِ(١).

﴿مَقَامِي﴾: أي: لُبثي وطولُ مُكثي بينَ أظهرِكم، وقيل: المرادُ بالمَقامِ القيامُ؛ أي: قيامي لوعظِكم؛ لأنَّ الواعظَ يقومُ حالَ وعظِه، والمَقامُ يكونُ مصدرًا، واسمَ مكانِ القيامِ، وزمانِه، وأصلُ (قوم): يدلُّ على انتِصابٍ أو عَزمٍ(٢).

﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ﴾: أي: فأعِدُّوا أمْرَكم، واعْزِموا على ما تُقْدِمون عليه في أمري، يُقالُ: أَجْمَعْتُ على كذا، بمعنَى: عَزَمْتُ عليه، وأَجْمَعْتُ كذا: أكثرُ ما يُقالُ فيما يكونُ جمعًا يُتوصَّلُ إليه بالفكرةِ، وأصل (جمع): يَدُلُّ عَلَى تَضَامِّ الشَّيْءِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠١).

﴿غُمَّةً﴾: أي: مُلتَبِسًا مُشكِلًا مُبهَمًا. وأصلُ (غم): يدُلُّ على تَغطيةٍ وإطباقٍ(١).

﴿اقْضُوا إِلَيَّ﴾: أي: أمضُوا إليَّ ما في أنفُسِكم وافرُغُوا منه. وأصلُ (قضي): يدلُّ على إنفاذِ أمرٍ لجهَتِه(٢).

﴿تُنظِرُونِ﴾: أي: تؤخِّرونِ، وأصلُ (نظر): يدلُّ على انتظارٍ(٣).

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾

﴿وَشُرَكَاءَكُمْ﴾: مَنصوبٌ عطفًا على ﴿أَمْرَكم﴾ بتقديرِ حذفِ مُضافٍ، أي: وأمْرَ شركائِكم، وإنَّما قُدِّر مضافٌ محذوفٌ؛ لأنَّ الأكثَرَ أنَّ فِعلَ (أَجمع) يُستعمَلُ في المعاني، و (جَمَع) يُستعمَل في الأعيانِ، فيُقال: أجمعَ أمْرَه، وجَمَع شُركاءَه. وقيل: إنَّه منصوبٌ بإضمارِ فعلٍ لائقٍ، أي: واجمَعوا أو ادْعُوا شُركاءَكم. وقيل: إنَّه مفعولٌ معه، والواوُ هنا واو المعيَّةِ(٤).

المَعنَى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أن يتلوَ على كفَّارِ مَكَّةَ خبَرَ نُوحٍ عليه السَّلامُ مع قومِه حين قال لهم: إنْ كان عَظُمَ عليكم وُجودي بين أظهُرِكم،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٧٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٩٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٥).

(٣) ينظر ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣١).

(٤) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٣٤٩-٣٥٠)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٦٨٠-٦٨١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٢٤٠-٢٤٢)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٦٩).

وتذكيري إيَّاكم بحُجَجِ اللهِ وبراهينِه، فعلى اللهِ توكَّلتُ، فأعِدُّوا أمْرَكم، وادعُوا شُرَكاءَكم لإعانتِكم، ثمَّ لا تجعَلوا أمْرَكم عليكم مُستَتِرًا مُشكِلًا، ثمَّ أَمضُوا إليَّ ما في أنفُسِكم، ولا تُمهِلوني، فإن أعرَضتُم عن دَعوتي، فإنَّني لم أسألْكم عليها أجرًا؛ لأنَّ ثوابي عند ربِّي وأجري عليه سُبحانَه، وأُمِرتُ أن أكونَ مِن المُسلِمينَ.

ثمَّ أخبَرَ تعالى أنَّ نوحًا كذَّبَه قومُه، فنجَّاه اللهُ هو ومَن معه في السَّفينةِ، وجعَلَهم يَخْلُفونَ المكَذِّبينَ في الأرضِ، وأغرقَ الذين جَحَدوا حُجَجَه، ثمَّ أمرَ الله تعالى نبيَّه مُحمَّدًا أن يتأمَّلَ كيف كان عاقبةُ القَومِ الذين أنذَرَهم رسولُهم عذابَ اللهِ وبأسَه؟

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ٧١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ سُبحانَه وتعالى الدَّلائِلَ على وحدانيَّتِه، وذكَرَ ما جرى بين الرَّسولِ والكفَّارِ؛ ذكَرَ قَصصًا مِن قَصَصِ الأنبياءِ، وما جرى لهم مع قَومِهم من الخِلافِ؛ وذلك تسليةٌ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وليتأسَّى بمَن قبلَه من الأنبياءِ، فيَخِفَّ عليه ما يلقَى مِن التَّكذيبِ، وقِلَّةِ الأتباعِ، وليَعلمَ المتلوُّ عليهم هذا القَصَصُ عاقبةَ مَن كذَّبَ الأنبياءَ، وما منح اللهُ نبيَّه مِن العلم بهذا القَصصِ، وهو لم يُطالِعْ كتابًا، ولا صَحِبَ عالِمًا، وأنَّها طِبقُ ما أخبَرَ به، فدلَّ ذلك على أنَّ الله أوحاه إليه، وأعلَمَه به، وأنَّه نبيٌّ لا شَكَّ فيه⁽¹⁾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٨٦).

وأيضًا فهي انتقالٌ مِن مُقارعةِ المُشركينَ بالحُجَجِ السَّاطعةِ على بُطلانِ دِينِهم، وبالدَّلائِلِ الواضحةِ على تفنيدِ أكاذيبِهم وتكذيبِهم، وما تخلَّلَ ذلك مِن الموعظةِ والوعيدِ بالعذابِ العاجِلِ والآجِلِ، إلى التَّعريضِ لهم بذِكرِ ما حَلَّ بالأُمَمِ المُماثلةِ أحوالُها لأحوالِهم؛ استِقصاءً لطرائِقِ الحِجاجِ على أصحابِ اللَّجاجِ، ففي ذِكرِ عاقِبةِ قَومِ نُوحٍ عليه السَّلامُ تعريضٌ للمُشركينَ بأنَّ عاقِبتَهم كعاقبةِ أولئك، أو أنَّهم إنَّما يُمتَّعونَ قليلًا، ثم يُؤخَذونَ أخذةً رابيةً، كما مُتِّعَ قَومُ نوحٍ زمنًا طويلًا، ثمَّ لم يُفلِتوا من العذابِ في الدُّنيا، فذكَرَ قِصَّةَ نُوحٍ مع قومِه عِظةً للمُشركينَ، ومُلقيًا بالوَجَلِ والذُّعرِ في قلوبهم، وفي ذلك تأنيسٌ للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم وللمُسلمينَ بأنَّهم أُسوةٌ بالأنبياءِ والصَّالحينَ مِن أقوامِهم⁽¹⁾.

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ﴾.

أي: واقرأْ- يا مُحمَّدُ- على قَومِك المُشركينَ خَبَرَ نوحٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مع قَومِه الذينَ كذَّبوه فأهلَكَهم اللهُ؛ لِيَحذَرَ قومُك من أن يُصيبَهم اللهُ بعِقابِه⁽²⁾.

﴿إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ﴾.

أي: حين قال لِقَومِه: يا قومي، إن كان عَظُم وثَقُلَ عليكم لُبثِي بين أظهُرِكم، وشَقَّ عليكم وَعظي إيَّاكم بالدَّلائِلِ والبراهينِ الإلهيَّةِ، فعَزَمتُم على أن تنالوني بسوءٍ- فَعَلى اللهِ اعتمَدْتُ؛ فهو مَن ينصُرُني، ويمنَعُ أذاكم عني⁽³⁾.

---

(1) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٣٤-٢٣٥).

(2) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٣٥).

(3) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣٠)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٩).

كما قال تعالى: ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ * قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ * فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦ - ١١٨].

﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾.

أي: فأعِدُّوا أمْرَكم، واعزِموا جميعًا على إيذائي، وادعُوا مَن تدعونَ مِن دونِ اللهِ لإعانتِكم(١).

﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾.

أي: ثمَّ لا يكُنْ أمرُكم خفيًّا مُشكِلًا، فيه لبسٌ عليكم(٢).

﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾.

أي: ثمَّ أَمضُوا ما تحدِّثونَ أنفسَكم به فيَّ، وأنفِذوا قضاءَكم نَحوِي، وافرُغُوا مِن أمري، ولا تُمهِلوني(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣١، ٢٣٢)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٣٨، ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٩).

قال القرطبي: (أي: لِيَكنْ أمرُكم ظاهرًا مُنكَشِفًا، تتمَكَّنونَ فيه ممَّا شِئتُم، لا كمَن يخفَى أمرُه، فلا يقدِرُ على ما يُريدُ). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٣).

وقال ابنُ كثير: (أي: ولا تجعَلوا أمَركم عليكم مُلتَبِسًا، بل افصِلوا حالَكم معي). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٣).

وقال محمد رشيد رضا: (أي: خفيًّا فيه شيءٌ مِن الحَيرةِ أو اللَّبسِ الذي يقتضي التردُّدَ في الإنفاذِ، بعد العزمِ والإجماعِ، بل كونوا على عِلمٍ وبصيرةٍ فيه؛ لكيلا تتحَوَّلوا عنه بظهورِ الخطأِ أو التردُّدِ في كونِه هو الصَّوابَ). ((تفسير المنار)) (١١/ ٣٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣٣)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٦٩).

﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٧٢﴾.

﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍ﴾.

أي: قال نوحٌ لِقَومِه: فإن أعرَضْتُم- يا قوم- عن دَعوتي لكم إلى توحيدِ اللهِ وطاعتِه، فإنِّي لم أسألْكم على دَعوتي مالًا، حتى تُعرِضوا عن الحَقِّ(١).

﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾.

أي: ما ثَوابي على دَعوتِكم إلى الحَقِّ إلَّا على اللهِ الذي أرسَلَني إليكم، ولا أريدُ ثوابًا مِن غيرِه(٢).

﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾.

أي: وأمَرَني اللهُ أن أكونَ مِن المُستَسلمينَ له، الموحِّدينَ المُنقادينَ له بالطَّاعةِ، وأنا مُمتَثِلٌ ما أمَرَني به(٣).

﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ٧٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا حكى الكَلِماتِ التي جَرَت بينَ نوحٍ وأولئك الكُفَّار، ذكَرَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣٥، ٢٣٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٣، ٢٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٤١، ٢٤٢).

ما إليه رجعَتْ عاقِبةُ تلك الواقِعةِ، أمَّا في حقِّ نوحٍ وأصحابِه فأمرانِ؛ أحدُهما: أنَّه تعالى نجَّاهم مِن الكُفَّارِ. الثاني: أنَّه جعَلَهم خلائِفَ بمعنى أنَّهم يَخلُفونَ مَن هلك بالغَرَق، وأمَّا في حَقِّ الكُفَّار فهو أنَّه تعالى أغرَقَهم وأهلَكَهم(١).

﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾.

أي: فكذَّب نوحًا قومُه، فنجَّيناه مِن الغَرَق هو ومَن معه على دينِه، ممَّن حُمِلَ معه في السَّفينةِ(٢).

﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ خَلَـٰٓئِفَ﴾.

أي: وجَعَلْنا مَن نجَّينا في السَّفينةِ مع نوحٍ خلائِفَ في الأرضِ، يخلُفُ بَعضُهم بعضًا بعد إغراقِ قَومِ نُوحٍ(٣).

﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾.

أي: وأغرَقْنا بالطُّوفانِ قَومَ نوحٍ؛ لأنهم كذَّبوا برسالةِ نوحٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ(٤).

كما قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٤)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٥٠).

قال ابن عطية: (الفُلك: السَّفينةُ، والمفسِّرونَ وأهلُ الآثارِ مُجمِعونَ على أنَّ سَفينةَ نُوحٍ كانت واحدةً). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٣).

وكلمة (فُلْك) تُستعمَلُ للواحدِ وللجمعِ. يُنظر: المصدر السابق، و((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣٦)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٢٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٧٨).

وقال سُبحانه: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ﴾ [الفرقان: ٣٧].

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾.

أي: فانظُرْ- يا محمَّدُ- كيف كان آخِرُ أمرِ القَوم الذين أنذَرَهم نوحٌ عِقابَنا على شِرْكِهم باللهِ وتكذيبِهم لِرَسولِه؛ أعقَبَهم ذلك أنَّا أهلَكْناهم⁽١⁾.

كما قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ﴾ أصحابُ الدَّعوةِ إلى اللهِ لهم أُسوةٌ حسَنةٌ في رسلِ اللهِ، وإنَّه لَيَنبغي لهم أن تمتَلِئَ قلوبُهم بالثِّقةِ حتى تَفيضَ، وإنَّ لهم أن يتوكَّلوا على الله وَحْدَه في وجهِ الطَّاغوتِ أيًّا كان! ولن يضُرَّهم الطاغوتُ إلَّا أذًى؛ ابتلاءً من اللهِ، لا عجزًا منه سُبحانه عن نُصرةِ أوليائِه، ولا تَركًا لهم لِيُسلِمَهم إلى أعدائِه، ولكنَّه الابتلاءُ الذي يمَحِّصُ القلوبَ والصُّفوفَ، ثم تعود الكَرَّةُ للمؤمنينَ، ويحِقُّ وعدُ اللهِ لهم بالنَّصرِ والتَّمكينِ⁽٢⁾.

٢- قولُ الله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾، أي: ما أنصَحُكم إلَّا لوجهِ اللهِ تعالى،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٤).

قال ابن عطية: (قوله: ﴿فَانظُرْ﴾ مخاطبةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُشارِكُه في معناها جميعُ الخَلقِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٨١١).

لا لغَرَضٍ من أغراضِ الدُّنيا، وهكذا ينبغي لكلِّ مَن ينفَعُ النَّاسَ بعِلمٍ أو إرشادٍ إلى طريقِ الله تعالى(١). فالآيةُ فيها إشارةٌ إلى أنَّه ما أخَذَ منهم مالًا على دَعوتِهم إلى دِينِ اللهِ تعالى، ومتى كان الإنسانُ فارغًا مِن الطَّمَعِ كان قَولُه أقوَى تأثيرًا في القَلبِ(٢)، ففي الآيةِ بيانٌ عن إخلاصِ الدُّعاةِ إلى اللهِ جلَّ وعزَّ، مِن تَرْكِ الأجرِ؛ لتتوَفَّرَ الدَّواعي إلى الحَقِّ، وذلك أنَّ النَّاصِحَ إذا طلَبَ على نُصحِه أجرًا ربَّما كان ذلك سببًا لامتناعِ النَّاسِ عن القَبولِ منه والإقبالِ عليه، وإذا لم يَطلُبِ الأجرَ كان ذلك أدعى إلى قَبولِ قَولِه(٣).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ﴾ هذا مِن أقوى آياتِ النبوَّةِ؛ أن يقولَ النبيُّ لِقَومِه، وهم متعاونونَ عليه: افعلوا بي ما شِئتُم(٤).

٢- قال الله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ ..﴾ هذا وإن كان خبرًا مِن اللهِ تعالى عن نوحٍ، فإنَّه حَثٌّ مِن الله لنبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على التأسِّي به، وتعريفٌ منه سبيلَ الرَّشادِ فيما قلَّدَه من الرِّسالةِ، والبلاغِ عنه(٥).

٣- في قولِه تعالى: ﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ﴾ بيانُ أنَّ تَوَكُّلَ نوحٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ على اللهِ يَدفعُ عنه شرَّ أعدائِه، فقَولُ نوحٍ: ﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ لولا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٧١، ٢٧٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٢٧١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣٥).

أنَّ تَحقيقَه هذه الكَلِمةَ- وهو توكُّلُه على اللهِ- يَدفَعُ ما تحدَّاهم به، ودعاهم إليه تعجيزًا لهم من مناجَزَتِه، لكان قد طلَبَ منهم أن يُهلِكوه، وهذا لا يجوزُ، وهذا طلَبُ تعجيزٍ لهم، فدلَّ على أنَّه بتوكُّلِه على اللهِ يُعجِزُهم عمَّا تحدَّاهم به⁽¹⁾.

٤- قال الله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ...﴾، ومعنى ﴿كَبُرَ عَلَيْكُمْ﴾: ثَقُل عليكم، وشقَّ عليكم، وعَظُمَ أمرُه عندَكم، وسبَبُ هذا الثِّقلِ أمرانِ: أحدهما: أنَّه عليه السَّلامُ مكَثَ فيهم ألفَ سَنَةٍ إلَّا خمسينَ عامًا. والثاني: أنَّ أولئك الكُفَّارَ كانوا قد ألِفُوا تلك المذاهِبَ الفاسِدةَ والطَّرائِقَ الباطلةَ، والغالِبُ أنَّ مَن ألِفَ طريقةً في الدِّينِ، فإنَّه يَثقُلُ عليه أن يُدعى إلى خلافِها، ويُذكرَ له ركاكتُها، فإن اقتَرَن بذلك طولُ مُدَّةِ الدعاءِ، كان أثقَلَ، وأشَدَّ كراهيةً، فإن اقتَرَن به إيرادُ الدلائِلِ القاهرةِ على فسادِ تلك المذاهِبِ، كانت النُّفرةُ أشَدَّ، فهذا هو السَّبَبُ في حصولِ ذلك الثِّقلِ⁽²⁾.

٥- بيَّنَ نُوحٌ عليه السَّلامُ أنَّه لا يَخافُ من قومِه بوجهٍ مِن الوجوهِ؛ وذلك لأنَّ الخَوفَ إنَّما يحصُلُ بأحدِ شَيئينِ؛ إمَّا بإيصالِ الشَّرِّ أو بقَطعِ المنافعِ، فبيَّنَ أنَّه لا يخافُ شَرَّهم بقوله: ﴿إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ﴾، وبيَّن أنَّه لا يخافُ أن يقطَعوا عنه خيرًا؛ لأنَّه ما أخَذ منهم شيئًا، وذلك في قولِه: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾⁽³⁾.

٦- في قَولِه تعالى عن نوحٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ

---

(١) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٨٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٢٨٥).

الْمُسْلِمِينَ﴾ بيانُ أنَّ الإسلامَ هو دينُ الرُّسُلِ كلِّهم؛ أوَّلِهم وآخرِهم، وأنَّهم كلَّهم بُعِثوا بالإسلامِ(١).

٧- قولُه: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ فيه توعُّدٌ للكفَّارِ بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وضربُ مثالٍ لهم في أنَّهم بحالِ هؤلاءِ مِن التَّكذيبِ، فسيَكونُ حالُهم كحالِهم في التَّعذيبِ(٢).

٨- قولُه: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ تعظيمٌ لما جَرى عليهم، وتحذيرٌ لِمَن أنذَرَهم رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن مِثلِه، وتسليةٌ له(٣).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ﴾

- في افتتاحِ خطابِ نوحٍ عليه السَّلامُ لقومِه بقولِه: ﴿يَا قَوْمِ﴾ إيذانٌ بأهمِّيَّةِ ما سيُلْقيه إليهم؛ لأنَّ النِّداءَ طلَبُ الإقبالِ، واختيارُ التَّعبيرِ عنهم بوصفِ كونِهم قَوْمَه تَحبيبٌ لهم في نفسِه؛ ليَأخُذوا قولَه مأخَذَ قولِ النَّاصحِ المتطلِّبِ الخيرَ لهم؛ لأنَّ المرءَ لا يُريدُ لقومِه إلَّا خيرًا(٤).

- قَولُ الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ...﴾ خَصَّ بالذِّكرِ مِن أحوالِه فيهم تذكيرَه إيَّاهم بآياتِ اللهِ؛ لأنَّ ذلك من أهَمِّ شُؤونِه مع قَومِه، فعَطفُه مِن عَطفِ الخاصِّ على العامِّ(٥).

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٧/ ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٣٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٢٣٧).

– قولُه: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾: صيغةُ الأمرِ في قولِه: ﴿فَأَجْمِعُوا﴾ مُستعمَلةٌ في التَّسويةِ، أي: إنَّ عَزْمَهم لا يَضيره بحيث هو يُغْريهم بأخذِ الأُهْبَةِ التَّامَّةِ لِمُقاوَمتِه، وزاد ذِكْرَ شُركائِهم؛ لِلدَّلالةِ على أنَّه لا يَخْشاها؛ لأنَّها في اعتِقادِهم أشدُّ بَطشًا مِن القومِ، وذلك تَهكُّمٌ بهم(١).

– قولُه: ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ فيه إظهارُ الأمرِ في موقعِ الإضمارِ؛ لزيادةِ تقريرٍ يَقتَضيها مقامُ الأمرِ بالإظهارِ، الَّذي يَستلزِمُه النَّهيُ عن التَّستُّرِ والإسرارِ(٢).

٢- قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾

– قولُه: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ فيه تعميمٌ لنفيِ تَطلُّبِه أجرًا على دَعوتِهم، سواءٌ مِنهم أو مِن غيرِهم؛ فالقَصرُ بالنَّفيِ والاستثناءِ (إنْ... إلَّا) حقيقيٌّ، وبه يَحصُلُ تأكيدُ جملةِ: ﴿فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾ مع زيادةِ التَّعميمِ(٣).

٣- قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾

– قولُه: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ فيه تقديمُ ذِكرِ إنجائِه قبل ذِكرِ الإغراقِ الَّذي وقَع الإنجاءُ منه؛ للإشارةِ إلى أنَّ إنجاءَه أهمُّ عندَ اللهِ تعالى مِن إغراقِ مُكذِّبيه، ولإظهارِ كمالِ العنايةِ بشأنِ المقدَّمِ، ولتعجيلِ المَسرَّةِ للمُسلِمين السَّامعين

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٥٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٤١).

لهذه القصَّةِ، وللإيذانِ بسَبْقِ الرَّحمةِ على الغضَبِ(١)، وأيضًا لأنَّه هو الأهَمُّ في سياقِ صِدقِ الوعدِ والوعيدِ مِن وَجهينِ؛ أوَّلُهما: تقديمُ مِصداقِ الوعدِ لِتَسليةِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وتسريةِ حُزنِه على قومِه، وثانيهما: كونُه هو الأظهَرَ في الحُجَّةِ على أنَّهما - أي: الوعدَ والوعيدَ - مِن الله تعالى القادرِ على إيقاعِهما، على خلافِ ما يعتَقِدُ المُشركونَ المكذِّبون، المَغرورون بكَثرتِهم وقلَّةِ أتباعِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وخلافِ الأصلِ المعهودِ في المصائبِ العامَّةِ في العادةِ، وهو أنَّها تُصيبُ الصَّالحَ والطَّالِحَ على سواءٍ، فلا تمييزَ فيها ولا استثناءَ، ولكنَّه هو الذي جَرَت به سنَّةُ الله تعالى في مُكَذِّبي الرُّسُلِ مِن بَعدِ نوحٍ، فكان آيةً لهم، فلولا أنَّ الأمرَ بيدِ اللهِ على وَفقِ وَعدِه ووعيدِه، لَما هلَكَ الألوفُ الكثيرونَ، ونجا أفرادٌ قليلون لهم صِفةٌ خاصَّةٌ أخرَجَهم منهم تصديقًا لخبَرِ رسولِهم، وما سِيقَ هذا النبأُ هنا إلَّا لتقريرِ هذا المَعنى(٢).

- وتعريفُ قومِ نوحٍ بطريقِ الموصوليَّةِ في قولِه: ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾؛ للإيماءِ إلى سبَبِ تَعذيبِهم بالغرَقِ، وأنَّه التَّكذيبُ بآياتِ اللهِ؛ إنذارًا للمُشركين مِن العرَبِ؛ ولذلك ذُيِّل بقولِه: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾، أي: المنذَرين بالعذابِ، المكذِّبين بالإنذارِ(٣).

* * *

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٦٥ - ١٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٤٣).

الآيات (٧٤-٧٨)

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ (٧٤) ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ (٧٦) قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ (٧٧) قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ (٧٨) ﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿وَمَلَإِيْهِۦ﴾: الملأُ: أشرافُ النَّاسِ ووجُوهُهم، أو الجماعةُ يجتمعونَ على رأيٍ، فيملؤونَ العيونَ منظرًا، والنفوسَ بهاءً وجلالًا، ويُقالُ: فلانٌ ملءُ العيونِ، أي: معظَّمٌ عندَ مَن رآه، وقيل: وُصِفوا بذلك؛ لأنَّهم يتمالئونَ، أي: يتظاهرونَ عليه، وأصلُ (ملأ): يدلُّ على المساواةِ، والكمالِ في الشيءِ[1].

﴿لِتَلْفِتَنَا﴾: أي: لتَصرِفَنا، والالتفاتُ: الانصرافُ عمَّا كنتَ مُقبلًا عليه، وأصلُ (لفت): يدلُّ على اللَّيِّ، وصَرفِ الشَّيءِ عن جِهتِه المُستَقيمةِ[2].

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه بعثَ بعد نوحٍ رُسُلًا إلى قَومِهم بالمُعجِزاتِ والبَراهينِ التي تدُلُّ على صِحَّةِ رسالتِهم، فما كان هؤلاء المُشرِكونَ لِيُؤمِنوا؛ بسبَبِ تكذيبِهم إيَّاهم أوَّلَ ما أُرسِلوا إليهم. وكما ختم اللهُ على قُلوبِ هؤلاء الأقوامِ فلم يُؤمِنوا،

---

[1] يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٤٣٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٤٦)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٣٧).

[2] يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٧).

كذلك يختِمُ على قلوبِ المُعتَدينَ، ثمَّ بعث اللهُ مِن بعد أولئك الرُّسُلِ موسى وهارونَ عليهما السَّلامُ إلى فرعونَ وأشرافِ قَومِه بالمُعجزاتِ الدَّالَّة على صِدقِهما، فاستكبَروا عن قَبولِ الحَقِّ، وكانوا قومًا مُجرمينَ.

فلما أتى فرعونَ وقومَه الحقُّ الذي جاء به موسى، قالوا: إنَّ الذي جاء به موسى مِن الآياتِ إنما هو سِحرٌ ظاهِرٌ، فقال لهم موسى مُنكرًا عليهم: أتقولونَ للحَقِّ لَمَّا جاءَكم إنَّه سِحرٌ مُبينٌ؟! أسِحرٌ هذا الحَقُّ الذي تُبصِرونَه؟! ولا يفوزُ السَّاحِرونَ في الدُّنيا ولا في الآخرةِ، فقال فرعونُ وملَؤه لموسى: أجِئتَنا لِتَصرِفَنا عمَّا وَجَدْنا عليه آباءَنا من عبادةِ غَيرِ الله، وتكونَ لكما أنت وهارونَ العظَمةُ والسُّلطانُ في أرضِ مِصرَ؟ وما نحنُ لكما بمُؤمِنينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى بيَّنَ في هذه الآيةِ عِبرةً أُخرَى مِن عِبَرِ مُكَذِّبي الرُّسُلِ، وسُنَّةً مِن سُنَنِه فيهم؛ تكملةً لِما بَيَّنَه في حالِ قَومِ نُوحٍ مع رسولِهم، عسَى أن يعتبِرَ بها أهلُ مَكَّةَ، فيَعلموا كيف يتَّقونَ عاقِبةَ المكَذِّبينَ مِن قَومِ نُوحٍ وغَيرِهم، فإنَّ كُلَّ سوءٍ وضُرٍّ عُلِمَ سَبَبُه، أمكن اتِّقاؤُه باتِّقاءِ سَبَبِه، إذا كان من عمَلِ النَّاسِ الاختياريِّ، كالكُفرِ والاعتداءِ والظُّلمِ(١).

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾.

أي: ثمَّ أرسَلْنا من بعدِ نوحٍ رُسُلًا إلى قَومِهم، فجاؤوهم بالمُعجزاتِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٧٨).

والبَراهينِ الواضحةِ الدالَّةِ على صِدقِهم(١).

﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُ﴾.

أي: فما كان المُشرِكونَ لِيُؤمِنوا بما جاءتهم به رسُلُهم؛ بسبَبِ تكذيبِهم بالحَقِّ حين جاءَهم أوَّلَ مرَّةٍ(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

﴿كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾.

أي: كما خَتَمْنا على قلوبِ السَّابِقينَ فلم يُؤمِنوا، نختِمُ أيضًا على قلوبِ المُجاوِزينَ الحَدَّ بالشِّركِ، وتكذيبِ الرُّسُلِ، فلا يؤمِنون؛ عقوبةً لهم(٣).

كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣٧)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٠)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٣)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣١).

وقيل: فما كانوا ليُؤمنوا عندَ إرسالِ الرُّسلِ بما كذَّبوا به يومَ أخذِ ميثاقِهم حينَ أخرَجهم مِن صُلبِ آدمَ، فآمنوا كرهًا حيثُ أقرُّوا بالألسنِ، وأضمَروا التكذيبَ، قاله ابنُ عباسٍ، والسديُّ.

وقيل: فما كانوا لو ردَدْناهم إلى الدُّنيا بعدَ موتِهم ليُؤمِنوا بما كذَّبوا به مِن قبلِ هلاكِهم، وهو قولُ مجاهدٍ.

وقيل: الضميرُ في (كانُوا)، (لِيُؤمِنُوا) (كَذَّبُوا) يعودُ إلى قومِ الرُّسلِ على معنَى أنَّهم بادروا رسلَهم بالتكذيبِ كلَّما جاء رسولٌ، ثم لجُّوا في الكفرِ، وتمادَوْا، فلم يَكونوا لِيُؤمِنوا بما سبَقَ به تكذيبُهم، وقيل غير ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٢٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣٧)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٣، ١٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٤، ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٤٥).

بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٠١].

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ ﴾.

أي: ثمَّ أرسَلْنا من بعد الأنبياءِ الذين جاؤوا بعدَ نوحٍ، موسى وهارونَ إلى فِرعونَ والأشرافِ مِن قَومِه بمُعجزاتِنا الواضحةِ، فكذَّبوا بها، واستكبَروا عن اتِّباعِ الحَقِّ⁽¹⁾.

كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٣].

﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾.

أي: وكان فِرعونُ وقَومُه أصحابَ ذُنوبٍ كبيرةٍ وآثامٍ عظيمةٍ؛ ولذلك استكبَروا عن اتِّباعِ الحَقِّ⁽²⁾.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤].

وقال سُبحانه: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤].

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٤٨).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا أخبَرَ اللهُ تعالى باستكبارِ آلِ فِرعونَ؛ بيَّنَ أنَّه تسبَّبَ عنه طعنُهم في معجزاتِه مِن غَيرِ تأمُّلٍ، بل بغايةِ المُبادَرةِ والإسراعِ بما أشعَرَت به الفاءُ والسِّياقُ(١).

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾.

أي: فلمَّا جاءَتْهم المُعجزاتُ الواضحةُ التي أيَّدنا بها موسى، قالوا: إنَّ هذا الَّذي جاء به موسى لَسِحرٌ ظاهِرٌ(٢)!!

كما قال تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ * فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ * وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٢- ١٤].

وقال سُبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٣-٢٤].

﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾.

أي: قال موسى لهم مُنكِرًا عليهم ومُوبِّخًا لهم: أتقولونَ عن المُعجزاتِ التي جِئتُكم بها: إنَّها سِحرٌ مُبينٌ؟! أسِحرٌ هذا الحَقُّ الذي تُبصِرونَه(٣)؟!

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣٨، ٢٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧١).

﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾.

أي: ولا ينجو السَّاحِرونَ، ولا يفوزونَ في الدُّنيا ولا في الآخرةِ[1].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [طه: ٦٩].

﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾.

أي: قالوا: أجِئتَنا- يا موسى- لِتصرِفَنا بسِحرِك عن دينِنا الذي وَجَدْنا عليه آباءَنا مِن قبلِ مجيئِك، وتأمُرَنا أن نَعبُدَ اللهَ وحده، ونترُكَ عبادةَ آلهَتِنا[2]؟

﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

أي: ولتكونَ لكما عَظمةُ المُلكِ، وعِزُّ السُّلطانِ في أرضِ مِصرَ[3]؟

﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: وقالوا تكبُّرًا وعنادًا: وما نحنُ لكما- يا موسى وهارونُ- بمصدِّقينَ ومُقِرِّينَ بأنَّكما رسولانِ مِن عندِ اللهِ[4].

---

[1] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣٩)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٧٦)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧١).

[2] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧١).

[3] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٤٠)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥٢).

[4] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧١).

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ * وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٢-١٣٥].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ نُوحًا أوَّلُ الرُّسُلِ⁽¹⁾.

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ قال: ﴿مِنْ عِنْدِنَا﴾ بهذا التَّحديدِ؛ ليُصَوِّرَ شناعةَ الجريمةِ فيما قالوه عن هذا الحَقِّ الصَّادرِ مِن عندِ اللهِ⁽²⁾.

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ فيه تَنبيهٌ على فَسادِ السِّحرِ، وسُوءِ عاقِبةِ مُعالِجيه⁽³⁾.

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا﴾ فيه سؤالٌ: أنَّه كيف قال موسى إنَّهم قالوا: أسِحرٌ هذا، بطريقِ الاستفهامِ، مع أنَّهم إنَّما قالوه بطريقِ الإخبارِ المؤكَّدِ في قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٤٤).

وقد ورَد ذلك صريحًا، كما في حديثِ الشفاعةِ، وفيه: ((ائتُوا نوحًا؛ فإنَّه أوَّلُ رسولٍ بعثَه الله إلى أهلِ الأرضِ)). أخرجه البخاري (٤٤٧٦)، ومسلم (١٩٣) مِن حديثِ أنسٍ رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٨١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥٠).

الجوابُ: أنَّ فيه إضمارًا تقديرُه: أتقولونَ للحَقِّ لَمَّا جاءَكم: إنَّ هذا لَسِحرٌ مُبينٌ؟ ثمَّ قال لهم: أسِحرٌ هذا؟! إنكارًا لِما قالوه، فالاستفهامُ للإنكارِ، مِن قَولِ موسى لا مِن قَولِهم(١).

٥- قولُه: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ إنَّما أعْلَمَ أنَّ السَّاحِرَ لا يُفلِحُ، أي: لو كان ساحِرًا لَما شَنَّع حالَ السَّاحِرين، إذ صاحِبُ الصِّناعةِ لا يَحقِرُ صِناعتَه؛ لأنَّه لو رآها مُحقَّرةً لَما الْتَزَمَها(٢).

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ لَمَّا كان موسى عليه السَّلامُ هو الأصلَ في الرِّسالةِ، وكان أخوه له تبعًا، وحَّدوا الضميرَ فقالوا: ﴿أَجِئْتَنَا﴾(٣).

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ حكى عن فِرعونَ وقَومِه أنَّهم لم يَقبَلوا دعوةَ موسى عليه السَّلامُ، وعَلَّلوا عدمَ القَبولِ بأمرَينِ؛ الأول: قَولُه: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ وفيه إشارةٌ إلى التمَسُّكِ بالتَّقليدِ. والثاني: قولُه: ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ﴾ وفيه إشارةٌ إلى الحِرصِ على طلبِ الدُّنيا والجِدِّ في بقاءِ الرِّياسةِ(٤).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٥١-٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٨٧).

- ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ﴾: فيه تنكيرُ ﴿رُسُلًا﴾؛ للتَّفخيمِ ذاتًا ووَصفًا، أي: رُسلًا كِرامًا ذَوِي عددٍ كثيرٍ⁽¹⁾.

- قولُه: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾: فيه التَّعبيرُ عن النَّفيِ بصيغةِ لامِ الجُحودِ؛ مُبالَغةً في انْتِفاءِ الإيمانِ عنهم بأقْصى أحوالِ الانتفاءِ؛ فمَجيءُ النَّفيِ بلامِ الجُحودِ يَدُلُّ على أنَّ إيمانَهم في حيِّزِ الاستحالةِ والامتناعِ⁽²⁾.

٢- قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ فيه تخصيصُ فِرعونَ ومَلَئِه بالذِّكرِ مع عُمومِ رسالةِ موسى عليه السَّلامُ لقَومِه كافَّةً- حيث كانوا جَميعًا مأمورين بعبادةِ ربِّ العالَمين عزَّ سُلطانُه، وتَرْكِ العَظيمةِ الشَّنعاءِ الَّتي كانَ يدَّعِيها الطَّاغيةُ، ويَقبَلُها منهُ فئتُه الباغيةُ- لأصالتِهم في تدبيرِ الأمورِ، واتِّباعِ غيرِهم لهم في الوُرودِ والصُّدورِ⁽³⁾.

- قولُه: ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ السِّينُ والتَّاءُ للمُبالَغةِ في التَّكبُّرِ⁽⁴⁾.

- وقولُه: ﴿وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ اعتراضٌ مقرِّرٌ لمضمونِ ما قَبلَه، أي: كانوا معتادين لارتكاب الذنوبِ العظامِ؛ فإنَّ الإجرامَ مؤذنٌ بعِظَمِ الذنبِ⁽⁵⁾.

٣- قَوله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٤٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤ / ١٦٧).

- قولُه: ﴿قَالَ مُوسَى﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ تَنْساقُ إليه الأذهانُ، كأنّه قيل: فماذا قال لهم مُوسى حينَئذٍ؟ فقيل: قال: ﴿أَتَقُولُونَ...﴾(١).

- قولُه: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ، ومفعولُ ﴿أَتَقُولُونَ﴾ محذوفٌ؛ لدَلالةِ الكلامِ عليه، وهو: ﴿إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾(٢).

- ولَمَّا كان تكريرُهم لذلك القَولِ أجدَرَ بالإنكارِ، عبَّرَ بالمضارعِ ﴿أَتَقُولُونَ﴾ الدَّالِّ على أنَّهم كَرَّروه؛ لِيَنسخوا ما ثبتَ في قلوبِ النَّاسِ مِن عَظمتِه(٣).

- وجملةُ: ﴿أَسِحْرٌ هَذَا﴾ مُستأنَفةٌ للتَّوبيخِ والإنكارِ؛ أنكَر موسى عليهم وصْفَهم الآياتِ الحقَّ بأنَّها سِحرٌ، والإشارةُ بـ ﴿هَذَا﴾ تُفيدُ التَّعريضَ بجَهْلِهم، وفسادِ قولِهم، بأنَّ الإشارةَ إلى تلك الآياتِ كافيةٌ في ظُهورِ حَقيقتِها، وأنَّها ليسَتْ مِن السِّحرِ في شيءٍ(٤).

٤- قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾

- قولُه: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾: الاستِفْهامُ في قولِه: ﴿أَجِئْتَنَا﴾ إنكاريٌّ؛ بنَوْا إنكارَهم على تَخطئةِ موسى فيما جاء به(٥).

- واختِير التَّعبيرُ بـ ﴿وَجَدْنَا﴾؛ لِما فيه مِن الإشارةِ إلى أنَّهم نشَؤوا عليها وعقَلوها، وذلك ممَّا يُكسِبُهم تَعلُّقًا بها، وأنَّها كانت أحوالَ آبائِهم، وذلك ممَّا يَزيدُهم تَعلُّقًا بها تبَعًا لِمَحبَّةِ آبائِهم؛ لأنَّ مَحبَّةَ الشَّيءِ تَقْتَضِي محبَّةَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٢٥١).

أحوالِه ومُلابَساتِه⁽¹⁾.

- وجملةُ: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ عطفٌ على جملةِ: ﴿أَجِئْتَنَا﴾، وهي في قوَّةِ النَّتيجةِ لتِلك الجُملةِ بما مَعها مِن العلَّةِ، أي: لَمَّا تبيَّن مَقصَدُكما، فما نحن لَكُما بمُؤمِنين⁽²⁾.

- قولُه: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ فيه تقديمُ ﴿لَكُمَا﴾ على مُتعلَّقِه ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾؛ لأنَّ المخاطَبَينِ هما الأهمُّ مِن جملةِ النَّفيِ؛ لأنَّ انتِفاءَ إيمانِهم في زَعمِهم كان لأجلِ موسى وهارونَ؛ إذ توَهَّموهما مُتطَلِّبَي نفْعٍ لأنفُسِهما⁽³⁾.

- وصِيغَتْ جُملةُ: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ اسميَّةً دونَ أن يَقولوا: (وما نُؤمِنُ لكُما)؛ لإفادةِ الثَّباتِ والدَّوامِ، وأنَّ انتفاءَ إيمانِهم بهِما مُتقرِّرٌ مُتمكِّنٌ، لا طَماعِيَةَ لأحدٍ في ضدِّه⁽⁴⁾.

* * *

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٧٩-٨٢)

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ فِرعونَ قال لِقَومِه بعد أن رأى مِن موسى الإصرارَ على دَعوتِه ودَعوةِ قَومِه إلى عبادةِ اللهِ وَحدَه: جيئوني بكلِّ ساحرٍ مُتقِنٍ للسِّحرِ، فلمَّا جاء السَّحرةُ فِرعونَ قال لهم موسى: ألقُوا على الأرضِ ما معكم مِن حِبالِكم وعِصيِّكم، فلمَّا ألقَوا حِبالَهم وعِصيَّهم قال لهم موسى: إنَّ الذي جِئتُم به وألقَيتُموه هو السِّحرُ، إنَّ اللهَ سيُذْهِبُه؛ إنَّ اللهَ لا يُصلِحُ عَمَلَ مَن سعى في الأرضِ بالفَسادِ، ويُثبِّتُ اللهُ الحَقَّ الذي جِئتُكم به مِن عِندِه فيُعليه على باطِلِكم، بكَلِماتِه وأمْرِه، ولو كَرِه المُجرِمون.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ادَّعى فِرعونُ ومَلؤُه أنَّ ما جاء به موسى عليه السَّلامُ هو سِحرٌ؛ أخَذوا في مُعارضتِه بأنواعٍ مِن السِّحرِ، لِيَظهَرَ لسائرِ النَّاسِ أنَّ ما أتى به من بابِ السِّحرِ(١).

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٩٢).

أي: وقال فِرعونُ لِقَومِه: أحضِروا إليَّ مِن المدائِنِ كلَّ ساحِرٍ ماهِرٍ بالسِّحرِ⁽¹⁾.

كما قال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ [الأعراف: ١٠٩-١١٢].

﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

أي: فلمَّا جاء السَّحرةُ قال لهم موسى: اطرَحوا على الأرضِ ما تريدون طرحَه، مما مَعَكم من الحِبالِ والعِصِيِّ⁽²⁾.

كما قال تعالى: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ * قَالَ أَلْقُوا﴾ [الأعراف: ١١٣-١١٦].

وقال سُبحانه: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى * قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ [طه: ٦٥-٦٦].

﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾﴾.

﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿آلسِّحْرُ﴾ بالمَدِّ والهَمزِ، على أنَّ الاستفهامَ مِن موسى للسَّحَرةِ عما جاؤوا به، أسِحرٌ هو أم غيرُه؟ فهو استفهامٌ على جهةِ التَّوبيخِ؛ لأنَّهم قد

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٤١)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٤١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٧).

عَلِموا أنَّه سِحرٌ(١).

٢- قِراءةُ ﴿السِّحْرُ﴾ بألف وصلٍ مِن غَيرِ مَدٍّ ولا همزٍ، على وجهِ الخَبَرِ مِن موسى أنَّ الذي جاء به سَحَرةُ فِرعونَ هو السِّحرُ، لا ما جاء به موسى(٢).

﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ﴾.

أي: فلمَّا ألقَى السَّحرةُ حِبالَهم وعِصيَّهم، وسَحَروا أعيُنَ النَّاسِ، قال موسى للسَّحَرةِ: الذي جِئتُم به هو السِّحرُ، وليس ما جئتُكم به ممَّا أسمَيتُموه سحرًا(٣).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾.

أي: إنَّ اللهَ سيُذهِبُ سِحرَكم، ويُظهِرُ بُطلانَه للنَّاسِ بما يُظهِرُه على يَدي من المعجزةِ(٤).

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ * وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١١٦-١١٩].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

---

(١) قرأ بها أبو عمرٍو، وأبو جعفرٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (١/ ٣٧٨).
ويُنظر لمعنَى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٨٣)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٣٥)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٧٩).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (١/ ٣٧٨).
ويُنظر لمعنَى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٤٢)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٨٣)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٢١)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٤٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥٦).

أي: إنَّ اللهَ لا يُصلِحُ أعمالَ الذين يَسعَونَ في أرضِ اللهِ بما يَكرَهُه كالسَّحَرةِ، فلا يُتِمُّها لهم فينتَفِعونَ بها، ولا يثيبُهم عليها(١).

﴿ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

﴿ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ ﴾.

أي: ويُثبِتُ اللهُ الحَقَّ الذي جاء مِن عندِه، ويُوضِّحُه ويُظهِرُه على مَن خالَفَه، بكَلِماتِه الكونيَّةِ، وكَلِماتِه التنزيليَّةِ التي يُوحيها إلى رسلِه، ومِنها الإخبارُ بإظهارِ الحقِّ وإعزازِه(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ * لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٧-٨].

﴿ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٤٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥٧).
قال ابنُ عطيةَ: (قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ يصِحُّ أن يكونَ مِن كلامِ موسى عليه السَّلامُ، ويصِحُّ أن يكونَ ابتداءَ خَبَرٍ من اللهِ تعالى). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٦).
وقال ابنُ عاشورٍ: (إنما كان السحرةُ مفسدينَ؛ لأنَّ قصدَهم تضليلُ عقولِ الناسِ؛ ليكونوا مسخَّرين لهم، ولا يعلموا أسبابَ الأشياءِ، فيبقوا آلةً فيما تأمرُهم السحرةُ، ولا يهتدوا إلى إصلاحِ أنفسِهم سبيلًا، أمَّا السحرةُ الذين خاطَبهم موسَى عليه السلام فإفسادُهم أظهرُ؛ لأنَّهم يُحاوِلونَ إبطالَ دَعوةِ الحَقِّ والدِّينِ القَويمِ، وتَرويجَ الشِّركِ والضَّلالاتِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٤٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٢٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٨٢).
قال ابن عطيَّةَ: (قَولُه: ﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ يحتملُ أن يكونَ مِن كلامِ موسى عليه السَّلامُ، ويحتملُ أن يكونَ مِن إخبارِ الله عزَّ وجَلَّ، وكونُ ذلك كلِّه من كلامِ موسى أقرَبُ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٦).

أي: يُحِقُّ اللهُ الحَقَّ وإن كَرِه العُصاةُ الآثمونَ ذلك(١).

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ هكذا كلُّ مُفسِدٍ عَمِلَ عملًا، واحتال كَيدًا، أو أتى بمكرٍ، فإنَّ عمَلَه سيَبطُلُ ويضمَحِلُّ، وإن حصَلَ لعَمَلِه رَوَجانٌ في وقتٍ ما، فإنَّ مآلَه الاضمحلالُ والمَحْقُ، وأمَّا المُصلِحونَ الذين قَصْدُهم بأعمالِهم وَجهُ الله تعالى- وهي أعمالٌ ووسائِلُ نافعةٌ، مأمورٌ بها- فإنَّ اللهَ يُصلِحُ أعمالَهم ويُرَقِّيها، ويُنَمِّيها على الدَّوامِ(٢).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَى أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ﴾، فأمَرهم موسَى عليه السلامُ بالإلقاءِ؛ لأنَّه علِم أنَّهم لا بدَّ أن يُلقوا تلك الحبالَ والعصيَّ، وإنَّما وقَع التخييرُ في التقديمِ والتأخيرِ، فأذِن لهم في التقديمِ؛ لتظهرَ معجزتُه أيضًا بغلَبِهم؛ لأنَّه لو ألقَى أوَّلًا لم يكنْ له غلَبٌ وظهورٌ عليهم، فلهذا المعنَى أمَرهم بالإلقاءِ أولًا(٣)، وهو بمنزلةِ تَقريرِ شُبهةِ المُلحِدِ ممَّن يتَصدَّى لإبطالِها بعد تقريرِها(٤).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَى أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ إطلاقُ الإلقاءِ على عمَلِ السِّحرِ؛ لأنَّ أكثَرَ تصاريفِ السَّحَرةِ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٢/ ٢٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥٥).

أعمالِهم السِّحريةِ يكونُ برَميِ أشياءَ إلى الأرضِ[١].

٣- قولُ الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ * فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ طُويَ ذِكرُ صورةِ سِحرِهم في هذه الآيةِ؛ لأنَّ الغرضَ مِن العبرةِ في هذه الآيةِ وَصفُ إصرارِ فِرعونَ ومَلَئِه على الإعراضِ عن الدعوةِ، وما لَقِيَه المُستَضعَفونَ الذين آمَنوا بموسى عليه السَّلامُ مِن اعتلاءِ فِرعونَ عليهم، وكيف نصَرَ اللهُ رَسولَه والمُستَضعفَينَ معه، وكيف كانت لهم العاقِبةُ الحُسنى، ولِمَن كفروا عاقبةُ السَّوءِ، ليكونوا مثلًا للمُكَذِّبينَ بمُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ ولذلك لم يُعرِّجْ بالذِّكرِ إلَّا على مقالةِ موسى عليه السَّلامُ حين رأى سِحرَهم، الدَّالَّةِ على يقينِه برَبِّه ووَعدِه، وبأنَّ العاقِبةَ للحَقِّ، وذلك أهَمُّ في هذا المقامِ مِن ذِكرِ اندحاضِ سِحرِهم تجاهَ مُعجزةِ موسى عليه السَّلامُ؛ ولأجلِ هذا لم يذكُرْ مَفعولَ ﴿أَلْقَوْا﴾ لتنزيلِ فِعلِ ﴿أَلْقَوْا﴾ منزلةَ اللَّازمِ؛ لِعَدمِ تعَلُّقِ الغَرَض ببيانِ مَفعولِه[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ﴾ عطفٌ على مُقدَّرٍ يَستَدعيهِ المقامُ قد حُذِف؛ إيذانًا بسُرعةِ امتثالِهم لأمرِ فرعونَ، كما هو شأنُ الفاءِ الفصيحةِ في كلِّ مَقامٍ، والتَّقديرُ: فأتَوْا به، فلَمَّا جاؤوا ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى...﴾[٣].

- قولُه: ﴿أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ فيه استعمالُ فعلِ الأمرِ ﴿أَلْقُوا﴾ في

---

[١] يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥٤).

[٢] يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٢٥٥).

[٣] يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤ / ١٦٩).

التَّسويةِ المرادِ منها الاختيارُ، وإظهارُ قِلَّةِ الاكتراثِ بأحَدِ الأمْرَين؛ وفيه استِطالةٌ عليهم، وعدَمُ مُبالاةٍ بهم⁽¹⁾.

- وفي إبهامِ: ﴿مَا أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ تخسيسٌ له وتقليلٌ، وإعلامٌ أنَّه لا شيءَ يُلتَفَتُ إليه⁽²⁾.

٢- قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ جملةٌ معترِضةٌ، وهي تعليلٌ لِمَضمونِ جُملةِ ﴿إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ﴾، وتذييلٌ للكلامِ بما فيه نفيُ الإصلاحِ، وإضافةُ ﴿عَمَلَ﴾ إلى ﴿الْمُفْسِدِينَ﴾ يُؤذِنُ بأنَّه عملٌ فاسدٌ⁽³⁾.

- وفيه وضعُ المظهَرِ ﴿عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ موضِعَ المضمَرِ - حيث لم يقُلْ: إنَّ اللهَ لا يُصلِحُ عمَلَكم - للتَّسجيلِ عليهم بالإفسادِ، والإشعارِ بعلَّةِ الحكمِ⁽⁴⁾.

٣- قوله تعالى: ﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ﴾ فيه إظهارُ اسمِ الجلالةِ في هذه الجملةِ، مع أنَّ مُقتَضى الظَّاهرِ الإضمارُ؛ لِقَصدِ تربيةِ المهابةِ في نُفوسِهم⁽⁵⁾.

- وقولُه: ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ المرادُ (بالمجرمين) فِرعونُ ومَلَؤُه؛ فعَدَل عن ضميرِ الخِطابِ إلى الاسمِ الظَّاهرِ؛ لِما فيه مِن وَصفِهم بالإجرامِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٧٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥٧).

تَعريضًا بهم، وإنَّما لم يُخاطِبْهم بصفةِ الإجرامِ بأن يَقولَ: (وإنْ كَرِهتُم أيُّها المُجرِمون) عُدولًا عن مُواجَهتِهم بالذَّمِّ، وُقوفًا عندَ أمرِ اللهِ تعالى؛ إذ قال له: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا﴾[1] [طه: ٤٤]، وذلك على القولِ بأنَّه مِن كلامِ موسَى عليه السلامُ.

---

[1] يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥٨).

الآيات (٨٢-٨٦)

﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ (٨٣) وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ (٨٤) فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٨٥) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ (٨٦) ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ذُرِّيَّةٌ﴾: الذُّرِّيَّةُ: الأولادُ وأولادُ الأولادِ، فهي اسمٌ يَجمعُ نَسلَ الإنسانِ مِن ذَكَرٍ وأُنثَى، قيل: أصلُها مِن ذرَأ، أي: خلَق؛ لأنَّها خلقُ الله، وحُذِفت الهمزةُ منها، وقيل: أصلُها مِن الذَّرِّ، بمعنَى التَّفريقِ؛ لأنَّ اللَّه تعالى ذَرَّهم في الأرضِ(١).

﴿يَفْتِنَهُمْ﴾: أي: يَقتُلَهم ويُعَذِّبَهم، وأصلُ (فتن): يدُلُّ على ابتلاءٍ واختبارٍ(٢).

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه لم يُؤمِنْ لِموسى عليه السَّلامُ- مع ما أتى به مِن الحُجَجِ والأدِلَّةِ على صِدقِه- إلَّا عددٌ قليلٌ مِن شَبابِ قَومِه من بني إسرائيلَ، وهم خائفونَ مِن فرعونَ وأشرافِ قَومِهم أن يَفتِنوهم بالعذابِ، فيصدُّوهم عن دينِهم، وإنَّ فرعونَ لَجبَّارٌ مُستكبِرٌ في الأرضِ، وإنَّه لَمِن المُتَجاوزينَ الحَدَّ في الكفرِ والفَسادِ، وقال موسى لِقَومِه- تَطمينًا لقلوبهم-: يا قَومي، إن كُنتم آمَنتُم باللهِ، فثِقوا به، وسلِّموا لأمْرِه إن كُنتم مُذعِنينَ له بالطَّاعة، فقالوا: على اللهِ وَحْدَه لا شريكَ له اعتَمَدْنا، وإليه فوَّضْنا أمْرَنا، ربَّنا لا تُظهِرْهم علينا فيَروا أنَّهم خيرٌ منا فيزدادوا طغيانًا،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٧)، ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ١٥٧، ٣٩٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢-٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥٦).

ويقولوا: لو كانوا على حقٍّ ما سُلِّطنا عليهم، فيُفتنوا بذلك، ويَصُدَّهم عن الإقرارِ بالحَقِّ واتِّباعِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ (٨٣) ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا حكى سُبحانَه أنَّ موسى عليه السَّلامُ أبان ما أبان مِن بُطلانِ السِّحرِ، وكونِه إفسادًا، فثَبَت ما أتَى به لِمُخالفَتِه له؛ أخبَرَ تعالى- تسليةً للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وقَطعًا عن طلَبِ الإجابةِ للمُقتَرَحاتِ- أنَّه ما تسبَّبَ عن ذلك في أوَّلِ الأمرِ عَقِبَ إبطالِ سِحرِهم مِن غيرِ مُهلةٍ، إلَّا إيمانُ ناسٍ ضُعفاءَ، غيرِ كثيرٍ(١).

وأيضًا فإنَّ هذه الآيةَ تَفريعٌ على ما تقَدَّمَ مِن المحاورةِ، أي: فتفَرَّع على ذلك أنَّ فِرعونَ ومَلأَه لم يُؤمِنوا بموسى(٢).

﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ ﴾.

أي: فلم يصدِّقْ بموسى في أوَّلِ دَعوتِه، ويُقِرَّ له بالنبوَّةِ إلَّا قَليلٌ مِن أولادِ قَومِه بني إسرائيلَ(٣).

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٤٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٨٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٥٢٩)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ١٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥٨ - ٢٦٠).

وممَّن ذهَب إلى أنَّ المرادَ بـ﴿ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾: أبناءُ قَومِ موسى من بني إسرائيلَ: ابنُ جريرٍ، والشوكانيُّ، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٤٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٢٩-٥٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥٩). =

﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾.

أي: آمَنوا وهم خائفونَ مِن فِرعونَ ومِن أشرافِ قَومِهم- الذين كانوا على مِثلِ ما كان عليه فرعونُ- أن يَصرِفَهم فِرعونُ عن اتِّباعِ الحَقِّ، بمِحنةٍ وبليَّةٍ يُوقِعُها عليهم(١).

ثم بيَّن أسبابَ خوفِهم منه بقولِه:

﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾.

أي: وإنَّ فِرعونَ لجبَّارٌ، متكبِّرٌ على الحَقِّ والخَلْقِ في أرضِ مِصرَ، وإنَّه لَمِنَ المجاوزينَ الحدَّ في الكُفرِ والقَتلِ والبَغيِ(٢).

= وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه، ومجاهدٌ، والأعمشُ، يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٧).

وقيل المراد: شبابٌ مِن قَومِ فِرعونَ، وممن ذهَب إلى ذلك: ابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٧-٢٨٨).

وممَّن قال بهذا القولِ من السلفِ: ابنُ عباسٍ في الروايةِ الثانيةِ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٧).

قال ابن عاشور: (المعنى: أنَّهم آمنوا عند ظهورِ مُعجزتِه، أي أعلنوا الإيمانَ به في ذلك الموطنِ؛ لأن الإيمانَ لا يُعرَف إلَّا بإظهاره، ولا فائدة منه إلا ذلك الإظهارُ، أي: من الحاضرين في ذلك المشهدِ من بني إسرائيل، فإنَّ عادةَ هذه المجامعِ أن يغشاها الشبابُ واليافعون، فعبَّرَ عنهم بالذرية، أي: الأبناء، كما يقال: الغِلمان، فيكونون قد آمنوا من تلقاءِ أنفسهم، وكلُّ هذا لا يقتضي أن بقيَّةَ قَومِه كفروا به؛ إذ يحتملُ أن يكونوا آمنوا به بعد ذلك لَمَّا بلغَتْهم دعوتُه؛ لأنَّه يكونُ قد ابتدأ بدعوةِ فِرعونَ مبادرةً لامتثالِ الأمرِ مِن الله بقولِه: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّه طَغَى﴾ [طه: ٤٣] فيكونُ المأمورُ به ابتداءً هو دعوةُ فرعونَ، وتخليصُ بني إسرائيل من الأَسْرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥٩-٢٦٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٤٨، ٢٤٩)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٥٠)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٧٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٦٠، ٢٦١).

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذكَرَ الله تعالى خَوفهم وعُذرَهم؛ أتبَعَه ما يُوجِبُ طُمَأنينَتَهم، وهو التوكُّلُ على اللهِ الذي مَن راقَبَه تلاشى عنده كلُّ عَظيمٍ(١).

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

أي: وقال موسى لِقَومِه بني إسرائيلَ: يا قوم، إن كُنتم آمَنتُم باللهِ حقًّا فاعتَمِدوا عليه وَحْدَه في نَصْرِكم، ودَفْعِ الضُّرِّ عنكم، وبه ثِقوا، ولأمْرِه سَلِّموا، إن كنتم مُذعِنينَ له بالطَّاعةِ(٢).

﴿ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾.

﴿ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا ﴾.

أي: فقال بنو إسرائيلَ: على اللهِ وَحْدَه اعتَمَدْنا، وإليه فوَّضْنا أمْرَنا(٣).

﴿ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

أي: قال قَومُ موسى عليه السَّلامُ: ربَّنا؛ لا تُظفِرِ الكافرينَ بنا، وتُسَلِّطْهم علينا، فيَعتَقِدوا أنَّ غَلَبتَهم علينا لم تقَعْ إلَّا لأنَّهم على الحَقِّ، ونحن على الباطِلِ، فيُفتَنوا بذلك، ويُعرِضوا عن الإقرارِ بالحَقِّ واتِّباعِه(٤).

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٥٠)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٣١)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٥٠، ٢٥٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٨، ٢٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٦٣، ٢٦٤). =

أو: ربَّنا؛ لا تُسَلِّطْهم علينا فيَفْتنونا عن دينِنا(١).

﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

أي: وخلِّصْنا- يا رَبَّنا- برَحمتِك مِن بَطشِ وسُلطانِ قَومِ فِرعونَ الكافرينَ(٢).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْف مِنْ

= وممن اختار هذا المعنى المذكور للفتنة هنا: الزجاج، وابن جرير، والواحدي والبغوي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٣٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٥٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٠٦)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٣١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: مجاهدٌ- في إحدى الروايتين عنه- وأبو مجلزٍ، وأبو الضحَى. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٦/ ١٩٧٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٥١، ٢٥٢).

قال ابنُ عاشورٍ: (ووصَفوا الكفَّارَ بالظَّالمينَ لأنَّ الشِّركَ ظلمٌ، ولأنَّه يشعرُ بأنَّهم تَلبَّسوا بأنواعِ الظُّلمِ: ظلمِ أنفسِهم، وظلمِ الخلائقِ) ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٦٤).

قال ابنُ عطيَةَ: (فهذا الدعاءُ على هذا التأويلِ يتضمَّنُ دفعَ فصلينِ؛ أحدُهما: القتلُ والبلاءُ الذي توقَّعه المؤمنونَ، والآخرُ: ظهورُ الشركِ باعتقادِ أهلِه أنَّهم أهلُ الحقِّ، وفي ذلك فسادُ الأرضِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٩٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٢٢)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٣٣)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٥٥).

ومِمن اختار المعنَى المذكورَ: أبو حيانَ، والبيضاوي، والشربيني، والقاسمي، تُنظر: المصادر السابقة.

وممن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ في الروايةِ الثانيةِ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٦/ ١٩٧٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٥٢ (.

قال محمد رشيد رضا: (ولفظُ (فتنة) هنا يحتملُ معنَى (الفاتن) و(المفتون)، فكأنَّهم قالوا: ربَّنا لا تُسلِّطْهم علينا فيفتنونا، ولا تفتنَّا بهم فنتولَّى عن اتباعِ نبيِّنا، أو نضعف فيه؛ فرارًا مِن شدةِ ظلمِهم لنا، ولا تفتنْهم بنا فيزدادوا كفرًا وعنادًا وظلمًا بظهورِهم علينا، ويظنُّوا أنَّهم على الحقِّ، وأنَّنا على الباطلِ). ((تفسير المنار)) (١١/ ٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٥٤)، ((البسيط)) الواحدي (١١/ ٢٨٧، ٢٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٦٤).

قال الواحدي: (﴿وَنَجِّنَا...﴾ الآية، وذلك أنَّهم كانوا يستعبِدونَهم، ويأخذونَهم بالأعمالِ الشَّاقَّةِ، والمِهَنِ الخَسيسةِ). ((البسيط)) (١١/ ٢٨٧-٢٨٨).

فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ﴾ الحِكمةُ- واللهُ أعلَمُ- مِن كونه ما آمَنَ لموسى إلَّا ذرِّيَّةٌ مِن قَومِه: أنَّ الذريَّةَ والشَّبابَ أقبَلُ للحَقِّ، وأسرَعُ له انقيادًا، بخلافِ الشُّيوخِ ونَحوِهم ممَّن تربَّى على الكُفرِ؛ فإنَّهم- بسبَبِ ما مكَثَ في قلوبِهم من العقائِدِ الفاسِدةِ- أبعَدُ مِن الحَقِّ مِن غَيرِهم⁽¹⁾.

٢- قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ فالتوكُّلُ على اللهِ دَلالةُ الإيمانِ ومُقتَضاه، وعُنصرُ القُوَّةِ الذي يضافُ إلى رصيدِ القِلَّةِ الضعيفةِ أمام الجَبَروتِ الطَّاغي، فإذا هي أقوى وأثبَتُ، وقد ذكَرَ لهم موسى الإيمانَ والإسلامَ، وجعل التوكُّلَ على اللهِ مُقتضى هذا وذاك؛ مُقتضَى الاعتقادِ في الله، ومُقتَضى إسلامِ النَّفسِ له خالصةً، والعملِ بما يريدُ، واستجاب المؤمنونَ لهُتافِ الإيمانِ على لسانِ نبيِّهم: ﴿فَقَالُوا: عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا﴾⁽²⁾.

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ في تقديمِ التوكُّلِ على الدُّعاءِ تَنبيهٌ على أنَّ الدَّاعيَ ينبغي أن يتوكَّلَ أولًا؛ لتُجابَ دَعوتُه⁽³⁾.

٤- قال الله تعالى: ﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ دُعاؤُهم اللهَ ألَّا يجعَلَهم فتنةً للقَومِ الظَّالمينَ، وأن يُنجِيَهم برَحمتِه مِن القومِ الكافرينَ، لا ينافي الاتِّكالَ على اللهِ والتقَوِّيَ به، بل هو أدَلُّ على التوجُّهِ بالاتِّكالِ والاعتمادِ إلى الله، والمؤمِنُ لا يتمَنَّى البلاءَ، ولكِنْ يَثبُتُ عند اللِّقاءِ⁽⁴⁾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧١).

(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٨١٥)، ويُنظر أيضًا: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٣٣).

(٤) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٨١٦).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ﴾ فيه مَسْلاةٌ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بقِلَّةِ مَن آمَن لموسَى، ومَن استَجاب له، معَ ظهورِ ذلك المعجزِ الباهِرِ، ولم يُؤمِنْ له إلَّا ذُرِّيَّةٌ مِن قومِه(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ بيانُ أنَّ مُسمَّى الإسلامِ غيرُ مُسمَّى الإيمانِ؛ لأنَّه لو كان مُسمَّاهما واحدًا لكان هذا تكريرًا(٢).

٣- قولُه: ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ فيه إثارةُ صِدقِ إيمانِهم، وإلهابُ قُلوبِهم بجَعلِ إيمانِهم مُعلَّقًا بالشَّرطِ مُحتمِلِ الوقوعِ، حيث تَخوَّفوا مِن فِرعَونَ أن يَفتِنَهم، فأرادوا أن يَكتُموا إيمانَهم تَقيَّةً مِن فِرعونَ ومَلئِهم، وإنَّما جعَل عدَمَ اكتِراثِهم ببَطْشِ فِرعونَ علامةً على إيمانِهم؛ لأنَّ الدَّعوةَ في أوَّلِ أمرِها لا تتَقوَّمُ إلَّا بإظهارِ مُتَّبِعيها جَماعتَهم، فلا تُغتفَرُ فيها التَّقيَّةُ حينَئذٍ(٣).

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أرضِ مِصرَ. التي هي بكثرةِ ما فيها من المرافِقِ كأنَّها جميعُ الأرضِ(٤).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ إذا ضُمَّت هذه الآيةُ إلى قَولِه تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [غافر: ٤٣] كان قياسًا صريحًا قطعيًّا أنَّ فِرعونَ مِن أصحابِ النَّارِ؛ تكذيبًا لأهلِ الوَحدةِ في قَولِهم: إنَّه آمَنَ، لِيُهَوِّنوا المعاصيَ عند النَّاسِ، فيَحُلُّوا بذلك عقائدَ أهلِ الدِّينِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٦/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٣٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٦٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٧٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)). =

٦- في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ وصَفوا الكفَّارَ بالظَّالمينَ؛ لأنَّ الشِّركَ ظلمٌ، ولأنَّه يشعرُ بأنَّهم تلبَّسوا بأنواعِ الظُّلمِ: ظلمِ أنفسِهم، وظلمِ الخلائقِ⁽¹⁾.

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ زيادةُ ﴿بِرَحْمَتِكَ﴾ للتبرُّؤِ من الإدلالِ بإيمانِهم؛ لأنَّ المِنَّةَ لله عليهم⁽²⁾.

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾

- قولُه: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى﴾ معطوفٌ على مقدَّرٍ يَستدعيهِ المقامُ قد حُذِف، أي: فألقَى عَصاهُ فإذا هِي تَلقَفُ ما يَأفِكون... إلخ، ولم يُذكَرْ؛ لِدَلالةِ المقامِ عليه، وإيثارًا للإيجازِ، وإيذانًا بأنَّ قولَه تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ سَيُبْطِلُهُ﴾ ممَّا لا يَحتمِلُ الخُلفَ أصلًا، وعطفُه على ذلك بالفاءِ مع كونِه عَدمًا مستمرًّا مِن قَبيلِ ما في قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: ٩٧]، وما في قولِك: وعَظْتُه فلم يتَّعِظْ، والسِّرُّ في ذلك: أنَّ الإتيانَ بالشَّيءِ بعدَ وُرودِ ما يوجِبُ الإقلاعَ عنه، وإن كان استمرارًا عليه، لكنَّه بحسَبِ العُنوانِ فِعلٌ جديدٌ، وصُنعٌ حادثٌ⁽³⁾.

- قولُه: ﴿عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ﴾ فيه مناسبةٌ حسنةٌ، حيث جاء هنا

= قال ابنُ تيميةَ: (كفرُ فرعونَ، وموتُه كافرًا، وكونُه مِن أهلِ النَّارِ هو ممَّا عُلِم بالاضطرارِ مِن دينِ المسلمينَ، بل ومِن دينِ اليهودِ والنَّصارى؛ فإنَّ أهلَ المِلَلِ الثَّلاثةِ متفقونَ على أنَّه مِن أعظمِ الخلقِ كفرًا). ((جامع الرسائل لابن تيمية)) (١/ ٢٠٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٧٠).

بضميرِ الجمعِ ﴿وَمَلَئِهِمْ﴾؛ لِعَودِه إلى الذُّرِّيَّةِ، أو القومِ، لتَقَدُّمِهما عليه⁽¹⁾، بخِلافِ بقيَّةِ الآياتِ ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ [الأعراف: ١٠٣، يونس: ٧٥، هود: ٩٧، المؤمنون: ٤٦، القصص: ٣٢، الزخرف: ٤٦]؛ فإنَّه بضميرِ المفرَدِ؛ لعَوْدِه إلى فِرعونَ⁽²⁾.

– قَولُه تعالى: ﴿عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ﴾، وحَّد الضميرَ في قوله: ﴿يَفْتِنَهُمْ﴾ ولم يجمَعْه؛ لأنَّه لَمَّا كان إنكارُ الملأِ إنَّما هو بسبَبِ فِرعونَ أن يَسلُبَهم رئاستَهم، انحصَرَ الخَوفُ في فِرعونَ، فأشارَ إلى ذلك بوَحدةِ الضَّميرِ، فقال: ﴿أَنْ يَفْتِنَهُمْ﴾⁽³⁾، وأيضًا فإسنادُ الفعلِ إلى فرعونَ خاصَّةً؛ لأنه الآمِرُ بالتعذيبِ⁽⁴⁾.

– قولُه: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ﴾ جملةٌ في موضِعِ الحالِ، وهي تُفيد معنى التَّعليلِ لِخَوفِهم مِن فِرعونَ⁽⁵⁾.

– وتأكيدُ الخبَرِ بـ(إنَّ)؛ للاهتمامِ بتَحقيقِ بَطشِ فرعونَ⁽⁶⁾.

– وقَولُه: ﴿لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ أبلغُ في وصفِه بالإسرافِ مِن أن يُقالَ: وإنَّه لمسرفٌ، والتَّعريفُ في المُسرفينَ تعريفُ الجنسِ، فالإخبارُ عن فرعونَ بأنَّه مِنَ المُسرفينَ يفيدُ أنَّه واحدٌ مِنَ الفئةِ الَّتي تُعْرَفُ عندَ النَّاسِ بفئةِ المُسرفينَ، فيُفيدُ أنَّه مسرفٌ، فهو مِنْ قبيلِ الكنايةِ الَّتي هي إثباتُ الشَّيءِ بإثباتِ مَلزومِه، وهي أبلغُ مِنَ التَّصريحِ⁽⁷⁾.

---

(١) وذكَر القرطبيُّ أوجهًا أخرَى، يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٩).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٧١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٦٠).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٢٦١).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٢٦١) و: (٧/ ٢٦٣).

٢- قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾

- في قولِه: ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا﴾ قُدِّم المجرورُ ﴿فَعَلَيْهِ﴾ على مُتعلِّقِه ﴿تَوَكَّلُوا﴾؛ لإفادةِ القصرِ، وهو قصرٌ إضافيٌّ[1]،كأنَّه عليه السَّلامُ أمَرَهم بالتوكُّلِ عليه، ونهاهم عن التوكُّلِ على الغَيرِ[2].

٣- قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ فيه تقديمُ ما كان عِندَهم أهمَّ، وهو سلامةُ دينِهم لهم، فسألوا اللهَ تعالى ألَّا يُفتَنوا عن دينِهم، وتأخيرُ سلامةِ أنفُسِهم، فسألوه أن يُخلِّصوا مِن الكفَّارِ؛ إذ الاهتمامُ بمَصالِحِ الدِّينِ آكَدُ مِن الاهتمامِ بمَصالحِ الأبدانِ[3]. وذلك على أحدِ أوجهِ التأويلِ.

---

[1] يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٦٢).

[2] يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٩٠).

[3] يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٩٦).

الآيات (٨٧-٨٩)

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿تَبَوَّآ﴾: أي: اتَّخِذا، وأصلُ (بوأ): يدلُّ على رجوعٍ إلى الشَّيءِ(١).

﴿قِبْلَةً﴾: أي: مَساجِدَ، وأصلُ (قبل): يدلُّ على مواجهةِ الشَّيءِ للشَّيءِ(٢).

﴿زِينَةً﴾: الزِّينةُ: اسمٌ لكلِّ ما يُتزَيَّنُ به: مِن مَلْبوسٍ ومركوبٍ وحِلْيَةٍ وفِراشٍ وسِلاحٍ، والزَّينُ نَقيضُ الشَّينِ، يُقال: زانَه كذا، وزَيَّنه: إذا أظْهَر حُسنَه؛ إمَّا بالفِعلِ، أو بالقولِ، وأصلُ (زين) يدلُّ على حُسنِ الشَّيءِ وتَحسينِه(٣).

﴿اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ﴾: أي: أهلِكْها، وأذهِبْ آثارَها. وأصلُ (طمس): يدلُّ على مَحوِ الشَّيءِ، ومَسحِه(٤).

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣١٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٥١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥٧).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٨- ٣٨٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٣٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩٣).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٤)، ((غريب القرآن)) لقاسم الحنفي (ص: ٩٤).

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه أوحَى إلى موسَى وأخيه هارونَ أن يتَّخِذا لقومِهما بيوتًا في مِصرَ، تكونُ مساكِنَ لهم، وأن يجعَلوا بُيوتَهم مساجِدَ يُصلُّونَ فيها، وأن يؤدُّوا الصَّلاةَ المفروضةَ في أوقاتِها، وأن يبشِّرَ موسى المؤمنينَ بالنَّصرِ والثَّوابِ منه سبحانه وتعالى.

وقال موسى: ربَّنا إنَّك أعطيتَ فِرعونَ وأشرافَ قَومِه زينةً مِن متاعِ الدُّنيا؛ استدراجًا منك لِتَفتِنَهم فيَضِلُّوا ويُضِلُّوا غيرَهم؛ عقوبةً منك لهم، ربَّنا فأهلِكْ أموالَهم، فلا ينتَفِعوا بها، واختِمْ على قلوبِهم حتى لا تنشَرِحَ للإيمانِ، فلا يؤمِنوا حتى يَرَوا العذابَ الشَّديدَ المُوجِعَ، فلا ينفَعُهم إيمانُهم حينئذٍ. قال الله تعالى لهما: قد أجيبَت دَعوتُكما في فرعونَ ومَلَئِه وأموالِهم، فاستَقيما على دينِكما، واستَمِرَّا على دعوتِكما فرعونَ وقَومَه إلى توحيدِ اللهِ وطاعتِه، ولا تَسلُكا طريقَ مَن لا يعلَمُ حقيقةَ وعيدي، وأنِّي لا أخلِفُ الميعادَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أجابوه إلى إظهارِ الاعتمادِ عليه سُبحانَه، وفوَّضوا الأمورَ إليه؛ أتبَعَه ما يزيدُهم طُمأنينةً مِن التوطُّنِ في أرضِ العَدُوِّ؛ إشارةً إلى عدَمِ المبالاةِ به⁽¹⁾.

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا ﴾.

أي: وأوحَينا إلى موسى وأخيه هارونَ أن اتَّخِذا لِقَومِكما بني إسرائيلَ في

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٧٨).

أرضِ مِصرَ مساكِنَ(١).

﴿وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةً﴾.

أي: واجعَلوا مَساكِنَكم مساجِدَ تصلُّونَ فيها(٢).

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

أي: وأدُّوا ما أمَرَكم اللهُ به من الصَّلَواتِ بحُدودِها في أوقاتِها(٣).

﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

أي: وبَشِّر- يا موسى- المؤمنينَ بالنَّصرِ والثَّوابِ(٤).

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمۡوَٰلًا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٨٨﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٢).

قال ابن عاشور: (معنى تبَوُّؤِ البيوتِ لِقَومِهما أن يأمُرا قومَهما باتخاذِ البُيوتِ على الوصفِ الذي يأمُرانِهم به، وإذ قد كان لبني إسرائيلَ ديارٌ في مصرَ مِن قَبلُ- إذ لا يكونونَ قاطنينَ مِصرَ بدون مساكِنَ-.. لا جرم أن تكونَ البيوتُ المأمورُ بتَبَوُّئِها غيرَ البُيوتِ التي كانوا ساكِنيها... فالذي يظهَرُ أنَّ هذه البيوتَ خِيامٌ أو أخصاصٌ أمَرَهم الله باتِّخاذِها تهيئةً للارتحالِ، وهي غيرُ ديارِهم التي كانوا يسكُنونَها). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٥٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٠٦)، ((تفسير الزمخشري)) (١٢/ ٢٥٤)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٢).

وممن اختار هذا المعنى المذكور: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ، والزمخشريُّ، والقاسمي، والسعدي.

يُنظر: المصادر السابقة.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٧٣)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٢).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ختَمَ الآيةَ السابقةَ ببِشارةِ المؤمنينَ، وكان هلاكُ المُشانئِ مِن أعظَمِ البَشائرِ، وكان ضلالُ فِرعونَ وقَومِه بالزِّينةِ والمالِ إضلالًا لِغَيرِهم، سأل موسى عليه السَّلامُ إزالةَ ذلك كلِّه؛ للرَّاحةِ مِن شرِّه⁽¹⁾.

وأيضًا فإنَّ موسى عليه السَّلامُ لَمَّا بالغَ في إظهارِ المُعجزاتِ الظَّاهرةِ القاهرةِ، ورأى القومَ مُصِرِّينَ على الجُحودِ والعِنادِ والإنكارِ، أخذ يدعو عليهم، ومن حَقِّ مَن يدعو على الغيرِ أن يذكُرَ أوَّلًا سبَبَ إقدامِه على تلك الجرائمِ، وكان جُرمُهم هو أنَّهم لأجلِ حُبِّهم الدُّنيا تَرَكوا الدِّينَ؛ فلهذا السَّبَبِ قال موسى عليه السَّلامُ⁽²⁾، فيما يحكيه الله عنه:

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾.

أي: وقال موسى: يا رَبَّنا إنَّك أعطيتَ فِرعونَ وأشرافَ قَومِه زينةً يتزَيَّنونَ بها، كالأثاثِ، وأنواعِ الحُليِّ، والثِّيابِ، والبيوتِ، والمَراكِبِ، وأعطيتَهم أموالًا كثيرةً في هذه الحياةِ الدُّنيا⁽³⁾.

﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١ - قراءةُ ﴿لِيُضِلُّوا﴾ بمعنى: لِيُضِلُّوا النَّاسَ عن سبيلِك، ويَصُدُّوهم عن دينِك⁽⁴⁾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٢).

(٤) قرأ بها عاصمٌ وحمزةُ والكسائيُّ وخَلَف. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٦٢). =

٢- قراءةُ ﴿لِيَضِلُّوا﴾ بمعنى: ليَضِلُّوا هم أنفُسُهم عن سبيلِك[1].

﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ﴾.

أي: قال موسى: يا ربَّنا إنَّك أعطيتَهم الزِّينةَ والأموالَ استدراجًا منك؛ كي تفتِنَهم فيَضِلُّوا ويُضِلُّوا غيرَهم عن اتِّباعِ دينِك؛ عقوبةً منك لهم[2].

﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا تقَدَّم ذِكرُ الأموالِ- وهي أعَزُّ ما ادُّخِر- دعا بالطُّموسِ عليها[3].

﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾.

= ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٦١)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٨٣)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٣٥).

[1] قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٦٢).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٦١)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٨٣)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٣٦).

[2] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩٠).

ذهب بعض المفَسِّرين إلى أنَّ اللام في قوله تعالى: ﴿لِيُضِلُّوا﴾ هي لامُ كي (لام التعليل)، وممن اختار ذلك: ابنُ جريرٍ، وابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩٠).

قال ابن كثير: (﴿رَبَّنَا لِيَضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكِ﴾- بفتح الياء- أي: أعطيتَهم ذلك وأنت تعلَمُ أنَّهم لا يؤمِنونَ بما أرسلتَني به إليهم؛ استدراجًا منك لهم، كما قال تعالى: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾. وقرأ آخرون: ﴿لِيُضِلُّوا﴾ بضم الياء، أي: ليفتَتِنَ بما أعطيتَهم من شئتَ مِن خَلقِك، ليظُنَّ مَن أغويتَه أنَّك إنما أعطيتَ هؤلاءِ هذا؛ لحُبِّك إيَّاهم واعتنائِك بهم). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩٠).

وذهَب بعضُهم إلى أنَّها لامُ العاقبةِ والصيرورةِ. وممن اختار ذلك: القرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٦٨).

[3] يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٩٩).

أي: يا ربَّنا أتْلِفْ أموالَ فِرعونَ ومَلَئِه، فلا ينتَفِعوا بها(١).

﴿وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾.

أي: واطبعْ- يا ربَّنا- على قلوبِهم بالكُفرِ، واجعَلْها قاسيةً(٢).

﴿فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾.

أي: فلا يُؤمِنوا بالحَقِّ حتى يُعايِنوا العذابَ المُوجِعَ الذي يَهلِكونَ به، فلا ينفعُهم إيمانُهم حينئذٍ(٣).

﴿قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ٨٩﴾.

﴿قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا﴾.

أي: قال الله: قد أجبتُ دَعوتَكما- يا موسى وهارونُ- على فِرعونَ ومَلَئِه(٤).

﴿فَٱسۡتَقِيمَا﴾.

أي: فاستَقِيما واثبُتا على دينِكما، واستمِرَّا على دعوةِ فِرعونَ وقومِه إلى الحَقِّ إلى أن يأتيَهم العذابُ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٦٣)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٦٧)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٣٢)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٦٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٧٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٣٣)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ١٦٢).

ذهب ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما إلى أنَّ العذابَ الأليمَ هنا: هو الغَرَقُ، وبه قال الواحديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٧٠)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٧٠)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤٣٢)، ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٢٠٨)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٧٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٧٢)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن =

﴿ وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾.

أي: ولا تسلُكا طريقَ الذين يَجهَلونَ أنَّ اللهَ لا يُخلِفُ الميعادَ، فيَستعجِلونَ وعيدَه وقضاءَه، فعذابي واقعٌ بفِرعونَ وقَومِه⁽¹⁾.

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قدَّم بين يدَيِ الدُّعاءِ ما آتاهم اللهُ مِن النِّعمةِ في الدُّنيا، وكان اللائقُ أن يكونَ ذلك سببًا للإيمانِ به ولِشُكرِ نِعَمِه، فجَعَلوا ذلك سببًا لِجُحودِه ولكُفرِ نِعَمِه⁽²⁾.

٢- وجودُ النِّعمةِ في أيدي المُفسِدينَ يُزعزِعُ كثيرًا من القلوبِ التي لا يبلغُ مِن يَقينِها بالله أن تُدرِكَ أنَّ هذه النِّعمةَ ابتلاءٌ واختبارٌ، وأنَّها كذلك ليست شيئًا ذا قيمةٍ إلى جانبِ فَضلِ الله في الدُّنيا والآخرةِ، وذلك مِن الأسبابِ التي ينشأُ عنها الضلالُ؛ قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ﴾⁽³⁾.

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ استشكلَ بعضُ النَّاسِ هذه الآيةَ،

= عطية)) (٣/ ١٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٧٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٧٣)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٠١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٩٩).

(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٨١٧).

فقال: كيف دعا عليهم، وحُكمُ الرُّسُلِ استدعاءُ إيمانِ قَومِهم؟ فالجوابُ: أنّه لا يجوزُ أن يدعوَ نبيٌّ على قَومِه إلَّا بإذنٍ مِن اللهِ، وإعلامٍ أنَّه ليس فيهم من يؤمِنُ، ولا يخرجُ مِن أصلابِهم مَن يُؤمِنُ، دليلُه قَولُه تعالى لنوحٍ عليه السَّلامُ: ﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ [هود: ٣٦] وعند ذلك قال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾[1] [نوح: ٢٦].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ دليلٌ على جوازِ الدُّعاءِ على الظَّالمِ المعيَّنِ بما يَستلزِمُ النَّقصَ في دينِه، وليس هو مِن طلَبِ وقوعِ المَعصيةِ، ولكِنْ مِن حيثُ إنَّه يؤدِّي إلى نِكايةِ الظَّالمِ وعُقوبتِه[2].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ الشَّدُّ على القَلبِ: هو الصَّدُّ والمَنعُ، وهذا الشدُّ والتقسيةُ مِن كمالِ عَدْلِ الربِّ سُبحانه في أعدائِه؛ حيث جعَلَه عقوبةً لهم على كُفرِهم وإعراضِهم- وهذا كعُقوبتِه لهم بالمصائِبِ- ولهذا كان محمودًا عليه، فهو حسَنٌ منه سُبحانه، وأقبحُ شيءٍ منهم؛ فإنَّه عَدْلٌ منه وحِكمةٌ، وهو ظُلْمٌ منهم وسَفَهٌ، فالقضاءُ والقَدَرُ فِعلُ عادلٍ حكيمٍ غَنيٍّ عليمٍ، يضعُ الخَيرَ والشَّرَّ في أليقِ المواضِعِ بهما[3].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا﴾ دليلٌ على أنَّ اللهَ يفعَلُ ذلك بمن يَشاءُ، ولولا ذلك ما حسُنَ مِن موسى هذا السُّؤالُ[4].

٥- قال الله تعالى: ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ جعلَ رُؤيةَ العَذابِ نهايةً وغايةً، وذلك لعِلمِه مِن قِبَلِ اللهِ أنَّ الذي يؤمن عند رؤيةِ العَذابِ

---

[1] يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٧٥).

[2] يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٢/ ٢٤١).

[3] يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٩٧).

[4] يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٥٧).

لا ينفَعُه إيمانُه في ذلك الوقتِ، ولا يُخرِجُه مِن كُفرِه، ثم أجاب اللهُ هذه الدَّعوةَ في فرعونَ نَفسِه(١).

٦- في قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾ بعد قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ دلالةٌ على أنَّ فِرعونَ مات كافرًا؛ لأنَّ اللهَ استجابَ دعوةَ موسى وهارون أنَّ فِرعونَ ومَلأَه لا يُؤمِنونَ حتى يَرَوا العذابَ الأليمَ(٢).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾ إن قال قائِلٌ: كيف نُسِبَت الإجابةُ إلى اثنينِ، والدُّعاءُ إنَّما كان من واحدٍ؟ قيل: إنَّ الداعيَ وإن كان واحدًا، فإنَّ الثانيَ كان مؤمِّنًا وهو هارونُ؛ فلذلك نُسِبَت الإجابةُ إليهما، لأنَّ المؤمِّنَ داعٍ(٣)، وقيل: إنَّما أُضيفَت الدَّعوةُ إلى ضميرِ التَّثنيةِ المخاطَبِ به موسى وهارونُ -وإن كانَت الدَّعوةُ إنَّما حُكِيَت عن موسى عليه السَّلامُ وحْدَه-؛ لأنَّ موسى عليه السَّلامُ دعا لِما كان هارونُ مُواطِئًا له، وقائِلًا بمِثلِه؛ لأنَّ دعوتَهما واحدةٌ(٤).

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾ بناه للمَفعولِ، والبناءُ للمَفعولِ أدَلُّ على القُدرةِ وأوقعُ في النَّفسِ، من جهةِ الدَّلالةِ على الفاعِلِ بالاستدلالِ(٥).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٢٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٧٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٣/ ١١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٧٢).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٨٢).

– قولُه: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه تنويعُ الخطابِ، حيث ثَنَّى أوَّلًا، ثمَّ جمَع، ثمَّ وحَّدَ آخِرًا؛ فخُوطِبَ موسى وهارونُ عليهما السَّلامُ أن يتَبوَّآ لقومِهما بُيوتًا، ويَختاراها للعِبادةِ، وذلك ممَّا يفوَّضُ إلى الأنبياءِ، ثمَّ سِيقَ الخطابُ عامًّا لهما ولِقَومِهما باتِّخاذِ المساجدِ والصَّلاةِ فيها؛ لأنَّ ذلك واجبٌ على الجمهورِ، ثمَّ خُصَّ موسى عليه السَّلامُ بالبِشارةِ الَّتي هي الغرَضِ؛ تعظيمًا لها وللمُبشَّرِ بها(١).

– وعَطفُ جملةِ: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ على ما قبلَها يؤذِنُ بأنَّ ما أُمِروا به مِن اتِّخاذِ البيوتِ، أمْرٌ بحالةٍ مُشعِرةٍ بترَقُّبِ أخطارٍ وتَخوُّفٍ؛ فإنَّهم قالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً...﴾؛ فأمر موسى أن يُبشِّرَهم بحُسنِ العاقبةِ، وأنَّهم مَنصورون على عَدوِّهم، وناجون منه(٢).

٢- قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾

– في قولِه: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَموالًا﴾ توطِئةٌ للدُّعاءِ عليهم؛ فليس المقصودُ به حَقيقةَ الإخبارِ؛ ضرورةَ أنَّ موسى يوقِنُ أنَّ اللهَ يَعلَمُ ذلك، فتَعيَّن أنَّ الخبرَ مُستعمَلٌ في التَّمهيدِ لطَلَبِ سَلْبِ النِّعمةِ عَنهم في قولِهم: ﴿لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ﴾، ثمَّ الانتقالِ إلى الدُّعاءِ بسَلبِ ما أُوتوه(٣).

– واقترانُ الخبرِ بحَرفِ (إنَّ) في قولِه: ﴿إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ...﴾ مقصودٌ به

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٦٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٢٦٨).

الاهتمامُ بهذا المعنى الَّذي استُعمِل فيه الخبرُ؛ إذ ليس المقامُ مَقامَ دَفعِ تردُّدٍ، أو دفعِ إنكارٍ⁽¹⁾.

- وعلى القولِ بأنَّ اللَّامَ في ﴿لِيُضِلُّوا﴾ للعِلَّةِ- لأنَّ إيتاءَ النِّعَمِ على الكُفرِ استِدْراجٌ، وتثبيتٌ على الضَّلالِ، ولأنَّهم لَمَّا جعَلوها ذَريعةً إلى الضَّلالِ فكأنَّهم أُوتوها ليُضِلُّوا- فيَكونُ ﴿رَبَّنَا﴾ تكريرًا للأوَّلِ؛ تأكيدًا أو تنبيهًا على أنَّ المقصودَ عرضُ ضلالِهم وكُفرانِهم؛ تَقْدِمةً لقولِه تعالى: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ﴾، ففيه إعادةُ النِّداءِ ﴿رَبَّنَا﴾ بينَ الجملةِ المعَلَّلةِ ﴿إِنَّكَ آتَيْتَ...﴾ والجملةِ المعلِّلةِ ﴿لِيُضِلُّوا﴾؛ لِتَأكيدِ التَّذلُّلِ والتَّعرُّضِ للإجابةِ، ولإظهارِ التَّبرُّؤِ مِن قصدِ الاعتراضِ، وتوكيدًا للدُّعاءِ والاستغاثةِ⁽²⁾.

- وأُعيد النِّداءُ ثالثَ مرَّةٍ في قولِهم: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ﴾؛ لِزيادةِ تأكيدِ التَّوجُّهِ والتَّضرُّعِ⁽³⁾.

- وتعدِيَةُ ﴿اطْمِسْ﴾ بـ(عَلَى)؛ لإرادةِ تَمكُّنِ الفعلِ مِن المفعولِ، أو لِتضمينِ الطَّمسِ مَعْنى الاعتلاءِ بآلةِ المحوِ والإزالةِ؛ فطَمْسُ الأموالِ إتلافُها وإهلاكُها⁽⁴⁾.

٣- قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾ فيه افتتاحُ الجملةِ بـ(قد)، والفعلُ الماضي ﴿أُجِيبَتْ﴾ يُفيدُ تَحقيقَ الحصولِ في المستقبَلِ؛ فشُبِّه بالمضيِّ⁽⁵⁾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٤ / ١٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٧٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٢٧٢).

الآيات (٩٠-٩٢)

﴿ ۞ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ
حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ
وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ (٩٠) ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ (٩١)
فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا
لَغَٰفِلُونَ (٩٢) ﴾.

غريبُ الكَلمات:

﴿بَغْيًا﴾: أي: ظلمًا، مصدرُ بَغَى يَبْغي إذا ظلَم، أو: هو طلبُ الاستعلاءِ بغيرِ حقٍّ، وأصلُ البغي: الفسادُ، وتجاوزُ الحدِّ، يقال: بَغَى الجرحُ: إذا ترامَى إلى فسادٍ(١).

﴿وَعَدْوًا﴾: أي: اعتداءً، وأصلُ (عدو): يدُلُّ على تجاوُزٍ في الشَّيءِ، وتقدُّمٍ لِما ينبغي أن يُقتصَرَ عليه(٢).

المَعنَى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: وقطَعْنا ببني إسرائيلَ البَحرَ حتى جاوَزوه، فتَبِعَهم فرعونُ وجُنودُه ظلمًا وعُدوانًا، فسَلَكوا البحرَ وراءَهم، حتى إذا أحاط بفرعونَ الغَرَقُ قال: آمنتُ أنَّه لا إلهَ إلَّا الذي آمنتْ به بنو إسرائيلَ، وأنا من الموحِّدينَ المُستَسلِمينَ بالانقيادِ والطَّاعة، فقال اللهُ له: آلآنَ تؤمِنُ يا فرعونُ، وقد نزل بك الموتُ، تقرُّ لله بالعبوديَّةِ، وقد عصيتَه قبلَ نُزولِ عَذابِه بك، وكنتَ مِن المفسدينَ الصَّادِّينَ عن سبيلِه؟! فاليومَ نجعَلُك على مرتفَعٍ مِن الأرضِ بجَسَدِك، ينظُرُ إليك مَن

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (١/ ٢٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧١)، ((البسيط)) للواحدي (٣/ ٥٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٠٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٤٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٧٧).

كذَّب بهلاكِك؛ لتكونَ لِمَن بَعدَك من النَّاسِ عِبرةً يَعتَبِرونَ بك؛ فإنَّ كثيرًا مِن النَّاسِ عن حُجَجِنا وأدلَّتِنا لَغافِلونَ، لا يتفكَّرونَ فيها ولا يعتَبِرونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝٩٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أمَر بالتأنِّي الذي هو نتيجةُ العلمِ، عطَف على ذلك الإخبارَ بالاستجابةِ(١)، فقال تعالى:

﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾.

أي: وقَطَعنا ببني إسرائيلَ البَحرَ عندما خرجوا من مِصرَ مع نبيِّهم موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ(٢).

﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًا﴾.

أي: فتَبِعَ بني إسرائيلَ فرعونُ وجنودُه؛ استعلاءً عليهم واعتداءً(٣).

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٧٣، ٢٧٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٠١، ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٧٤).

قال ابن عاشور: (إنَّما كان اتِّباعُه إيَّاهم ظُلمًا وعُدوانًا؛ إذ ليس له فيه شائِبةُ حَقٍّ؛ لأنَّ بني إسرائيلَ أرادوا مفارقةَ بلادِ فرعونَ، وليست مُفارَقةُ أحدٍ بلَدَه محظورةً، إن لم يكن لأحدٍ عليه حقٌّ في البقاء... فلمَّا رام فرعونُ منعَ بني إسرائيلَ مِن الخُروجِ، وشَدَّ لِلَّحاقِ بهم لِرَدِّهم كُرهًا؛ كان =

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾.

أي: حتى إذا أحاط الغَرَقُ بفِرعونَ قال عند الموتِ: أقررتُ بأنَّه لا إلهَ إلَّا اللهُ الذي آمَنَ به قومُ موسى، وأنا من الموحِّدينَ لله، المُستَسلِمينَ المُنقادينَ له بالطَّاعةِ⁽¹⁾.

﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ (٩١)﴾.

أي: قال اللهُ لِفَرعونَ: آلآنَ تتوبُ، وتؤمِنُ باللهِ، وتستسلِمُ له بعد فواتِ الأوانِ، وقد عصيتَه قبلَ نزولِ عذابِه، وكنتَ مِن المُفسِدينَ في الأرضِ الذين ظَلَموا العبادَ، وأضَلُّوهم، وصَدُّوهم عن سبيلِ الله⁽²⁾؟!

﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ (٩٢)﴾.

﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾.

أي: قال اللهُ لِفَرعونَ: فاليومَ نجعَلُ جَسَدَكَ وما تقلَّدتَه مِن دروعِ الحربِ بعدَ غَرَقِك، على مكانٍ مرتَفعٍ مِن الأرضِ، فيَتبَيَّن للنَّاسِ هلاكُك⁽³⁾.

= في ذلك ظالِمًا مُعتَديًا؛ لأنه يبتغي بذلك إكراهَهم على البقاءِ، ولأنَّ غَرَضَه من ذلك تسخيرُهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٧٤، ٢٧٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٧٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٠٢، ٣٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٧٧، ٣٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٧٨، ٢٧٩)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٧٩)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٠٦، ٣٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٧٨).
قال السعدي: (قال المفسرون: إنَّ بني إسرائيلَ لِمَا في قلوبِهم من الرُّعبِ العَظيمِ مِن =

﴿ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾.

أي: لِتَكونَ- يا فرعونُ- لِمَن بَعدَك من النَّاسِ عِبرةً بعد إيقانِهم بهلاكِك وقدرةِ الله على كلِّ ذلك، فيَنزَجِروا عن الكُفرِ باللهِ ومَعصيتِه، ويَرَوا عاقِبةَ الطُّغيانِ، ويخافوا غضَبَ اللهِ⁽¹⁾.

﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾.

أي: وإنَّ كثيرًا مِن النَّاسِ مُعرِضونَ عن تأمُّلِ آياتِنا، وعن التفكُّرِ فيها، والاعتبارِ بها⁽²⁾.

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- التَّوبةُ بعد المُعاينةِ لا تنفَعُ؛ قال الله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ * آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾⁽³⁾؛ إذ إنَّ إيمانَ فِرعونَ في تلك اللَّحظةِ كان إيمانًا مُشاهَدًا غيرَ نافعٍ، فالإيمانُ الذي ينفَعُ إنَّما هو الإيمانُ بالغَيبِ⁽⁴⁾.

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي

= فِرعونَ، كأنَّهم لم يصَدِّقوا بإغراقِه، وشَكُّوا في ذلك، فأمر اللهُ البَحرَ أن يُلقِيَه على نَجوةٍ مُرتَفعةٍ ببَدَنِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٧٩)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩٤)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٥٨)، ((تفسير لسعدي)) (ص: ٣٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨١)، ((تفسير لسعدي)) (ص: ٣٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٧٢).

آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ الآيةُ تفيدُ أنَّه لم يَسَعْه إلَّا الإيمانُ باللهِ؛ لأنَّه قَهَرتْه أدلَّةُ الإيمانِ، وهذه مُستفادةٌ مِن رَبطِ جُملة إيمانِه بالظَّرفِ في قوله: ﴿إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ﴾ وهذه مَنقبةٌ للإيمانِ، وأنَّ الحَقَّ يَغلِبُ الباطِلَ في النِّهايةِ(١).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ فيه ذمٌّ للغَفلةِ وعدمِ التفكُّرِ في أسبابِ الحَوادِثِ وعَواقِبِها، واستبانةِ سُنَنِ الله فيها للاعتبارِ والاتِّعاظِ بها(٢).

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ جملةُ: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ تذييلٌ لِمَوعظةِ المُشركينَ، والمرادُ منه: دَفعُ توهُّمِ النَّقصِ عن آياتِ اللهِ عندما يُحرَمُ كَثيرٌ مِن النَّاسِ الاهتداءَ بها، فهي في ذاتِها دلائِلُ هُدًى سواءٌ انتفَعَ بها بعضُ النَّاسِ أم لم ينتفِعوا، فالتَّقصيرُ منهم(٣).

الفَوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾ لهذا الإسنادِ في قولِه: ﴿جَاوَزْنَا﴾ دَلالتُه، أي: بقِيادتِنا وهدايتِنا ورعايتِنا(٤).

٢- قولُه: ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ...﴾ الإدراكُ: اللَّحاقُ وانتهاءُ السَّيرِ، وهذا التَّعبيرُ يُؤذِنُ بأنَّ الغرَقَ دَنا منه تَدريجيًّا بهَولِ البحرِ ومُصارَعتِه الموجَ، وهو يَأمُلُ النَّجاةَ منه، وأنَّه لم يُظهِرِ الإيمانَ حتَّى أَيِسَ مِن النَّجاةِ، وأيقَنَ بالموتِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٨٠).

(٤) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٨١٨).

وذلك لِتَصلُّبِه في الكفرِ⁽¹⁾.

٣- قولُه: ﴿قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ لم يَقُلْ فرعونُ كما قاله السَّحرةُ: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ بل عبَّر عنه تعالى بالموصولِ، وجعَل صِلتَه إيمانَ بَني إسرائيلَ به تعالى؛ للإشعارِ برُجوعِه عن الاستعصاءِ، وباتِّباعِه لِمَن كان يَستتبِعُهم؛ طمعًا في القَبولِ، والانتظامِ معَهم في زُمرةِ النَّجاةِ⁽²⁾؛ وقد كرَّر المخذولُ المعنى الواحدَ ثلاثَ مرَّاتٍ في ثلاثِ عباراتٍ؛ حِرصًا على القَبولِ، ثمَّ لم يُقبَلْ منه حيث أخطَأ وقْتَه، وقاله حين لم يبقَ له اختيارٌ قطُّ، وكانت المرَّةُ الواحدةُ كافيةً في حالِ الاختيارِ، وعِندَ بقاءِ التَّكليفِ⁽³⁾.

٤- في قَولِه تعالى: ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ردٌّ على مَن زعم إيمانَ فِرعونَ؛ وذلك لأنَّ الاستفهامَ هنا هو استِفهامُ إنكارٍ وذَمٍّ، ولو كان إيمانُه صَحيحًا مقبولًا عند الغَرَقِ، لَمَا قيلَ له ذلك⁽⁴⁾.

٥- قوله: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾ في تعليلِ تنجيَتِه بما ذُكِر إيذانٌ بأنَّها ليسَت لإعزازِه أو لفائدةٍ أُخرَى عائدةٍ إليه، بل لِكَمالِ الاستهانةِ به، وتَفْضيحِه على رُؤوسِ الأشهادِ، وزيادةِ تفظيعِ حالِه؛ كمن يُقتَلُ ثمَّ يُجرُّ جسَدُه في الأسواقِ، أو يُدارُ برأسِه في البلادِ⁽⁵⁾.

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾ ردٌّ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤ / ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢ / ٣٦٧).

(٤) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٢٠٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤ / ١٧٤).

مَن زعم إيمانَ فرعونَ؛ لأنَّ اللهَ تعالى جعَلَه عبرةً وعلامةً لِمَن يكونُ بعده مِن الأمَم؛ ليَنظُروا عاقِبةَ مَن كفَرَ باللهِ تعالى؛ ولهذا ذَكَرَ اللهُ تعالى الاعتبارَ بقصَّةِ فِرعونَ وقَومِه في غيرِ موضِعٍ⁽¹⁾.

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾

- قوله: ﴿وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ فيه إيثارُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ؛ لادِّعاءِ الدَّوامِ والاستمرارِ⁽²⁾.

٢- قوله تعالى: ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾

- قولُه: ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾: الاستفهامُ إنكاريٌّ، والإنكارُ مُؤذِنٌ بأنَّ الوقتَ الَّذي عُلِّق به الإنكارُ ليس وقتًا يَنفَعُ فيه الإيمانُ؛ لأنَّ الاستِفْهامَ الإنكاريَّ في قوَّةِ النَّفيِ⁽³⁾.

- وجملةُ: ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ حالٌ مِن فاعلِ الفعلِ المقدَّرِ؛ جيءَ به لِتَشديدِ التَّوبيخِ والتَّقريعِ على تأخيرِ الإيمانِ إلى هذا الآنِ⁽⁴⁾، وهي مؤكِّدةٌ لِمَا في الاستفهامِ ﴿آلْآنَ﴾ مِن معنى الإنكارِ؛ فإنَّ إيمانَه في ذلك الحينِ مُنكَرٌ، ويَزيدُه نُكرًا أنَّ صاحِبَه كان عاصيًا للهِ، ومفسِدًا للدِّينِ الَّذي أرسَلَه اللهُ إليه، ومُفسِدًا في الأرضِ بالجَورِ والظُّلمِ، والتَّمويهِ بالسِّحرِ⁽⁵⁾.

---

(١) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٧٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٧٨).

٣- قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ اعتِراضٌ تذييليٌّ، جيءَ به عندَ الحكايةِ؛ تَقريرًا لِفَحوَى الكلامِ المحكيِّ(١).

* * *

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٧٤).

الآيات (٩٢-٩٥)

﴿وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدۡقٖ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مُبَوَّأَ صِدۡقٖ﴾: أي: مَنزِلًا مَحمودًا مُختارًا، وأصل (بوأ): يدلُّ على الرُّجوعِ إلى شَيءٍ[1].

﴿ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾: أي: المتردِّدينَ، من المِريةِ: وهي التردُّدُ في الأمرِ، وهي أخصُّ من الشَّكِّ[2].

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى عمَّا أنعَمَ به على بني إسرائيلَ مِن النِّعَم قائلًا: ولقد أنزَلْنا بني إسرائيلَ مَنازِلَ صالحةً محمودةً، ورَزَقناهم الرِّزقَ الحَلالَ الطَّيِّبَ مِن خيراتِ الأرضِ المُبارَكةِ، فما اختَلَفوا في تصديقِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأنَّه نبيٌّ حَقٌّ مَبعوثٌ، حتى جاءَهم القُرآنُ والبيانُ بأنَّه رسولُ اللهِ صِدقٌ، ودينَه حَقٌّ، إنَّ رَبَّك- أيُّها الرَّسولُ- يقضي بينهم يومَ القيامةِ، ويَفْصِلُ فيما كانوا يختَلِفونَ فيه

---

[1] يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٢).

[2] يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٧).

مِن أمرِك، فيُدخِلُ المكَذِّبينَ النَّارَ، والمؤمنينَ الجنَّةَ، فإن كنتَ - أيُّها الرَّسولُ - في ريبٍ مِن حقيقةِ ما أخبَرناك به فاسألِ الذينَ يَقرؤونَ الكتابَ مِن قبلِك، من أهلِ التَّوراةِ والإنجيلِ؛ فإنَّ ذلك ثابتٌ في كتُبِهم، لقد جاءك الحَقُّ اليقينُ مِن رَبِّك بأنَّك رسولُ الله، وأنَّ هؤلاءِ اليَهودَ والنَّصارى يعلمونَ صِحَّةَ ذلك، ويَجِدونَ صِفتَك في كُتُبِهم، ولكِنَّهم يُنكِرونَ ذلك مع عِلمِهم به، فلا تكونَنَّ من الشاكِّينَ في صِحَّةِ ذلك، ولا تكونَنَّ مِن الذينَ كذَّبوا بآياتِ القُرآنِ، فتكونَ مِن الخاسرينَ الذين سخِطَ اللهُ عليهم ونالوا عقابَه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لمَّا ذكَر تعالى ما جرَى لفرعونَ وأتباعِه مِن الهلاكِ؛ ذكَر ما أحسنَ به لبني إسرائيلَ، وما امتنَّ به عليهم⁽¹⁾، وكيف كانت عاقبتُهم الحسنَى؛ ليظهرَ الفرقُ بينَ مصيرَيْ فريقينِ جاءَهم رسولٌ، فآمنَ به فريقٌ، وكفَر به فريقٌ، ليكونَ ذلك ترغيبًا للمشركينَ في الإيمانِ، وبشارةً للمؤمنينَ مِن أهل مكةَ⁽²⁾.

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾.

أي: ولقد أنزَلْنا وأسكنَّا بني إسرائيلَ مَنازِلَ حَسَنةً محمودةً مُختارةً⁽³⁾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٨٤)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣١٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨١)، ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٣/ ٢٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٨١. ٢٨٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٦١). =

كما قال الله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَر أنَّه بوَّأهم مُبوَّأَ صِدقٍ؛ ذكَر امتِنانَه عليهم بما رزَقهم مِن الطَّيباتِ(١).

﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾.

أي: ورزَقْنا بني إسرائيلَ مِن الرِّزقِ الحلالِ الطَّيِّبِ النَّافعِ، من الأطعمةِ والأشربةِ وغَيرِها(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧].

وقال سُبحانه: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠].

﴿فَمَا ٱخْتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾.

أي: فما اختلَفَ بنو إسرائيلَ في الإقرار بنبوَّة محمَّدٍ صلى الله عليه وسلَّم

= والمرادُ ببني إسرائيلَ أصحابُ موسَى عليه السلامُ، وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٤٩).

وقال ابنُ جرير في قولِه: ﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾: (قيل: عنَى بذلك الشَّامَ وبيتَ المَقدِس. وقيل: عنَى به الشَّامَ ومِصرَ). ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٨٤).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٣).

وبمبعثِه، حتَّى جاءَهم ما كانوا به عالِمينَ، فبُعِثَ صلَّى الله عليه وسلَّم بنعتِه وصفتِه، وجاءَهم القُرآنُ، فاختَلفوا حينئذٍ، فآمن بعضُهم بنبوَّتِه، وكفر بها بعضُهم، ولم يكنْ ينبغي لهم ذلك⁽١⁾.

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٦ - ١٨].

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

أي: إنَّ ربَّك- يا مُحمَّدُ- يحكُمُ بين المُختَلِفينَ فيك مِن بني إسرائيلَ يومَ القيامةِ فيما كانوا فيه يختَلِفونَ مِن أمرِك، فيُدخِلُ المؤمنينَ بك الجنَّةَ، ويُدخِلُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٨٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨١).

ومِمن قال بأنَّ المرادَ بقولِه: ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا﴾- على التفسير المذكور- هم اليهودُ المعاصرونَ لمحمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم، ممن كانوا في زمانه: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ، والقرطبيُّ. يُنظر: المصادر السابقة.

قال الرازي عن هذا القول: (فهذا قال به قومٌ عظيمٌ مِن المفسِّرينَ). ((تفسير الرازي)) (١٧ / ٢٩٩). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٣٧).

وقيل: معنَى الآيةِ: فما اختَلف اليهودُ في أمرِ دينِهم، وتشعَّبوا فيه شعبًا بعدَ ما كانوا على طريقةٍ واحدةٍ غيرِ مختلفةٍ، حتى جاءَهم العلمُ؛ بقراءتِهم التوراةَ، وعلمِهم بأحكامِها.

ومِمن اختار هذا المعنى: الزمخشري، والشوكاني، والقاسمي، ومحمد رشيد رضا.

يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٦٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٣٧)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٦١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٩١).

قال ابنُ كثير: (وقولُه: ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ أي: ما اختلفوا في شيءٍ مِن المسائلِ إلَّا مِن بعدِ ما جاءَهم العلمُ، أي: ولم يكنْ لهم أن يختلفوا، وقد بيَّن الله لهم، وأزال عنهم اللبسَ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩٥).

المكذِّبينَ بك النَّارَ(١).

﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكرَ مِن قبلُ اختلافَ أهلِ الكتابِ عندما جاءَهم العِلمُ؛ أوردَ على رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في هذه الآيةِ ما يُقَوِّي قلبَه في صِحَّةِ القُرآنِ والنُّبوَّةِ(٢).

وأيضًا فإنَّ هذه الآيةَ تَفريعٌ على سياقِ القِصَصِ التي جعَلَها اللهُ مَثلًا لأهلِ مكَّةَ، وعِظةً بما حَلَّ بأمثالِهم، فانتقل بهذا التَّفريعِ من أسلوبٍ إلى أسلوبٍ كِلاهما تعريضٌ بالمُكَذِّبينَ، فالأسلوبُ السَّابقُ تعريضٌ بالتَّحذيرِ مِن أن يحُلَّ بهم ما حَلَّ بالأممِ المماثلةِ لهم، وهذا الأسلوبُ الموالي تعريضٌ لهم بشَهادةِ أهلِ الكتابِ على تلك الحَوادِثِ، وما في الكُتُبِ السَّابقةِ مِن الإنباءِ برسالةِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم(٣).

﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ﴾.

أي: فإنْ كنتَ- يا محمَّدُ- في شكٍّ من حقيقةِ ما أخبَرْناك في القرآنِ مِن أنَّ بني إسرائيلَ لم يختَلِفوا في أمرِك إلَّا مِن بعدِ مَجيئِك- لأنَّهم يَجِدونَك مكتوبًا عندهم، ويَعرِفونك بصِفاتِك الواردةِ في كُتُبِهم- فاسألْ أهلَ الكِتابِ الذين يقَرؤونَ التوراةَ والإنجيلَ مِن قبلِك؛ فإنَّهم يَعلَمونَ صحَّةَ ذلك(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٨٥، ٢٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٢٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٨٥، ٢٨٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٤٣)، ((مجموع =

كما قال تعالى: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٤٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ * أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٦-١٩٧].

= الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٣٢٥)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٢/ ٣٥٧، ٣٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩٦).

قال ابنُ عطيةَ: (وقولُه: ﴿مِمَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ﴾ يريدُ به من أنَّ بني إسرائيلَ لم يختلفوا في أمرِه إلَّا مِن بعدِ مجيئِه، وهذا قولُ أهلِ التأويلِ قاطبةً. وهذا هو الذي يُشبه أن تُرتجَى إزالةُ الشكِّ فيه مِن قِبَلِ أهلِ الكتابِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٤٣).

قال ابنُ القيِّم: (أشكلتْ هذه الآيةُ على كثيرٍ مِن النَّاس.. وليس في الآيةِ ما يدلُّ على وقوعِ الشكِّ، ولا السؤالِ أصلًا، فإنَّ الشرطَ لا يدلُّ على وقوعِ المشروطِ، بل ولا على إمكانِه، كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وقولِه: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٢]، وقوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، ونظائره، فرسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يشكَّ ولم يسألْ، .. فإنْ قيل: فإذا لم يكنْ واقعًا ولا ممكنًا فما مقصودُ الخطابِ والمرادُ به؟! قيل: المقصودُ به إقامةُ الحجةِ على منكري النبُّواتِ والتوحيدِ، وأنَّهم مقرُّونَ بذلك، لا يجحدونَه ولا ينكرونَه، وأنَّ الله سبحانه أرسَل إليهم رسلَه، وأنزَل عليهم كتبَه بذلك، وأرسَل ملائكتَه إلى أنبيائِه بوحيه وكلامِه، فمن شكَّ في ذلك فليسألْ أهلَ الكتابِ، فأخرَجَ هذا المعنَى في أوجزِ عبارةٍ، وأدلِّها على المقصودِ، بأن جعَل الخطابَ لرسولِه الذي لم يشكَّ قطُّ، ولم يسألْ قط، ولا عرَض له ما يقتضي ذلك، وأنت إذا تأمَّلتَ هذا الخطابَ بدا لك على صفحاتِه: مَن شكَّ فليسألْ، فرسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يشكَّ ولم يسألْ). ((أحكام أهل الذمة)) (١/ ٩٩ - ١٠٥). ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣١٤، ٣١٦)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٠٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٣).

وقيل: هذا خطابٌ للرسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والمرادُ به غيرُه على عادةِ العربِ، فإنَّهم يُخاطبونَ الرَّجلَ، ويُريدونَ به غيرَه، أو يكونُ الخطابُ شاملًا للخلقِ، والمعنى: فإنْ كنتُم في شكٍّ فاسألوا، والدليلُ علي ذلك قولُه في آخرِ السورةِ: ﴿إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ﴾ الآيةَ [يونس: ١٠٤]، فأعْلَم الله أنَّ نبيَّه ليس في شكٍّ، وأمَره أن يتلوَ عليهم ذلك. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣١٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٥٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٣٢٥).

وقال جلَّ جلالُه: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٢-٥٣].

وقال تبارك وتعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٠].

﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾.

أي: أُقسِمُ إنَّه قد جاءك- يا محمَّدُ- الحَقُّ اليقينُ مِن ربِّك بأنَّك رسولُ اللهِ، وأنَّ الذين أُوتوا الكتابَ مِن قَبلِك يَعلَمونَ ذلك، فلا تكونَنَّ مِن الشاكِّينَ في صحَّةِ ذلك، واستمِرَّ على ما أنت عليه من اليَقينِ⁽¹⁾.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾.

أي: ولا تكونَنَّ- يا محمَّدُ- من المكذِّبينَ بآياتِ القُرآنِ، فتكونَ من الخاسرينَ أنفُسَهم بدخولِ النَّارِ، المُضَيِّعينَ سعادةَ الدُّنيا والآخرةِ، فاثبُتْ على ما أنت عليه من التَّصديقِ بالقُرآنِ⁽²⁾.

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾. هذا هو الداءُ الذي يعرِضُ لأهلِ الدِّينِ الصحيحِ، وهو: أنَّ الشيطانَ إذا أعجَزوه أن يُطيعوه في تركِ الدينِ بالكُلِّيةِ، سعَى في التحريشِ بينَهم، وإلقاءِ العداوةِ والبغضاءِ، فحصَل مِن الاختلافِ ما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٤٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٧٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٨٩)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٤).

هو موجبُ ذلك، ثم حصَل مِن تضليلِ بعضِهم لبعضٍ، وعداوةِ بعضِهم لبعضٍ، ما هو قرةُ عينِ اللعينِ، وإلَّا فإذا كان ربُّهم واحدًا، ورسولُهم واحدًا، ودينُهم واحدًا، ومَصالِحُهم العامةُ متفقةً، فلأيِّ شيءٍ يختلفونَ اختلافًا يفرِّقُ شملَهم، ويشتتُ أمرَهم، ويحلُّ رابطتَهم ونظامَهم، فيفوتُ مِن مصالحِهم الدينيةِ والدنيويةِ ما يفوتُ، ويموتُ مِن دينِهم بسببِ ذلك ما يموتُ(١)؟!

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ جملةُ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ تذييلٌ وتوعُّدٌ، والمقصودُ منه: أنَّ أولئك قومٌ مَضَوا بما عَمِلوا وأنَّ أمرَهم إلى ربِّهم، كقولِه تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ [البقرة: ١٣٤] وفيه إيماءٌ إلى أنَّ على الحاضرينَ اليومَ أن يفكِّروا في وسائلِ الخلاصِ مِن الضَّلالِ، والوقوعِ في المؤاخَذةِ يومَ القيامةِ(٢).

٣- قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ كُنتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ فيه تنبيهٌ على أنَّ من خالجَتْه شبهةٌ في الدِّينِ، ينبغي أن يسارعَ إلى حَلِّها بالرُّجوعِ إلى أهلِ العِلمِ(٣)، فالمنهجُ الذي يضَعُه الله لهذه الأمَّةِ فيما لا تستوثِقُ منه: أن تسألَ أهلَ الذِّكرِ، ولو كان من أخصِّ خصائصِ العقيدةِ(٤).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِنْ كُنتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يشُكَّ ولم يَسألْ، ولكنْ هذا حُكمٌ مُعَلَّقٌ بشَرطٍ؛ والمُعلَّقُ بالشَّرطِ يعدَمُ عند عَدَمِه، وفي ذلك سَعَةٌ لِمَن شكَّ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٣٨).

(٤) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٨٢٠).

أو أراد أنْ يحتَجَّ، أو يزدادَ يقينًا(١).

٢- قول الله تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ الفائدةُ في إنزالِ هذه الآيةِ على الرسولِ: أنَّ تكثيرَ الدلائلِ وتقويتَها مما يزيدُ في قوةِ اليقينِ، وطمأنينةِ النفسِ، وسكونِ الصدرِ، ولهذا السببِ أكثَرَ الله في كتابِه مِن تقريرِ دلائلِ التوحيدِ والنُّبوةِ(٢).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ فيه سؤالٌ: أنَّ كثيرًا من أهلِ الكتابِ من اليهودِ والنَّصارى- بل ربما كان أكثرُهم ومعظَمُهم- كذَّبوا رسولَ اللهِ وعانَدوه، ورَدُّوا عليه دَعوتَه. واللهُ تعالى أمر رسولَه أن يستشهِدَ بهم، وجعَلَ شهادتَهم حُجَّةً لِما جاء به، وبرهانًا على صِدقِه، فكيف يكونُ ذلك؟ الجوابُ من عدَّةِ أوجهٍ؛ منها: أنَّ الشَّهادةَ إذا أضيفَت إلى طائفةٍ، أو أهلِ مَذهبٍ أو بلدٍ، ونحوِهم، فإنَّها إنما تتناولُ العُدولَ الصادقينَ منهم. وأمَّا مَن عداهم، فلو كانوا أكثَرَ مِن غيرِهم فلا عِبرةَ بهم؛ لأن الشَّهادةَ مَبنيَّةٌ على العدالةِ والصِّدقِ، وقد حصل ذلك بإيمانِ كثيرٍ مِن أحبارِهم الربَّانيِّين، كعبدِ اللهِ بنِ سَلامٍ وأصحابِه، وكثيرٍ ممَّن أسلم في وقتِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وخُلَفائِه ومَن بعده، وكعبِ الأحبارِ وغيرِهما. ومنها: أنَّ شَهادةَ أهلِ الكِتابِ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مبنيَّةٌ على كتابِهم التَّوراةِ الذي ينتسبونَ إليه، فإذا كان موجودًا في التوراةِ ما يوافِقُ القرآنَ ويُصَدِّقُه، ويشهَدُ له بالصحَّة؛ فلو اتَّفَقوا من أوَّلِهم لآخرِهم على إنكارِ ذلك، لم يقدَحْ بما جاء به الرَّسولُ. ومنها: أنَّ الله تعالى أمَرَ رسولَه أن يستشهِدَ بأهلِ الكتابِ على صحَّةِ ما جاءه، وأظهَرَ ذلك، وأعلَنَه على رؤوسِ الأشهادِ، ومن المعلومِ أنَّ كثيرًا منهم مِن أحرصِ النَّاسِ على إبطالِ دَعوةِ الرَّسولِ محمَّدٍ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٠٠).

صلَّى الله عليه وسلَّم، فلو كان عندهم ما يرُدُّ ما ذكَرَه اللهُ، لأبدَوْه وأظهَروه وبيَّنوه، فلمَّا لم يكنْ شَيءٌ من ذلك، كان عدَمُ رَدِّ المُعادي، وإقرارُ المُستجيبِ، مِن أدَلِّ الأدلَّةِ على صِحَّةِ هذا القرآنِ وصِدقِه. ومنها: أنَّه ليس أكثَرُ أهلِ الكتابِ رَدَّ دعوةَ الرَّسولِ، بل أكثَرُهم استجاب لها، وانقاد طَوعًا واختيارًا؛ فإنَّ الرَّسولَ بُعِث وأكثَرُ أهل الأرضِ المتَديِّنينَ أهلُ كتابٍ، فلم يمكُثْ دينُه مُدَّةً غيرَ كثيرةٍ، حتى انقاد للإسلامِ أكثَرُ أهلِ الشَّامِ ومصرَ والعراقِ، وما جاورَها من البلدانِ التي هي مقَرُّ دينِ أهلِ الكتابِ، ولم يبقَ إلَّا أهلُ الرِّياساتِ الذين آثَروا رياساتِهم على الحَقِّ، ومَن تَبِعَهم من العوامِّ الجَهَلةِ، ومَن تديَّنَ بدينِهم اسمًا لا معنًى، كالإفرنجِ الذين حقيقةُ أمرِهم أنَّهم دهريَّةٌ مُنحَلُّونَ عن جميعِ أديانِ الرُّسُلِ، وإنَّما انتَسَبوا للدِّينِ المَسيحيِّ؛ ترويجًا لمُلكِهم، وتمويهًا لباطِلِهم، كما يَعرِفُ ذلك مَن عرَفَ أحوالَهم البيِّنةَ الظَّاهرةَ(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ؛ سِيقَ لِبَيانِ النِّعَمِ الفائضةِ عليهم إثْرَ نعمةِ الإنجاءِ على وجهِ الإجمالِ، وإخلالِهم بشُكرِها، وأداءِ حقوقِها(٢).

- وقولُه: ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا﴾ تفريعٌ على ﴿بَوَّأْنَا﴾ وما عُطِف عليه، وهو تفريعُ ثناءٍ عليهم بأنَّهم شكَروا تِلك النِّعمَةَ، ولم يَكفُروها كما كفَرها المشركون الَّذين بوَّأهم اللهُ حرَمًا آمِنًا تُجبَى إليه ثمراتُ كلِّ شيءٍ، فجعَلوا للهِ شُركاءَ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٧٤).

ثمَّ كفَروا بالرَّسولِ المرسَلِ إليهم؛ فوقَع في الكلامِ إيجازُ حذفٍ، والتَّقديرُ: فشَكَروا النِّعمَةَ، واتَّبَعوا وصايا الأنبياءِ، وما خالَفوا ذلك إلَّا مِن بعدِ ما جاءَهم العلمُ⁽¹⁾.

- قولُ اللهِ تعالى هنا: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: ٩٣]، وفي سورةِ الجاثيةِ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الجاثية: ١٦-١٧]، ووجهُ هذا الاختلافِ الواردِ في هاتَين السُّورتَين، وزيادةِ ما ورَدَ في سورةِ الجاثيةِ مِن الألفاظِ، مع اتِّحادِ المعنى المقصودِ في الموضِعَين مِن مَنحِهم واختلافِهم:

أنَّ آيةَ يونُسَ تقدَّم قبلَها دُعاءُ موسى عليه السَّلامُ على فِرْعونَ ومَلئِه بقولِه: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾ [يونس: ٨٨]، فأجاب سبحانه دُعاءَ نبيِّه، وطمَس على أموالِ آلِ فِرْعونِ ومَلئِه، وأغرَقه وآلَه، ونجَّى بَني إسرائيلَ مِن الغرَقِ، وقطَع دابِرَ عدوِّهم، وأورَث بني إسرائيلَ أرْضَهم وديارَهم، يتَبوَّؤون منها حيث شاؤوا، فقال سبحانه مُعرِّفًا نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ [يونس: ٩٣]؛ فبعد تَمكُّنِ أمرِهم، واستِحْكامِ حالِهم، واستقرارِ أمرِ دينِهم بما شاهَدوه مِن الآياتِ، وعَظيمِ البَراهينِ المعْقِبَةِ لِمَن شاهَدَها اليقينَ، اختَلفوا جَرْيًا على ما سبَق لهم ولغيرِهم ممَّن أشار إليه قولُه تعالى في أوَّلِ هذه السُّورةِ: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٨٢).

فَاخْتَلَفُوا﴾ [يونس:١٩]، ويُناسِبُ هذا كلَّه تَناسُبًا لا تَوقُّف في وُضوحِه. ولم يتقدَّمْ في سورةِ يونُسَ ما يَستدعي مِن حالِهم أكثرَ مِن هذا.

أمَّا آيةُ الجاثيةِ فتَقدَّمَ قبلَها بَسطُ الدَّلائلِ والبَراهينِ مِن لَدُنْ قولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣]، إلى ما تَبِع هذا مِن التَّنبيهِ بخَلقِها، وما بثَّ سبحانه فيهما مِن أصنافِ المخلوقاتِ، واختلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ وتَعاقُبِهما، وإنزالِ الرِّزقِ مِن السَّماءِ، وإحياءِ الأرضِ بعدَ مَوتِها، بما يَنزِلُ مِن الرِّزقِ إليها، وتَصريفِ الرِّياحِ، ثُمَّ ذكَر سبحانه أنَّ هذه الآياتِ إنَّما يَعتبِرُ بها، ويَهتَدي بأنوارِها مَن منَحه اللهُ تعالى العقْلَ، وهَداه إلى الاعتبارِ، فقال: ﴿آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الجاثية: ٥]، ولم يَرِدْ ذِكرُ هذه الجملةِ للاعتبارِ بها في موضعٍ مِن كتابِ اللهِ تعالى أوعَبَ مِنها في هذه السُّورةِ وفي سورةِ البقرةِ، وهي هناك أوعَبُ لذِكْرِ الفُلكِ، وجَرْيِها في مَنافعِ العبادِ، وتسخيرِ السَّحابِ بينَ السَّماءِ والأرضِ، وذِكرِ تَصريفِ الرِّياحِ، وقد أعقَب ذِكرَ هذه الآياتِ في الموضِعَين بقولِه في سورةِ البقرة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ [البقرة:١٦٥]، إشارةً إلى كُفَّارِ العرَبِ، وسوءِ مُرتكَبِهم، وتَعاميهم عن الاعتبارِ والاستدلالِ مع وُضوحِ الأمرِ؛ إذ لا يَقبَلُ العقلُ تَكوُّنَ هذه المخلوقاتِ العِظامِ بأنفُسِها، ولا أنَّ بعضَها أوجَد بعضًا؛ لتَساويها فيما قام مِن دلائلِ الحدوثِ، فلا بدَّ مِن خالقٍ مُريدٍ مختارٍ قادرٍ منزَّهٍ عن شُبَهِ هذه الجملةِ، وإلَّا لافتقَرَ إلى موجِدٍ آخرَ، وذلك يؤدِّي إلى التَّسلسُلِ، وهو مُحالٌ عقلًا، والاثنينيَّةُ ممتنعةٌ عقلًا: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، فتعيَّن توحيدُ الحقِّ، وأنَّه ليس كمِثْلِه شيءٌ.

ولَمَّا كان الاستدلالُ بهذه الجُمَلِ المفصَّلةِ أوضحَ شيءٍ؛ أتبعَها سبحانه

بقولِه: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦]، ولكونِه أبسَطَ ما ذُكِّر به مَن خوطِب بالقرآنِ، ثمَّ لم يُجدِ ذلك في حقِّ مَن سبَق له الشَّقاءُ منهم إلَّا المنافَرةَ والمخالفةَ؛ أُعقِبَت بذِكرِ مَن ترادَفَت وتوالَت عليه الآياتُ، وكَثُرَت في حقِّه الشَّواهدُ، ثمَّ لم يُعقِبْه ذلك إلَّا الاختلافَ والعدولَ عن سُلوكِ المنهجِ الواضحِ، وهم الممتَحَنون بالاختلافِ مِن بني إسرائيلَ، ولَمَّا لم يَكُنْ تَقدَّم آيَةَ سورةِ يونُسَ مِن الدَّلالاتِ مثلُ ما بُسِط في سورةِ الجاثيةِ مِن الاعتبارِ لِما يُناسِبُه الواقعُ في الجاثيةِ مِن الإطنابِ، فنُوسِب الإيجازُ بالإيجازِ، والإطنابُ بالإطنابِ، وجاء كلٌّ على ما يُناسِبُ، مع اتِّحادِ المقصودِ في السُّورتَين^(١).

٢- قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾

- قولُه: ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ جملةٌ مُستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا، وقُرِنَت الجملةُ بحرفَيِ التَّأكيدِ، وهُما: لامُ القسَمِ و(قد)؛ لِدَفعِ إنكارِ المُعرَّضِ بهم^(٢).

- قولُه: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ يجوزُ أن يَكونَ هذا النَّهيُ على طريقةِ التَّهييجِ والإلهابِ، كقَولِه: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ﴾، ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ﴾، ولزيادةِ التَّثبيتِ والعِصمةِ^(٣).

٣- قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ هذا النَّهيُ مِن بابِ التَّهييجِ والإلهابِ، والمرادُ به: إعلامُ أنَّ التَّكذيبَ مِن القُبحِ والمحذوريَّةِ

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٤٨-٢٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٧٠).

بحيث يَنبَغي أن يُنْهَى عنه مَن لا يُتصوَّرُ إمكانُ صُدورِه عنه؛ فكيف بِمَن يُمكِنُ اتِّصافُه به، وفيه قطعٌ لأطماعِ الكفَرةِ(١)؟!

- وفيه تأكيدُ الفعلِ المنهيِّ عنه ﴿تَكُونَنَّ﴾ بنونِ التَّوكيدِ؛ للمُبالَغةِ في النَّهيِ عنه؛ اعتِناءً بالتَّبرُّؤِ مِن الشِّركِ(٢).

* * *

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٠٤).

الآيات (٩٦-١٠٠)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ (٩٧) فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٨) وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ (٩٩) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٠) ﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿الرِّجْسَ﴾: أي: العذابَ، ويُطلَقُ أيضًا على: القذرِ المنتنِ، وأصلُ (رجس): يَدُلُّ على اختِلاطٍ(١).

المعنى الإجماليُّ:

يُخاطِبُ اللهُ نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم قائلًا له: إنَّ الذين وجَبَت عليهم كَلِمةُ رَبِّك- أيُّها الرَّسولُ- بمَوتِهم على الكُفرِ وطَردِهم مِن رَحمتِه وعذابِه لهم، لا يؤمنونَ إيمانًا ينفَعُهم قبل مَوتِهم، ولو جاءتْهم كلُّ مَوعظةٍ وعِبرةٍ، حتى يُعاينوا العذابَ المُوجِعَ، فحينئذٍ يُؤمِنونَ، ولا ينفَعُهم إيمانُهم، وما آمَنَ أهلُ قريةٍ مِن القُرى الهالكةِ في وقتٍ ينفَعُهم إيمانُهم فيه، إلَّا قَومَ النَّبيِّ يُونُسَ عليه الصَّلاة والسَّلامُ، فإنَّهم لـمَّا أيقَنوا أنَّ العذابَ نازلٌ بهم تابوا إلى الله تعالى توبةً

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٢، ١٥٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٩).

نَصوحًا، فكشَفَ اللهُ عنهم عذابَ الخِزيِ بعد أن رأَوا بعضَ الآياتِ الدالةِ على نزولِه، وتَرَكهم في الدُّنيا يَستمتِعونَ إلى وقتِ انتهاءِ آجالِهم، ولو شاء ربُّك- أيُّها الرَّسولُ- الإيمانَ لأهلِ الأرضِ كُلِّهم، لآمَنوا جميعًا بما جئتَهم به، ولكِنْ له تعالى حكمةٌ في ذلك؛ فإنَّه يهدي من يشاءُ، ويُضِلُّ من يشاء وَفْقَ حِكمتِه، وليس في استطاعتِك أن تُكرِهَ النَّاسَ على الإيمانِ، وما ينبغي أن تُؤمِنَ نفسٌ إلَّا بمشيئةِ الله وقضائِه وقدرِه، فلا تُجهِدْ نفسَك في ذلك؛ فإنَّ أمرَهم إلى اللهِ، ويجعَلُ اللهُ غَضَبَه وعذابَه على الذينَ لا يَعقِلونَ أمْرَه ونَهيَه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا كان ما مضَى من الآياتِ وما كان مِن طرازِها، قاضيًا بأنَّه لا تُغني الآياتُ عن المُشرِكينَ- صرَّح به هنا بقَولِه(١):

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾.

أي: إنَّ الذين وجبَت عليهم كَلِمةُ رَبِّك- يا مُحمَّدُ- بأنَّهم يصيرونَ إلى ما قدَّرَه اللهُ لهم مِن الاستمرارِ على الكُفرِ والموتِ عليه؛ لا يُؤمِنونَ إيمانًا ينفَعُهم قبل مَوتِهم(٢).

﴿ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٨٧).

أي: ولو جاءتْهم كلُّ آيةٍ مِن الآياتِ الكونيَّةِ المُعجزة الخارقةِ، والآياتِ الشَّرعيَّةِ المُنزَّلةِ كالقُرآنِ، فإنَّهم لا يُؤمِنونَ حتى يُعاينوا العذابَ المُوجِعَ فيُؤمِنوا، وحينئذٍ لا ينفَعُهم الإيمانُ⁽¹⁾.

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بيَّنَ مِن قَبلُ أنَّ ﴿الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾؛ أتبَعَه بهذه الآيةِ؛ لأنَّها دالَّةٌ على أنَّ قومَ يُونُسَ آمَنوا بعد كُفرِهم، وانتَفَعوا بذلك الإيمانِ، وذلك يدُلُّ على أنَّ الكُفَّارَ فَريقانِ؛ منهم من حُكِمَ عليه بخاتمةِ الكُفرِ، ومنهم من حُكِمَ عليه بخاتمةِ الإيمانِ، وكُلُّ ما قضَى اللهُ به فهو واقعٌ⁽²⁾.

وأيضًا فهذه الآيةُ والآيتانِ بعدَها تفريعٌ على الآياتِ السابقةِ، وتكميلٌ لها في بيانِ سُنَّةِ اللهِ في الأمَمِ مع رُسُلِهم، وفي خَلْقِ البَشَرِ مُستعِدِّينَ للأمورِ المتضادَّةِ من الإيمانِ والكُفرِ، وفي تعلُّقِ مَشيئةِ اللهِ وحِكمتِه بأفعالِه وأفعالِ عِبادِه، ووقوعِها على وَفْقِهما⁽³⁾.

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٩٠)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣١٨)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨٣)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٨٧، ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٠٣-٣٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٩٣).

أي: ما آمَنَ أهلُ قريةٍ مِن القُرى الهالكةِ في وقتٍ ينفَعُهم إيمانُهم فيه، إلَّا قَومَ النَّبيِّ يُونُسَ عليه الصَّلاة والسَّلامُ، آمَنوا كُلُّهم في وقتٍ يَنفَعُهم فيه الإيمانُ، حين رأَوا آيةً تدُلُّ على العذابِ قبل نُزولِه بهم⁽¹⁾.

﴿لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾.

أي: لَمَّا آمَنوا رَفَعْنا عنهم عذابَ الذُّلِّ الذي وعدَهم به نبيُّهم في الحياةِ الدُّنيا- وكان قد قرُبَ نُزولُه بهم- وتَرَكْناهم يستَمتِعونَ في الدُّنيا إلى آخِرِ أعمارِهم المكتوبةِ⁽²⁾.

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٣٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٨٩).

ومِمن ذهَب إلى المعنَى المذكورِ، وهو أنَّهم رأَوا علاماتٍ دالةً على العذابِ دونَ العذابِ عينِه، فآمنوا فتاب الله عليهم: الزجاجُ، والواحدي، وابنُ عطيةَ، والرازي، والقرطبي، وابن تيمية، وابنُ كثيرٍ، والشوكاني، والقاسمي، ومحمد رشيد رضا، وابنُ عاشور. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٣٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٠٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٤٤)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨٤- ٣٨٥)، ((جامع المسائل)) لابن تيمية (ص: ٣٦٤- المجموعة الثامنة)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٣٩)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٦٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٨٩).

وقيل: إنَّ قَومَ يُونُسَ خُصُّوا من بين الأمَمِ بأنْ تِيبَ عليهم لما آمنوا بعدَ مُعاينةِ العَذابِ، ومِمَّن ذهب إلى ذلك: ابنُ جرير، والواحدي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٩١)، ((الوسيط)) (٢/ ٥٦٠)، ((الوجيز)) (ص: ٥٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٤).

ومِمن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عبَّاس، وسعيدُ بنُ جبيرٍ، وقتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ١٣٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٠٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٤٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٥١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٩٤).

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان ما مضَى ربَّما أوجبَ اعتقادَ أنَّ إيمانَ مِثلِ أولئك مُحالٌ، جاءت هذه الآيةُ في مَقامِ الاحتراسِ منه مع البيانِ؛ لأنَّ حِرصَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على إيمانِهم لا ينفعُ، ومبالغتَه في إزالةِ الشُّبُهاتِ وتقريرِ الدَّلائِلِ لا تفيدُ إلَّا بمَشيئةِ الله تعالى لِتَوفيقِهم وهدايتِهم، ولو كان ذلك وَحْدَه كافيًا لآمنوا بهذه السُّورةِ؛ فإنَّها أزالت شُبُهاتِهم، وبيَّنَت ضلالاتِهم، وحقَّقَت بقصَّتَي نوحٍ وموسى عليهما السَّلامُ ضَعْفَهم، ووَهَنَ مُدافعاتِهم(١).

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾.

أي: ولو شاء ربُّك- يا محمَّدُ- لألهَمَ كلَّ من في الأرضِ الإيمانَ فآمنوا باللهِ، وبما جئتَ به، لكنَّه لم يشَأْ ذلك؛ لِمُخالفتِه مقتضَى حِكمتِه سُبحانَه(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٨- ١١٩].

وقال سُبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥].

﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩٨)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٤).

أي: أفأنت- يا مُحمَّدُ- تُلزِمُ النَّاسَ، وتضطرُّهم إلى الإيمانِ، حتى يكونوا مُؤمِنينَ بما جئتَهم به؟ ليس ذلك إليك، ولا قُدرةَ لك عليه، بل اللهُ تعالى هو من يَهدي ويُضِلُّ مَن يشاءُ مِن عِبادِه، لا بإكراهِك لهم على ذلك[1].

كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

وقال سُبحانه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨].

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ هذه الآيةَ عَطفٌ على جملةِ: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ﴾ لتقريرِ مَضمونِها؛ لأنَّ مَضمونَها إنكارُ أن يَقدِرَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم على إلجاءِ النَّاسِ إلى الإيمانِ؛ لأنَّ اللهَ هو الذي يَقدِرُ على ذلك[2].

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

---

[1] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٤).

[2] يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٩٤).

أي: وما ينبغي لنفسٍ أن تؤمِنَ وتهتديَ إلَّا بقضاءِ اللهِ وقَدَرِه ومَشيئتِه، فلا تُجهِدَنَّ نفسَك- يا مُحمَّدُ- في طلَبِ هُداها، وبلِّغْها وعيدَ اللهِ، ثمَّ خَلِّها؛ فإنَّ هُداها بيَدِ خالِقِها، ولا تكفي دعوتُك في حصولِ الإيمانِ حتى يأذَنَ اللهُ لِمَن دَعَوتَه أن يؤمِنَ[1].

﴿ وَيَجۡعَلُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾.

أي: ويجعَلُ اللهُ غضَبَه وعذابَه على الذينَ لا يَعقِلونَ آياتِه، وحُجَجَه، ومواعِظَه، وأوامِرَه ونواهِيَه[2].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- الدَّليلُ لا يهدي إلَّا بإعانةِ الله تعالى، وإذا لم تحصُلْ تلك الإعانةُ ضاعت تلك الدَّلائِلُ؛ نستفيد ذلك مِن قَولِ الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾[3].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فيه أنَّ النَّفسَ لا تصِلُ إلى الإيمانِ إلَّا إذا سارت وَفْقَ إذنِ اللهِ وسُنَّتِه في الوصولِ إليه من طريقِه المَرسومِ بالسُّنَّةِ العامَّةِ. وعندئذٍ يَهديها الله تعالى، ويقَعُ لها الإيمانُ بإذنِه، ويدلُّ على هذا عَقِبُ الآيةِ: ﴿ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾، فالذين عطَّلوا عقولَهم عن التدبُّرِ، هؤلاء ينالُهم ذلك الرجسُ بسببِ تعطيلِهم لمداركِهم عن التعقُّلِ والتدبُّرِ، وانتهاؤُهم بهذا إلى التكذيبِ والكفرانِ، ويزيدُ الأمرَ إيضاحًا بأنَّ

---

[1] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٩٩، ٣٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨٦)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٤).

[2] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠٠)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٢٥، ٣٢٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٤).

[3] يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٣٨).

الآياتِ والنذرَ لا تُغني عن الذين لا يُؤمنون؛ لأنَّهم لا يتدبَّرونها، وهي معروضةٌ أمامَهم في السمواتِ والأرضِ: ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾(١) [يونس: ١٠١].

الفوائدُ العلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ فيه سؤالٌ: أنَّ الله تعالى حكى عن فِرعونَ أنَّه تاب في آخِرِ الأمرِ ولم يَقبَلْ تَوبتَه، وحكى عن قومِ يُونُسَ أنَّهم تابوا وقَبِلَ تَوبتَهم فما الفَرقُ؟ والجوابُ: أنَّ فِرعونَ إنَّما تاب بعد أن شاهدَ العذابَ، وأمَّا قَومُ يُونُسَ فإنَّهم تابوا قبل ذلك، فإنَّهم لَمَّا ظَهَرت لهم أماراتٌ دلَّت على قُربِ العَذابِ تابوا قبل أن يُشاهِدوه(٢).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ فيه ردٌّ على القَدَريَّةِ(٣).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ دلالةٌ على أنَّ مُجرَّدَ الدَّعوةِ لا تكفي في حصولِ الإيمانِ، حتى يأذنَ اللهُ لِمَن دُعِيَ أن يؤمِنَ(٤).

---

(١) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٨٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٠٣).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٤٩).

(٤) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٦٠).

٤- الإذنُ في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ إذنٌ قَدَريٌّ- أي: قضاؤُه وقَدَرُه - لا مجرَّد أمْرِه وشَرْعِه⁽¹⁾.

٥- الجَعْلُ المذكورُ في قولِه تعالى: ﴿وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ هو جَعْلٌ كونيٌّ، ويُقابِلُه: الجعلُ الدينيُّ، كما في قَولِه تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ [المائدة: ١٠٣] أي: ما شَرَعَ ذلك ولا أمَرَ به، وإلَّا فهو مخلوقٌ له، واقعٌ بقدَرِه ومَشيئتِه⁽²⁾.

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ القريةُ: القَومُ، والتَّسميةُ هكذا إيذانٌ بأنَّ الرِّسالاتِ كانت في قُرى الحَضَر، ولم تكن في محلَّاتِ البَدو⁽³⁾.

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ أبهَمَ ﴿حِينٍ﴾؛ لأنَّه مختلِفٌ باختلافِ آجالِ آحادِهم⁽⁴⁾.

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ فائدةُ ذِكرِ ﴿جَمِيعًا﴾ بعدَ ﴿كُلُّهُمْ﴾، مع أنَّ كُلًّا منهما يفيدُ الإحاطةَ والشُّمولَ، هي الدَّلالةُ على وجودِ الإيمانِ منهم بصفةِ الاجتماعِ الذي لا يدُلُّ عليه ﴿كُلُّهُمْ﴾ كقولك: جاء القومُ جمَيعًا، أي: مجتَمِعينَ، ونظيرُه قَولُه تعالى: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾⁽⁵⁾.

---

(١) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٦٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٨٢).

(٣) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٨٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٩١).

(٥) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٥٤-٢٥٥).

بلاغة الآيات:

١- قولُه تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾

- قولُه: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ...﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ؛ لتقريرِ ما سبَق مِن استِحالةِ إيمانِ مَن حقَّت عليهم كلمتُه تعالى؛ لِسُوءِ اختِيارِهم مع تَمكُّنهم مِن التَّدارُكِ(١)، و(لولا) حرفٌ يَرِدُ لِمَعانٍ مِنها التَّوبيخُ، وهو هنا مُستعمَلٌ في لازمِ التَّوبيخِ، كِنايةً عن التَّغليطِ؛ لأنَّ أهْلَ القُرى قد انقَضَوْا، وذلك أنَّ أصلَ معنى (لولا) التَّحضيضُ، وهو طلبُ الفعلِ بحَثٍّ، فإذا دخلَت على فعلٍ قد فات وقوعُه كانت مُستعمَلةً في التَّغليطِ، والتَّنديمِ، والتَّوبيخِ على تَفْويتِه، ويكونُ ما بَعدَها في هذا الاستعمالِ فِعْلَ مُضيٍّ؛ فهي هنا مُستعمَلةٌ في لازمِ التَّوبيخِ، كنايةً عن التَّغليطِ(٢).

٢- قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا...﴾ فيه حذفُ مفعولِ المشيئةِ؛ لِوُجودِ ما يَقْتَضيه مِن وقوعِها شرطًا، وكونِ مفعولِها مضمونَ الجزاءِ، وألَّا يكونَ في تَعلُّقِها به غرابةٌ، والتَّقديرُ: لو شاء سبحانه إيمانَ مَن في الأرضِ مِن الثَّقلَين لآمَن(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤ / ١٧٧).

- وفيه التَّأكيدُ بـ﴿ كُلُّهُمْ ﴾؛ للتَّنصيصِ على العمومِ المستفادِ مِن ﴿ مَنْ ﴾ الموصولةِ؛ فإنَّها للعُمومِ، والتَّأكيدُ بـ﴿ جَمِيعًا ﴾؛ لزيادةِ رَفْعِ احتِمالِ العُمومِ العُرفيِّ دونَ الحقيقيِّ(١).

* * *

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٩٢).

الآيات (١٠١-١٠٢)

﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾.

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: قُل- يا أيُّها الرَّسولُ- للمُشركينَ الذين يسألونَك الآياتِ: تفكَّروا، واعتَبِروا بما في السَّمَواتِ والأرضِ مِن آياتِ اللهِ البيِّناتِ؛ فإنَّها تُغنيكم عن طَلَبِ الآياتِ، والآياتُ والعِبرُ والرُّسُلُ المُنذِرةُ عبادَ اللهِ عقابَه، لا تنفعُ قومًا لا يُؤمِنونَ بشَيءٍ من ذلك؛ لإعراضِهم وعنادِهم، فهل ينتظِرُ هؤلاء إلَّا أن يحُلَّ عليهم عذابُ اللهِ مِثلَ أسلافِهم المُكذِّبينَ الذين مَضَوا قَبلَهم؟ قل لهم- أيُّها الرَّسولُ-: فانتَظِروا عقابَ اللهِ، إنِّي معكم مِن المُنتَظِرينَ عِقابَكم، ثمَّ نُنَجِّي رسُلَنا والذين آمَنوا معهم، وكما نجَّينا أولئك الرُّسُلَ والمؤمنينَ بهم، ننجِّيك- أيُّها الرَّسولُ- ومَن آمن بك؛ تفضُّلًا منَّا ورحمةً.

تَفسيرُ الآيات:

﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى في الآياتِ السَّالِفةِ أنَّ الإيمانَ لا يحصُلُ إلَّا بتَخليقِ الله تعالى ومَشيئتِه؛ أمَرَ بالنَّظَرِ والاستدلالِ في الدَّلائلِ حتى لا يُتَوهَّمَ أنَّ الحقَّ هو الجَبرُ المَحضُ(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٠٦).

وأيضًا لما تقرَّر ما مضَى مِن النَّهيِ عن الإصغاءِ إليهم في طلبِ الآياتِ، وختَم بتعليقِ الأمرِ بمجرَّد المشيئةِ، كان كأنَّه قِيل: فماذا يُقال لهم إذا طلَبوا[1].

﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾.

أي: قُلْ- يا مُحَمَّدُ- للمُشركينَ الذين يسألونَك الآياتِ: انظُروا ماذا في السَّمواتِ مِن الشَّمسِ والقَمَرِ والنُّجومِ والسَّحابِ، وفي الأرضِ مِن الجِبالِ والبِحارِ، والأنهارِ والأشجارِ، والثِّمارِ والدوابِّ وغيرِ ذلك من المخلوقاتِ الصَّغيرةِ والكبيرةِ، فتفَكَّروا فيها واعتَبِروا؛ فإنَّها دالَّةٌ على وحدانيَّةِ اللهِ في ربوبيَّتِه وألوهيَّتِه، وعلى كمالِ قُدرتِه وعظيمِ صِفاتِه، فتُغنيكم عن طلَبِ الآياتِ[2].

﴿ وَمَا تُغْنِي ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾.

أي: وما تنفَعُ[3] الآياتُ السَّماويةُ والأرضيَّةُ، والرسلُ المُنذِرةُ[4] قومًا سبَقَ

---

[1] يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢١١).

[2] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠٠، ٣٠١)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٢٧، ٣٢٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٥).

[3] قال الواحدي: (يجوزُ أن تكونَ (ما) نفيًا بمعنى: ما تغني عنهم شيئًا بدَفعِ الضَّررِ، واجتلابِ النَّفعِ، كقولِك: ما يُغني عنك المالُ إذا لم تُنفِقْ، ويجوز أن يكون استفهامًا كقولِك: أيَّ شيءٍ يُغني عنهم؟). ((البسيط)) (١١/ ٣٢٩).

ومِمن اختار أنَّ (ما): نافيةٌ: الواحديُّ، والقرطبي، وأبو حيان. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٦١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١١٠).

ومِمن اختار أنَّ (ما) استفهاميةٌ: ابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩٩).

[4] قال أبو حيان: (﴿ٱلنُّذُرُ﴾ جمعُ نَذير، إمَّا مَصدرٌ، فمعناه: الإنذارات، وإمَّا بمعنى مُنذِر، فمعناه: المُنذِرونَ والرُّسُل). ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١١٠).

ومِمن قال: إنَّ المراد بـ﴿ٱلنُّذُرُ﴾: الرسلُ: ابنُ جريرٍ، وابنُ كثيرٍ، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨٦).

ومِمن قال: إنَّ المرادَ بها الإنذاراتُ: ابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٩٦- ٢٩٧).

في علمِ اللهِ أنَّهم لا يُؤمِنونَ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ [القمر: ٥].

وقال سُبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦-٩٧].

﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لمَّا كان ما في السمواتِ والأرضِ مِن الآياتِ في غايةِ الدلالةِ؛ نبَّه سبحانَه على أنَّ التوقفَ عن الإيمانِ بعدَ التنبيهِ على كيفيةِ الاستدلالِ معاندةٌ، فقال: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، فكان ذلك سببًا لتهديدِهم بقولِه(٢):

﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

أي: فهل ينتَظِرُ هؤلاءِ المُشركونَ المكذِّبونَ لك- يا مُحمَّدُ- من النِّقمةِ والعذابِ، إلَّا مِثلَ وقائعِ اللهِ تعالى في الأممِ الماضيةِ مِن قَبلِهم، المكذِّبةِ لِرُسُلِهم(٣)؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠١)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١١٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٤١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٩٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠١)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٣٠)، ((تفسير =

﴿قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾.

أي: قُل- يا مُحمَّدُ- لهم: فانتَظِروا عذابَ اللهِ، إنِّي معكم من المُنتَظِرينَ ما يحُلُّ بكم مِن العذابِ والهلاكِ الذي وعَدَكم اللهُ(١).

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أُمِرَ الرَّسولُ في الآيةِ السَّابقةِ أن يُوافِقَ الكُفَّارَ في انتظارِ العَذابِ؛ ذكَرَ التَّفصيلَ، فقال: العذابُ لا يَنزِلُ إلَّا على الكُفَّارِ، وأمَّا الرَّسولُ وأتباعُه فهم أهلُ النَّجاةِ(٢).

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

أي: ثم نُنجِّي رسُلَنا والمُؤمنينَ بهم مِن عَذابِنا الواقعِ على قَومِهم(٣).

﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

أي: كما أنجَينا الرُّسُلَ السَّابقينَ والمؤمنينَ بهم حين نزولِ العَذابِ، كذلك نفعَلُ بك- يا مُحمَّدُ- وبالمُؤمِنينَ بك، فنُنَجِّيكم جميعًا، حقًّا ووعدًا أوجَبْناه علينا لا نُخلِفُه(٤).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج: ٣٨].

= القرطبي)) (٨/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨٦)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠٢، ٣٠٣)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٣١، ٣٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠٣)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩٩).

وقال سُبحانه: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أمَرَ تعالى بالفِكرِ فيما أودَعَه تعالى في السَّمَواتِ والأرضِ؛ إذ السَّبيلُ إلى مَعرِفتِه تعالى هو بالتفكُّرِ في آياتِه ومخلوقاتِه[1].

٢- قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا مِن دَفْعِه سبحانَه عن المُؤمِنينَ؛ فإنَّ اللهَ يُدافِعُ عن الذين آمنوا، فإنَّه بحسَبِ ما مع العبدِ مِن الإيمانِ تحصُلُ له النَّجاةُ مِن المكارِه[2]، فمدارُ النَّجاةِ هو الإيمانُ[3].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ عمَّم ما في السَّمواتِ والأرضِ؛ لتتوجَّهَ كُلُّ نَفسٍ إلى ما هو أقرَبُ إليها، وأيسَرُ استدلالًا عليه لَدَيها[4].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أشار بأداةِ التَّراخي ﴿ثُمَّ﴾ إلى طولِ زَمانِ الابتلاءِ، وعظيمِ رُتبةِ التَّنجيةِ[5].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه سؤالٌ: أنَّ قولَه ﴿حَقًّا﴾ يقتضي الوجوبَ، واللهُ تعالى لا يجِبُ عليه شيءٌ! الجوابُ: أنَّ ذلك

---

[1] يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١٠٩).

[2] يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٣٧٤).

[3] يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤ / ١٧٨).

[4] يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٩٥).

[5] يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢١٣).

حقٌّ بحَسَبِ الوَعدِ والحُكمِ، لا أنَّه حَقٌّ بحسَبِ الاستحقاقِ⁽¹⁾؛ فالله سبحانه أحَقَّه على نفسِه بحُكمِ إحسانِه وفَضلِه ووَعدِه، لا هم أحَقُّوه عليه كالحَقِّ الذي لإنسانٍ على مَن له عنده يَدٌ، وكقوله أيضًا: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾⁽²⁾.

بلاغة الآيات:

١- قولُه تعالى: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ﴾ استفهامٌ فيه تقريرٌ وتَوعُّدٌ، وحضٌّ على الإيمانِ⁽³⁾.

- قولُه: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ﴾ وقَع الاستفهامُ بـ (هَلْ) لإفادتِها تَحقيقَ السُّؤالِ، وهو باعتبارِ تحقيقِ المسؤولِ عنه، وأنَّه جديرٌ بالجوابِ بالتَّحقيقِ، وهو استفهامٌ تَهكُّميٌّ إنكاريٌّ، نُزِّلوا مَنزِلةَ مَن يَنتظِرون شَيئًا يَأتيهم لِيُؤمِنوا، وليس ثَمَّةَ شيءٌ يَصلُحُ لأنْ يَنتَظِروه إلَّا أن يَنتظِروا حُلولَ مِثلِ أيَّامِ الَّذين خلَوا مِن قَبلِهم الَّتي هلَكوا فيها، وضُمِّن الاستفهامُ مَعْنى النَّفيِ، والتَّقديرُ: فهل ينتَظِرون شيئًا؟ ما ينتَظِرون إلَّا مِثلَ أيَّامِ الَّذين خَلَوا مِن قبلِهم⁽⁴⁾.

- وقولُه: ﴿قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ ﴿قُلْ﴾ أمرٌ مُرادٌ منه التَّهديدُ، أي: انتَظِروا ما يَحِلُّ بكُم كما حَلَّ بمَن قَبلَكم مِن مُكذِّبي الرُّسُلِ⁽⁵⁾.

- وجملةُ: ﴿قُلْ فَانتَظِرُوا﴾ مُفرَّعةٌ على جملةِ: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ﴾،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٤٠).

(٢) يُنظر: ((الرد على البكري)) لابن تيمية (١/ ٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٩٧- ٢٩٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١١٠).

وفُصِلَ بينَ المفرَّعِ والمفرَّعِ عليه بـ﴿قُلْ﴾؛ لزيادةِ الاهتمامِ، ولِيَنتقِلَ مِن مُخاطَبةِ اللهِ رسولَه صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم إلى مُخاطَبةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم قومَه، وبهذا النَّسْجِ حصَل إيجازٌ بديعٌ؛ لأنَّه بالتَّفريعِ اعتُبِر ناشِئًا عن كلامِ اللهِ تعالى، فكأنَّ اللهَ بلَّغه النَّبيَّ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم، ثمَّ أمَر النَّبيَّ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم بأن يُبلِّغَه قومَه؛ فليس له فيه إلَّا التَّبليغُ، وهو يَتضمَّنُ وعْدَ اللهِ نبيَّه بأنَّه يَرى ما يَنتظِرُهم مِن العذابِ؛ فهو وعيدٌ، وهو يَتضمَّنُ النَّصرَ عليهم⁽¹⁾.

- وجملةُ: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عن جملةِ: ﴿فَانْتَظِرُوا﴾؛ لأنَّها تُثيرُ سُؤالَ سائلٍ يَقولُ: ها نحن أولاءِ نَنتظِرُ، وأنت ماذا تَفعَلُ؟ وهذا مُستعمَلٌ كنايةً عن تَرقُّبِه النَّصرَ؛ إذ لا يُظَنُّ به أنَّه يَنتظِرُ سوءًا؛ فتعيَّن أنَّه يَنتظِرُ مِن ذلك ضِدَّ ما يَحصُلُ لهم، فالمعيَّةُ في أصلِ الانتظارِ، لا في الحاصلِ بالانتظارِ⁽²⁾.

٢- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾

- قولُه: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾ معطوفٌ على كلامٍ محذوفٍ، يَدُلُّ عليه قولُه: ﴿إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، كأنَّه قيل: نُهلِكُ الأُممَ ثمَّ نُنجِّي رُسلَنا، على حكايةِ الأحوالِ الماضيةِ⁽³⁾، وهذا التَّعبيرُ مِن أعجبِ إيجازِ القُرآنِ المُعجِزِ الذي انفرَدَ به في العَطفِ على محذوفٍ، وهو ذِكْرُ شَيءٍ يدُلُّ دلالةً واضحةً على أمرٍ عامٍّ: كسُنَّةٍ اجتماعيَّةٍ تُستنبَطُ مِن قِصَّةٍ أو قِصَصٍ واقعةٍ، ثم يأتي بجملةٍ مَعطوفةٍ لا يصِحُّ عَطفُها على ما قَبلَها من الجُمَلِ،

---

(1) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٩٨).

(2) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٢٩٨-٢٩٩).

(3) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٧٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٧٨).

فيتبادَرُ إلى الذِّهنِ وُجوبُ عَطفِها على ذلك الأمرِ العامِّ، بحرفِ العطفِ المُناسِبِ للمَقامِ، بحيث يُستَغنى به عن ذِكرِه، وتقديرُه هنا: تلك سُنَّتُنا في رسُلِنا مع قومِهم: يُبَلِّغونَهم الدَّعوةَ، ويُقيمونَ عليهم الحُجَّةَ، ويُنذِرونَهم سوءَ عاقبةِ الكُفرِ والتَّكذيبِ، فيؤمِنُ بعضٌ، ويُصِرُّ الآخرونَ، فنُهلِكُ المكَذِّبينَ، ثمَّ نُنَجِّي رسُلَنا والذين آمَنوا بهم، ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾(١).

– وفي صيغةِ الاستقبالِ ﴿نُنَجِّي﴾ لحكايةِ الأحوالِ الماضيةِ: تهويلٌ لأمرِها باستحضارِ صُوَرِها(٢).

– وقولُه: ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ تذييلٌ لما قبلَه مقرِّرٌ لمضمونِه، والمرادُ بالمؤمنين إمَّا الجنسُ المتناوِلُ للرُّسلِ عليهم السَّلامُ والأتباعِ، وإمَّا الأتباعُ فقط ولم يَذكُرْ إنجاءَ الرُّسلِ؛ إيذانًا بعدَمِ الحاجةِ إليه(٣).

* * *

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٧٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٤ / ١٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤ / ١٧٨).

الآيات (١٠٤-١٠٩)

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿حَنِيفًا﴾: أي: مُقبلًا على اللهِ، مُعرضًا عما سِواه، وقيل: مائلًا عن الشركِ والدِّينِ الباطلِ إلى التوحيدِ، والدِّينِ الحقِّ المستقيمِ، وأصلُ الحنفِ: الميلُ عن الشيءِ بالإقبالِ على آخرَ، فالحنفُ ميلٌ عن الضلالةِ إلى الاستقامةِ، وأصلُه ميلٌ في إبهامي القدمينِ، كل واحدةٍ على صاحبتِها(١)، وقيل: حنيفًا، أي: مسلمًا مستقيمًا(٢).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٩/ ٣١٩)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (١/ ٢٦٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٥٩).

(٢) وذلك بناءً على قولِ مَن قال: إنَّ الحنيفَ هو المستقيمُ مِن كلِّ شيءٍ. والحنفَ الاستقامةُ، وجعلوا الرَّجلَ الَّذي تُقبلُ إحدَى قَدَميه على الأُخرى، إنَّما قِيل له: أحنفُ، على جهةِ التفاؤلِ، كما قِيل للمَهْلَكةِ مِن البلادِ: المفازَةُ، بمعنَى الفوزِ بالنَّجاةِ منها والسَّلامةِ؛ وكما قِيل لِلَّديغِ: السَّليمُ؛ تفاؤلًا له بالسَّلامةِ مِن الهلاكِ، وما أشبهَ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٩١)، ((تفسير الماوردي)) (٢/ ٣٥٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٤٦).

﴿بِوَكِيلٍ﴾: الوكيلُ: المانعُ والحافظُ والكفيلُ، ووكيلُ الرجلِ في مالِه هو الذي كفَله له، وقام به، والتوكُّلُ يُقال على وجهين، يُقال: توكَّلتُ لفلانٍ بمعنى: توليتُ له، ويُقال: وكلتُه فتوكَّل لي، وتوكلتُ عليه بمعنًى: اعتمدتُه، وأصلُ (وكل): يدلُّ على اعتمادِ غيرِك في أمرِك[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالَى: قُل- يا مُحمَّدُ- لهؤلاء النَّاسِ: إن كُنتُم في شَكٍّ مِن صِحَّةِ ديني الذي دَعَوتُكم إليه، وهو الإسلامُ، فإنِّي لا أعبدُ في حالٍ مِن الأحوالِ أحدًا من الذين تَعبدونَهم ممَّا اتَّخذتُم مِن الأصنامِ والأوثانِ، ولكِنْ أعبدُ اللهَ وَحْدَه الذي يُميتُكم، وأمرني الله عزَّ وجلَّ أن أكونَ مِن المؤمنينَ. وأمَرني بقولِه: أقِمْ- أيُّها الرَّسولُ- نَفسَك على دينِ الإسلامِ مُستقيمًا عليه، غيرَ مائلٍ عنه، ولا تكونَنَّ ممَّن يُشرِكُ في عبادةِ رَبِّه الآلهةَ والأندادَ، فتكونَ مِن الهالكينَ، ولا تعبُدْ مِن دونِ الله شيئًا من الأوثانِ والأصنامِ وغيرِها؛ لأنَّها لا تنفَعُ ولا تضُرُّ، فإن فعَلْتَ ذلك وعبَدْتَها مِن دونِ اللهِ، فإنَّك إذًا من الظَّالِمينَ لأنفُسِهم بالشِّركِ، وإن يُصِبْك اللهُ- أيُّها الرَّسولُ- بشدَّةٍ أو بلاءٍ، فلا كاشِفَ لذلك إلَّا هو جلَّ وعلا، وإن يُرِدْك برَخاءٍ أو نعمةٍ، فلا يمنَعُه عنك أحدٌ، يصيبُ اللهُ عزَّ وجلَّ بالسَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ مَن يشاءُ مِن عبادِه، وهو الغَفورُ لذنوبِ مَن تاب، الرَّحيمُ بمن آمنَ به وأطاعه، وقل- أيُّها الرَّسولُ- للنَّاسِ: قد جاءكم القرآنُ الذي فيه بيانُ هِدايتِكم، فمَن اهتدى بهذا القرآنِ، فإنَّما ثَمرةُ عَمَلِه راجعةٌ إليه، ومَن انحرَفَ عن القرآنِ، وأصرَّ على الضَّلالِ، فإنَّما ضلالُه وضرَرُه على نفسِه، وما أنا بمسلَّطٍ عليكم

---

[1] يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨، ٣١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٦).

حتى تكونوا مؤمنينَ، ولا بحفيظٍ عليكم حتى أحفظَ أعمالَكم وأحاسِبَكم عليها، واتَّبِع وحيَ اللهِ الذي يُوحيه إليك، فاعمَلْ به، واصبِرْ على طاعةِ الله تعالى، وعلى أذى مَن آذاك في تبليغِ رِسالتِه، حتى يقضيَ اللهُ بينك وبينهم، وهو عزَّ وجَلَّ خيرُ الحاكِمينَ؛ فإنَّ حُكمَه مُشتَمِلٌ على العَدلِ التَّامِّ.

تَفسيرُ الآيات:

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى الدَّلائِلَ على أقصى الغاياتِ، وأبلَغِ النِّهاياتِ، أمرَ رَسولَه بإظهارِ دِينِه، وبإظهارِ المُبايَنةِ عن المُشرِكينَ؛ لكي تزولَ الشُّكوكُ والشُّبُهاتُ في أمرِه، وتخرُجَ عبادةُ اللهِ مِن طريقةِ السِّرِّ إلى الإظهارِ⁽¹⁾.

وأيضًا لَمَّا تقَدَّمَ الفِطامُ عن الميلِ لِمن يطلُبُ الآياتِ، وكان طلَبُهم لها إنَّما هو على وجهِ الشَّكِّ، وإن لم يكُن على ذلك الوجهِ، فإنَّه فِعلُ الشَّاكِّ غالبًا، وتقَدَّمَت أجوبةٌ لهم، وخُتِمَ ذلك بتَهديدِهم وبشارةِ المُؤمِنينَ المُوجبة لثباتِهم- ناسَبَه كلَّ المُناسَبةِ أن أُتبِعَ الأمرُ بجوابٍ آخَرَ دالٍّ على ثباتِه صلَّى الله عليه وسلَّم، وأنَّه مُظهِرٌ دِينَه، رَضِيَ مَن رَضِيَ، وسَخِطَ مَن سَخِطَ⁽²⁾.

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٠٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢١٥).

أي: قُلْ - يا مُحمَّدُ -: يا أيُّها النَّاسُ(١)، إن كُنتُم في شَكٍّ مِن صِحَّةِ دِينِ الإسلامِ الذي أدعوكم إليه، فإنِّي لا أعبدُ الذين تَعبُدونَ مِن دونِ اللهِ، مِن الأصنامِ والأوثانِ وغَيرِها من المخلوقاتِ التي لا تستحِقُّ العبادةَ(٢).

﴿ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ﴾.

أي: ولكنْ أعبدُ اللهَ الذي يُميتُكم ويَقبِضُ أرواحَكم، ثمَّ يَبعَثُكم وإليه مَرجِعُكم؛ لِيُجازيَكم بأعمالِكم، فهو وَحْدَه المُستحِقُّ للعبادةِ(٣).

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

أي: وأمَرَني اللهُ أن أكونَ مِن جملةِ المُؤمنينَ المصدِّقينَ بما أوحَى إليَّ، الموعودينَ بالنَّجاةِ مِن العذابِ، والنصرِ على أعدائهم وأعدائِه(٤).

---

(١) ذهَب ابنُ جريرٍ إلى أنَّ المرادَ بالنَّاس هنا: مُشرِكو قريش. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠٣).
وذهب ابن عطيَّة إلى أنَّها مُخاطَبةٌ عامَّةٌ للنَّاسِ أجمعينَ إلى يوم القيامةِ، يدخلُ تحتَها كلُّ مَن اتَّصَف بالشَّكِّ في دينِ الإسلامِ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢٩٩، ٣٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٥).
قال ابن جرير: (وهذا تعريضٌ ولَحنٌ مِن الكلامِ لَطيفٌ، وإنَّما معنى الكلامِ: ﴿إِنْ كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي﴾ لا ينبغي لكم أن تشُكُّوا فيه، وإنَّما ينبغي لكم أن تشُكُّوا في الذي أنتم عليه من عبادةِ الأصنامِ التي لا تعقِلُ شيئًا، ولا تضُرُّ ولا تنفَعُ، فأمَّا ديني فلا ينبغي لكم أن تشُكُّوا فيه؛ لأني أعبدُ اللهَ الذي يقبِضُ الخَلقَ فيُميتُهم إذا شاء، وينفَعُهم ويضُرُّهم إذا شاء؛ وذلك أنَّ عبادةَ من كان كذلك لا يستَنكِرُها ذو فطرةٍ صَحيحةٍ، وأمَّا عبادةُ الأوثانِ فيُنكِرُها كلُّ ذي لُبٍّ وعَقلٍ صَحيحٍ). ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠٣-٣٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٤٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٩٩).

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١-١٦٣].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٩١].

﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾.

أي: وأمَرَني اللهُ بقَولِه: أقِمْ نفسَك على دينِ الإسلام، واستَقِمْ عليه مُخلِصًا لله وَحدَه، مائلًا عن كلِّ دينٍ سواه[1].

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

أي: ولا تكونَنَّ- يا محمَّدُ- من المُشرِكينَ في عبادةِ اللهِ، لا في حالِهم ولا عقائِدِهم، ولا أعمالِهم[2].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥-٦٦].

---

[1] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨٧، ٣٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٠)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٠٣).

[2] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٥).

﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا نهى النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن الشِّركِ، أكَّدَه بما هو كالتَّعليلِ له بِقَولِه[1]:

﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾.

أي: ولا تَعبُدْ- يا مُحمَّدُ- مِن دونِ اللهِ مِن الأصنامِ وغَيرِها ما لا ينفَعُك إن عبَدْتَه، ولا يضُرُّك إن عصَيتَه[2].

﴿ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

أي: فإنْ عَبدتَ غَيرَ اللهِ، فإنَّك- يا محمَّدُ- من الظَّالِمينَ لأنفُسِهم بالشِّركِ، الواضعينَ العبادةَ في غيرِ مَوضِعِها[3].

﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن الله تعالى في الآيةِ الأولى في صفةِ الأصنامِ أنَّها لا تضُرُّ ولا تنفَعُ؛ بيَّن في هذه الآيةِ أنَّها لا تَقدِرُ أيضًا على دَفعِ الضَّرَرِ الواصلِ مِن الغَيرِ، وعلى

---

[1] يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢١٧).

[2] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٥).

[3] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٥).

الخيرِ الواصلِ مِن الغَيرِ⁽¹⁾، وذكَر أنَّ الحَولَ والقُوَّةَ والنَّفعَ والضُّرَّ، ليس ذلك إلَّا لله، وأنَّه تعالى هو المُنفَرِدُ بذلك⁽²⁾.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾.

أي: وإن يُصِبْك اللهُ- يا مُحمَّدُ- بشدَّةٍ وبلاءٍ- كمَرَضٍ أو فقرٍ- فلا يَكشِفُه عنك ويَرفَعُه إلَّا اللهُ وَحدَه المُستَحِقُّ للعبادةِ⁽³⁾.

كما قال سُبحانه: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ [الزمر: ٣٨].

﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾.

أي: وإنْ يُرِدِ اللهُ لك الخيرَ- يا محمَّدُ- فلا أحدَ مِن الخَلقِ يَقدِرُ على ردِّ فَضلِه وإحسانِه⁽⁴⁾.

كما قال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٢].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((كنتُ خَلفَ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يومًا، فقال: يا غُلامُ، إنِّي أعَلِّمُك كَلِماتٍ: احفَظِ اللهَ يَحفَظْك، احفَظِ اللهَ تَجِدْه تُجاهَك، إذا سألتَ فاسألِ اللهَ، وإذا استعَنْتَ فاستعِنْ بالله، واعلَمْ أنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨٨)، ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٥/ ٢٣٦)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٥٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٥).

الأمَّةَ لو اجتمَعَت على أن ينفَعوك بشَيءٍ، لم ينفَعوك إلَّا بشَيءٍ قد كتَبَه الله لك، ولو اجتَمَعوا على أن يضُرُّوك بشَيءٍ، لم يضُرُّوك إلَّا بشيءٍ قد كتَبَه اللهُ عليك، رُفِعَت الأقلامُ، وجَفَّت الصُّحُف))⁽¹⁾.

﴿ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾.

أي: يُصيبُ اللهُ بالضُّرِّ والخيرِ من يَشاءُ مِن عبادِه⁽²⁾.

﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

أي: وهو الغَفورُ لذُنوبِ عِبادِه التَّائبين، الرَّحيمُ بالمؤمنينَ⁽³⁾.

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (١٠٨) ﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، وأحمد (٢٦٦٩)، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (٥٤١٧).
صحَّحه الترمذيُّ، وحسَّنه ابنُ رجبٍ في ((جامع العلوم والحكم)) (١/ ٤٥٩)، وابنُ حجرٍ في ((موافقة الخبر الخبر)) (١/ ٣٢٧)، وصحَّح إسناده أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٤/ ٢٣٣)، وصحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح الترمذي)) (٢٥١٦)، وابنُ بازٍ في ((مجموع فتاوى ابن باز)) (١/ ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨٨)، ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٦٨).
وممن ذهب إلى أنَّ الضميرَ في (به) يعودُ إلى الضرِّ والخيرِ: ابنُ جريرٍ والقرطبي والخازنُ. يُنظر: ((المصادر السابقة)).
وممن ذهَب إلى أنَّه يعودُ إلى الخيرِ: الشوكاني، ومحمد رشيد رضا، والسعدي. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٤٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٤٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ١٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨٨).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كَثُرَت في هذه السُّورةِ الأوامِرُ والنَّواهي والأجوبةُ بسبَبِ ما يقتَرِحونَه على وجهِ التعَنُّت، وخُتِمَ بأنَّ من دعا غيرَه كان راسخًا في الظُّلم، لا مُجيرَ له منه؛ ختَم ذلك بجوابٍ مُعلِمٍ بأنَّ فائدةَ الطَّاعةِ ليست راجعةً إلَّا إليهم، وضرَرَ النُّفورِ ليس عائدًا إلَّا عليهم(١).

وأيضًا فإنَّه لَمَّا قرَّرَ تعالى الدَّلائِلَ المذكورةَ في التوحيدِ والنبوَّةِ والمعادِ، وزَيَّنَ أمرَ هذه السُّورةِ بهذه البياناتِ الدَّالَّةِ على كونه تعالى مُبتَدئًا بالخَلقِ والإبداعِ، والتَّكوينِ والاختراعِ- ختَمَها بهذه الخاتمةِ الشَّريفةِ العاليةِ؛ لئلَّا يبقى لأحدٍ عُذرٌ(٢).

﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ﴾.

أي: قُل- يا محمَّدُ- لجميعِ النَّاس: يا أيُّها النَّاسُ، قد أتاكم الحَقُّ المبينُ الذي لا مِريةَ فيه ولا شَكَّ، وهو القُرآنُ الذي نزَلَ مِن عند رَبِّكم، فيه بيانُ دِينِكم، وصَلاحُ أحوالِكم(٣).

﴿ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٠٨).

قال ابن عاشور: (الخطابُ لجَميعِ النَّاسِ مِن مؤمنٍ وكافرٍ، والمقصودُ منه ابتداءً المُشرِكون؛ ولذلك أطيلَ الكلامُ في شأنِهم، وقد ذُكِرَ معهم من اهتدى تشريفًا لهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٠٨).

أي: فمَن اهتَدى بهذا القرآنِ واتَّبعه، فإنَّما ينفَعُ نَفسَه⁽¹⁾.

﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾.

أي: ومن ضلَّ عن القرآنِ فخالفَ طريقَ الحَقِّ، فإنَّما يضرُّ نفسَه⁽²⁾.

﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾.

أي: وقُلْ- يا محمَّدُ- للنَّاسِ: وما أنا بمسَلَّطٍ عليكم، وقاهرٍ لكم حتى تُؤمِنوا، ولا بحفيظٍ عليكم حتى أحفظَ أعمالَكم وأحاسِبَكم عليها⁽³⁾.

كما قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ [الأنعام: ١٠٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ [الزمر: ٤١].

﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان أكثَرُ ما ذُكِرَ وعظًا لهم وتذكيرًا؛ ختَمَه الله تعالى بأمرِه صلَّى اللهُ عليه

---

(1) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠٥، ٣٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٥).

(2) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٥).

(3) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨٩)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٠٩).

وسلَّم بما يفعَلُه في خاصَّةِ نَفسِه، أجابوا أو لم يُجيبوا[١]، فقال تعالى:

﴿ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ ﴾.

أي: واتَّبِعْ - يا محمَّدُ - ما أوحَى اللهُ إليك من القرآنِ، فصدِّقْ بأخبارِه، واعمَلْ بأحكامِه[٢].

﴿ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ ﴾.

أي: واصبِرْ على التمسُّكِ بما يُوحَى إليك، وعلى أذى المُشرِكينَ، حتَّى يقضيَ اللهُ بينك وبينهم[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ * فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٨-٧٩].

﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴾.

أي: واللهُ خيرُ الحاكِمينَ بالعدْلِ بين المُتَخاصِمينَ، فسيَحكُمُ بينك - يا محمَّدُ - وبين مَن خالَفوك[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٦٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣١٠).

قال السعدي: (وقد امتثَلَ صلَّى الله عليه وسلَّم أمرَ رَبِّه، وثبَتَ على الصِّراطِ المُستقيمِ، حتى =

الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١ - قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ فلا أحدَ ولا شيءَ يَرُدُّ فَضلَه تعالى الذي تتعَلَّقُ به إرادتُه، فما شاء كان حتمًا، فلا ينبغي لأحدٍ أن يرجوَ الخَيرَ والنَّفعَ إلَّا مِن فَضلِه، ولا أن يخاف رَدَّ ما يريدُه له من أحدٍ غَيرِه(١).

٢ - قال الله تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ أعلَمَت هذه الآيةُ أنَّ من اتَّبَعَ الوَحيَ ابتُليَ بما ينبغي الصَّبرُ عليه، وأفهَمَت أنَّ من كان له أشدَّ اتباعًا، كان أشَدَّ بلاءً(٢).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١ - قَولُ الله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ﴾ فيه سؤالٌ: كيف قال ﴿فِي شَكٍّ﴾ وهم كفَّارٌ يَعتَقِدونَ بُطلانَ ما جاء به؟

الجوابُ: أنَّه كان فيهم شاكُّونَ، أو أنَّهم لَمَّا رأَوُا الآياتِ اضطَربوا، وشَكُّوا في أمرِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم(٣).

٢ - قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه سؤالٌ: ما الحكمةُ في ذِكرِ المَعبودِ الحَقِّ في هذا المقامِ بهذه الصِّفةِ، وهي قولُه: ﴿الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾؟ **الجواب** مِن وجوهٍ:

= أظهَرَ الله دينَه على سائرِ الأديانِ، ونصَرَه على أعدائِه بالسَّيفِ والسِّنانِ، بعدما نصَرَه اللهُ عليهم، بالحجَّة والبُرهان). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٧٥).

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٤٠١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٤٠).

الأول: أنَّه إنَّما خُصَّ التَّوفِّي هاهنا بالذِّكرِ دونَ الإحياءِ؛ لأنَّه يتضمَّنُ تهديدًا لهم؛ لأنَّ وفاةَ المُشرِكينَ ميعادُ عذابِهم⁽¹⁾.

الثاني: لِمَا فيها مِن الدَّلالةِ على كمالِ التَّصرُّفِ في المخلوقِ؛ فإنَّ المشرِكين لم يَبلُغْ بهم الإشراكُ إلى ادِّعاءِ أنَّ الأصنامَ تُحْيي وتُميتُ⁽²⁾.

الثالث: يحتملُ أن يكونَ المرادُ: أنِّي أعبُدُ اللهَ الذي خلَقَكم أوَّلًا ثم يتوفَّاكم ثانيًا، ثمَّ يُعيدكم ثالثًا، فاكتفى بذِكرِ التوفِّي منها؛ لِكَونِه منبِّهًا على البَواقي.

الرابع: أنَّ الموتَ أشَدُّ الأشياءِ مَهابةً، فخُصَّ هذا الوصفُ بالذِّكرِ في هذا المقامِ؛ لِيَكونَ أقوى في الزَّجرِ والرَّدعِ.

الخامس: أنَّهم لَمَّا استعجَلوا نزولَ العذابِ قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ * ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ فهذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّه تعالى يُهلِكُ أولئك الكُفَّارَ، ويُبقي المؤمنينَ، ويُقَوِّي دولتَهم، فلمَّا كان قريبَ العَهدِ بذِكرِ هذا الكلامِ؛ لا جرَمَ قال هاهنا: ﴿وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾ وهو إشارةٌ إلى ما قَرَّره وبيَّنَه في تلك الآيةِ، كأنَّه يقولُ: أعبدُ ذلك الذي وعَدَني بإهلاكِهم وبإبقائي⁽³⁾.

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ اختيرَ في الآيةِ الثَّانيةِ صِيغةُ الطَّلَبِ وفيما قَبلَه الخَبَرُ؛ ذلك بأنَّ الخَبَر هو المناسِبُ لعلاقةِ هذا الأمرِ بالماضي، وهو أن يكونَ مِن جماعةِ المؤمنينَ المَوعودينَ بما تقدَّمَ من

---

(1) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٣٢).

(2) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٠١).

(3) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٠٨).

سنَّةِ الله في النبيِّينَ، والطَّلَبُ هو المناسِبُ لعَلاقتِه هو وما عُطِفَ عليه مِن النَّهيِ بالحالِ والاستقبالِ، من دعوةِ هذا الدِّينِ المُوجَّهةِ إلى أهلِ مَكَّةَ وسائرِ النَّاسِ(١).

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ تحوَّلَ السِّياقُ من الحكايةِ إلى الأمرِ المُباشِرِ، كأنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يتلقَّاه في مَشهَدٍ حاضرٍ للجَميعِ، وهذا أقوى وأعمَقُ تأثيرًا(٢).

٥- قَولُه تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ نهيٌ عن الإشراكِ على التَّصريحِ؛ لتأكيدِ التَّحذيرِ والذَّمِّ لأهلِه؛ لأنَّه إذا قيل: لا تكُنْ منهم، اقتضى أنَّهم على نهايةِ الخِزيِ والمَقتِ(٣).

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ المقصودُ مِن هذا الفَرضِ: تنبيهُ النَّاسِ على فظاعةِ عِظَمِ هذا الفِعلِ، حتى لو فعَلَه أشرفُ المَخلوقينَ، لكان من الظَّالِمينَ(٤).

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ فيه سؤالٌ: لمَ ذُكِرَ المَسُّ في أحَدِهما، والإرادةُ في الثَّاني؟

الجوابُ: أنَّ للعُلَماءِ وجوهًا في تعليلِ ذلك:

الوجه الأول: أنَّه لَمَّا كان الضرُّ أمرًا وجوديًّا، لا جرمَ قال فيه: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ ولَمَّا كان الخيرُ قد يكونُ وجوديًّا، وقد يكون عَدميًّا؛ لا جرَمَ لم يُذكَرْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٣٩٩).

(٢) يُنظر: ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/ ١٨٢٥).

(٣) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٣٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٠٥).

لفظُ الإمساسِ فيه، بل قال: ﴿وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾⁽¹⁾.

الوجه الثاني: كأنَّه أراد أن يَذكُرَ الأمرينِ جَميعًا: الإرادةَ والإصابةَ في كلِّ واحدٍ مِن الضُّرِّ والخَيرِ، وأنَّه لا رادَّ لِما يُرِيدُه منهما، ولا مُزيلَ لِما يُصيبُ به منهما، فأوجز الكلامَ بأن ذكَرَ المسَّ وهو الإصابةُ في أحَدِهما، والإرادةَ في الآخرِ؛ ليدُلَّ بما ذُكِرَ على ما تُرِكَ، على أنَّه قد ذكَرَ الإصابةَ بالخَيرِ في قَولِه تعالى: ﴿يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾⁽²⁾.

الوجه الثالث: أنَّه عبَّرَ بالمسِّ في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ لأنَّه أخوَفُ.

الوجه الرابع: أنَّه عبَّرَ بالإرادةِ في الخيرِ، وبالمسِّ في الضُّرِّ؛ تنبيهًا على أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مرادٌ بالخَيرِ بالذَّاتِ، وبالضُّرِّ بالعَرَضِ تطييبًا لقَلبه⁽³⁾.

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ دالٌّ على أنَّ الضُّرَّ والخيرَ واقعانِ بقُدرةِ الله تعالى وبقَضائِه، فيدخلُ فيه الكفرُ والإيمانُ والطاعةُ والعِصيانُ، والسُّرورُ والآفاتُ، والخيراتُ والآلامُ، واللَّذَّاتُ والرَّاحاتُ والجِراحاتُ، فبيَّن سُبحانه وتعالى أنَّه إن قضى لأحدٍ شرًّا، فلا كاشِفَ له إلَّا هو، وإن قضى لأحدٍ خَيرًا فلا رادَّ لِفَضلِه البتَّةَ⁽⁴⁾.

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ فيه دَقيقةٌ، وهي أنَّه تعالى رجَّحَ جانِبَ الخَيرِ على جانِبِ الشَّرِّ، وذلك من أوجهٍ، منها:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٧٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢١٨-٢١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣١٠).

الأول: أنَّه تعالى لَمَّا ذكر إمساسَ الضُّرِّ، بيَّنَ أنَّه لا كاشِفَ له إلَّا هو، وذلك يدُلُّ على أنَّه تعالى يُزيلُ المَضارَّ؛ لأنَّ الاستثناءَ مِن النَّفيِ إثباتٌ، ولَمَّا ذكَرَ الخَيرَ لم يَقُلْ بأنَّه يَدفَعُه بل قال إنَّه: ﴿لَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾، وذلك يدلُّ على أنَّ الخيرَ مَطلوبٌ بالذَّاتِ، وأنَّ الشَّرَّ مطلوبٌ بالعَرَضِ.

الثاني: أنَّه قال: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ وهذا أيضًا يدُلُّ على قوَّةِ جانبِ الرَّحمةِ(١).

١٠- التقديمُ في اللفظِ يدلُّ على زيادةِ العنايةِ، فقولُه: ﴿وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ يدلُّ على أنَّ المقصودَ هو الإنسانُ، وسائرُ الخيراتِ مخلوقةٌ لأجلِه، فهذه الدقيقةُ لا تُستفادُ إلا مِن هذا التركيبِ(٢).

١١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ سمَّى الخيرَ فَضلًا؛ إشعارًا بأنَّ الخُيورَ من الله تعالى، هي صادرةٌ على سبيلِ الفَضلِ والإحسانِ والتفَضُّلِ(٣).

بلاغة الآيات:

١- قَولُه تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

- قولُه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ فيه إيثارُ الخطابِ باسْمِ الجنسِ مُصدَّرًا بحرفِ التَّنبيهِ؛ تَعميمًا للتَّبليغِ، وإظهارًا لكمالِ العنايةِ بشأنِ ما بُلِّغ إليهم(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣١٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٧٩).

- قولُه: ﴿فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾، فيه الجمعُ بينَ نفيِ أن يَعبُدَ الأصنامَ وبين إثباتِ أنَّه يَعبُدُ اللهَ، وهو يقومُ مَقامَ صيغةِ القصرِ لو قال: فلا أَعبُدُ إلَّا اللهَ؛ ووجهُ العدولِ عن صيغةِ القصرِ: أنَّ شأنَها أن يُطْوَى فيها الطَّرَفُ المنفيُّ للاستغناءِ عنه بالطَّرَفِ المثبَتِ؛ لأنَّه المقصودُ، وذلك حين يكونُ الغرضُ الأصليُّ هو طرَفَ الإثباتِ، فأمَّا إذا كان طرَفُ النَّفيِ هو الأهمَّ كما هنا، وهو إبطالُ عبادةِ الأصنامِ أوَّلًا؛ عَدَل عن صيغةِ القصرِ إلى ذِكْرِ صيغتَيْ نفيٍ وإثباتٍ؛ فهو إطنابٌ اقتَضاه المقامُ⁽¹⁾.

- وعُومِلَت الأصنامُ مُعاملةَ العُقلاءِ، فأُطلِقَ عليها اسمُ الموصولِ ﴿الَّذِينَ﴾ الَّذي لجماعةِ العقلاءِ؛ مُجاراةً لِما يَعتقِدونه فيها مِن العقلِ والتَّدبيرِ⁽²⁾.

- وتقديمُ تركِ عبادةِ الغيرِ على عبادته تعالى في قولِه: ﴿فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ﴾؛ لتقدُّمِ التخليةِ على التحليةِ، كما في كلمةِ التَّوحيدِ، وللإيذانِ بالمخالفةِ مِن أوَّلِ الأمرِ⁽³⁾.

- قولُه تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه جعلُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم مِن جملةِ المؤمنين؛ تشريفًا لهذا الجمعِ، وتنويهًا به⁽⁴⁾.

- وفي قولِه تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ مناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال اللهُ تعالى هنا: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وقال في سورةِ النَّمل: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٩١]، فاختُصَّ هذا المكانُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٠١-٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٣٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٠٢).

بـ(المؤمنين)، واختُصَّ آخِرُ سورةِ النَّملِ بـ(المسلمين)؛ ووجهُ ذلك: أنَّ قبل هذه الآيةِ في سورةِ يونسَ قولَه تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٣]، فقال بعدَه: وأُمِرتُ أن أكونَ مِنهم. وأمَّا في سورةِ النَّملِ فإنَّ قبلَ هذه الآيةِ مِنها: ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [النمل: ٨١]، فكأنَّه قال: وأُمِرتُ أن أكونَ ممَّن إذا سَمِع بآياتِه آمَن بها، وكان مِن المسلِمين الَّذين مُدِحوا بأنَّ النَّبيَّ يُسمِعُهم؛ إذْ يَنتفِعون بما يَسمَعونه منه، فلمَّا تقاربَتِ اللَّفظَتان وكانَتا تُستعمَلان لمعنًى واحدٍ، حُمِلَت كلُّ واحدةٍ مِنهما على اللَّفظِ الَّذي تَقدَّمها ولاءَمها(١).

وأيضًا لأنَّ آيةَ سورةِ يونسَ قد ورَد قبلَها قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [يونس: ٩٩، ١٠٠]، وبعدَ هذا: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]، وبعدَ هذا: ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٣]، وبعدَ هذا الآيةُ المذكورةُ مِن قولِه: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٤]، وتناسُبُ هذا كلِّه ظاهرٌ، ثمَّ إنَّ ما تقدَّم قبلَ آيةِ يونُسَ مِن تَكرارِ اسمِ الإيمانِ لم يَكُنْ لِيُلائِمَه إطلاقُ اسمِ الإسلامِ؛ لأنَّ رُتبةَ الإيمانِ فوق رُتبةِ الإسلامِ، ومَقامَه أعلى، وهذا على إطلاقِ كلِّ واحدٍ مِن الاسمَينِ على مُسمَّاه لغةً، وعلى رَعْيِ التَّفصيلِ، فكأنْ يكونَ عَكْسَ التَّرقِّي إلى الأعلى أبَدًا، فلا يُمكِنُ في آيةِ يونُسَ إلَّا ما ورَدَت عليه.

أمَّا آيةُ النَّملِ فإنَّ قبلَها قولَه: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٧٤٨-٧٤٩)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٤٢-١٤٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٥٥) .

حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٩١]، وقولُه: ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ يقتَضي تسليمَ كلِّ شيءٍ له، والتَّبرِّيَ مِن توهُّمِ شَريكٍ أو نظيرٍ؛ فناسبَ هذا قولَه: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٩١]، وجاء كلٌّ على ما يَجِبُ(١).

٢- قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ اللَّامُ في ﴿لِلدِّينِ﴾ للعلَّةِ، أي: لأجلِ الدِّينِ، وهو كنايةٌ عن توجيهِ نفْسِه بأَسْرِها لأجلِ ما أمَره اللهُ به مِن التَّبليغِ، وإرشادِ الأمَّةِ وإصلاحِها(٢).

- قولُه: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ نهيٌ مؤكِّدٌ لمعنى الأمرِ الَّذي قَبْلَه ﴿أَقِمْ﴾، وتأكيدُ الفعلِ المنهيِّ عنه بنونِ التَّوكيدِ؛ للمُبالَغةِ في النَّهيِ عنه؛ اعتِناءً بالتَّبرُّؤِ مِن الشِّركِ(٣).

٣- قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾

- قوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ تأكيدٌ للنَّهيِ المذكورِ: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، وتفصيلٌ لما أُجمِلَ فيه؛ إظهارًا لكمالِ العنايةِ بالأمرِ، وكشفًا عن وجهِ بُطلانِ ما عليه المشركون(٤).

- قولُه: ﴿فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ تفريعٌ على النَّهيَينِ: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، ﴿وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّه لا مَعذِرَةَ لِمَن يَأتي ما نُهي عنه بعدَ أن أُكِّد نهيُه، وبُيِّنَت عِلَّتُه،

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢٥٠-٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٧٩- ١٨٠).

فمَن فعَله فقد ظلَم نفسَه، واعتَدى على حقِّ ربِّه(١).

- قولُه: ﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾ مَعْناه: فإنْ دعَوتَ مِن دونِ اللهِ ما لا ينفَعُك ولا يضُرُّك؛ فكنَى بالفِعلِ عن الدُّعاءِ إيجازًا، وتنويهًا لشأنِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتنبيهًا على رِفْعةِ مَكانِه مِن أن يُنسَبَ إليه عبادةُ غيرِ اللهِ سبحانه، ولو في ضِمْنِ الجملةِ الشَّرطيَّةِ(٢).

- وفي قولِه: ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾ أكَّد الكَونَ مِنَ الظَّالِمين بـ(إنَّ)؛ لِزيادةِ التَّحذيرِ، وأُتِي بـ﴿إِذًا﴾؛ للإشارةِ إلى سؤالٍ مقدَّرٍ؛ كأنَّ سائلًا سأل: فَإن فعَلتُ فماذا يكونُ(٣)؟

٤- قولُه تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾

- مِن المناسبةِ الحسنةِ: أنَّه أتَى في الضُّرِّ بلَفظِ المسِّ، فقال: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ...﴾، وفي الخيرِ بلَفظِ الإرادةِ: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾، وطابَق بينَ الضُّرِّ والخيرِ مُطابَقةً معنويَّةً لا لفظيَّةً؛ لأنَّ مُقابِلَ الضُّرِّ النَّفْعَ، ومُقابِلَ الخيرِ الشَّرَّ؛ فجاءَت لفظةُ الضُّرِّ ألْطَفَ وأخَصَّ مِن لفظةِ الشَّرِّ، وجاءت لفظةُ الخيرِ أتَمَّ مِن لفظةِ النَّفعِ، ولفظةُ المسِّ أوجَزُ مِن لفظِ الإرادةِ، وأكثَرُ تَنصيصًا على الإصابةِ، وأنسَبُ لقولِه: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾، ولفظةُ الإرادةِ أدَلُّ على الحصولِ في وقتِ الخطابِ وفي غيرِه، وأنسَبُ لِلَفظِ الخيرِ، وإن كان المسُّ والإرادةُ مَعناهما الإصابةَ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٠٤- ٣٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١١٣).

- وأيضًا جاء جوابُ: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ﴾ بنفيٍ عامٍّ وإيجابٍ: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾، وجاء جوابُ: ﴿وَإِنْ يُرِدْكَ﴾ بنفيٍ عامٍّ: ﴿فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾؛ لأنَّ ما أراده لا يَرُدُّه رادٌّ لا هو ولا غيرُه؛ فلذلك لم يَجِئِ التَّركيبُ: فلا رادَّ له إلَّا هو، والمسُّ مِن حيث هو فِعلٌ صفةُ فعلٍ يوقِعُه ويَرفَعُه بخِلافِ الإرادةِ؛ فإنَّها صفةُ ذاتٍ⁽¹⁾.

- قولُه: ﴿وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾، الفضلُ: هو الخيرُ، وأوقَع الاسْمَ الظَّاهِرَ ﴿لِفَضْلِهِ﴾ موقِعَ الضَّميرِ- فلم يَقُلْ: فلا رادَّ له-؛ للدَّلالةِ على أنَّ الخيرَ الواصِلَ إلى النَّاسِ فضلٌ مِن اللهِ لا استِحْقاقَ لهم فيه؛ لأنَّهم عَبيدٌ له يُصيبُهم بما يَشاءُ⁽²⁾.

- وقولُه: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ تذييلٌ لقولِه تعالى: ﴿يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ مقرِّرٌ لمضمونِه، والكلُّ- أي قولُه: ﴿يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾- تذييلٌ للشَّرطيَّةِ الأخيرةِ: ﴿وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾، محقِّقٌ لمضمونِها⁽³⁾.

- ولَمَّا تقدَّم قولُه: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾، فأخَّر الضَّرَّ؛ ناسَب أن تَكونَ البَداءةُ بجُملةِ الشَّرطِ المتعلِّقةِ بالضُّرِّ، وأيضًا فإنَّه لَمَّا كان الكُفَّارُ يُتوقَّعُ منهم الضُّرُّ للمُؤمنين، والنَّفعُ لا يُرجَى مِنهُم، كان تقديمُ جملةِ الضُّرِّ آكَدَ في الإخبارِ، فبُدِئ بها⁽⁴⁾.

٥- قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١١٣، ١١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٠٦)، ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٢١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ١١٣).

فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾

- قولُه: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، فيه اختيارُ وصفِ الرَّبِّ المضافِ إلى ضميرِ النَّاسِ على اسمِ الجلالةِ؛ حيث قال: ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾، ولم يَقُلْ: (مِنَ اللهِ)؛ للتَّنبيهِ على أنَّه إرشادٌ مِن الَّذي يُحِبُّ صَلاحَ عِبادِه، ويَدْعوهم إلى ما فيه نَفعُهم شأنُ مَن يَرُبُّ، أي: يَسُوس ويُدبِّرُ⁽¹⁾.

- وفي وصْفِ الحقِّ بـ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾: تنويهٌ بأنَّه حقٌّ مُبينٌ، لا يَخلِطُه باطلٌ ولا رَيبٌ؛ فهو معصومٌ مِن ذلك⁽²⁾.

- وقولُه: ﴿فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ تفريعٌ على جملةِ: ﴿قَدْ جَاءَكُمُ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ مَجيءَ الحقِّ الواضِحِ يترتَّبُ عليه أنَّ اتِّباعَه غُنْمٌ لِمُتَّبِعِه، وليس مَزِيَّةً له على اللهِ؛ لِيُتوَصَّلَ مِن ذلك إلى أنَّ المعرِضَ عنه قد ظلَم نفْسَه، ورتَّب عليها تَبِعَةَ الإعراضِ⁽³⁾.

- قولُه: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ فيه الإتيانُ بالجملةِ الاسميَّةِ المنفيَّةِ؛ للدَّلالةِ على دَوامِ انتِفاءِ ذلك الحُكمِ، وثَباتِه في سائرِ الأحوالِ⁽⁴⁾.

- وفي قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ مناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث عبَّر هنا بقولِه: ﴿فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾، وقال في آخِرِ سورةِ النَّملِ: ﴿فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ [النمل: ٩٢]؛ ففي الأولى قال: ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾، وفي الثَّانيةِ: ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾؛ وهذا لأنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣٠٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٣٠٩).

الآيةَ الأولى في سورةِ يونسَ لَمَّا قال فيها: ﴿فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾، أي: منفعةُ اهتدائِه له، وهي دوامُ النِّعمةِ، والخلودُ في الجنَّةِ- اقتضَى هذا في الضَّلالِ ضدَّه، فقال: ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾، أي: ضررُ ضلالِه عليه، وهو دوامُ العقابِ بأليمِ العذابِ، ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾، ولا يَلزَمُني أن أقِيَكم ما لا تَقُونه أنفُسَكم، كالوكيلِ الَّذي يَلزَمُه حفظُ ما وُكِّل به ممَّا يَضُرُّه.

وأمَّا في الآيةِ الثَّانيةِ في آخرِ سورةِ النَّملِ فإنَّه عدَل بها عِندَ ذِكرِ الضَّلالِ عمَّا حُمِلَت عليه في الآيةِ التي في آخرِ سورةِ يونسَ؛ لِتُحمَلَ على الفواصلِ التي قَبلَها، وهي مختومةٌ بالواوِ والنُّونِ، أو الياءِ والنونِ، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ [النمل: ٩٢]، أي: ممَّن يُعلِمُكم ما يَلزَمُكم أن تَحذَروه، ويُخوِّفُكم ما يَجِب عليكم أن تَجتنِبوه؛ فاشتمَل هذا على معنى: ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾؛ لأنَّ في قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾، أي: لستُ ممَّن يُكرِهُ على ما يَحميكم مِن النَّارِ، ويَقيكم حرَّ العقابِ، كالوكيلِ الَّذي يُحامي على ما وُكِّل به أن يَنالَه ضررٌ، مثل: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾؛ فجاء على لفظِ: ﴿إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾؛ لتكونَ الفاصلةُ مُشاكِلةً للفواصلِ الَّتي قبلَها، مع تأديةِ مِثلِ المعنى الذي أدَّته الآيةُ التي شابَهَتْها(١).

- قولُه: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ﴾ فيه التَّعبيرُ بالمضارعِ ﴿يُوحَى﴾ على نَهجِ التَّجدُّدِ والاستمرارِ من الحقِّ المذكورِ المتأكِّدِ يومًا فيومًا، وفي التَّعبيرِ عن بُلوغِه إليهم بالمجيءِ ﴿قَدْ جَاءَكُمُ﴾، وإليه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالوحيِ ﴿يُوحَى إِلَيْكَ﴾: تنبيهٌ على ما بين المرتبتَينِ مِن التَّنائي(٢).

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٧٥٠-٧٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٤ / ١٨١).

- قولُه: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ ثناءٌ وتذييلٌ؛ لِما فيه مِن العموم، أي: وهو خيرُ الحاكِمين بينَ كلِّ خَصمَين في هذه القضيَّةِ وفي غيرِها، والتَّعريفُ في الحاكِمين للاستِغْراقِ بقَرينةِ التَّذييلِ⁽¹⁾.

تمَّ بحمدِ اللهِ المجلدُ التَّاسعُ

ويَليهِ المجلدُ العاشرُ، وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ هودٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٣١٠).

الفهرس